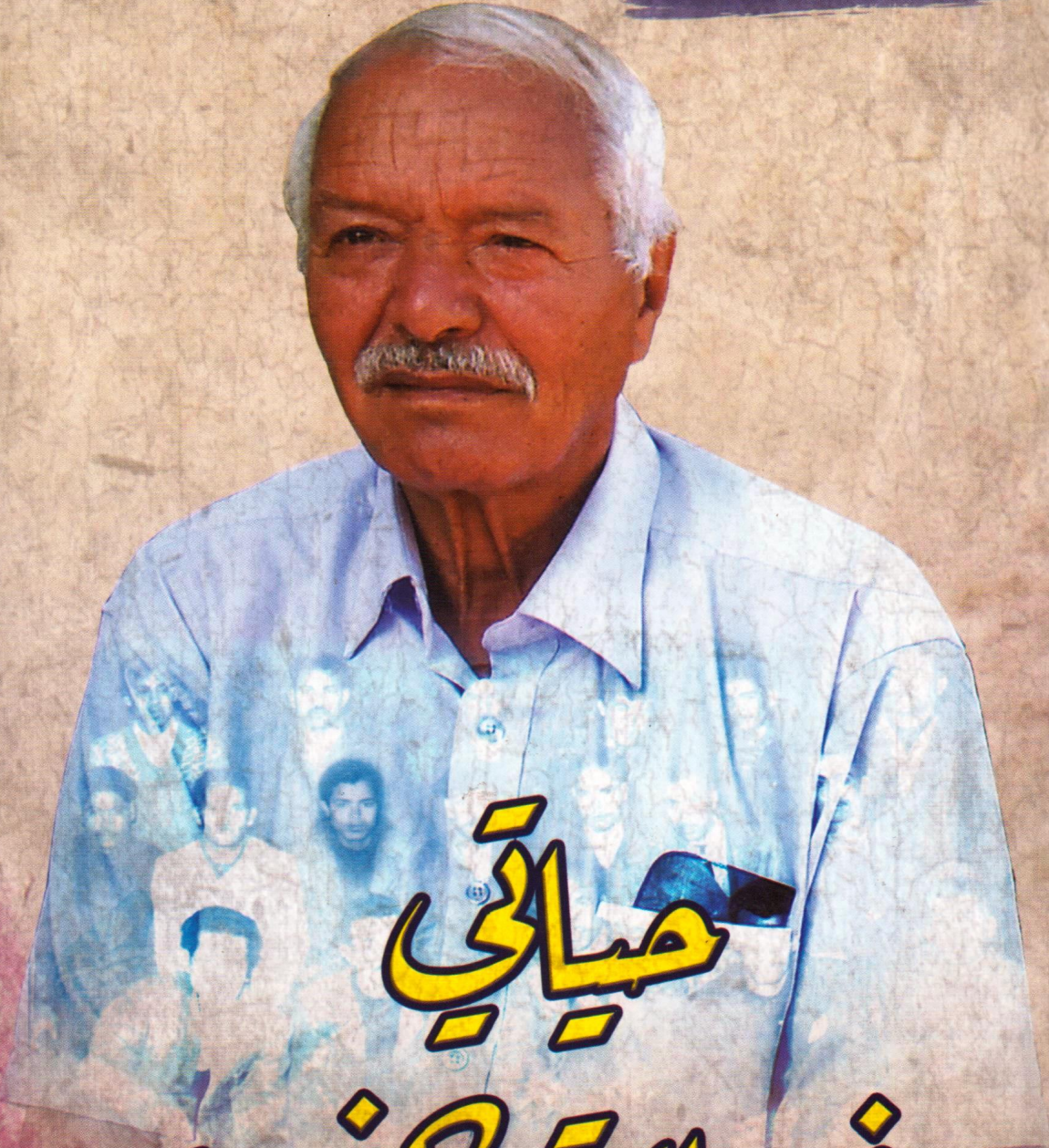


بشير خلف



# حياتي في دائرة الضوء

سيرة ذاتية



بشير خلف



حياتي

في راية الضوء  
سيرة ذاتية

# حياتي في راحة الضوء

سيرة ذاتية

المؤلف

بشير خلف

ردمك

978-9931-798-22-4

الإيداع القانوني

فيفري 2021

تصميم الغلاف:

كمال خزان

الطبعة الأولى



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تَوَاطُؤُة

إنَّ المسارَ الفكريَّ والإبداعيَّ لأيِّ كاتبٍ لا يختلف البتَّة عن مسارات الآخرين.. كلُّ شخصٍ سويٍّ في الكون له مسارٌ به تحدّدت عن طريقه كينونته، ومكانته، وأفعاله في الحياة؛ إلا أن مسارات العباقرة والمفكرين، والكتّاب تتعدّى فردانيتهم إلى الآخرين، وتنعكس عليهم، وفيهم؛ وإنني لا أرى اختلافًا جوهريًّا بين مسارات هؤلاء، وبين سيرهم الذاتية التي قد يروونها بأنفسهم، أو يخبرونها على الورق، وتيمّنها الصدق، والصراحة.

هل السيرة الذاتية حكّي استرجاعيٌّ نُثريٌّ، يتولّى كتابتها شخصٌ واقعيٌّ، مُركّزًا على وجوده الخاص، وحياته الفردية؟ كما يقول الباحث الفرنسي، والمرجع العالمي في دراسة السيرة الذاتية فيليب لوجون، إذ يُعرّف في نصه المرجعي (L'autobiographie) السيرة الذاتية بأنها سرْدٌ استيعادي نُثري يقوم به شخصٌ واقعيٌّ عن وجوده الخاص، حينما يركّز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة. ويفصّل لوجون تعريفه قائلاً:

«يعتمد هذا التحديد على عناصرٍ تتعلقُ بوضع المؤلف وتطابقه مع الراوي، وموقف الراوي، وتطابقه مع الشخصية الرئيسية، ومنظور النص: سرْدٌ استيعادي

نثري، والموضوع المعالج: حياة فرد، أو تاريخ شخصية. وعليه فالسيرة الذاتية تفترض التطابق الحقيقي بين شخصية المؤلف وشخصية الراوي.<sup>1</sup> «  
أم هي كل نصٌّ مكتوب، سواء أكان عملاً أدبياً أم دراسة فلسفية، يُعبّرُ من خلاله الكاتب عن حياته الفردية؟ أم أن السيرة الذاتية عملية إعادة بناء أدبية لحياة إنسان، يتولى نفسه القيام بها، أم أنها المسار الحيوي الذي عاشه الفرد الكاتب في سياقٍ تسلسليٍّ من التنوع الوجودي والحياتي المُختزن؟  
يقول الناقد والأديب الفلسطيني المرحوم إحسان عباس: «إن كاتب السيرة الذاتية قريبٌ إلى قلوب الناس، لأنه إنما كتب تلك السيرة من أجل أن يُوجد رابطة ما بينهم وبينه، متحدثاً عن دخائل نفسه، وتجارب حياته حديثاً يلقي آذاناً واعية، لأنه يثيرُ في الناس رغبة في الكشف عن عالم يجهلونه<sup>2</sup>.»  
ويضيف عباس: «كل سيرة إنما هي تجربة ذاتية لفرد من الأفراد، فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج، وأصبحت في نفس صاحبها نوعاً من القلق الفني فلا بدّ أن يكتبها».

إن أسْمى ما في السيرة الذاتية أنها ترسم حياة صاحبها، وتُكتب ليُعرفَ بها الإنسانُ نفسه، ويزداد منها قريباً؛ ويعرضها على القراء بطبيعة الحال من زاوية نظره هو، ويحاول في عرضه أن يكون أميناً صادقاً، ويتجرّد ما أمكن من العاطفة التي تشدّه؛ لأن ما نسّميه بـ"الأنا" ليس شيئاً واحداً، بل متعدداً، ليس كلاً منسجماً متجانساً، "الأنا" متغيّرة تبعاً للمتغيّرات المُختلفة التي تطرأ على الفرد

---

1 - أ. مسعود عمشوش. فن السيرة الذاتية. مجلة المعارف. 11 جانفي 2018. [www.mahaarat.com](http://www.mahaarat.com)

2 - أدب السيرة الذاتية.. ما له وما عليه. مجلة الوعي الإسلامي. سبتمبر 2011. العدد: 554

جسداً، أو نفساً، أو فكراً، أو ثقافة، أو اجتماعاً، أو معيشة. السيرة الذاتية بوعي كاتبها وتوحيه محاولة تعبير صادق تكشف عن تمفصلات مهمّة في مسار هذا الكاتب، أو ذاك، عن فترة، أو فترات من حياته الفكرية، ومسارات قلمه، أو الظروف التي رافقته إيجاباً، أو سلباً وساعدته في مسيرته على أن يتبوأ مكانه ككاتب، أو مبدع، أو تغطيةٍ لمساره الأدبي والفكري إلى حين تقاعده الإبداعي، وإن كنتُ أستبعد أن يتقاعد المبدع، أو الكاتب الحقّ.

ولعلّ التساؤل الذي قد يردُّ إلى ذهن القارئ: هل السيرة الذاتية يحكي فيها صاحبها عمّا مارسه في حياته في كلّ أطوارها من جميلٍ وقبيح، عمّا هو إمّم وما هو غير ذلك، عمّا هو مُباحٌ شرعاً، وما هو مُحرمٌ، عمّا هو مُمارَسٌ اجتماعياً، ومرفوضٌ أخلاقياً؛ باعتباره عضواً من الجماعة، وباعتباره فرداً له غرائزه، ونزعاته الخاصّة، وضعفه البشريُّ تجاه الغواية.

رأبي الشخصي، كما هو أيضاً ردٌّ عن التساؤل السابق: الاعتراف ممنوعٌ حتى إشعار آخر، هذا الإشعارُ قد يطول مؤعده، وقد يقصر سيّما في عالمنا العربي؛ ذلكم أنّ الاعتراف بالمفهوم الغربي الذي بدأه الفيلسوف الفرنسي "جان جاك روسو" كأدبٍ للاعتراف أن يكون بطعمٍ عربي، وجزائريّ خاصّة اليوم، يقتضي من صاحب السيرة ذلك الفعل الجريء، ولحظات من التردد والارتباك والحيرة، ترتعد فيها الأصابع وهي تخطُّ الجمل الأولى في رحلة استكشاف حقيقة الذات التي يُراد لها أن تتعرّى أمام الآخر. من هنا يغدو أدبُ الاعتراف مغامرة محفوفة بالقييل والقال؛ لأنه من المفروض في صاحبه أن يتميز بمنسوبٍ عالٍ من الجرأة والجسارة، وتسمية الأسماء بمُسمياتها الحقيقية، ما دامت وظيفة

فن الاعتراف، في الأصل كما تُقرُّها تقاليدُ المسيحية، تتمثلُ في التطهير عن طريق الاعتراف.

لذا أعتذر للقارئ الكريم، إذ أتي لا أخال نفسي، وأنا الإنسان ابن آدم "الخطيء" أتمتع بمنسوب عالٍ من الجسارة والشجاعة فأدلي بالكل، لأن القارئ نفسه الذي قد يتمتع باعترافاتي، ويمارس فضوله في تتبّع زلاتي لا يرحمني. حرصتُ في هذه السيرة أن أورد كلما أنقذتني به الذاكرة في مراحل مسيرتي الحياتية؛ إلا علاقتي بالسياسة التي كنتُ حذرًا منها منذ مرحلة الاستقلال حتى يومنا هذا، عملاً بلعنة المرحوم الكاتب المصري مصطفى لطفى المنفلوطي؛ وبالرغم من ذلك لم أسلم من شظاياها المُميتة في مرحلة سوداء، بل حمراء من تاريخ بلادي الجزائر المعاصر، شظايا مقبّية استقرت بداخلي إلى يوم الناس هذا، وقد كان في نيتي وأنا أنجز هذه السيرة الذاتية أن أخصص لها باباً مُنفرداً بعنوان: "أنا والسياسة"، لأخلص إلى أن مساحة هذا الكتاب لا تسمح بإضافة هذا الباب، فآثرتُ أن أفرد لها كتاباً خاصاً إن سمحت الظروف.

ما أرجوه من القارئ الكريم أن يعذّرني فيما قد يعثرُ عليه من أخطاء فكرية، تاريخية، لغوية، قواعدية، وغيرها؛ وفيما لم أذكره تحفظاً لعدّة دواعٍ اجتماعية، أخلاقية، وغيرها، فكما أسلفتُ إن الاعتراف بطعم عربيّ، وجزائريّ "ممنوعٌ حتى إشعارٍ آخر."

بشير خلف. قمار في: / /

## 1- " قمار " واحةُ النشأة.. إيقاع الذاكرة

أسوارٌ منيعةٌ استقبلت المولودَ الجديدَ: أن ترى النورَ والحربَ العالمية الثانية في أوج قُوَّتها، وجبروتها تدمر الأخضر واليابس، تزرع الموت في كل مكان في أوروبا، إفريقيا، آسيا، أن تلد في بلد حطَّ الاستعمار الفرنسي البشع بكلِّه عليه لأكثر من قرن وثلاث، قضى على كل مقومات الحياة فيه.. أن ترى النور في منطقة صحراوية فقيرة تحالفت عليها قساوة الطبيعة، مع بشاعة أبشع استعماريٍّ أوروبي.. أن تنزل إلى هذا العالم، وأنت تنتمي إلى عائلة فقيرة جدًا كالعائلات الشبيهة لها في قرية لا مورد لأهلها إلا ممارسة الفلاحة البسيطة، وفي صدارتها الدخان (التبغ)، الذي يبتاعه المستعمر بثمانٍ بخسٍ مثلما يستولي على تمور " دقلة نور " بثمانٍ بخسٍ لتصديرها إلى أوروبا، وتحديدًا فرنسا..

كلها، وغيرُها تشكِّل أسوارا منيعة أمام هذا القادم الجديد لينضمَّ إلى غيره ممَّن تتكوَّن منهم تلكم التركيبة السكانية القابعة في غياهب الجنوب الشرقي الجزائري، التي رافقها الفقر المدقع، وقساوة الطبيعة، وشُحُّ موارد الرزق، وسلب الحريَّات الفردية والجماعية، والتجنُّد المُستمرَّ في طمَس معالم الشخصية الروحية، والوطنية، ومحاربة القيم الفردية والاجتماعية، والحرص بدون هوادة على تفشي الجهل، والأمراض، وكل صور التخلف.. وفي صدارتها الفقر المدقع، فقد كان الناس يعيشون على هامش الحياة..

**رُبوع سُوفٍ .. رقصٌ على إيقاع الذاكرة:** "سُوف" منطقة صحراوية تقع في العِرْق الشرقي الجنوبي الجزائري على حدود البلاد التونسية الشقيقة، على بحرٍ لحيٍّ من الرمال الذهبية، عاصمتها الإدارية، والاقتصادية "الوادي" التي كانت تسمى قديما " اللبجة " أو " مناعة الهارب " سوف" وحدة بشرية سكانية صنعها الإنسان، هي بحق صنيع الإنسان، تعتمد أساسا على التجارة، وغراسة النخيل، وتربية الماشية. مساحتها تقدّر بـ 40.000 كلم، طولها يتجاوز 620 كلم من سطيل إلى غدامس، وعرضها 160 كلم. بالرغم من صعوبة طبيعتها ومناخها إلا أنّ الإنسان السوفيّ حوّل يابها إلى واحات نخيل غناء وعمارة فريدة من نوعها تُتَوَجَّه القبابُ حتّى سُمِّيتْ مدينة الوادي (مدينة الألف قبة). الانسان في هاته الربوع تمسك بالأرض لأنه هو الذي صنعها وطوّع طبيعتها لفائدته، حوّلها بعبقريته الرائعة، وذهنيته الفريدة إلى واحات نخيل أخاذة وعمارة ساحرة. وقع تزاوجٌ بين قساوة الطبيعة، وشجاعة الإنسان في هاته الربوع فأنجبا السوفيّ ورسمًا ملامحه، ونمط حياته، وتفكيره، والسّمات المميّزة له، وعمق تديّنه وحبّه لعقيدته وأرضه.

**قمار .. الفضاء المعطرُ بنكهة التاريخ:** أن ترى النور في بلدة "قمار" حاضرة رُبوع سُوفٍ في آخر منتصف الشهر السادس للسنة الأولى من عقد الأربعينات من القرن العشرين، البلدة الأولى التي تستقبل القادم من الشمال الجزائري إلى ربوع "سُوف". قمار بلدةٌ في واحات سوف، وهي البلدة الثانية أو الثالثة فيها من حيث النشأة. تقع قمار شمال الوادي على بعد أربعة عشر كم. على الطريق

الوطني الرابط بين وادي سوف وبسكرة. تبعد عن مدينة بسكرة بـ 206 كم. نشأت بلدة قمار القديمة في جزيرة صغيرة كوَّنها وادي سوف المنحدر جنوباً عندما يتفرع إلى فرعين. وقد دفنت الرمال اليوم فرعي الوادي؛ إلا أن السكان يعرفون آثار الفرعين من التربة، فإن كانت عند الحفر رملية هشة، فذاك دليل على مجرى الوادي المدفون، وإن كانت التربة صلبة، أو صخرية فذلك دليل على أنها تقع خارج مجرى الوادي. أما الآن فلا أثر لمياه الوادي على سطح الأرض.

توسعت بلدة قمار القديمة مع ازدياد عدد السكان، فخرج العمران إلى الأراضي الشاسعة من حولها. بلدة قمار منطقة عريقة ذات تاريخ ثري مليء بالأحداث، حيث مرّت بأحداث تاريخية متوالية حسب ما دار في فلكها من متغيرات، فكان لها التأثير، والتأثير رغم كونها بلدة صغيرة مترامية الأطراف في الجنوب الشرقي الجزائري؛ لم يتوان أهلها في الدفاع عن استقلاليتهم في مزاوله حياتهم اليومية بالرغم من قلة الموارد التي كانت سابقاً تعتمد على زراعة النخيل فحسب كمصدرٍ أساسيٍّ للعيش كباقي المناطق المجاورة؛ فما خضعوا لبني جلاب حاكم تقرت أيام باي قسنطينة للدولة العثمانية؛ وحُوصرت البلدة وما نجح الحصار. وكان للبلدة الشرف في تشييد النواة الأولى لأول زاوية تجانية في العالم بإذن الشيخ أحمد التجاني لما وجدته من محبة للعلم فيمن تعرّف عليهم من أهل قمار كالمعلم المهاجر محمد الساسي القماري؛ وبعد دخول المستعمر الفرنسي سنة 1854م المنطقة، بقي المجتمع القماري محافظاً على أسلوب حياته، وشخصيته؛ فكان التنوع يطغى على تقاليد الإسلاميه، مُجَبِّاً للتسامح، ومتقبلاً

للآخر بأريحية، إذ كان اليهود والمسيحيون يعيشون بسلام في البلدة وضواحيها، مشكّلين مع المجتمع القماري تنوعاً استثنائياً في حياةٍ سيطر عليها المستعمر الفرنسي بقوانينه، وطغيانه ضدّ هويّة مجتمع قماريّ مسلمٍ. رغم أن مدينة قمار لم تكن يوماً عاصمة سياسية إلا أنها كانت أكثر قرى سوف عرضة للأخطار لعدّة أسباب أبرزها<sup>1</sup>

- الأهمية الاقتصادية للمدينة التي تزايدت مع انتشار زراعة النخيل، وحفر الغيطان فيها فتحوّلت المدينة إلى سوقٍ رئيسةٍ بالمنطقة.

- الأهمية الدينية التي برزت بتأسيس الزاوية التيجانية بها منذ 1204هـ / 1789م فصارت مركزاً روحياً يؤمّه كلّ أتباع الطريقة من سكان المنطقة، أو من خارجها، و زاد بذلك دورها الاجتماعي.

- الموقع الاستراتيجي للمدينة في الجهة الشمالية الغربية لسوف، عند أهم طريقين حيويين:

1- أحدهما يأتي من جهة الغرب من إمارة بني جلاب بإقليم وادي ريغ، فكثيراً ما اعتبر سلاطين تفرّت أن سوف جزءاً تابعاً لمملكتهم، فحين تمتنع بعض القرى عن دفع الضرائب تتعرض لحملة عسكرية تأديبية أشهرها حملة الشيخ أحمد بن عمر بن محمد الجلابي 1776م / 1778م

---

1 - الأستاذ حسونة عبد العزيز. عمارة الحواضر في منطقة وادي سوف " مدينة قمار نموذجاً " مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية. جامعة ورقلة. عدد خاص 22 سنة 2015

2- وثانيهما يأتي من جهة الشمال من مملكة بن قانة بالزيان التي كانت تُحاول إخضاع منطقتي سُوف وريغ لبابلك الشرق، وكثيرا ما كانت بلاد سوف عرضة لهجمات مباغتة أحيانا من كلا الطرفين بني جلاب، أو بن قانة، وكانت قمار دائما الأولى في مواجهة هذه الأخطار.

قمار<sup>1</sup> واحة جميلة في ربوع سوف، عاصمة دينية، مدينة المساجد والزوايا، والعلم والعلماء، تحتلّ المرتبة الثانية بعد مدينة الوادي، سكّانها يمتازون بالنشاط والجدية، والحيوية، يعيشون على الفلاحة الصحراوية من نخيل، وتبغ، وفول سوداني، ومُختلف النباتات الموسمية، وعُرف سكّانها بحبهم للعلم والعلماء، كما عُرفوا بسرعة البديهة والذكاء.

قمار هي تلك المدينة التاريخية والعاصمة الدينية، وهي بقدر ما أضفى الخالق جلّت قدرته على ربوع سوف من جمال في الطبيعة إلا أنّ قمار مُنحتْ انبساط الأرض وسهولتها، وقرب الماء من السطح. هاته المدينة تحمل مواصفات المدن العربية، لها أبواب: الباب الغربي، الباب الشرقي، والبويبة، الباب الظهراوي... والأزقة المُغطّاة، وتراصّ المنازل المبنية أساسا بالمواد المحليّة: الجبس والحجارة (اللّوس، أو زهرة الرمال). هاته المنازل رغم تراصّها؛ إلاّ أنّه في كلّ بيت تُراعى الطبيعة الصحراوية والمناخ وتقلّبات الجوّ في الفصول، وظروف تخزين الطعام، وراحة الإنسان بعد العناء والكدح، ومقاومة الرمال، وعاديات الطبيعة. فاعتمدت القُبّة لتسقيف البيت لانكسار أشعة الشمس عليها، ومنعها

---

1 - الأستاذ ابن سالم بلهادف. دور الزاوية التجانية بقمار في نهضة سُوف والأمصار المجاورة. موقع: نفحات.

تُكديس الرمال، وانزلاق مياه الأمطار عليها، ومنحها هواءً إضافيًا لطيفا داخل الحجرات، والغُرف في البيت توزَّع لاستقبال أشعة الشمس والسماح بدوران الهواء في المساكن، وتخصَّص في كلِّ بيت غرفة للصيف تتميز بانحسار الشمس عنها بعد الزوال، وأخرى يُبنى بها موقد بمدخنته، ولا يخلو بيت من غرفة لاستقبال الضيوف، وأخرى لتخزين المُمون. وفي تراص البيوت دلالات واضحة للتماسك الاجتماعي في هاته المدينة.

**علماء قمار . مصايح مُضيئة:** كبقية تراب الوطن الجزائري كان لبلدة قمار دورٌ رياديٌّ كبير في المُساهمة في التنوير المعرفي، وترسيخ مبادئ الإسلام، ونشر قيمه السامية، والعمل بها. إن هذه المدينة فاقت شهرتها أرض الوطن الجزائري بما أعطت للجزائر من أعلام شاركوا، ولا يزالون يشاركون بعلمهم وبأفكارهم النيرة في الحركة الثقافية، والنهضة العلمية التي عرفتها، وتعرفها الجزائر في تاريخها المعاصر، ومن بين علمائها ومثقفها القدماء الذين أسسوا لنهضتها الثقافية والتعليمية الحديثة في ظروف تاريخية صعبة جدًا، المرحوم العالم الجليل "خليفة بن حسن القماري"، فقيه وشاعر (ت: 1796م)، والشيخ علي بن القِيم (ت: 1842م)، والشيخ الأديب محمد بن بلقاسم بن البرية (ت: 1948م)، والشيخ محمد بن اللقاني (ت: 1939)، والشيخ العلامة الحفناوي هالي (ت: 1965)، والشيخ العلامة أحمد بن دغمان (ت: 1981)، والشيخ الشهيد هالي عبد الكريم (ت: 1957) و"علي بن ساعد القماري" (ت: 1974).. والذي كان عضوا في جمعية العلماء الجزائريين، والعالم "عبد القادر الياجوي" (ت: 1991)، والشيخ "محمد الطاهر التليلي" (ت: 2003)، الذي يعد مرجعا في أصول الفقه وفروعه،

وهو مفسر، ومحدث لغوي بارع، والمرحوم عمار بن زعر (ت: 1962م) الذي رسّخ الحركة العلمية والثقافية، والصحوّة الدينية بداية من أوائل الثلاثينات من القرن الماضي، وأحدث انقلابًا فكريًا ونهضويًا بالمدينة فضايقه الاستعمار وأعوانه، مما اضطرّه إلى الهجرة مُرغمًا إلى البقاع المقدسة سنة 1937م، حيث قال في شأنه الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه "خارج السّرب"<sup>1</sup>: «... فإن الحياة العلمية في سُوّف كانت راکدة لم يترك لها الحكم الفرنسي والنفوذ الطرقي المجال للحركة، لكن الشيخ (الطاهر تليلي) يذكر أن الفضل يرجع إلى الشيخين اللقاني، والأزعر في بثّ العلم في قمار، وسوف عمومًا، وفي إيقاظ أهل المنطقة من الجهل، والكسل والركود. وكان الشيخ عمار الأزعر من أنصار الإصلاح، ومن مؤسسي جمعية العلماء، ولكنه وجد مضايقة كبيرة من أنصار الإدارة الفرنسية، ومن بعض الطرق الصوفية المحليّة فلم يسعهُ إلاّ مغادرة قمار سنة 1937م مهاجرا منها إلى الحجاز حيث عاش في المدينة المنورة مدرّسًا بالحرم النبوي إلى وفاته.»

ومن علماء قمار المرحوم أحمد مفتاح الخطيب والإمام والشاعر، وكذا الشيخ معمر حتّي (ت: 2014/08/13 بوهران)، الذي كان من علماء ومدرسي جمعية العلماء، ودرس عنه المرحوم الطاهر وطار في بلدة "مداوروش" في أواخر الأربعينات من القرن الماضي..، ومن علماء قمار المرحوم الشيخ محمد التجاني زغودة الذي تولّى فرع إدارة المعهد الإسلامي بالمدينة والتدريس به، وقد كان حجة في اللغة العربية وآدابها (ت: 2006).

---

1 - الدكتور أبو القاسم سعد الله. كتاب خارج السّرب. ص 158

نُخبَةً أُنارت بعد الاستقلال: الدكتور " أبو القاسم سعد الله " عميد المؤرخين، وأحد مؤسسي المدرسة الحديثة للتاريخ بالجزائر الذي أغنى المكتبة العربية بعشرات المؤلفات في التاريخ والإبداع الأدبي والدراسات المختلفة، ومئات المقالات. سعد الله مكتبةً متنقلةً، إضافة إلى إخوته الدكاترة: إسماعيل، خالد، إبراهيم؛ أضافوا إلى المكتبة الجزائرية والعربية عشرات المؤلفات في القانون الدولي، والرياضيات، والفيزياء، علاوة على العديد من رجال القلم الذين أنجبتهم هذه المدينة كالدكتور التجاني يوجلخة النابغة في الرياضيات، والدكتور أحمد شنة، وعبد العزيز خلف المتخصص في الاقتصاد، وبخاصة القطاع المالي، ومن كتبها ومبدعيها حالياً الشاعر والناقد الدكتور عادل محلو، والكاتب القاص بشير خلف، والكاتب المرمي نوار محمد، والشاعر القاص زكريا نوار، والأستاذ الجامعي الباحث في التاريخ مسعود كواتي، والمرحوم الدكتور الباحث في التاريخ مديني بشير، والباحث في العمارة والتاريخ المحلي الدكتور ماني محمد، والباحث في التاريخ القُماري العقّون التجاني، والباحث في العمارة المحلية الدكتور حسّونة عبد العزيز، وفي علم التصوّف عبد الباقي مفتاح، وشيخ الفُراء بالمدينة المنورة إبراهيم بن القيم المقيم بالسعودية، ومن أبناء قمار المرحوم الشيخ بشير الباري مفتي دمشق، وخطيب الجامع الأموي الذي تُوفي في السنوات الأخيرة.

## 2 - من ذاكرة الوجد الذاتي..

في غرفة ضيقة عرضها ثلاثة أمتار في أربعة أمتار في منزل تقليديّ، مبنّي من الجبس والحجارة الرملية، مكوّن من غرفتين، ومطبخ تقليدي خلا من كل مستلزمات المطبخ المعروف، مطبخ مكوّن من كانون وقوده جريد النخل، وليفه، آلات طبخ تقليدية صنّعت من الحديد والنحاس، والطين، وقصعة كبيرة يتحلّق حولها أهل البيت يأخذون اللقمة بأيديهم، وإن كان هناك مرقّ، وهو نادرٌ ما توفّر، يؤخذ إلى الأفواه بملاعق العود (ملاحق لوحية).

في هذا المنزل، نزلتُ إلى العالم، وتردّدت أنفاسي في صدري لأول مرّة، وسمعتني أملاً الغرفة الضيقة بكاء، وصراخاً. كلّما أمّرتُ أسبوعياً بعد عقود بجانب ذاك البيت المحاذي للمسجد العتيق، مسجد مسعود الشّايّ، أول مسجدٍ أنشئ بالبلدة، كل يوم جمعة لأداء صلاة الجمعة، أرى الجدران تغيّرت، وتحوّلت وفق ما تحوّل إليه كل شيء، والمنزل تخلّينا عنه بيّناً في منتصف العقد الثامن من القرن العشرين، ومن اشترته منّا توفيت، وباعه الورثة. أمّرتُ بجانب الجدران فتأخذ بتلابيبي الذكريات... عدتُ أدراج الزمن في آخر جمعة لي وقد طويّت منه ثمانية وسبعين سنة، وأبصرتني قطعةً من لحم غضّ، وعظام ليّنة، ووضعت في طبق معدني، ونظّفت بماء بارد، وأنا أصرخ، ثم لففتُ في خرقة بالية، ورُمي بي في زاوية من زوايا الغرفة الضيقة، ونامت الأمّ مجهدة، ثم طلع عليها وعلى وليدها

الصغير النائم صباح يوم الثامن والعشرين من شهر اجوان ألف وتسعمائة وواحد وأربعين.

أُتراني يوم وُلدتُ لأكون رقمًا من أرقام المخلوقات التي أوجدها خالق الكون وكفى، أم هناك مسارٌ آخر قُدِّر لي؟ أتراني ولدتُ لأعيش مخلوقًا أجوف، يسعى في الأرض لإشباع بطنه؛ ثم يُدفن في التراب دون ذكر أثرٍ له؟ أم تُراني ولدتُ لأعيش قبسًا من نور الله أضاء، وأضيء. رحلتي في هذه الحياة منذ يوم مولدي، حتى هذه الساعة التي أُحِبُّ فيها هذه الكلمات، كانت انطلاقتها " نَسَبِي الذي يعود إلى أحد العروش الأربعة المُكوِّنة لسكاننة بلدة " قمار".

عَيْنٌ عَلَى نَسَبِي...: أنتسبُ إلى عائلة "خلف" وهي عائلة معروفة منذ القديم بممارستها النشاط الفلاحيّ، وفي السنوات الأخيرة كغيرها من العائلات الجزائرية بفضل نعمة الاستقلال والحرية، وانتشار التعليم، وديمقراطيته، لم تتخلّ هذه العائلة عن الفلاحة، إنما العديد من أبنائها تبوأوا مراكز متقدمة في مجال الطب، والتعليم العالي، والتعليم في المراحل الأخرى، والتجارة.

عائلة "خَلْف" تنتمي إلى عرش " أولاد عبد القادر" أحد العروش المُكوِّنة لسكان منطقة قمار كلها، وتحديدًا من نسل علي بن حمد، التي أُطلق عليها من طرف الاستعمار الفرنسي لقب " خلف" سنة 1934م أثناء أول تسجيل للحالة المدنية. وهكذا فأنا بشير بن بلقاسم بن حمد؛ أمّا اللقب " خلف" لَقَّب من مستحدثات الاستعمار الفرنسي الذي نظم الحالة المدنية كما سلف سنة 1934م، وأرغم العائلات الجزائرية على " التلقيب" سواء باختيارها طواعية ألقابا تليق بها، أم ألقابًا اختارها موظفوه، أو أعوانه الجزائريون، ولا تزال العديد من

بعض العائلات، كما غيرها في مدن، وبلدات، وقرى المنطقة حتى يومنا هذا غيرت، وتغيرت تلك الألقاب التي لا يستصيغها الدوق عن طريق القضاء. أما الوالدة هي "لعيسن" أم الخير بنت أحمد بن الطاهر، تنتمي إلى عرش " التمامة" أحد عروش منطقة قمار.

اهتزازات النشأة...: لعل أبلغ توصيف كنى به علماء اللغة، حالة شدة الجوع والمسغبة الجائرة؛ أن قالوا: "صاح عصفور بطنه"، أو "زفرت عسافير بطنه"، يُعبر هذان المثلان عن شعور، ويشعر بالجوع لما يحل موعد تناول الطعام صباحًا، أو مساءً؛ فما بالك بمن عسافير بطنه زفرت سنوات، وسنوات، وهو أمر انطبق حقيقة على أغلب السكان في تلك السنوات العجاف النحسة، وأنا واحد منهم بما أصاب ربوع سوفي بكل بلداتها، وقراها في تلك السنوات المشؤومة زمن الأربعينيات من القرن الماضي، سنوات الحرب العالمية الثانية. حيث عرفت الجزائر خلال الحرب العالمية الثانية القهر، والاستبداد في عهد حكومة فيشي الموالية للنازية التي سلبت خيرات الجزائر، وصدرتها إلى أوروبا بعد أن دفعت بأبناء الجزائر إلى أتون الحرب إلى جانب فرنسا، أين انتشرت المجاعات، وكثرت الأمراض، وساءت أحوال الجزائريين. كما عرفت تدهورا في عهد حكومة لجنة فرنسا الحرة بقيادة الجنرال شارل ديغول التي عملت على سلب الجزائريين أصالتهم، ودمجهم تدريجيا في فرنسا مقابل تخليهم عن أحوالهم الشخصية؛ وتغنت بالحرية، والديمقراطية، وعرفت السياسة الفرنسية في الجزائر مباركة الحلفاء خاصة الأمريكيين والإنجليز

أنا من رأى النور في أوج هذه الحرب البشعة، وعانت الجزائر جرّاءها الكثير؛ فمُذ تشكّل وعيي بالعالم في سنواتي الأولى، ارتسمت في مخيلتي غير السيارات العسكرية، والجنود المدجّجين بالأسلحة، في منطقة خضعت للحكم العسكري الفرنسي، عكس مناطق الشمال من الجزائر، والدولة المستعمرة تخوض حربا شرسة مع ألمانيا. ربوع سوف تقع في منطقة صحراوية نائية؛ في تلك السنوات تحديداً، لا موارد عيش فيها غير ما أنتجه النخيل بكميات قليلة، وفلاحة بسيطة لا تكفي حاجة العائلات الفلاحية نفسها؛ الحرب كانت سدّا لوصول المواد الضرورية من وراء البحر، كما كان المُستعمر بجبروته، وحُكمه العسكري للمنطقة سدّا لوصول لكم المواد من مناطق الشمال الجزائري إلى المنطقة. الفقر المُدقع، البشع، والأمراض الفتاكة، والجهل، والعادات والتقاليد البالية، وتفشيّ الفكر الخرافي، والركون إلى التكاسل عوامل مجتمعة وغيرها تحالفت على المنطقة.

قليلٌ من العائلات كانت أحسن حظاً، وهي العائلات التي امتلكت نخيلاً أكثر، وكانت لها اليد الطُّولى في التجارة قبل الحرب العالمية الثانية، وعلاقتها الحسنة مع الحاكم العسكري بالوادي، وكذا مع "قائد البلدة"، فكانت وضعيتها أفضل حتى بعد الحرب. ما أن هدأت الحرب، وما هي إلا سنوات قليلة بعدها حتى بدأتُ ألاحظ الواقع الحياتي لعائلاتنا الصغيرة، وباقي العائلات في بلدي، وسمعتُ الناس يتحدثون عن الجوع، و"البؤن"، يقصدون به "وصل التموين" الذي يُسلّم إلى كل أسرة، به تأخذ قليلاً من السكر، والشاي، والقمح أو الشعير. كانت التجارة قبل الحرب العالمية نشطة، والبضائع متوفرة يأتي بها

التجّار من تونس، ومن المناطق المجاورة: الزّاب، خنشلة، كما السلطات الاستعمارية تجلب البعض منها؛ في مقدّمتها القمح والشعير، الأقمشة، الصّوف، التوابل، الزيت، الشّحم، الملح، القديد (اللحم المُجفّف)، الكبريت للإضاءة، أعواد الكبريت، السكر، الشاي.

الحربُ فرضتْ إيقاعها الجنائزي؛ إذا كانت النوائب والصروف، التي مرّت على سوف كثيرة ومتعددة، كالغزو، والسلب، والفتن، واجتياح الجراد، والأوبئة؛ غير أن سنوات الحرب، أو ما تلاها من سنوات الغلاء، و"البون" أو كما اصطُح عليه في القاموس المحليّ بسنوات الجوع، هو الأكثر صدى وتداولية في يومياتهم، نظير ما لاقوا فيها من رُعبٍ، وهي الأكثر بقاء حتى اليوم في ذاكرة من عاشوا تلك السنوات. ما إن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، حتى رقت السلطة الاستعمارية لحال الساكنة، فعمدت إلى نظام توزيع المُن بالوصل، أو ما يُعرف وقتها بـ (البون)، حيث يقوم "قائد البلدة" وأعوانه وهم من السكان، بإحصاء تعدادهم، ومن تحت وصايته، ثم يُقدّم لكل ربّ أسرة، "وصل تموين" يسمى البون وفق عدد أفرادها، فيذهب ربّ العائلة عند تجّار مخصوصين بهذه العملية، فيصرفون له المونة المرصودة، من سكر، شاي، أعواد كبريت، قليل من القمح، أو الشعير، قماش غير مَخيط، ممّا يسدّ الرمق ولا يشبع، ويستثّر العورة، ولا يكسو. الزيت مادة نادرة يومها، أغلب السكان استعملوا شحم الحيوانات إدامًا، والميسورون القلّة اقتنوه من مهريه من تونس، تواصل التموين بـ "البون" من سنة 1939م إلى أواخر الأربعينيات. بعد تلك المرحلة الصعبة أخذت قوافل تجّار الحبوب من القمح والشعير تحلّ أسبوعيا بِجَمَاهَا المُحمّلة، القادمة من

الأوراس، فحطت رحالها في الأسواق، وانتشر الخير على أرضية ساحة السوق، كُوم فوقها القمح والشعير، تمّ البيع بالنقود، وبدون الوزن المعروف؛ إنما بمكاييل معروفة: "قلبة"، "نصف قلبة"، "ربعي"، "نصف ربعي"، "صافي". كما تمّ البيع بمُقايسة الحبوب بالتمور. حيث انتعشت الحركة الاقتصادية في ربوع سوف، تواصل العمل بهذا النوع من التجارة إلى ما قبل الثورة.

الجراد . . يا تلك الوجبة الشهية!!؛ من المضحك المبكي في تلك السنوات تحالف الجراد والفقر البشع، وظلم الاستعمار، فالجراد ما أن يجتاح المنطقة حتى يأتي على الأخضر واليابس؛ إلا أن السكان رأوا فيه غنيمة غذائية أنقذتهم من الجوع لعدة أيام، وربما شهورا لَمَّا يطبخونه، ويحَقِّفونه، فيشكّل لهم زادا غذائيا بروتينيا لشهور؛ فما أن تصل طلائعه المنطقة حتى يتجنّد له السكان كبيرا وصغيرا، ويرصدونه ليلا عندما يهدأ بفعل الظلام فيلتقطونه من الأرض، ومن بين الحشائش، وتحت النخيل، وما بين الجريد فيملؤون منه الأكياس حيث تتجنّد الحرائر في الحين للطبخ، والتجفيف، والتخزين، أياما تنتعش الحركة، وتمتلى البطون الجائعة؛ لا غرو أن كنتُ من بين هؤلاء مصطادا، والوالدة رحمها الله طبّاحة ماهرة لهذا القادم الغير مرغوب فيه عند مُلاك النخيل الكثير، والمرغوب فيه لدى أغلبية السكان الفقراء بالبلدة وضواحيها. في تلك السنين المبكرة من حياتي، إضافة إلى وقوفي بجانب الوالد رحمه الله في العمل الفلاحي، كنتُ أرافقه في بيع الفول الطّازج يوم الجمعة بالسوق، إذ نحضّره بـ"الترنيخ" في الرمل بداية من يوم الأربعاء. بيع تواصل حتى إلى الأسبوع الذي رحل فيه الوالد عن دنيانا سنة 1956م.

**دَفَاءُ الْحَيَاةِ الْمَفْقُودِ:** بشير خلف بن بلقاسم المولود في: 28-06-1941 بقمار ولاية الوادي.. المُنحدر من عائلة فلاحية بسيطة، ما كانت تملك نخيلاً، ولا تجارة. نشأ في هذه الظروف البئيسة، حيث كان الوالد يعمل تارات عند مُلّاك النخيل، تلقّحاً للنخل في موسم الربيع، أو رُقْعاً وحملاً للرمال على الظهر في قُفْفٍ مصنوعة من جريد التّخل من قاع غوطِ التّخيل صُعوداً إلى قمة كثيب الرّمْل كغيره من المُعْدَمين أمثاله الكُثُرُ. العُوطُ شبيهه بالهرم المقلوب، مقابل ثَمَنٍ زهيدٍ، أو مقابل عدّة أرباع\* من القمح، أو الشعير.

كما كان الوالد رحمه الله فلاحاً في أرض مساحتها قليلة شرقي مقبرة بلدة تغزوت، المُحاذية لبلدة قمار، خصّص تلکم المساحة لزراعة الدخّان "التبغ" كغيره من أغلب سكان قمار الفقراء، إضافة إلى خضروات بسيطة لاستهلاك العائلة، كالطماطم، الفلفل الحار، الجزر، اللفت، البصل؛ أمّا البطاطا، الفلفل الحلو، الفواكه بكل أنواعها، ما عرفناها، وما سمعنا بها عهد ذاك، ما عدا الدلّاع والبطيخ المحلّي (غير شبيه ببطيخ الشمال الأصفر)، ما كان يكفي العائلة مرة أو مرتين في الأسبوع، وتارات أخرى من ذلكم المنتوج الفلاحي البسيط آخذٌ منه القليل أبيعته في سوق بلدة تغزوت القريبة، أشترى بتلكم الفرنكات (العملة الفرنسية) قليلاً من الشاي والسكر، وخبزة مستديرة واحدة، أعود بها إلى الوالد كي نعدّها بها وجبة الغذاء المكوّنة من الشاي والخبزة له ولي، إذ لا يوجد غيرها. من المنتوجات الفلاحية التي كانت منتشرة، وبقيت حتى السنوات الأخيرة

---

\* - الرّبع هو مكّيال لكيل الحبوب، حيث كانت الموازين قليلة، وبدائية.

بالمنطقة، ولا تزال بنسبة قليلة حتى تاريخنا هذا هي زراعة الدخان "التبغ" الذي كان يُزرع بكثرة، وكان مدخوله يُعتبر المصدر المالي الوحيد للسكان مقابل مدخول تمر دقلة نور للعائلات الميسورة التي لا تمارس زراعة التبغ الذي خصّصت له السلطات الفرنسية مؤسسة خاصة وضعت على رأسها شخصا أوروبيا يدعى "شيكة". كان الفلاحون يبيعونه منتوج التبغ مقابل ثمن زهيد، فيشحنه نحو معامل التبغ إلى الشمال الجزائري، أو إلى فرنسا. كان الفلاحون كغيرهم من الناس في بقاع الأرض يدخنون، ليس السجائر المعروفة حاليا ما كانت متوفرة في ذلك العهد، وغير معروفة، كان المدخنون يستهلكون مادة " العرعار\*"، ولا يزال حتى تاريخ اليوم من يدخنه رغم توفر الكثير من أنواع السجائر. من هؤلاء الفلاحين في ذلك الوقت من يزرع الحشيش " الكيف" للاستهلاك الشخصي، أو للاستهلاك الشخصي والبيع معا، سعيا وراء دخل إضافي. كانت السلطات الفرنسية تمنع زراعة الحشيش. أتذكر في بداية الخمسينات من القرن الماضي، والذي كغيره من الفلاحين يشتغل على فلاحية التبغ في غابتنا البسيطة التي ذكرتها آنفا، أن جارنا الفلاح من الجهة الغربية المرحوم سعداني عمّار نادى على والدي: يا بلقاسم " لا نسيبكتور راه جاء\*"; ما أن أمّ نداءه حتى تخطى هذا الأخير الزّرب" الحاجز الجريدي" بين الغابتين،

---

\* - العرعار: نوع من السجائر التي يتم تشكيلها يدويا بورق الماصة وسمي بالعرعار نسبة إلى ورقه الذي يمزج مع ورق التبغ ليصبح قابلا للاستهلاك.

\* - لانسبيكتور: المفتش الفرنسي، الباحث عن شجرة الكيف

وصرخ على الوالد: فيسا (بسرعة) قَلَع الكيفُ، أي أَسْرَعُ قَلَعُ شجيرات الحشيش، انكبَّ الوالد يقتلع الشجيرات أمام ناظري الوافد. كان والدي من هؤلاء الفلاحين الزراعين للتبغ في مساحة قليلة، كان المردود قليلا بطبيعة الحال رغم الصعوبة المرافقة لهذا المنتج الذي كان يتطلب السقي مرتين: مرة في الصباح الباكر، وأخرى في المساء، كنت أساعد الوالد في هذا العمل المرهق لمدة حوالي خمسة أشهر. كان "شيكاً" يتماطل في دفع مستحقات الفلاحين لهذا المنتج التبغي، مستحقات بمُجَرَّد ما يتقاضاها الوالد يدفع ثلثيها دينا إلى هذا التاجر، أو ذاك؛ وما تبقى يبتاعه مترات من قماش نَحِيْطُهُ ملابس بسيطة للوالدة رحمها الله، وله، ولي، ولأخوي. علماً أن تجار تلك المرحلة يبيعون الأقمشة الغير المَخِيْطَة، فالمخيطه لم تظهر بعد، كما يبيعون القمح والشعير، والسكر، والشاي، والوقيد (أعواد الكبريت)، وهي مواد ضرورية للحياة. فالتجار يتحكّمون فيها سعراً وتوزيعاً، وقد يساومون بها الفقراء عندما يزودوهم بها إلى حين بيع منتج التبغ.

في فصل الخريف، فصل الخير بالنسبة لأغلب السكان الفقراء، يهَلّ على الجميع موسمُ جني التمور الذي كان أغلبه تمر "الغرس" تمرٌ لا يُصدّر إلى فرنسا "كدقلة نور" المدلّلة واللّذيذة، هي ليست من نصيب الفقراء، فتمر الغرس ما زاد منه على حاجة المالكين الكثير من النخيل، فإنهم يبيعونه في الأسواق فيشتري منه الفقراء مؤونة لشهور السنة، والباقي الكثير يبيعونه إلى التجار القادمين بالقمح، والشعير في قوافل من الجمال من مناطق الأوراس، وقد يقدمونه . أي تمر الغرس . مقايضة مقابل القمح، أو الشعير. عائلتنا نحن، وكما أسلفت لا تملك

نخيلًا، فإنني والوالد قد نعمل عند هذا أو ذاك كعمّال في عملية جني التمور مقابل حصة أو حصص معلومة كغيرنا. إضافة إلى أننا في بعض السنوات أقمنا سقيفة من جريد النخيل على الطريق الرئيسة المؤدية إلى غابات (أغواط) النخيل شرقي بلدة تغزوت نبيع الفول الطازج إلى العمال المتوجّهين إلى جني التمور، أو نقايض الفول بالتمور، فتتجمّع لنا كمّية معتبرة منه نُخزّنها في الخابية لشهور السنة كسائر السكّان. أمّا تمرّ دقلة نور فهو ليس من حقّ الفقراء تناؤله؛ بل حتى أولاد الأغنياء بمعيار تلکم المراحل الزمنية. نصّبت فرنسا حينذاك مؤسسة ووضعت على رأسها شخصا أوروبيا يُدعى "بُو"، بمُساعدة شخصٍ آخر أوروبيّ يدعى "فيناتي" ومن البلدة شخصان: لشلح محمد الطاهر، هالي عبد القادر المُكنّى "شكشكها" ذلكم الأوروبيان ومساعداهما المحليان منذ ما قبل نُضج هذا النوع من التمور كانوا يتابعون، ويراقبون المنتج فبمجرد نضجه يزودون مالكي نخيل دقلة نور بمُستلزمات التعبئة من صناديق لوحية، وأحزمة حديدية، تُسمّى محليا "شيركو" وقبل التعبئة يراقبون النوعية التي يجب أن تكون وفق شروط مضبوطة. كان ذلك المنتج المُعبأ يُشحنُ على متن عربات قطار البضائع الرابط ما بين منطقة سُوْف ومدينة بسكرة، قطارٌ خُصّص للبضائع فقط، انعدمت به عربات الرّكّاب. مالكو نخيل دقلة نور القُماريين حينذاك حرموا نساءهم وأبناءهم من هذا التمر، تمرّ دقلة نور، وما كانوا يسمحون به لهم فقط ما ليس مقبولا لدى الأوروبي كالحبة الجافّة، أو التي نصفها يابس. نحن الفقراء كنا نحصر على الحصول من حقنا من تمرّ دقلة نور بالطرق التي ابتدعناها كأطفال: منها أننا نأتي ليلا إلى عربات القطار المحمّلة بالصناديق، أو الصناديق المرتبة بجانب العربات،

ونغافل الحارس، فنحلّ الصناديق ونأخذ منها ما استطعنا، وإن لم نتمكن من حلّها نتعاون على رفعها إلى أعلى ونُلقي بها أرضاً فينحلّ الصندوق، ونأخذ حقناً، ونفّر وقد يتفطنّ الحارس ويلاحقنا.. هي حرب كَرّ وفرّ كل سنة.

**المرأة القمارية.. ذاك الكائن العجائبي؛** ما كانت، ولم تكن المرأة القمارية إنساناً هماً، أو مهملاً، ومهمّشاً في التركيبة السكانية القمارية، بقدر ما كانت زوجة صالحة، أجادتْ ولا تزال تُجيد تربية النشء، على أسس القيم الإسلامية، والتشبع بروح التسامح، والتعايش، واحترام الآخر، وزرع روح التعاون، واحترام الجار، وتقديس صلة الرّحم؛ كانت الذراع الأيمن للزوج ولا تزال في حماية الرابطة الزوجية، والشريك الاقتصادي معه ليس استهلاًكاً بل إنتاجاً في النشاط الفلاحي في فصلي الربيع والصيف، وإثر عودتها من العمل اليومي المُضني، تتفرّغ إلى إعداد مائدة الغداء أو العشاء، بوجودها أمام الرّحى، قصد طحن القمح للغداء والعشاء، بعدها مباشرة تقوم بتحضير الأكل على الحطب أمام الكانون، وغالباً ما تكون الوجبة كسرة أو خبز تنور، وفي الحالتين لن تسلم تلك المُقاومة، من صهد النار وحرّها زمن الصيف الحارق أصلاً حتى إذا وقفت الشمس في وسط السماء، ودخل ربُّ الأسرة من بستانه، والأولاد من كُتابهم وألعابهم البسيطة، تحلّق القوم على الموجود من المفقود فأكلوه، لتأخذ صاحبتنا فسحة من الراحة، ثم تبدأ مرحلة المساء بداية من الظهر حتى غروب الشمس سقياً لأحواض التبغ، أو الخضار كالجزر، واللفت، والبصل، والكابوية، والطماطم الخلية، والفلفل الحار؛ فإذا ما حلّ الظلام تكون أمام الكانون والحطب طبخاً للعشاء الذي يكون دائماً كسكسا مُسقى بتلك الخضرة، المُيَدِّمة بشحمة الجمل، فاللحم من

الأمنيات البعيدة. في فصلي الخريف والشتاء تشتغل إضافة إلى وظيفتها الإنجابية، وتنشئة الأطفال تشتغل نَسْجًا للأفرشة، والأغطية التي تحتاجها الأسرة، وكذا نَسْجًا وإعدادا لملابس أفرادها من قشاشيب، وبرانيس، وقنادير؛ وكذا أفرشة وأغطية لكل أفراد الأسرة؛ وما زاد على ذلك يبيعه ربّ الأسرة في "سوق اللبسة" الأسبوعي بالبلدة الذي كان يؤمّه المُشترتون من كل أنحاء المنطقة، وخارجها، والموارد المتأتية من هذا البيع تستعين بها الأسرة على معيشتها الحياتية، والآخر تشتري به مادّة الصوف، ومادة وبرّ الجمال للنسيج اليدوي التقليدي.

**المرأة القمارية.. الأميرة المَتَوَجّة:** عُرف، ويُعرف عن المرأة القمارية أنها سيّدة بيت مُميّزة، مُتفردّة، ذكيّة تحترم زوجها، تحافظ على تماسك أسرتها، والتضحية من أجل أبنائها حتى ولو ترمّلت صغيرة؛ فإنها لا تعيد الزواج، وتتفرّغ إلى تنشئة أبنائها حتى نهاية عمرها؛ من أجل هذا يندر تعدّد الزواج، بل يندم في مدينة قمار وضواحيها؛ حتى أن سكان منطقة وادي سُوف من باب النكنة يصفون الرّجل القماري بـ " الجبان " لأنه يخاف من " زوجته"، ومن يُعرف سكان قمار عن قُربٍ، تأكّد ويتأكّد أن عدم إقبال الرجل القماري على إعادة الزواج هو حفاظٌ على تماسك الأسرة وحماية للأبناء من التشرّد والضياع، وسوء التنشئة؛ فقد يضحي الزوج بالكثير من حقوقه الزوجية من أجل تماسك الأسرة. المرأة القمارية بحُكم أنها أمٌ صالحة وناجحة، وذكيّة ومضحية، وشريكة اقتصادية للرجل؛ فإنها زوجة (عامرة)، وتعني هذه الكلمة الكثير في مدينة قمار، تعني الاستقلال الاقتصادي والسكني، أي أنها لا تقبل أن تكون هي وأسرتها عالة على غيرها، حتى ولو كانوا أقارب، من أجل هذا فإنها لا تقبل المكوث في

البيت دون عمل، عامرة تعني أنها لا تقبل أن تكون هي وأسرقتها في مسكن ليس لزوجها، حينما يتقدّم أحد الشباب لخطبة الفتاة، تسأل هي وأسرقتها أله منزلٌ خاصٌّ به؟ وإذا ما لم يتحقّق هذا الشرط في البداية فإنها بعد الزواج تدفعه وتتعاقد معه إن كانت عاملة على بناء المنزل الخاصّ بهما.

تعني كلمة "عامرة" أن المرأة القمارية بمجرد أن يبدأ ابنها الوظيف، أو العمل تدفعه إلى شراء قطعة أرض صالحة للبناء، والشروع في منزله الخاصّ. المرأة القمارية بهذه الثقافة استطاعت منذ القديم زرع ثقافة التعمير، والتنشئة الجوارية التعايشية المتسامحة، حتى أن اليهود عاشوا في هذه المدينة عشرات السنين، مارسوا شعائرهم الدينية بحريّة، ملكوا أحسن غابات النخيل، مارسوا تجارتهم بحرية، عاشوا بين الساكنة المسلمين؛ ولا أحد تعرّض لهم بسوء إلى أن غادروا المدينة أواخر الأربعينات من القرن الماضي من تلقاء أنفسهم. إن كانت الطبقة أثناء وجود الاستعمار الفرنسي موجودة بين الساكنة؛ إلا أن روح التكافل، والتعاون، والعيش المشترك سيّدة في المجتمع القماري، وما حدث أن وقع تصادم. تطّبع المجتمع القماري بهذه الروح حتى تاريخنا الحالي، ولا يزال، ولا أحسبها ستزول. والدتي رحمها الله كانت من أولئك النسوة الحرائر اللواتي وقفن إلى جانب الرجل في السّراء، والضراء، منذ أن ارتبطت بوالدي في سنة 1940م، رافقته في سنوات المَسْغِبة، والفاقة البشعة، وكانت سندًا له في حياته الصعبة، كانت نعم الزوجة الصالحة الصبورة، والشريك الاقتصادي فلاحيا، والمُنتج الدائم لملابس الأسرة، وأغطيتهما، وأفرشتهما، وبيع الفائض من القشاشيب، والبرانيس، وقنادير الصوف، أي دخلٌ إضافيٌّ، كانت نعم الأم الحنوننة المتسامحة،

تقدّر الجيرة، والتواصل بحميمية مع الجميع، تقدّس صلة الرّحم، وتحضّنا عليها إلى أن توفّاها الله يوم 10 من شهر أوت 1999م.

المرحوم المؤرّخ أحمد توفيق المدني؛ كما سرت تلك الروح في ذاك العهد بين الفتيان والفتيات، حيث يمكن القول بأن التفتّح الشبابيّ "العفيف" كان موجودا، وما كتبه المرحوم المؤرّخ توفيق المدني في كتابه "هذه هي الجزائر" عن هذا التواصل الشبابي القماري، والتفتّح العفيف كنت شاهدا عليه وأنا طفلاً في عقدي الأول، أو أكثر بقليل حينما كنت مساء كل يوم أصطحب حمارا لعائلة ميسورة وعلى جانبي ظهره جرّتان طينيتان "قُلتان" جلب الماء من بئر ارتوازية يتجه إليها عشرات الفتيان والفتيات لنفس الغرض، حيث يتمّ التلاقي، والتواصل العفيف. كتب توفيق المدني في كتابه، في "فصل واد سُوف<sup>1</sup>": «... ومن أغرب عوائد سُوف خصوصا في نواحي قمار أنّ النساء لا يتحجّبن مطلقاً فيها، وأن الفتيات عندما يبلغن سنّ الزواج يتجمّلن، ويلبسن أجمل أثواب الزينة، وكذلك الفتيان، ويتلاقى الجميع في الشوارع\*، وبين نخيل الواحات، وعند آبار المياه، فيقع

---

1 - أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر. ص: 30 طبعة دار البصائر 2008 الجزائر.

\* - يتلاقى الجميع في الشوارع: معلومة يبدو أن المرحوم توفيق المدني ما دقّق فيها، فالمجتمع القماري كالمجتمعات الأخرى المحافظة لا يسمح بهذه اللقاءات، ولا بالاختلاط.

- يتلاقى الجميع بين نخيل الواحات: ليس صحيحا، نعم يتلاقى الجميع عند آبار المياه بعد مساعات العصر لجلب المياه العذبة من آبار خارج مدينة قمار.. جلب المياه في قلال طينية، فقد ينوب الشاب المعجب بالفتاة بحمل قلتها. وأثناء طريق العودة يتحدثان، ويتكرّر هذا عدة أيام، ولما تعجبه يسكب عليها قارورة عطر، ويتقدم لخطبتها لدى أهلها. هذه الرفقة تكون أمام الجميع، وفي كوكبة كبيرة من الفتيان، والفتيات يتوجه

التعارف، ويتم الاتفاق على الزواج بين الصبيّة والفتى رأساً، ويشتهر ذلك فلا يرى أهل الفتى، وأهل الفتاة من غضاضة؛ بل يقوم الفتى إلى دار مخطوبته، فتخرج إليه جهاراً، ويذهبان إلى الفسحة، أو يتلاقى وإياها عند آبار المياه، فيتبادلان أحاديث اللطافة، والنكات (مف. نكتة) العذبة، ويبالغ القوم هنالك فتياناً وفتيات في "العفاف"؛ وقال أن تقع حادثة خنى؛ وإذا اشتهر عن شاب أنه خدع خطيبته، فإنه يُقاطع مقاطعة تامّة، ويُنبذ ولا ترضى به أن يغدو لها خطيباً. «  
**رُبَّ ضَارَةٍ نَافِعَةٍ..**: تلقّيت تعليمي الأول في "كُتّاب القرية. رفض والدي رحمه الله إدخالني المدرسة النظامية الفرنسية خوفاً عليّ من التفرونس، وتشويه عقلي في مدرسة الكُفر حسب قناعته، العديد من الأهالي ما اقتنعوا بوجود مدرسة لغتها الفرنسية، ومعلموها فرنسيون في بلدة عربية مسلمة، رفضوا أن يلتحق أبناءهم بها، واكتفى الأغلبية بإدخالهم الكتاتيب القرآنية.. اكتفيت بأن أأزّم الكُتّاب فحسب، كما لم يدخلني مدرسة النجاح العربية التي فتحت أبوابها يوم 19 أكتوبر 1948م، التي كان يديرها العلامة الشيخ محمد الطاهر التليلي، ومعه مجموعة من المدرّسين الزيتونيين المؤهلين: الشيخ التركي، سعداني عبد العزيز، سعداني محمود، وغيرهم... برنامجها كان برنامج مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دون الجهر بذلك حتى لا يغلقها الاستعمار، وقد نجح

---

فيها الجميع إلى الآبار الثلاثة الواقعة ضاحية قمار: بنز غربي البلدة (بنز الغربية) ، بنز ثانٍ شرقي البلدة (بنز الشرقية) ، بنز ثالث شمالها. (بنز الجبادي)

الشيخ التليلي في تسييرها مع مرافقيه، ووصل بها برّ النجاح، واصلت رسالتها حتى الاستقلال، حيث ضُمَّت إلى التعليم الرسمي. المدرسة التي خرّجت العشرات من بنات وأبناء قمار، فكانوا الإطارات الشابة في الجزائر المستقلة؛ يقول الدكتور بلقاسم سعد الله عن هذه المدرسة في كتابه " خارج السرب"<sup>1</sup>

**مدرسة النجاح .. وردة عبقرة منحها الله لقمار: «... ولعلّ هذا التصرف القمعي والتعسفي يفسر ما اختاره أهل قمار عندما أسسوا مدرسة النجاح للتعليم العربي الحر، فقد فضّلوا عدم إلحاقها بمدارس جمعية العلماء تفاديا لتعريض المدرسة للإغلاق، لأنها تقع في منطقة خاضعة للنفوذ العسكري، وكان أعيان البلدة يداهون السلطة الفرنسية أحيانا، ويستتجدون بحاكم البلدة (القايد) أحيانا أخرى ليحتموا به من أجل الإبقاء على المدرسة مفتوحة. وهكذا بقيت المدرسة سنوات وهي تحت إدارة الشيخ محمد الطاهر التليلي دون أن تكون لها مرجعية تربوية سوى إخلاصه، ومهارته، وبرنامج جمعية العلماء دون التبعية لها، فكان الشيخ التليلي هو المدير، والمعلم والمراقب والمسؤول على كل ما يجري فيها أمام الأعيان والسلطة المحلية. بقيت مدرسة النجاح تمارس التعليم العربي الحر بإدارة الشيخ التليلي إلى استقلال الجزائر، وأثناء ذلك كان الشيخ يديرها كما يدير الربّان سفينته وسط الزعازع، والأمواج العاتية سيّما في فترة الثورة، وكانت مهارته، وإخلاصه، ونتائج تعليمه قد أقنعت حتى ألدّ خصومه بأهمية رسالة المدرسة.»**

---

1 - د. أبو القاسم سعد الله. خارج السرب.. مقالات وتأمّلات. ص158 دار البصائر/الجزائر 2009

ابتداء من منتصف عقْد الخمسينات حرصت العديد من العائلات القُمارية على ضمّ بناتها إلى مدرسة النجاح في صفوف دراسية جمعت البنين والبنات دون عقْدة، واصلن تعليمهن في هذه المدرسة في مرحلة الابتدائي، وواصلنه فيما بعد الاستقلال كي يصرن مدرّسات، ها هو مدير المدرسة الشيخ التليلي على لسان تلميذات مدرسة النجاح في نشيد بعنوان " نشيد البنات بمدرسة قمار يقول<sup>1</sup>:

نحن البنات المسلمات أزهي نبات المسلمين  
ندعو ونسعى للحياة والعون رب العالمين  
نبغي عزيز المطلب بالعلم والخُلق المتين  
نحن الدعامة للحياة نحن السفينة للنجاة  
فلتعنوا بالبنات الفتاة عناية مثل البنين

كما أعاب حينذاك الشيخ التليلي على تلميذاته لما أبطأن في إحضار صُورهن الشخصية لتكملة ملفائهن المدرسية بمدرسة النجاح<sup>2</sup>:  
طلبت إدارة قسمنا صور البنات المُوضحة  
فتلكّات بعض البنات فلم يجبن المصلحة  
هُزّءا بها وتمرّدا ولآمة مستـــــــوضحة

---

1 - الشيخ محمد الطاهر تليلي/ مدرسيات من ديوان الدموع السوداء. ص36. طبع 2011، عالم المعرفة للنشر والتوزيع. المحمدية / الجزائر.

2 - المرجع السابق. ص: 46

فكأنها جلست هنا فـرّاجة مستروحة

علمًا أن تلاميذ هذه المدرسة أغلبهم زاولوا تعليمهم في نفس المرحلة بالمدرسة الفرنسية بالبلدة التي فتحت أبوابها سنة 1907م لفائدة أبناء الفرنسيين، والمتعاونين معهم من الأهالي، ثم فتحت للأهالي فيما بعد في عقدي الثلاثينات، وما بعد.

**المدرسة الفرنسية بقمار:** أتذكّر أنّ السلطات الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية حرصت على إدخال أبناء الأهالي هذه المدرسة الفرنسية، بل أجبرت ممّن رفضوا، ومن الذين رفضوا والذي الذي أخفاني لمدة أسبوع بعيدا عن البلدة لأن " الشامبيط" مساعد "قائد البلدة" كان يبحث عني لإدخالي المدرسة الفرنسية. نجح الوالد رحمه الله في حرمانني من التعلّم في المدرسة الفرنسية، وفي مدرسة النجاح العربية، وقد تدارك الخطأ لاحقا عندما أدخل أخويّ الأقلّ مني عمرا: حمد، مسعود لَمّا أدخلهما إلى المدرستين.

سعيّت شخصيا خفية عن والدي وأنا في سنّ العاشرة اللحاق بالدروس الليلية للمدرسة الفرنسية، فتعلمت في الدرّسين الأول والثاني اللّذين حضرتهما بعض الكلمات: L' ecole .le le chat. le chien..le maitre، ما لبثت أن انقطعت لتأتي فرصتان، الأولى في السجن حيث أعطيت لنا دروس أولية في هذه اللغة في سنتي 1961، 1962، والفرصة الثانية في سنتي 1978 / 1979. في مركز التفتيش بالجزائر استنادا إلى منهجية وظيفية معاصرة. سأشرح أكثر هذا الموضوع فيما بعد.

استعان الوالد رحمه الله بيّ كابنٍ بكرٍ للعائلة في مُمارسة الفلاحة أو يَبع بعض المنتوج الفلاحي القليل، وأنا في عمُرٍ صغيرٍ لا يتجاوز العشر سنين..  
كتاتيبُ القرآن الكريم.. رعشةُ الروح؛ أُدخِلْتُ وأنا صبيٌّ لا يتجاوز عمري الخمس سنوات الكُتّاب ببلدي الصحراوية في منتصف الأربعينات من القرن الماضي.. كسائر أبناء بلدي الفقراء. انضمت إلى الكُتّاب في سنِّ مبكرة، وكان التعليم تقليدياً يُكتفى فيه بتعليم الكتابة، وتلقين القرآن الكريم على اللوح، ومادة الكتابة " السَّمق " وأداة الكتابة القلم المبرّي من القصب دون زيادة؛ وكما قال العلامة ابن خلدون:

«فأمّا أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المُدرسة بالرّسم ومسائله، واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث، ولا من فقه، ولا من شعرٍ، ولا من كلام العرب، إلى أن يحذق فيه، أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة.<sup>1</sup>»

ومما أتذكّره أن معلمي الأول المرحوم الطالب، سوفي محمد الصالح، المعروف ب: سي محمد الصالح، إمام مسجد "فشير" ببلدة قمار رحمه الله، والذي واصلتُ معه تعلّم الأجدية العربية بالطريقة التقليدية، وحفظ القرآن حتى سورة " يوسف " له سلوكات غريبة منها أنه كان يخصص نصفَ الحصّة الصباحية الأول

---

<sup>1</sup> — ابن خلدون: المقدمة. الفصل التاسع والثلاثون ص 556

إلى تلقين الصغار الحروف، والحركات، بالإيقاع الصوتي الجماعي، وسماع ما حفظ الكبار ممّا أملاه عليهم وكتبوه في نفس الصبيحة، أو بالأمس؛ أمّا النصف الثاني فيكلف الكبار بتحفيظ الصغار السور القصار، وينتقي ثلاثة صبيان أو أربعة، اثنان يكلفهما بتدليك ساقيه اللذين يكون مدهما عن آخرهما فيتعاون الصبيان، أو يتكفل كل واحد بساقٍ، ولما يتعب الاثنان يحلّ محلّهما الصبيان الآخرون؛ ولما تكتمل حصة التدليك، أو "المسّد" كما كُنّا نطلق عليها يختار "الشيخ" أحد الصبيان الغير الأربعة، ويكون قد بسط على ركبتيه بنوسا لـ "التصدير"، أي زخرفة حواشيه بخيوط فضية، إذ هو يخيط والصبي يدخل الخيوط التي تكون موزعة بين أصابع يديه بطريقة فنية لتشكّل الأيقونة التي يرغبها "الطالب كما يُسمّى في منطقتنا" .. هي ذكريات رغم ظروف الفاقة تركت بصماتها الجميلة.

**التقنيات المعاصرة لم تُزح اللوحة؛** في أيامنا هذه تنوّعت وسائل تعلّم، وحفظ القرآن الكريم بفضل التكنولوجيات السمعية البصرية من حيث تقريب الفهم، والدّربة على الحفظ، والأداء الصوتي من ترتيل وتجويد؛ إلا أنّ هذا ليس في متناول الجميع. في أيامنا هذه المدارس القرآنية في المساجد، أو المنشأة مستقلة من طرف المواطنين، أو المدارس القرآنية بالزوايا لا تزال تؤدّي وظيفتها، بل تدعّمت وكثّرت، وتضاعف الإقبال عليها في الأرياف، والبوادي، ومدن وبلدات الجزائر العميقة، وطريقة التعلّم بها، والتحفيظ لم تتغيّر كثيرا فلا يزال اللوح، والطين، والسّمق، وقلم القصب الأدوات الرئيّسة؛ وما تغيّر حسب ما ألاحظه من خلال أحفادي أن طريقة التحفيظ تغيّرت بعض الشيء، من ذلك أن معلمي القرآن المتمرّسين، والصبوريين اختفوا، وحلّ محلّهم شباب إمّا متطوّعون، أو أئمة

شباب متخرّجون من معاهد التكوين لا يكلفون أنفسهم عناءً مع الصبيان حيث يكلفون الصبيان الكبار بنسخ ما يحدونه لهم من المصحف في منازلهم على اللوح ويحفظونه، وفي الغد يعرضونه عليهم للتقييم والتقويم، وأمّا الأطفال الصغار فيتكفل بهم هؤلاء بعد عرض ما حفظوه.

في ذاك العهد في بدايات الخمسينات من القرن الماضي، لاحظ أحد الكبار، وقد أتقن حفظ القرآن الكريم وهو مجحودة محمد الصالح المكيّ " قعمي "؛ أي لم أتم حفظ القرآن الكريم حفزي على التحوّل من هذا الطالب سي محمد بالصالح، والذي هاجر نهائياً فيما بعد إلى البقاع المقدّسة، وتوفي هناك؛ إلى طالب آخر يؤمّ المصلين، ويعلم الصبيان القرآن الكريم في مسجد " الطلّبة .. أو الجامع الكبير، أو جامع السوق " الذي أسّسه إبراهيم بن عبد الجواد سنة 1906م وهو أحد المسجدين الكبيرين العتيقين ببلدة قمار.. هذا الطالب له صيتٌ وشهرة في الجِدِّ؛ كما أنه شديد؛ أي " واعرٌ " كما هو متعارفٌ عليه عندنا.

" انعم سيدي " الجديد .. صرامةٌ وإخلاصٌ: الطالب سي الطاهر تلحيق بن السّنا الذي حفظ على يديه العشرات من أبناء البلدة؛ ولمّا ذهبت إليه استقبلني استقبالا حسنا، وضمّني إلى كتّابه، وممّا أذكره أنه سلّمني لؤحا كبيرا كان لوح المرحوم الإمام غوري محمد العيد الذي غادر الكُتّاب بعد أن " ختم " القرآن الكريم، أي حفظه كاملاً، ولم ألبث طويلاً حتى حفظت القرآن الكريم، وأعدت حفظه ثلاث مرّات.

أتذكّر أن الطالب كي يتيقّن من جودة الحفظ، يختبر التلاميذ الذين أتّموا قبل إجازتهم، يختبرهم في صلاة التراويح لسنتين متتاليتين. أخضعني لهذا الاختبار، في السنة الأولى أدّيت صلاة التراويح، كان الطالب ورائي مباشرة يوجهني، وينبهي، ويصلح الخطأ، لم أتمكّن من المواصلة سنّتها، لا من عدم الحفظ؛ إنّما من شدّة الخوف منه، حيث توقفت عند سورة سيدنا يوسف، وفي السنة الثانية المواصلة لنفس السبب، توقفت عند سورة ياسين. طوال وجودنا معه، كان يحثنا؛ بل يُرغمنا على البقاء في تلاوة الحزب كل ليالي الأسبوع، ما عدا يومي الخميس والجمعة، حتى نتقن الحفظ؛ كما كان لَمّا يحين وقت الصلاة نرافقه إلى صلاة الجماعة التي كان يؤمّها في المسجد الملاصق للكُتّاب. المرحوم..

" انعم سيدي " سي الطاهر بالسّنا كان عطوفا جدّاً على الصبيان المنحدرين من عائلات فقيرة، إذ كان لا يكتفي بتعليمهم، وتحفيظهم القرآن الكريم فحسب؛ إنّما أيضاً كان يصطحبهم معه إلى المناسبات والزيارات، خاصة إلى الزاوية التجانية بقمار، أين يتلون القرآن الكريم مع العشرات من الزوّار، ويتناولون معهم ما كانت تجود به الزاوية من مآدب كُسكسية مُتوّجة بقطع من اللحم اللّذيذ، مناسبات تتكرّر عادة في فصلي الخريف والربيع، كان الصبيان ينتظرونها بفارغ الصبر عملاً بالمثل الشعبي: " اقصد الزوايا.. إذا ما اشبعت تبات دفيان " (من الدفء).

أنا واحدٌ من بين هؤلاء الصبيان؛ كما كان الطالب انعم سيدي يأخذنا معه إلى المناسبات التي يُعرض إليها رفقة طلبّة آخرين ليتلّوا كتاب الله في ساحة

المنزل، أو في الهواء الطلق، وتُختتم الجلسة الروحانية بعشاء كسكسي مُتوج بحضار وقطعة لحم لذيذة.

**حَبَبْنَا فِي الْقَصِيدِ الدِّينِي**؛ غرس فينا . رحمه الله . ونحن صبيان حُبَّ رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم من خلال مرافقتنا له إلى الزاوية التجانية، أو حثنا على المشاركة في إحياء أيام وليالي مولده، إذ كنّا نتحمّس في تلکم الليالي، ونتسامى روحيا بتشنيف أسمعنا، أو ترديدنا مع غيرنا كبارًا وصغارًا القصائد الدينية في المسجد العتيق بقمار، مسجد سيدي المسعود الشابي، أو في الزاوية التجانية في جوِّ روحاني تعبّقه رائحة العنبر، والبخور المنعش، تحت أشعة أضواء الشموع النديّة، حيث لم تدخل بعدُ الكهرباء إلى المنطقة، ترتفع الأصوات في إيقاعات موحّدة تمدح خير البريّة محمّد بن عبد الله لقصيدتي الهمزية، والبردة للإمام شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري المصري:

كَيْفَ تَرْقَى رُفَيْكَ الْأَنْبِيَاءُ      يَا سَمَاءَ مَا طَاوَلْتَهَا سَمَاءُ  
أَنْتَ مِصْبَاحُ كُلِّ فَضْلٍ فَمَا      تَصْدُرُ إِلَّا عَن ضَوْئِكَ الْأَضْوَاءُ

### البردة

أمن تذكر جيران بذي سلم \* مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة \* وأومض البرق في الظلماء من إضم

فما لعينيك إن قلت اكفها همتا \* وما لقلبك إن قلت استفق يهم

" انعم سيدي" الطالب سي الطاهر عندما ينتقل إلى تونس لأيام فإننا كلنا ننتقل إلى المسجد العتيق، أول مسجد بُني بقمار، مسجد سيدي المسعود الشابي، حيث ننضم إلى صبيان آخرين به، يقوم بتعليمنا، وتحفيظنا المرحوم بلقاسم بن البرية، الطالب الصبور، اللين، رغم كثرتنا فإنه يصبر علينا؛ ويتغاضى عن شغبنا الذي لا يهدأ، رحمك الله يا بلقاسم بن البرية، أيها الطيب الحميمي. رحمك الله يا سي الطاهر بالسّاء، أيها الرجل الصالح يا خادم كتاب الله، ويأمُحَفِّظُهُ للعشرات من أبناء بلدة قمار، وقد أديتُما الأمانة جزاكم الله خيراً، اطمئننا من أودعتهم الأمانة أذوها بعدكم بصدق وإخلاص.

**رحيل الوالد الأبدي..** بعد وفاة الوالد رحمه الله يوم **09 مارس 1956**.. تحمّلت مسؤولية عائلة تكوّنت من أمّ أرملة وأخوين أصغرهما عمره ثلاث سنوات، وثانيتها عمره عشر سنوات. أمّ في ريعان شبابها تفرّغت لتربيتنا ولم تُعدّ الزواج إلى أن تُوفيت في شهر أوت سنة **1999م** عن عمر **83** سنة..

اشتغلت في ورشات البناء المحليّة مدة من الزمن بثمان زهيد جدا على غرار أتراي؛ وحتى هذه الورشات ما كانت مستمرة، فقد يشغلك أحدُ معاليمها **"\*ليوم، أو يومين ثم يطردك، وقد يشغلك آخر ويُهينك، وتصبر على الذلّ والإهانة رغما عنك؛ فالفاقة تدفعك إلى ذلك. الوحيد الذي كان يستقبل الأطفال والمراهقين ويعطف عليهم ذلك الرجل المحسن المدعو "بوستة.. له ستة**

---

\* - معاليم: مفردتها معلم. المقصود به هنا: صاحب ورشة بناء صغيرة يشغل من عامل حتى عشرة عمال. هو البناء، مادة البناء في ذلك التاريخ الجبس المحلّي، والحجارة المقتلعة محليا من الأرض.

أصابع في إحدى يديه"، كان صاحب ورشة بناء، وله مساعدٌ يدعى المحلو أحميده رحمهما الله، كُنَّا نأتي إلى ورشته باكراً قبل مطلع الشمس، ولَمَّا كان من العسير عليه تشغيل كل الأطفال، يطلب من مساعده أخذ نصفهم معه، والذهاب بهم إلى العمل في البناء الذي كان من الجبس المحلّي والحجارة المقتلعة من باطن الأرض، وخشب سيقان النخيل، فالإسمنت، واللوح، والقوالب الإسمنتية لم تُعرف بعد في ربوعنا حينذاك؛ أمَّا الباقي من الأطفال فَيُبقِيهم ذلك الرجل الطيب معه، يتكرّم عليهم بفتور صباحيٍّ لذيذ: ربع خبزة مستديرة، وكأس شايٍ ساخنٍ منعٍ، وغدا دورهم في التشغيل، وهكذا..

كنت من هؤلاء الصبيان المحظوظين، إذ أسند إليّ لمدّة سنتين دون توقّفٍ أحد حماريه الرمادي، والأسود لجلبِ الجبس من غربي قرية تغزوت إلى أحياء قمار أين تكون ورشته.

**بحثاً عن لقمة العيش..**؛ عندما أفشل في الحصول على عملٍ في ورشات البناء، أتجه نحو ضواحي البلدة البعيدة بحثاً عن الحشائش فأقتلعها، وأعود بها على ظهري أبيعها في السوق غذاءً للماعز الذي كان لا يخلو منه منزل من أجل حليبه، إذ حليب البقر ما كُنَّا نعرفه، وما كُنَّا نسمع به.

ما كنت أتحصّل عليه من بيع الحشيش أسلمه للوالدة، وفي يوم الخميس كنا ننتظر الحافلة القادمة من بسكرة نحو الوادي، فننتظرها بفتارغ الصبر كي نحمل مقابل فرنكات معدودات على ظهورنا ما تأتي به من خضر كالطماطم، والبطاطا، لتكون متواجدة في سوق البلدة يوم الجمعة، شراؤها بطبيعة الحال يكون من "قايد البلدة"، والمعلمين الفرنسيين، والحركي، وبعض الميسورين.

كنت يوم الجمعة أساعد أحد باعة هذه الخضّر من طلوع الشمس إلى آذان المغرب، مقابل مائة سنتيم، وكمية من الطماطم الغير السليمة، والبطاطا المتشققة، والمجروحة أعود بها إلى المنزل فتطبخها لنا الوالدة في قدرٍ من الماء، نقشرها ونأكلها بتلذذٍ كبير، هي الوجبة الأسبوعية الشهية التي ننتظرها بفارغ الصبر أنا وأخوأي.

**بسكرة بؤابة الصحراء:** مدينة بسكرة كانت تمثّل لنا في ذلك العهد "الشمال"، أي التل الذي ليس هو الصحراء، وما كنّا ندري أن بسكرة هي بؤابة الصحراء، أي أنّها بدورها تشكّل جزءا من الصحراء؛ إذ كل ما يأتي إلى منطقتنا، وبلدتنا من أيّ مكان فهو من بسكرة.. بسكرة البعيدة شمالا عن قريتنا بمسافة مائتي كيلومتر. كانت في ذاك العهد نقطة تخزين، وتجميع، وتوزيع لكل المناطق المجاورة، وهي بؤابة الصحراء، وعروس الزيبان..

حتى أصبح كلّ ما يُجلب من هذه المدينة من شاي وسكر، ووقيد (علب أعودا كبريت)، كاربيل\* وخضر يُنسب إليها فيقول أهل منطقتنا: طماطم بسكرة، برتقال بسكرة، بطاطا بسكرة.. ولعل ما هو أعجبٌ من ذلك أن كبار السن الأحياء بقريتنا لا يزالون يرددون هذا النسب لمدينة بسكرة، وإن اعترض معترض وأتى بالبرهان القاطع على أن ما كان يجلب من تلك المدينة ينتج في كل مكان وبال جودة نفسها، أو ربما أفضل، كان الاعتراض.

---

\* - وهي تشبه الكبريت تشتعل بالنار لونها أبيض مانل للرمادي، وعند وضعها في مصباح خصوصي، يُصب عليها الماء فتفور، وتبعث غازًا يُشعل فينبعث الضوء لإنارة البيت.

**استيقاظُ الشعور بمفهوم الوطن: 1- أتذكرُ في السنوات الأولى من العقد الخمسين من القرن العشرين، أي صادفتُ في بعض الدكاكين التجارية أشخاصا من البلدة يتحدثون بصوت منخفضٍ، أو بين أيديهم مطبوعات مكتوبة باللغة العربية، كنت أتعجب من ذلك، إذ كان في ذهني أن العربية هي لغة المصحف، أو لوح التحفيظ فحسب، ليتضح لي بعد الاستقلال أنّ أولئك الأشخاص كانوا من الحركة الوطنية، وأن تلك المطبوعات هي جرائد كانت تتسرّب من تونس، وكذا صحيفة " البصائر " التابعة لجمعية العلماء؛ لم تتضح لديّ في تلك السنوات فكرة " الوطن " إلا في بدايات الثورة لما بدأت أعدادُ كبيرة من العساكر الفرنسيين من رجال درك، وجنود، وضباط، ولفيف أجنبي، وحركي، وعساكر زنوج أفارقة على سيّارات عسكرية، والطائرات العسكرية تنزل وترتفع في المطار العسكري بالبلدة، والسيارات العسكرية بأنواعها المختلفة من المطار إلى مدينة الوادي حيث القيادة العسكرية، والحاكم العسكري لمنطقة سُوف؛ علماً أن المنطقة كانت خاضعة للحكم العسكري حتى الاستقلال.**

**2. بعد أقلّ من سنتين من اندلاع الثورة، ومشاهدة الحشود العسكرية والحركة المستمرّة الهستيرية للسلطات الاستعمارية، اتضح لي الأمر أكثر من خلال معركة " هوّد شيكة"<sup>1</sup> التي تعتبر من أشدّ المعارك التي خاضها المجاهدون ضد المستعمر الفرنسي في منطقة صحراوية تخلو من التضاريس، والمرتفعات وعدم وجود غطاء نباتي، أو جبلي، فالمعركة وقعت في غوط نخيل "بستان للنخيل"، ملكه أحدُ**

---

1 - الشهيد محمد الأخضر عمارة / حمة لخضر/ منشورات المتحف الوطني للمجاهد 2009. ص 11

المعمرين الأوروبيين يُدعى "شيكّة"، قاد المعركة أسد الصحراء القائد الشهيد حمّة لخضر.

معركة هود "شيكّة" المُتصوية ضمن احدث 20 أوت 1955، لمّا أرسلت القيادة القائد حمّة لخضر في دورية لجمع الأسلحة، وقعت ظروف مفاجئة اضطرته إلى خوض المعركة، وكانت من أكبر معارك الثورة الجزائرية، استعملت فيها فرنسا الطائرات والمعدات ومئات الجنود، وقوات اللفييف الأجنبي، دامت من 8 إلى 10 أوت 1955، وفيها استشهد حمه لخضر ومعظم أفراد كتبيته.

معركة دعت الحاكم الفرنسي العام من الجزائر إلى القدوم بنفسه إلى الوادي ليذرف الدموع على عشرات الجنود الفرنسيين الذين سقطوا في أرض المعركة، وخلّد ذلك شاعرُ الثورة المرحوم مفدي زكريا في إلياذته:

أنسى ثلاثة أيامٍ نحسٍ

وسوستال يندب في النائحين

وأخضر يحصد حمر الحواصل

فيها ويقطع منها الوتين

**3** - وكذا معركة "هود سلطان<sup>1</sup>" الذي يقع جنوب غربي بلدة تغزوت المحاذية

لبلديتي يوم 16 جانفي 1956م، استعمل فيها المستعمر الفرنسي الطيران لمواجهة

سبعة مجاهدين كبدوه خسائر كبيرة في الأرواح.

معركتان فتحتا عيني على واقعٍ جديد في المنطقة.

---

1 - الأستاذ عمار عوّادي. الحركة الوطنية والنشاط الثوري بوادي سُوف. ط1. 2011 ص 74

المذياع في بلدتنا: كان ذلك على ما أذكر في منتصف الخمسينات من القرن الماضي، ونحن في بداية المراهقة، عندما بدأت أجهزة الراديو الأولى في الظهور، ذات الحجم الكبير التي تعمل بالبطارية التي تُمَاتِلُهَا حَجْمًا.. تظهر في بلدتنا الصغيرة بعد ان جلبها تجار قلائل معروفون، كثيرا ما سافروا إلى مدينة بسكرة البعيدة شمالا في آخر كل أسبوع متسوقين للخضر والفواكه.

تُجَارُ قلائل سمحت لهم إمكانياتهم المادية، وطبيعة تجارهم الاحتكاك بأوساط أخرى، استطاعوا أن يجلبوا إلى القرية أجهزة الراديو أيام ظهورها، وبدء انتشارها بالبلاد..

من هؤلاء المرحوم لعيس محمد، المكنى " حمّه بابا " الذى كنا ونحن أطفال ندعوه (عمى حمّة) تقرّبنا إليه كي يرضى علينا فيشغلنا معه عمّالاً من الدرجة الثالثة خلال أيام الجمعة حيث تُقام السوق الاسبوعية.

حيث نقضي اليوم معه في ترتيب الخضر، والفواكه، وعرضها بشكل جذاب، وتنقية ما يبدو في طريق التعفن منها، وقد تكون ظهورنا مطية لحمل صناديق، وأكياس مملوءة خُصْرًا قد جاءت بها الحافلة الرابطة بين مدينتي الوادي وبسكرة.

"عمّي حمّه" دائما ساخط، ناغم، شاتمّ القريب والبعيد... حتى وهو يعدّ ما تجمّع من نقود كثيرة ليوم كله خير وبركة، يتدبّر من قبل شروق الشمس، وينتهي بعد غروبها. ذات يوم خرج عمّي حمّه على عادته المعروفة من صمت يُخفى تحته السخط، والغضب اللذين يلمحهما كل من يراه حتى من بعيد..

بدلاً من إلحاحه علينا كعادته بمدح البضاعة جلباً للزبائن، تولّى المهمة بنفسه، وتقلل وجهه وامتلاً بشراً، اندهشنا في بادئ الأمر، فسرعان ما توضّح لنا جزء من الأمر، ونحن نسمعه لا يبي مخاطبا كل من يأنس فيه قرابة أو صداقة:

- لديّ جديد هذه الليلة، هلا شرفّتي بالحضور إلى الدكان بعد صلاة المغرب.

عقب صلاة المغرب مباشرة، وعوداً عن انفضاض المصلين، وتوجه كل منهم إلى حيث تقوده رجلاه توجهت الأثرية إلى دكان عمي حمّه أين وجدوا الاستقبال والترحيب الحارين. مضت فترة قصيرة... اعتلى فيها عمّي حمّه كرسيًا، عالج عدّة أسلاك نحاسية، وما لبث أن ربط طرف واحدٍ منها على نهاية عصاً طويلة، طلب من ابنه تثبيتها في أعلى السطح..

الحاضرون تابعوا ما جرى باهتمام.. ثم عمد إلى صندوق وأخرج منه جسمًا أسود اللون، أقفاله مستديرة الشكل في الجهة العليا، تنتهي بأسلاك سميقة طوؤها لا يتعدّى "شبرَ اليد". توارى عمي حمّه عن الانظار بضع دقائق، ثم خرج مزهوا بنفسه، حاملاً بين يديه صندوقاً خشبه يختلف عن الخشب المعهود، المعروف لدى الحاضرين في الدكان..

امتاز بالملاسة والبريق، تُبّتت على أحد وجوهه مفاتيح، وفي الوجه الآخر برزت نتوءات صفراء مستديرة بجانبها ثقوب دائرية الشكل.

خيّم الصمت على المكان إلا من أصوات بعض من هم بعيدون عن المحلّ ممّن ما لمحوا ما يجري بالداخل.. اشربأت الاعناق.. تفتحت العيون أكثر متابعَةً أصابع عمي حمّه، تضع الصندوق البراق بعناية في مكان الصدارة.. ثم أوصل الطرف الثاني من السلك الممتد الى الأعلى بأحد الثقوب بالصندوق البراق..

بالجسم الأسود بـ"البطارية" بواسطة سلكٍ ثانٍ. فجأة دوى صوتٌ عمى حمّه  
المُشبع زهوا، وعزة بالنفس، وقد أدار مفتاحَ الإضاءة في الصندوق:

- لكم الاختيار أيها الأعزاء في سماع أغاني، أو أخبار عمّا يجري في تونس  
الشقيقة المكافحة، أو المغرب المقاوم للاستعمار الفرنسي، أو أخبارٍ من مصر.  
لكنّه ما ترك الاختيار للحاضرين؛ بل سارع يدير إحدى المفاتيح، وتوقّف عند  
صوتٍ أنثويٍّ رومانسيٍّ:

- هنا القاهرة، أيها الإخوة والأخوات نقدم إليكم النشرة الإخبارية الثالثة لهذا  
اليوم. حطّت المديعة رحالها عند أكثر من نقطة ساخنة همّز العالم يوم ذاك..  
المقاومة المسلحة في تونس والمغرب تزداد توسعا.. الزعيم النقابي التونسي فرحات  
عباس يُغتال من طرف القوات الاستعمارية الفرنسية.. المعارك ازدادت ضراوة  
بالهند الصينية ضد الاستعمار الفرنسي..

الثورة الصينية تخوض غمار معركة البناء على أكثر من جبهة. هي محطاتٌ  
أربعٌ كانت لها بصماتها في إحساسي بأنّ بلدي ليست هي الوحيدة في المعمورة،  
وأنها جزء من بلد أكبر، وأنّ هناك مناطق أخرى غير ربوع وادي سُوف؛ وأن  
هناك بلدانا عربية، كما أن هناك مناطق أخرى غير بلدان العرب.

**نَفَقُ حَيَاةٍ**..: أن تجد نفسك في دوامة الفقر، وشحّ العمل، ولو الشاقّ،  
وتشعر بمسؤولية كبيرة وأنت في عمر **16** سنة تجاه أمٍّ أرملةٍ نذرت حياتها  
لأبنائها، وهي في عزّ الشباب، وأخوين: إحدى عشر سنة، وأربع سنوات، وقد  
شغلت كلّ ما هو معروفٌ ومعروضٌ من عملٍ في ورشات البناء بأجر زهيد  
(خمسین فرنكا) لليوم من الصباح إلى المساء، أو بيع الفول يوم الجمعة في وضعٍ

تنافسيّ حادّ مع من يتفوّقون عليك خبرة، ويفوقونك عمراً، وقوّة بدنٍ أو تقصد في الصباح الباكر بريّة الصحراء بحثاً عن حشائش صحراوية تقتلعها بأصابعك الطريّة من تحت التربة، تملأ بها " الشّارية " تحملها على ظهرك الغصّ، قاصداً سوق البلدة سعياً لبيعها غذاءً للماعز الذي لا يخلو منه منزل من أجل حليبها. تبقى الساعات الطوال تتدلّل لبيعها، أو تجوب الأزقة الضيّقة علّ بعض العجائز يشترينها منك. تعود وقد بعث المحصول يدرّ يهومات قليلة تتباع بها لتلك الأسرة الصغيرة سكراً، شايّاً، قليلاً من الزيت، وقد تبقى لأيام، أو أسابيع دون شغلٍ، ولا دخلٍ.

### 3- عناية.. البوابة المجهولة

في وضعٍ بئسٍ تحياه فرض عليك كما فرض على شعبك من أبشع استعمارٍ، لمّا يعرض عليك أحدهم شُغلاً دائماً ولو خارج بلدتك، فإنك ضمنتَ لنفسك، ولمن في كنفك دخلاً شهرياً يبعث في أنفسهم الأمان والسكينة، وهذا ما حصل لي، إذ في سنة 1957 عرض عليّ المرحوم الحاج أحمد رضوان العمل مع ابنه المرحوم الحاج لخضر رضوان "صانعاً"، أي "عاملاً" في متجر بعنابة، مقابل مبلغٍ ماليٍّ سنويٍّ قدره ثلاثون ألف فرنك، أي ألفين وخمسمائة فرنك للشهر الواحد، إضافة إلى السكن المجاني، والإطعام، ونصف يوم راحة في الأسبوع، ولباسٍ سنويٍّ للعمل يتمثل في سروالين وقميصين، ومنزرتين رمادي اللون يتحمّلان العمل التجاري في متجرٍ للموادّ الغذائية، رفضت الوالدة رحمها الله العرض، متعلّلة ببعدي عنها، وعدم قدرتي على "الغربة" إلا أنّ الحاج أحمد رضوان جارنا طمأنها بأنني سأكون في أمانٍ فلتطمئن، وسأعاملُ معاملة الابن، وافقت الوالدة مُكرهَةً. شرعتُ في الإعداد للسفر بأن خيَّطتُ عند المرحوم عطية بشير، المعروف بالبشير بالزهرة سروالين، وقميصين، إضافة إلى بذلة قديمة كانت محبّاة حصلت عليها من خال والدي عمر بالسود الذي كان عاملاً في مصلحة النظافة ببلدية تونس العاصمة، فكان قبل اندلاع الثورة الجزائرية يزور بلدي، ويأتي مُحمّلاً بالكثير من الملابس القديمة "الشفيفون"، ويوزّعها على أقربائه، ومنهم والدي.

جزائريٌّ صحراويٌّ سافر بجنسية فرنسية: علمتُ فيما بعد أننا سنكون عمّالاً  
ثلاثة في عناية لدى الحاج لخضر رضوان: كاتبُ هذه السطور، والمرحوم باري عبد  
العزيز (ت: 2017م)، كمحامٍ متقاعدٍ، والمرحوم الشايّ الزين (ت: 2015م)،  
كمسؤولٍ سامٍ متقاعدٍ في الخطوط الجوية الجزائرية. بدأنا إجراءات السفر الإدارية  
بأن توجّهنا إلى "قائد البلدة" الذي أرسلنا إلى الحاكم العسكري الفرنسي "  
لادمنستراتور" بمدينة الوادي، بحكم أن منطقة وادي سُوف منطقة عسكرية،  
انطبق عليها الحكم العسكري المفروض على كل الصحراء الجزائرية. سلّمنا  
الحاكم العسكري *laissez passer* بعد تحقيقٍ مُعمّقٍ عن سببِ توجّهنا إلى  
عنايةٍ تحديداً، وإلزامنا على إمضاء على أنّ ذهابنا هو من أجل العمل التجاري،  
وليس هدفاً آخر؛ رخصة المرور من منطقة الحكم العسكري، إلى منطقة الشمال  
الجزائري، منطقة الحكم المدني. سلّمنا لنا رخصة المرور مُرفقةً ببطاقة تعريف بها  
كل المعلومات الشخصية، بما فيها الإشارة إلى أيّ ذو جنسية فرنسية.

الإشكال الذي واجهناه حينذاك طريقة السفر، ووسيلة النّقل إلى عناية،  
وسائل النقل شبه معدومة؛ القطار الرابط ما بين الوادي مروراً ببلدتي قمار  
مُخصّصٌ لشحن البضائع، وهناك حافلتان إحداهما تملكها شركة "دوقليون"  
الإيطالية، وأخرى يملكها السيد "حلاسة" وهو جزائري لكل واحدة سفريّة  
واحدة في الأسبوع، وقد لا تكون بهما مقاعد، وإن وُجدت المقاعد فليس من  
السهل، والحزب على أشدها، ونحن نجهل عالم السفر وأخطاره، فلا بدّ من مرافقٍ  
لنا ذي خبرة يرافقنا إلى أن نصل إلى عناية، ويسلّمنا إلى الحاج لخضر رضوان.

رفقة مع أحد الطيبين: من حُسنِ حَظِّنا في تلك الأيَّام أن حلَّ بالبلدة أحدُ المغتربين بفرنسا، جاء في زيارة لأقاربه، هو خالٌ للخياط بشير عطية، سمع به الحاج أحمد رضوان، اتَّصل به وطلب منه أخذنا معه إلى عَنابة في طريق عودته إلى فرنسا، فوافق. ركبنا نحن الثلاثة رفقة هذا الرجل في حافلة "احلاسة" الرابطة في رحلة أسبوعية بين بسكرة والوادي، نزلنا منها بعد مسيرة ثلاث ساعات، بقرية "اسطيل" نقطة التقاء طريقي الوادي، وتقرت. "اسطيل" الموقع الجغرافي الذي يفصل بين الصحراء الشرقية ذات الحكم العسكريين وبين شمال الجزائر ذات الحكم المدني. كانت محطة القطار تحاذي ثكنة عسكرية كبيرة فرنسية تراقب الكبيرة والصغيرة بالمنطقة، كما أنّها البوابة الوحيدة للمرور إلى منطقتي وادي سُوف، ووادي ربيع، وتقرت، وورقلة، وحاسي مسعود. بالثكنة ترسانة عسكرية من الضباط، والجنود، والآليات العسكرية بكل أنواعها، لمواجهة تداعيات ثورة التحرير، والتحكّم في هذه البوابة الاستراتيجية.

رحلةً أسطوريةً: أن تتمكّن من مرور هذه البوابة بين يدي الجنود المدججين بالأسلحة وكأنك وُلدت من جديد، أدنى حركةٍ منك، أقلّ إشارة تكون هدفاً لإطلاق الرصاص من أحدهم. هويتك بطاقة التعريف المسلمة إليك من الحاكم العسكري، والمثبتة عليها جنسيتك الفرنسية، وعدم حملك لأيّ شيء حتى لو كان طعاماً لك في الطريق. ركبنا القطار الرابط بين تقرت وبسكرة، فمرورا ببسكرة، وباتنة، وقسنطينة، ثمّ عنابة. كلّ محطة للقطار خضعنا فيها لتفتيشٍ، ومُساءلاتٍ طويلة، وتفتيشٍ دقيق. القطار لا يسير ليلاً، وإلاّ تعرّض للهجوم، أو تفجير مساره. قضينا ثلاثة أيام بلياليها في الطريق، بتنا الليلة الأولى في محطة

القطار ببسكرة، والليلة الثانية بمحطة القطار بقسنطينة، والليلة الثالثة بمدينة عنابة، لأن القطار وصل بعد المغرب بقليل فكان قرار حضر التجول. **ثكنة عسكرية..** مدينة عنابة حينذاك، مدينة تعج بالحركة الاقتصادية والتجارية، كما أنها عبارة عن ثكنة عسكرية كبيرة مفتوحة بدايتها الميناء، وآخرها كل مناطق الشرق الجزائري. الميناء خلية نخل، سكان من كل الأعراق. جزائريون من عديد المناطق، مقيمون في المدينة أبا عن جد منذ عهد قديم، كثر فارون من الأرياف والبوادي من جحيم الحرب، تجار من ربوع سوف، ومنطقة ميزاب، ومن منطقة القبائل الصغرى، ومنطقة القبائل الكبرى؛ تونسيون؛ أوروبيون (كولون معمرون) فرنسيون، إيطاليون، مالطيون، إسبان، يهود. المدينة مقسمة إلى أحياء معروفة: هذه عصرية للأوروبيين، تلك قديمة للطبقات الشعبية الفقيرة، تلك لكل فيها تعايش لكن بحذر، وريبة. بقدر ما تمتعت تلك المدينة بالحركة، وفسيفساء الساكنة.

كان وجهها الآخر العسكري الذي حوّلها أشبه بثكنة عسكرية مغلقة من الخارج، في داخل المدينة وضواحيها القريبة، لا تهدأ الحركة العسكرية بدءاً من الميناء الواقع بمركز المدينة قرب محطة القطار الكبيرة، ميناء للسفن التجارية استيراداً، وتصديراً دون توقّف؛ مثلما هو ميناء للسفن والبوارج العسكرية التي تُنزل حمولتها عساكر، وعتادا من مختلف الأنواع، منها ما يستقرّ في المدينة، ومنها ما يغادر المدينة في قوافل، أو على متن القطار صوب الجبال، والبوادي، والمشاتي، أو إلى مناطق أبعد: قسنطينة، قالمة، سوق أهراس، تبسة، الحدود الشرقية. في كل حيّ بالكاد ثكنة للجيش، أو ثكنة للدرك، أو محافظة شرطة، أو

ثكنة للحرس (قارد موبيل)، الدوريات تجوب الشوارع والأزقة، فوهات الرشاشات، والبنادق موجهة، حركات استفزازية تصدر منهم تجاه المواطنين؛ يا ويل من يُبدي ردّة فعلٍ.. عساكر بألبسة مُختلفة: فرنسيون، مرتزقو الليف الأجنبي من كلّ أصقاع الدنيا، عساكر أفارقة (سينيقال) من المستعمرات الفرنسية: النيجر، مالي، السينيقال، تشاد، ومن المستعمرات الفرنسية في المحيط الهادي، (والحركى القومية) أبناء البلد المُجنّدين طواعيةً إلى جانب الاستعمار. الطائرات العسكرية في صعودٍ وهبوطٍ دون توقّفٍ ليلاً نهاراً، من بعيد ترى دخان قنابلها وهي تقبل المشاتي، والقرى، وجبال إيدوغ، المطلة على المدينة، وكثيرا ما تُرى هذه الأعالي مشتعلة ليلا ونهارا لأيام جرّاء القنبلة. أنت القادم من عمق الجنوب الجزائري، من أقاصي الصحراء، حيث الفاقة، وشحّ الموارد الفردية والاجتماعية، النكرة، المجهولة منطقتك لدى سكّان الحواضر، تحالفت عليها شراسة الطبيعة، وقساوة الاستعمار.

أنت القادم من هناك، وقد تصحّرتَ من الدّاخِل منذ أن نزلت إلى هذا العالم، ما عدا لمسات الحنان من والدك، ورفقه بك، وكذا والدتك؛ ما منحتك الحياة بصيص أملٍ، ولا قليلا من الطموح؛ فجأة تجد نفسك في حاضرة من حواضر البحر الأبيض المتوسط؛ بل العاصمة التجارية الساحلية في الشرق الجزائري، بؤابة بلدٍ يئنّ تحت سيطر أبشع استعمار غربيّ كولونيالي، كلّ شيء بيده، وأهل البلد يقتاتون الفُتات.

**عاملُ بثمنٍ بخسٍ..** : تفتحتُ عيناى في اليوم الموالي لوصولي إلى هذه المدينة على عالمٍ جديد ما ألفتُهُ عيناى. استقبلنا الحاج لحضر رضوان مع رفيقيّ في بيته

العامر بحي (لاكولون) بالمدينة، استضافنا، وأكرمنا أحسن إكرام، ثم وجّهنا نحو متاجره، فكان المرحوم باري عبد العزيز في متجر بحي (لاسيقي) بعنابة، وكذا الشّايّ الزين بمتجر آخر بالمدينة؛ أمّا أنا فكانت وجهتي بمتجره خارج المدينة، في حيّ (سيدي سالم.. الملاحه).

قرية تكوّنت آنذاك حديثاً من سكّان أغلبهم فرّوا من جحيم الحرب في الجبال، والمشاتي، والدواوير، وقد فقدوا كلّ ما ملكوه، استقرّوا في بيوت قصديرية، أو كرطونية، بمُروور السنوات العجاف، منهم من بدّها بجدران اسمنتية هشة دون سقوف، وما لبثت بعد سنوات أن أنجزت السلطة الاستعمارية لهم بيوتا أشبه بالبيوت القصديرية في اتجاهات مستقيمة أفقية تفصلها أزقة دون تعبيد، قرية افتقدت إلى المياه الصالحة للشرب، وقنوات التصريف، والخدمات الصحيّة، سكّان شعروا بالحرمان، والفاقة، وانعدام الشغل؛ فما وجدوا غير الالتحام بالثورة، إمّا مشاركين فيها، إمّا مستقبلين للثوار.

.. السّجنُ المحتشدُ: كان ردّ الاستعمار تحويل هذه القرية الجديدة إلى "مُحتشد" أشبه بسجن، بل سجن جماعي، طوّقته الأسلاك الشائكة، والدوريات العسكرية التي ما توقّفت عن الدوران حوله ليلا نهارا، وويح لمن يُعثر عليه بالقرب هناك. في مدخل هذا المحتشد الذي يبعد عن مدينة عنّابة بحوالي ستة كيلومترات، الواقع على جانب الطريق الرئيسي شرقا للمدينة، والمؤدي إلى المطار، والحدود التونسية مروراً بمدينة القالة.

المحتشد يحاصره شاطئ البحر غرباً، في المدخل نقطة عسكرية للمراقبة، وتفتيش كل داخل، ومن يُشكّ فيه يُعتقل مباشرة. غير بعيد من المدخل استقرّت

بناية عسكرية يشرف عليها ضابطٌ عسكريٌّ، رفقة قوَّات عسكرية كبيرة، بجنودها، وآلياتها الحربية من سيارات "الجيب" السريعة، الخفيفة الحركة، وشاحنات "الجمسي" الناقلة للجنود، والمُجنزرات، والدبابات، هذا المركز كغيره من المراكز التي أقرَّتها السلطات الاستعمارية في الشمال الجزائري تدعى "S. A. S.."

#### LES SECTIONS ADMINISTRATIVES SPECIALISEES

أُنشِئت هذه المصالح سنة 1955 من قِبَل الحاكم العام الفرنسي بالجزائر "جاك سوستال"، تمثلت مهمتها في تكثيف العمل الاجتماعي والسيكولوجي للجيش الفرنسي في الأوساط الجماهيرية الجزائرية في الأرياف، والمدن بقصد عزِّها عن جبهة وجيش التحرير الوطني، وقطع صلة الشعب بالثورة. وقد تمَّ وضعُ خريطة لتوزيع مراكز الشؤون الأهلية حسب الأهمية السكانية والجغرافية والاستراتيجية لكل منطقة. رمت السلطات الاستعمارية من وراء تكثيف تواجد مراكز S. A. S، إلى خلق شبكات تجسُّس ومراقبة الشعب، وزرع الخوف لِمَنعِهِ من دعم ثورته.

هذا المحتشد غير بعيد من مطار مدينة عنابة الذي تحوَّل إلى مطار عسكريٍّ به كل أصناف الطائرات الحربية. وأنت القادم من الجنوب، من عمق الصحراء، تجد نفسك متجها إلى هذا المحتشد في عربة شعبية تجرُّها البغال، الوسيلة الوحيدة للنقل الجماعي. رافقي يومها أحد عمال مُستخدمي الحاج لخصر الذي استقدمني من مسقط رأسي، لإيصالي إلى المحتشد.

أمام البوابة خضعنا للاستنطاق من عساكر مدججين بأسلحة فتاكة وأصابهم على الزناد، ويحك إن أطلت النظر إليهم، أو بدرت منك حركة لا

ترووقهم، خضعنا لتفتيش دقيق، ما استثنى حتى الأباوع الحساسة من الجسم، وأنت تُمُدُّ بطاقة هويّتك المسلمة إليك من الحاكم العسكري بالوادي، اطلّعوا عليها، حنّ جنووقهم، تجمّعوا للاطلاع عليها، التّفوا حولي، تهاطلت الأسئلة، تناسل التعنيف، والشتم، أخذوني إلى قائدهم بمركز " لاصاص " للتحقيق الدقيق، وكأنه فهم أيّ قائمٌ دخيلٌ من بلدٍ آخر، لولا ما كُتب في أعلى بطاقة الهوية الشخصية " الجمهورية الفرنسية " و " الجنسية: فرنسية، ثم انتقل التحقيق إلى سبب مجيئ للمحتشد، فسلمّته رسالة من مستخدمِي الحاج لخضر رضوان، كُتبت بالفرنسية، مُمضاة من طرفه، وعليها ختم متجره، حيث شفعت لي؛ وقبل إطلاق سراحِي، هدّدي الضابطة إن لم أستخرج بطاقة هوية من (العمالة بالمدينة) في أسرع وقت، سأتعرض للاعتقال.

في حالة حرب؛ وجدّتي في هذا المحتشد أعمل في متجرٍ يقع مقابل ساحة رئيسة تعجّ بحركة الساكنة، والعساكر في ألبستهم الميدانية، وعلى سياراتهم، خاصة ليلا من الساعة السابعة حتى الساعة الخامسة صباحا، في هذه الفترة الليلية يُطبّق قرار " حضر التجوّل .. " وجدت نفسي في هذا المتجر مع المرحومين ابني بلدي قمار: المرحوم خرفي علي، والمرحوم هالي السعيد؛ الأول وكُلُّه مالك المتجر على تسييره، وضبط المداخيل، ومسك الفواتير، وتحديد، وضبط البضائع التي يحتاجها المتجر، وإرسال الاحتياجات إليه كي يرسلها إليه في عربات، أو شاحنات مُخصّصة لهذا الغرض.

نفتح المتجر مباشرة إثر انتهاء وقت حضر التجوّل، وكذا سماعنا مُغادرة السيارات العسكرية التي كانت جاثمة وسط الساحة، وضجيج العساكر، عملنا

وقوفاً يتواصل من الساعة الخامسة صباحاً حتى الساعة السابعة مساءً كل يوم، حتى حلول وقت حضر التجول.. نلبي طلبات الزبائن الكثيرة، بكميات قليلة نتيجة الفقر، والاحتياج، وظروف الضغوط، وتداعيات حرب التحرير؛ طلبات من مثل: "السوفي أعطني ربع ليتر زيت"، "السوفي أعطني مائة غرام قهوة"، "أعطني نصف رطل سكر"، "اعطني كلغ سميد عولة\*"، "السوفي أعطني نصف رطل مقرونة."، "عائلات فقيرة تبتاع صباحاً ما تعدّ به طعام الغداء، تتكرر نفس الطلبات مساءً لإعداد طعام العشاء.

المتجر كان خالياً من كلّ مستلزمات معيشة الآدمي، لا بيت خلاء، فالمقهى القريب ضالّتنا، لا مطبخنا، تحّت المقصف "الكونتوار" عادة نُعدّ طعام العشاء، في القيلولة نكتفي بلمجة خفيفة، لا مكان للنوم، فالنوم في أيّ فضاء فارغ من المتجر فوق أكياس السميد الفارغة.. لكلّ واحد منا نصف يوم راحة في الأسبوع، فيما يخصني صباح يوم الإثنين أتوجّه باكراً إلى مدينة عنّابة، من ساحة محطة القطار، نهاية الرحلة من سيدي سالم، أين تتوقّف وسائل النقل، أتوجّه نحو "دوش" القبائلي، وبعد التدويش أزور متاجر لسوافة يعمل فيها بعض الذين أعرفهم، نتحدث عن ظروف العمل، وأخبار البلدة.

**عطلة الأسبوع:** قبل منتصف النهار أتوجّه إلى منزل مستخدمي لتناول طعام الغداء معه، وأداء صلاة الظهر، ثم التوجّه نحو ساحة محطة القطار، حيث عربات النقل الجماعي المجرورة بالأحصنة للعودة؛ علماً أنّ مصاريف هذه العطلة

---

\* - سميد عولة: دقيق رخيص مكوّن من النخالة، وقليل من القمح، وكثير من المستورة.

الأسبوعية النصفية على حساب المتجر: مائة فرنك للنقل ذهاباً وعودة، ثم التدويش خمسون فرنكا، مائة فرنكٍ مصروف الجيب لتناول مشروب لي، وربما لصديق قد أصادفه. الحياة في المتجر تعبٌ وإرهاقٌ، ورعبٌ في الليل، في آية لحظة قد يدق العساكر الباب، قد يحطّمونه في رمشة عين، ويرمون بنا في شاحنة "الجمسي" العسكرية إلى وجهة مجهولة، مثلما ينفذون في أغلب الليالي، بمجرد دخول وقت حضر التجول، تخلو الساحة، والأزقة من البشر، ويعمّ صمتُ الساكنة وحركاتهم، وحتى أصواتهم.

في متجرنا يُطفأ النور، وتنعدم الحركة، التواصل إلا بالهمس. كبيرنا المرحوم خرفي علي يفتح المذياع على إذاعة "صوت العرب" بصوتٍ منخفضٍ من القاهرة، وصوت عيسى المسعودي يردد عن انتصارات الثورة الجزائرية في جانبها الدبلوماسي، وفي جانبها العسكري، معارك حربية في كل شبرٍ من الجزائر، الفدائيين والمستبّلين في المدن والبلدات وسط تواجد الكولون، والمعمرين، وعملائهم، الإعلان عن سقوط الخونة والعملاء على أيدي الفدائيين.

**عيسى مسعودي.. نشيد الثورة:** كنت أستمع إلى عيسى مسعودي وأنا من جهة أرتعد رعباً علّ العساكر يسمعوننا، وأشعر بالنخوة والعزة والثورة المجيدة تحقّق كل يوم انتصارات، بدأت من خلال ما أراه، وأعايشه من ظلمٍ وهنجعية واحتقار، وتنكيل للإنسان الجزائري من طرف استعمارٍ بشع.

تزايد نزوح المواطنين هروبا من جحيم الحرب، وتزايد عددهم، وأكواخهم، وصعب على الاستعمار المراقبة والتحكّم في حركة الساكنة، ممّا ساعد المجاهدين على التواجد، والتغلغل؛ بل والقيام بأعمال فدائية لتصفية بعض العملاء داخل المختشد، كما القيام بهجمات على مراكز الجيش المتواجدة في المختشد، وخارجه،

فسارعت السلطة الاستعمارية إلى بناء مجموعات سكنية رخيصة، مسقوفة بلوحات اسمنتية، خلت من البلاط، ونظام تصريف مياه الصرف والمياه، ضيقة، لا تزيد على الغرفتين؛ أحياء تفصلها شوارع واسعة، مضاءة إضاءة شاملة وقوية حتى تتمكن الدوريات العسكرية، والسيارات، والشاحنات من التنقل السريع، والملاحقة، ومراقبة السكان، والتحكم ليلاً في تطبيق قرار حضر التجول.

غير أن ما تعيّنهُ السلطات الفرنسية المدنية وخاصة العسكرية من شدّ الخناق على الساكنة، ومراقبة كل التحركات من خلال الدوريات المتواصلة نهاراً، وتحركات العساكر المدججين بالأسلحة في الجزرات، وتمركز الدبابات وإطلاق الرصاص للتخويف؛ وتسريب عملائها الخونة بألبستهم المدنية وسط السكان، ما تحقّق؛ بل ازدادت هجومات المجاهدين على كل المراكز القريبة من المدينة، ومن المطار، ومحاذاة المحتشد، وحتى داخله لتصفية أعوانه.

**أيام جهنمية:** في بداية 1958م شدّدت السلطات الخناق أكثر، إذ لجأت إلى اقتحام المنازل ليلاً، وعمليات الاعتقال العشوائي، ومداهمة التجمّعات كالأسواق، والاستنطاق العشوائي، وتجميع الرجال في الساحة المركزية المحاذية لـ: (S. A. S)، تنتهز قرار منع التجول، وتخرج كل الرجال بداية من الساحة الرابعة صباحاً في جُنْح الظلام، من بيوتهم بالقوة، والدفع، وسوق الناس كالأنعام نحو الساحة، ويُرغم الجميع على الجلوس أرضاً متراصّين، وأيديهم على رؤوسهم في الساعات الأولى، ويتواصل الاحتجاز طوال النهار كيفما كان الفصل حتى الساعة السادسة مساءً تحت القرّ الشديد، أو الشمس الصيفية الحارقة، وويل لمن يتحرّك، أو يشتكي مرضاً، أو يطلب قطرة ماء.

العساكر المدججون بالأسلحة منتشرون حول الجميع، وبينهم. وسط الساحة توقفت منذ الصباح شاحنات الجمسي العسكرية المغطاة، وسيارات الجيب السريعة الخفيفة في حركات هستيرية، أصواتها أصمّت الأذان، في اتجاهات مختلفة ذهاباً وإياباً. ما أن اقترب منتصف النهار حتى وصل الضابط الكبير الذي كانوا في انتظاره، وقد نُصبت طاولة كبيرة جلس على جانبها عددٌ من الضباط الأقلّ منه رتبة، ووراءهم عربة عسكرية مكشوفة جلس فيها شخصان كل واحدٍ منهما ملفوفٌ داخل كيس خيشٍ لا يظهر من جسمه غير عَيْنَيْنِ تلمحان المارّ أمامه.

ما أن أعطى الضابط الكبير الإشارة وانصرف حتى شرع العساكرُ بإيقاف السكان المنهكين على دفعاتٍ، ودفعهم صفّاً، صفّاً مع الرُّكل، وضرب ظهورهم بأعقاب البنادق نحو الطاولة أين جلس الضباط، ووراءهم "بوشكارا"، يقف الرجل أمام الضباط، يُستجوب عن اسمه، وعمره، ومقرّ سكنه، وشغله إن كان يشتغل، ثم يلتفت الضابط إلى بوشكارا الأول، إن أشار بالنفي بحركة رأسه، يلتفت إلى الثاني، فإن أشار بالنفي بدوره يُدفع الواقف أماما، ويُطلب منه العودة إلى مكانه، أمّا إن أشار أحدهما بإشارة الإيجاب برفع رأسه، وإنزاله، ويُبلّ للواقف من تلك اللحظة أمام الجميع، تبدأ الركلات، والضرب القويّ بأعقاب البنادق، ويُرمى في شاحنة ككيس اسمنتٍ، الكلّ يرتعد رعباً لأنّ الرميّ في الشاحنة

---

• - يُطلق خلال الثورة على هذا الشخص "بوشكارا"، هو عميل من عملاء الاستعمار، من السكان يعرف الكثير عنهم، يبلّغ عنهم في الأيام العادية، وتلجأ إليه أيضاً في مثل أيام تجميع السكان.. هو "قواد".

المشؤومة غالبا ما يُطلق عليه رحمه الله، القليل في مثل هذا التجميع والاعتقال من ينجو من الموت.

أهي معايشة مرّة.. أم خبرات حياتية؟؛ فيما خصني كانت معايشة تجربة مرّة، وأنا الفتى القادم من فيافي الصحراء، أجد نفسي مدفوعا بقوة السلاح، وأنا الأعزل، الأمي في السياسة وفنونها، القادم من أجل رغيغ خبز لوالدة أرملة، وأخوين صغيرين يتيمي الأب، أجد نفسي في أتون حربٍ ضروسٍ، إنما كنت أطمئن نفسي بأن الاستعمار لجأ إلى هذه الأساليب الوحشية، إلا رد فعل على ضربات الثورة له. دُفعت كغيري، وملت من الشتم، والركل، والضرب بأعقاب البنادق، وقفت أمام الضباط، وسئلت كغيري.

لا زلت أذكر كيف كان قلبي يدقُّ، وأنا أرتعد رعبا، و"بوشكاران" يدققان النظر في؛ ما أن أشارا بإشارة النفي حتى تنقست، وما شعرت بالركل والشتم، وأنا عائذٌ إلى مكاني. تكرر هذا التجميع الجهني حسبما أذكر ثلاث مرّات سنة 1958م.

في المرّة الثالثة أطلق سراحي قبل بداية الاستنطاق أنا وعددٌ كبيرٌ ممّن هم في سني، وكان الجو حاراً جداً. من خلال بناء هذه المجموعات السكنية فتحت مناصب شغل للكثير من سكان المحتشد الذين تُدفع لهم أجورهم آخر كل اسبوع، فيقبلون على ابتياع حاجاتهم الأساسية من المتاجر، ومنها متجرنا الذي قرّر مستخدمنا الحاج لحضر رضوان استبداله بمحلٍ آخر من المحلات التي أنجزتها السلطة الاستعمارية موازاةً مع المجموعات السكنية. انتقلنا إلى المتجر الجديد الذي ازداد فيه عدد المشتغلين: كاتب هذه السطور، المرحوم محمودي معمر، المرحوم باري محمد "بيّوض"، دادة عبد العزيز، ثم أخوه فيما بعد المرحوم إبراهيم.

من كانا معي في المتجر الأول: المرحوم هالي السعيد انتقل إلى العاصمة، المرحوم خرفي علي انتقل إلى عنابة. ألفتُ نفسي مع وجوه جديدة كلهم من بلدي قمار، عمّالٌ تحت إمرة صاحب المتجر المقيم في مدينة عنابة، وقد كلف دادة عبد العزيز الذي يُجيد اللغتين العربية والفرنسية بتولي أمور المحاسبة، والتعامل مع الممولين. كنت أنا العامل الصغير السنّ في المتجر، عامل الانسجام بيننا شبه غائب، بعضهم رأني غرّاً قليل الخبرة، فكانت المعاملة القاسية، أحيانا السخرية.

كثرت مبيعات المتجر، ازداد عدد الزبائن، كنت كغيري أعملُ دون توقّف من الساعة الخامسة حتى السابعة مساء، لا راحة، فما أن يحلّ الليل وأتناول طعام العشاء البسيط حتى أخلد إلى النوم فوق كومة أكياس للسميد أفرشها. فيما يخصّ التغذية كان الدور في كلّ ثلاثة أيّام يأتي على واحدٍ منّا، أجد نفسي ملزماً بتعلّم الطبخ، وأنواعه، ومراحله، تعلّمت أن أطبخ الكسكس، المقرونة، الشربة، الدشيشة، مرقة البطاطا، القهوة، الشاي.

من الطرائف التي لا زلت أذكرها أن المرحوم باري محمد "بيّوض" كان يحبّ شربة "الحمصة" حبّاً كبيراً، كان يلزمني خلال مداومتي إعدادها مرّة كل يوم، فإذا امتنعتُ، تولّى هو الدور فكان يطبخها كل يوم؛ من تلك الحقة أكره "الحمصة" حتى يوم الناس هذا.

**تَقَشُّفٌ مِنْ نَوْعٍ مَبْتَكِرٍ:** من المفارقات التي لا زلت أذكرها في مجال غذائنا، أنّ الكبار منّا أجبرونا على التقشّف، رغم أن مبيعات المتجر، وارباحه في ازدياد؛ من ذلك أنّ مادّة اللحم ممنوعة، ما عدا مُخلّفات التي لا يشتريها الزبائن، أو يتخلّى

عنها الجزارون كأطراف العظام، أو الجلود الملتصقة بها بعض اللحم، يطلق عليها جزائريا (الهداوش)، الفاكهة بأنواعها ممنوعة علينا.

ذاك التقشّف ليس مفروضاً من المستخدم؛ إنما من كبار السنّ منّا بزعم حفاظا على الأمانة. من المفارقات التي بقيت عالقة بذهني، أنّ الواحد منّا إذا رغب في شُرْب قازوزة من المتجر، العصائر غير موجودة حينذاك، أو أكل قطعة شوكولاتة، أو أيّ مادة يرغب فيها من المتجر، فلتكن على حسابه، وتُسجّل في دفترٍ خاصّ به؛ ثمّ تُخصم له من مدخوله السنوي.

**شركاء... لا أجراء:** في بداية سنة **1958م**، ارتأى المرحوم الحاج لخضر رضوان صاحب المحلّ لَمّا رأى أن الأرباح تضاعفت بالمحلّ أن يشركنا فيها، ونحن فينا من يتقاضى أجرة شهرية قدرها **2500 فرنك (سنتيم)** كحالي، ومن يتقاضى **8000 فرنك (سنتيم)**، ارتأى أن يُشركنا جميعا في نصف الأرباح السنوية بأنصبة متساوية، ويأخذ هو النصف الآخر.

في آخر السنة اقتسمنا هذا النصف بالتساوي نحن الأربعة عمّال: كاتب هذه السطور، دادة عبد العزيز، أخوه المرحوم إبراهيم، المرحوم محمودي معمر؛ كان نصيبي **550.000 فرنك** بعد خصم المصاريف الشخصية المذكورة أعلاه، مبلغ كبيرٌ يدفع المرء إلى العمل أكثر، وتغيير نظرتي على أنّ هذا المتجر شريكٌ فيه، بل ملكٌ له.

كان الأمر كذلك ممّا ساعد أن ارتفعت الأرباح في السنة الموالية **1959** فحصل كلّ واحدٍ منّا **600.000 فرنك**. في هذه السنة الأخيرة نتيجة كثرة العمل، وظّف صاحب المتجر عاملا آخر، كأجير شهري بـ: **10.000 فرنك** من البلدة قمار، بمرور الشهور، وبعد معرفته للكبيرة والصغيرة، خطّط بشيطننة إلى زرع

الشقاق داخل المجموعة، الأخوان دادة صُعب عليه الاقتراب منهما لأُهما توسّطا له في منصب العمل، المرحوم محمودي صُعب عليه لأنه صلبٌ وشرسٌ، جعلني أنا نصّب عينيه لإزاحتي، وإخراجي من المحلّ؛ وقد نجح في الوقيعة بيني وبين محمودي، فكانت الخصومات بيننا يوميا؛ ممّا حملني على التفكير بحثًا عن اتجاهات أخرى؛ ولما اشتدّ الأمر شكوت إلى الحاج لخضر الذي صبرني؛ بل عزم على طرد ذلك العامل نهائيا من المحلّ، فرفضت ذلك حتى لا أكون سببًا في قطع خبزته.

**عناية .. المدينة النابضة حيوًا! !:** أحيانًا تظهر في حياة الإنسان صُدفٌ ما كان ينتظرها، أو تأتي على باله؛ ففي أواخر سنة 1959م جدّ جديدٌ في مسار حياتي، حيث كان شقيق مستخدمٍ رضوان محمد العيد بحوزته متجرٌ صغيرٌ يعمل به في ساحة الحي الشعبي القديم بالمدينة، حي "لابلاص دارم la place d'arme"، واقعٌ في الجهة المقابلة لجامع الباي، محلّ صغير في حيّ مكتظّ بالسكنة، كان بحقٍ مَحْضًا للثورة، وتواجد الفدائيين، والمسبّين، محاذيا للساحة الكبيرة بالمدينة المسماة قبل الثورة بـ"الكور" LA COUR التي أُطلق عليها بعد الاستقلال ساحة الثورة، هذه الساحة كانت معقل الكولون المعمرين من الفرنسيين، المالطيين، الإيطاليين، الإسبان، اليهود، تواجدت متاجرهم الراقية، فنادقهم، مطاعمهم، مقاهيهم، مساكنهم في العمارات المتعددة الطوابق، الساحة تطلّ على الميناء من الجهة الشرقية.

في تلك المنطقة، خاصة زمن الثورة كان المارُّ يشاهد كل أسلاك الأمن، والعساكر، الكلّ مدجّجٌ بالسلاح، وعلى أهبة الاستعداد للانقضاض على من بدت منه أية حركة مشبوهة، فضلا عن الأعوان السريين والعملاء من الجزائريين.

كانت المنطقة شبه مُمنوعة على الجزائريين، كانوا يحاولون عدم المرور فيها إلى الأحياء الأخرى، وإلى السوق المركزي، مختارين اتجاهاتٍ أخرى.

بدا لي أنّ رضوان محمد العيد اتصل به رجال الثورة، بدل أن ينضمّ إليهم استشار أخاه مُستخدمي، رفض الفكرة، وقرّر وإيّاه التخلّص من المتجر الصغير، ومغادرة الحيّ في أسرع وقتٍ. كنتُ حدثتُ كثيرا محمد العيد عن علاقتي المتوترة دائما مع محمودي معمر، وكَيْد ذلك العامل الغير الشريك الذي أضيف إلى المحلّ، محمد العيد وجدها فرصة ساحة فعرض عليّ بيع عتبة المحلّ بثمنٍ ميسرٍ، شريطة فقط أن أقبل ما فيه من بضاعة، وأن أسلمه ثمنها المشتراة به، فقبلتُ؛ ولَمّا سمع أخوه الحاج لحضر مستخدمي، رفض، وطمأنني بأن تكون وضعيتي أحسن، وذلك بطرد ذاك العامل، رفضتُ، وأصررتُ على المغادرة فكان لي ما أردتُ على أن أنتظر آخر السنة حيث تُقيم الأرباح السنوية، ويُسلم لي نصيبي.

**في قلب المدينة القديمة:** في بداية سنة 1960م وجدت نفسي في قلب مدينة عنابة، في حيّها الشعبي محضن الثورة الجزائرية، أملك متجرا صغيرا لا تزيد مساحته عن الثلاثة أمتار عمقا، ومترين ونصف عرضا، في أعلاه تُبنت مصطبة "سدة" عرضها متر ونصف، وطولها متران ونصف، اتخذت منها مكانا للنوم، وفي زاوية منها مكانا للطبخ. هذا المتجر الصغير في قلب المدينة القديمة من عنابة" لا بلاس دارم"، يقع في مضلع الساحة المربعة، المقابل لجامع الباي العتيق، الذي يعتبر معلما عمرانيا، ودينيا من معالم المدينة.

هذه الساحة المربعة حينها، كانت خلية نحلٍ بتواجد متاجر الفرنسيين، واليهود، والإيطاليين، وغيرهم، وحنانهم، ومطاعمهم، والمخابز، كما كان لبعض

الجزائريين متاجر للمواد الغذائية. منذ الصباح الباكر، وانتهاء حضر التجول تبدأ الحركة سريعا في هذه الساحة، حيث تفتح المتاجر، المقاهي أبوابها، ثم يأخذ باعة الخرداوات، والأشياء القديمة يضعون ما يبيعونه على الأرض.

**حيُّ التعايش**..: الحركة في هذه الساحة صنعها الكلّ؛ في المساءات تضاعف عدد رواد الساحة، خاصة في عُطل الأسبوع: السبت، الأحد بنزول العساكر الفرنسيين، والجنود السود المجندين من إفريقيا، وعساكر اللفييف الأجنبي؛ ضفّ إلى هذه الفسيفساء من البشر في هذه الساحة مُخبري الاستعمار، وغيّونه من فرنسيين، وأوروبيين معتمّرين، وجزائريين. في هذه الساحة العامرة بكل الوجوه: جزائرية، أوروبية، إفريقية وجدت نفسي أملك محلاً لبيع الملابس الداخلية الرجالية، والعطور، وأغلب علامات التبغ المصنوعة في الجزائر وفرنسا، والبطاقات البريدية لأغلب مناطق مدينة عنابة، وضواحيها.

رواُج هذه البضاعة كان متوسطا، إنّما البطاقات البريدية كانت في الصدارة للعساكر الفرنسيين، وجنود اللفييف الأجنبي لأنهم يرسلونها إلى ذويهم كوسيلة تذكارية، وكأداة مراسلة؛ من خلال تعاملي مع هؤلاء وغيرهم من الفرنسيين بدأت أتواصل معهم باللغة الفرنسية بصعوبة في البداية إلى أن صار الأمر سهلا، ممّا سمح لي في التواصل أكثر مع العساكر، لتبدأ مغامراتي الثورية معهم.

## 4. الثورة.. شرفتي

أخفى عليّ المرحوم رضوان محمد العيد شقيق مُشغلي في سيدي سالم أنّه عرّض عليه من طرف مسؤولي الثورة الاشتغال معهم، فعرض الأمر على أخيه، فلم يطاوعه، وأصرّ على التخلّص من المتجر ببيعه على أوّل راغب كما أسلفت. عرض عليّ محمد العيد الأمر، وهو العليم بعدم رغبتني البقاء في سيدي سالم، عرض عليّ شراء المحلّ، وافقتُ، تساومنا إلى أن وصلنا إلى سعرٍ مرصّ. سمع الحاج مُشغلي، رفض بيع المحلّ لي أنا بالذات، لأنه رأى أيّ سأثورّ فيما لا يُحمد عقباه في ظنّه، وهذا ما سمعته منه دون أن يُفصح عن خشيتيه من تبعات الثورة عليّ، ولما أصررتُ تعهد لي بأنّ كلّ من يضايقني في متجر سيدي سالم يُنهي مهامّه، لأنني في رأيه أقدم منهم، وأنّ هو الذي جلبني من مسقط الرأس قمار؛ إلا أنّ عرضه لم يعرني، لأجد نفسي كما أسلفتُ في مدينة عنابة أملك عتبة محلّ تجاريّ خاصّ بي، ولحسابي، لا يشاركني فيه أحدٌ.

**محضنُ الثورة:** في الوقت الذي استقررتُ في هذا الحيّ الشعبي اشتدّ هيب الثورة التحريرية، امتلأت المدينة بالقوات الاستعمارية، كما قوات الدرك الفرنسي، والشرطة الفرنسية، وقوات الاستعلامات السرية وغير السرية تواجدت في كل مكان ليلاً نهاراً، كما الدوريات المتنقلة، والراجلة، والمُخبرون المتعاونون، وأزيز الرصاص ما هداً، والأخبار في كل يوم منذ الصباح الباكر تُتناقلُ سرّاً، أو

هَمَسًا بين السكان بأنَّ عملية فدايية وقعت في هذا الحي، أو ذاك، أو أنّ خائنا نُقِذ فيه حُكْم الإعدام، أو أنّ قنبلة أُلقيت في حانة بالشارع كذا، وكان عدد الموتى من المعمرين، أو من الفرنسيين كذا، وكذا. وُحِيلَ للمرء أن المدينة هادئة، وإذا بصوت انفجار في جهة ما، أو حيِّ ما، وقد تكون قاطعا لساحة " لا كور" من جهة "لابلاز دارم"، إلى الجهة الأخرى مروراً إلى شارع " قامبيتا" شارع ابن خلدون حالياً، أو غيره من شوارع وسط المدينة، حيث تكثُر العمليات الفدايية؛ فتُفاجأ بفرار المتواجدين بهذا الشارع إلى الشوارع الخلفية نَجاة بأرواحهم من الرصاص الذي يطلقه رجال الشرطة، أو العساكر تجاه فدائي نُقِذ عملية فدايية، وهم يصرخون، وغالبا لا يتمكنون منه لأنه ليس وحده؛ إذ الحماية متوقّرة له سواء من رفاق له يردّون بدورهم على تلكم القوّات، أو أنّه يلجأ إلى عمارة قريبة، أو أنّ سيارة تنتظره في زاوية شارع خلفي.

في الجهة المقابلة للمدينة تتراءى لك سلسلة جبال " إيدوغ " الشامخة الحاضنة للمدينة جنوباً مثلما البحر يحضنها شمالاً. جبال إيدوغ الحاضنة للمجاهدين البواسل، والحاضنة للثورة من خلال غاباتها الكثيفة، وشعابها، وكهوفها، ومنخفضاتها، ودروبها الوعرة كانت مأوى أسود الثورة، وكانت حُفّ جنود المستعمر، كما كانت مقرّ الناحية الثالثة القيادية للثورة في منطقة عنابة وضواحيها، ومصدر تأطير السكان، وتجنيدهم إلى جانب الثورة. لا غرو أن تكون هذه الجبال هدفاً للمدفعية العسكرية، وغارات الطيران العسكري منذ بزوغ شمس كل يوم إلى حين غروبها، فترى أعالي الجبال، ومنحدراتها وغاباتها مشتتلة ليلاً، والأدخنة تصاعد مُغطّية بمالات سوداء تلكم الجبال؛ بل وحتى

السفوح المطلّة على المدينة؛ طائرات عسكرية مختلفة الأنواع، وفي صدارتها الطائرة المعروفة الشرسة B. 52 المُقبلة لا تفتأ صاعدة، هابطة. المواطنون في تلك الحقبة إذا ما رأوا منذ الصباح الباكر تلك الطائرات تغادر المطار القريب من المدينة، الذي يبعد عنها بحوالي عشرة كيلومترات بأسراب في اتجاه جهة ما، شرقا، أو غربا، أو جنوبا يستخلصون أنّ ذلك اليوم سيكون يوماً جهنميا على القوات العسكرية الفرنسية، وانتصارات للمجاهدين، وستشهد المنطقة حركة للعساكر، وتحركات لعتادهم، وآلياتهم.

أطراف متباينة من الساكنة: في ذلك الجوّ وجدت نفسي في مدينة عنابة، وفي حيّ من أحيائها الشعبي الكثير الحركة، والمتواجدة فيه كل أطراف الساكنة من جزائريين، ومعمرين، وأعوان الأمن الفرنسيين، والمخبرين، والعملاء من الجزائريين، العيون مفتوحة ومندسّة أينما مشيت، ومتى تحركت في أيّ شارع، في أيّ زنقة. أفتح باب محليّ الواقع في الضلع الغربي للساحة، الضلع المقابل لجامع الباي، ضمن مجموعة من المحلات، والمقاهي التي تغطّيها أقواس، وفي الطوابق العليا مثلما الأضلاع الأخرى يقطن الكثير من المعمرين، وكذا الجزائريون، توجد في الجهة المتواجد بها مطعم، مقهى، فطائري تونسي، وغيرها من محلات أخرى للحلاقة، للموادّ الغذائية؛ أفتح محليّ عادة الساعة السابعة، فيقبلُ الزبائن من رواد المقهى، يتعاونون في الغالب السجائر، هذا علبة، وذاك سيجارة واحدة، وهذا سيجارتين، وهكذا إلى أن ترتفع الشمس، تكثر حركة العابرين للساحة، أو الماكثين بها في المقاهي، أو المتردّدين على باعة الأرصفة في الساحة، إذ تتنوع مبيعاتي من السجائر إلى العطور، فالملابس الداخلية الرجالية. بمرور الأيام

تأقلمتُ مع حركة الحَيِّ، ورؤاده، وقاطنيه، كما أُنِي برمجتِ وِقْتي كأوقَاتِ العمل، والنوم، وأداء صلاة الظهر، العصر، المغرب في جامع الباي القريب، المقابل؛ إلا صلاتي الصبح، والعشاء فإن زمنهما زمن حضر التجوّل. في المساءات تتضاعف الحركة، ويكثر الرّواد بتواجد العساكر بأنواعهم المختلفة التي تميّزهم بزّاتهم العسكرية، يكثر إقبالهم عليّ لأن محلي هو الوحيد في الساحة الذي يجدون فيه ما يهتمهم من ملابس داخلية، وعلطور، وخاصة البطاقات البريدية التي يبتاعونها بأعداد معتبرة، ويرسلونها إلى ذويهم. ما مرّ غير حوالي شهر حتى كثر زبائني، سيّما العساكر، فأضفت أنواعاً أخرى من العطور، والملابس الداخلية، وبطاقات البريد. ممّا أذكره أن بعض أولئكم العساكر من كثرة مجيئهم إليّ صارت تربطني بهم علاقة تعارف، أسألهم من أيّ منطقة بفرنسا، أو من أي بلدٍ إن كانوا من اللّيف الأجنبي، نتيجة تلكم العلاقة يأتون إليّ في بعض الأحيان، وليس بأيديهم نقود، فأمدّهم بما يحتاجون، وللأمانة فإنهم بمجرد ما يستلمون مرتباتهم الشهرية يدفعون ما عليهم.

.. مع نسَمَاتِ افْتِكَاكِ الحَرِيَّةِ: ذات يوم جاءني شخصٌ تردّد قبلُ على محليّ كم من مرّة اشترى سجائر، لكنني ما أعطيتُهُ أهمية، بالنسبة إليّ هو زبون كغيره، هذه المرّة دخل معي في حديث عن التجارة وأهميتها، وسألني عن الزبائن ومشترياتهم، والزبائن المتردّدين أكثر عن المحلّ، سألتُ بأسلوبٍ حميميّ حتى لا يساورني الشكّ فيما تَعَبَّاهُ؛ كانت إجاباتي متحفّظة نوعاً ما. تتالت زيارات هذا الشخص لي، ودخوله معي في أحاديث بدت أحياناً لي تافهة، وبدت لي في أحيان

أخرى ذات أهمية، باقتزابه عن الحديث عن ظلم الاستعمار الفرنسي، واستيلائه على كل شيء، وحياة الأوروبيين المختلفة عن حياة الجزائريين، والفقر، والأمراض التي يعاني منها هؤلاء، ووجوب عدم السكوت، والإذعان لهؤلاء الظالمين، بالاندماج في الثورة، والجهاد في سبيل الوطن، واسترجاع الحق المفصوب.

إلى أن قدّم لي نفسه ذات مساء يوم من بدايات شهر جانفي 1960م على أنه من رجال ثورة التحرير، وأنه مسؤولٌ في حي "الابلازدارم"، وساحة "لاكور" المركزية بالمدينة، وما كان يُحيط بهما من شوارع، وأزقة؛ وحتى يدفعني إلى الاندماج، وكأنه يقطع عني التردد، والخشية أشار إليّ بأن من كان قبلي في المحلّ، وقصد المرحوم رضوان محمد العيد كان منظماً إلى الخلية.

أتذكّر أنّي ما شعرت بخوفٍ أو ترددٍ يومها، وافقت على الانضمام، وعاهدته على أن أكون عاملاً مُجدداً، صادقاً في مساعي، مضحياً من أجل الوطن؛ كان مفهوم الوطن كما أسلفتُ بدأ في التبلور لديّ، وأنا في مسقط الرأس، إنّما مُدّ وجودي في سيدي سالم، ومعايشتي لما رأيته من جبروت وظلم الاستعمار؛ ثم اندماجي في المدينة، وملاحظاتي لحيوات الجزائريين، ورفاهية أولئكم، وامتلاكهم لكلّ ما على الأرض، وما فوقها، وما تحتها.

**تجدّر مفهوم الوطن**؛ مفهوم الوطن أخذ بتوالي الأيام يتجدّر لديّ، ويترسخ في العمق؛ مفهوم الجزائر ما كان متداولاً حينها في تلكم السنوات، والشهور حتى عند غيري، اتضح عندي إلا عندما كنت فيما بعد في السجن، واختلطتْ بالآلاف السجناء في سجن "لامبيس" ضواحي باتنة. عرفت ذلك الشخص الذي زارني العديد من المرّات، واستطاع بحسبه الثوري، وصدقه، وغيرته على الوطن،

وإدماجي في العمل الثوري؛ عرفته إلا بعد شهرين على أنه S. N. P عبد السلام السبتي، رئيس خلية فدائية. حدّد لي مهامّي:

**1.** أن أمتنّ علاقتي بالعساكر الفرنسيين الزبائن، المتردّدين بكثرة على محليّ مع الحذر، الحرص بالحصول منهم على ذخائر عسكرية، ومسدّسات إذا أمكن.

**2.** في الساحة المركزية بالمدينة "لاكور" توجد مغازتان كبيرتان لبيع الملابس، والأحذية العسكرية "باتوقاز"، ومناظير الرؤيا البعيدة "لا جيمال" لأشباه العسكريين كأعوان الأمن المدنيين، وحراس الغابات، يملك المتجرّين فرنسيون، ويعمل بهما بعض الجزائريين الشباب، يجبُ تكوين علاقات مع هؤلاء الشباب تدريجياً، وشراء تلکم الملابس، والأحذية، ومناظير الرؤيا، كلّما أمکن.

**3** - فيما بعد كوّن عبد السلام فرقا فدائية لتصفية بعض العملاء المخبرين، والعملاء الجزائريين: المرحوم بريش عبد الحميد، بدون عملٍ، من بلدة الرقية أصلا من وادي سوف، كان مقيما في بسكرة ثمّ قدّم إلى عنابة، عبد السلام شخصٌ غير معروف، متشرّد، نشأ في تونس، ثمّ قدم إلى الجزائر، شخصان آخران غير معروفين، التقيتُ بهما إلا أثناء العمليات الفدائية. ممّا تميّز به نظام الثورة حينذاك صغرُ الفرق الفدائية، والفرق النضالية، وعدم معرفة هذه الفرقة بتلك، ولو كانا ينشطان في حيٍّ واحدٍ حتى إذا ما في حالة إلقاء القبض على أفراد هذه، تبقى الأخرى بمنأى.

**4.** ومن المهامّ التي أسندها إليّ تتبّع مسار الخونة الذين تقرّر إعدامهم: يقوم في البداية عبد السلام السبتي رئيس الخلية، بعد أن نكون قد اتفقنا على اللقاء في موقع ما بشارع ما، بحيث لا نلتقي إلا في ذاك الموضوع لدقيقة أو دقيقتين، فيشير

بإشارة منه بالعينين أو بأصبعه نحو منزل ذاك الخائن، ثم يذهب، وأتولى أنا أمر مراقبته من بعيد لأيام: زمن خروجه من منزله، مسار تحركه، أين يتوقف، مع من يتكلم، من أصدقاؤه الذين يُجالسهم يوميا، مكان لقائهم، مقهى، أم محل تجاري، أم.. في هذا المجال بعد تحديد تحركات ثلاثة منهم، جاءتنا تعليمات بأن نُنفذ حُكم الإعدام بأحدهم بإطلاق الرصاص عليه بعد صلاة العصر في شارع خلفي لساحة "لابلاص دارم"، كان لديّ مسدس من نوع m. m9 وكانت مهمتي أن أحرس بربيش عبد الحميد الذي أطلق الرصاص على ذاك الخائن في الشارع المُكْتَظّ بالمارين، والمشتريين جزائريين، وغيرهم من جنسيات أوروبية، ويهودية، ولما أطلق عليه الرصاص سقط أرضاً، صرخ جزائريان: ها هو.. ها هو.. أي يقصدان الفدائي. مباشرة وجهت لهما فوهة المسدس، وأشرت لهما: أشت.. أشت.. أشت.. فهربا ضمن الهارين، وقد انحسرتُ بينهم، وتسَلَّلتُ نحو ساحة "لاكور"، ثم بعيدا إلى حي "لا سيبي".

كُلِّفْتُ بحراسة زملاء، لأني أصغرهم سنًا، ولأتدرّب، وتكوّن لديّ خبرة، حتى يزول عني الخوف، والعملية الثانية كان هدفها خائن آخر يعمل في الميناء، وخلال مراقبته، وتتبع مساره، اتّضح لي أنّ له مسارا واحداً يبدأ من منزله بنفس الحَيِّ نحو الميناء صباحا بعد صلاة الصبح، والعودة من الميناء ليلا بعد صلاة العشاء، وبما أن قرار حضر التجوّل كان يدخل حيّز التطبيق بعد صلاة العشاء مباشرة صعب علينا تنفيذ حُكم الإعدام فيه، فتمّ اختيار وقت الصباح بعد صلاة الصبح؛ كما تقرّر أن يكون التنفيذ بطعنه بسكين حادّ، لأن الشارع المؤدي إلى الميناء يكون خاليا، وتمّ العملية دون ضوضاء، ومنقذُها لا يرى في

الظلام، وانسحابه، كما انسحابي تمّ بهدوء، وبنفس الطريقة تمّت تصفية خائن آخر. ما أتذكّره، وقد كلّفني رئيس الخلية بتسلّم الأسلحة التي تمّت بها عمليات تنفيذ الإعدام أن الحنجر الذي نُقِذت به عمليات الطعن، وجدت عليه بقايا من لحم ذلك الخائن.

**5** . مهمتي الأخرى أن كتبتُ رسائل أُملى عليّ مضامينها المسؤول عبد السلام السبتي باسم النظام (الثورة) إلى العملاء قبل تنفيذ حكم الإعدام فيهم، للكفّ عن التعامل مع الاستعمار، وتحذيرهم من ذلك، وتهديدهم بالموت. أثناء القبض عليّ وجد العساكر في جيبي رسالتين موجّهتين إلى خائنين مُخبرين جزائريين.

**إغراء بالهدايا؛** فيما يخصّ التعامل مع العساكر في محليّ نجحتُ في استدراج ثلاثة منهم عن طريق السماح لهم بالمشتريات مجاناً، وتارات أخرى عن طريق الإهداء، أو تأجيل الدفع، تحصّلتُ منهم على مسدّسين، وأعداد كبيرة من خراطيش مُختلفة العيارات، وبعض الملابس العسكرية. نجحت في تمتين العلاقة مع شابين في المغازتين، تمكّنتُ من شراء العديد من المُستلزمات العسكرية منهما على مراحل، وعلى مدى شهر، كما قاما بالمساعدة في تزويدي بالعديد من الأدوية من صيدليات يملكها فرنسيون؛ بل حتى جزائريون. متّنتُ علاقتي مع أوّلئك العساكر، كما تعدّدت غياباتي وغلّقي للمحلّ. في تلك الأيام زارني عدّة مرّات ابنُ مسقط رأسي المرحوم بكّي محمد الذي تفتّنت إلى أنه في خلية ثورية ليست فدائية، ومحمّد بكّي كان بدوره يجمع الأدوية، والألبسة العسكرية والذخائر، ويرسلها إلى المجاهدين في جبال " إيدوغ" عن طريق رئيس خليته.

تحت أعين العملاء: بدا لي أنّ تحركاتي تفتن إليها الاستعمار، فزرع عيونَ مُخبريه حولي، من ذلكم أنّ شيخًا جزائريًا عرفتُ فيما بعد أنه من قدماء محاربي فرنسا في الهند الصينية، كرّر زيارته لي يوميا، مُشترتًا مِنّي السجائر، وما لبث أن اتخذ عرصة يتكى عليها، جالسا على كرسي يأتي به من المقهى المجاور، يرصد تحركاتي، وزبائن المحلّ. كان في الأيام الأولى ودودًا معي، ولمّا لم أطاوعه في إطالة الحديث معه، تغيّرت نظرتة، وصار عدوانيا معي، حينها بدأت الشكوك تراودني؛ إلاّ أني واصلتُ تحركاتي، ومساري كالعادة..

ابنُ مسقط رأسي هددني؛ في ذلك الطرف الصعب، اتّصل بي أحدُ التجار المرحوم سنّه الأخضر أصيل مسقط رأسي يعرفني أشدّ المعرفة، انتحى بي جانبا، وأعلمني أنه جاءني باسمه وباسم التجار السّوافة قماريين، وغير قماريين، جميعهم رأوا أني أوّسخهم، وألّوث مسارهم المعروف لدى فرنسا، بأنهم أناس تجار نزحوا من الجنوب الصحراوي إلى هذه الديار من أجل (الفرنك)، ولا علاقة لهم لا بما سُمّي بالثورة؛ بل هددني في حالة ما إذا لم أتخلّ عن النضال الثوري، هناك إجراءات قد لا تكون في صالحني. أجبتّه بأنني لن أتخلّي، وعاهدته أنني في حالة اعتقالي، لن أذكر اسم أيّ واحدٍ من السّوافة، لأني أصلا ما عرفتُ واحدا منهم يعمل حينذاك مع الثورة، وقد صدق فيما قال، هم عبدةٌ للّمال، باحثون عن الفرنك؛ ما عرفته آنذاك أن السيد داده عبد العزيز الذي عمل معي في متجر سيدي سالم كان مشاركا في الثورة، عمل مع المرحوم الشهيد الشافعي الذي كان

تاجرًا للألبسة، عبد العزيز اعتُقل بتهمة جمع الاشتراكات المالية للثورة، وأطلق سراحه بعد ستة أشهر اعتقال.

**قِلَّةٌ مِنَ السُّوَاةِ فِي مَدِينَةِ عَنَابَةِ شَارِكُوا فِي الثُّورَةِ ؟!**؛ علمتُ في المُدَّةِ الأَخِيرَةِ وَأَنَا أَكْتُبُ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ مِنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ دَادَةَ، أَنَّ أَفْرَادًا قَلِيلًا جَدًّا مِنَ السُّوَاةِ انْتَسَبُوا إِلَى الثُّورَةِ فِي عَنَابَةِ مِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ: الْمَرْحُومُ دَرِبَالُ مُحْيِي الدِّينِ، وَالْمَرْحُومُ صَالِحُ بُوَصْبِيعِ، وَأَغْلَبُ عَائِلَةِ الشَّايِ، وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ آخَرُونَ وَهُمْ قَلَّةٌ، مَسَاهَمْتُهُمْ فِي الثُّورَةِ لَا تَتَعَدَّى دَفْعَ اشْتِرَاكَاتِ مَالِيَةِ شَهْرِيَّةٍ، وَمِمَّا يُوَكِّدُ قَوْلِي أَنِّي لَمْ أَلْتَقِ طَوَالَ تَوَاجُدِي بِالسَّجْنِ الْعَسْكَرِيِّ فِي عَنَابَةِ قَبْلَ الْمَحَاكِمَةِ، وَلَا بَعْدَهَا فِي سَجْنِ " لَامْبِيس " سَجِينَا وَاحِدًا مِنْ سُوَاةِ عَنَابَةِ.

مَا عَلِمْتُهُ بَعْدَ الْاِسْتِقْلَالِ أَنَّ ذَاكَ الَّذِي جَاءَنِي بِاسْمِ السُّوَاةِ الْمَرْحُومِ شَنَةَ الْخَضِرِ، كَانَ لَهُ أَخٌ تَعَامَلُ مَعَ الْاِسْتِعْمَارِ فِي عَنَابَةِ عَمِيلًا، أَيُّ مُخْبِرًا؛ وَلَمَّا اِكْتَشَفَ نِظَامُ الثُّورَةِ أَمْرَهُ فَرَّ إِلَى فَرَنْسَا، وَعَادَ إِلَى الْوَطَنِ إِلَّا بَعْدَ سِنَوَاتٍ مِنَ الْاِسْتِقْلَالِ، عَاشَ مِنْبُودًا، وَنَهَشْتَهُ الْأَمْرَاضُ، وَانْتَهَى بِهِ الْحَالُ قَعِيدًا مَشْلُولًا. تَضَاعَفَتْ شَكُوكِي لَمَّا تَعَدَّدَ زَبَائِنِي مِنْ أَشْخَاصٍ لَا يَتَكَلَّمُونَ الْعَرَبِيَّةَ، وَأَشْخَاصٍ آخَرِينَ يَتَكَلَّمُونَ الْعَرَبِيَّةَ بِطَلَاقَةٍ بِسَحْنَاتٍ أَوْرُوبِيَّةٍ، وَعَرَبِيَّةٍ تَأَكَّدَتْ فِيهَا بَعْدَ أَنْ هُوَ لَاءُ جَمِيعًا مِنْ رِجَالِ الْأَمْنِ فَرَنْسِيِّينَ، وَيَهُودٍ، وَلَمَّا حَادَثَتْ رَئِيسَ خَلِيَّتِنَا أَشَارَ عَلَيَّ بِالتَّقْلِيلِ مِنَ التَّوَاجُدِ بِالمَحَلِّ، وَمَا هَانَ عَلَيَّ ذَلِكَ، فَاتَّفَقْتُ مَعَ صَدِيقٍ يَدْعَى تَوَاتِي عَمَّارَ أَصِيلَ مَنطِقَةِ الْبِيَاضَةِ بِوَادِي سُوفٍ، أَنَّ يَنْوَبَنِي فِي المَحَلِّ، وَتَبَيَّنَ لِي فِيهَا بَعْدَ أَنَّهُ يَنْتَمِي بِدَوْرِهِ إِلَى خَلِيَّةٍ ثُورِيَّةٍ تَعْمَلُ عَلَى جَمْعِ المَالِ لِلثُّورَةِ، مِنْ حُسْنِ حِظِّهِ أَنَّهُ لَمْ يُلْقَ الْقَبْضَ عَلَيْهِ قَلَلْتُ مِنَ التَّرَدُّدِ عَلَى المَحَلِّ، صَرْتُ أَقْضِي

الليل تارة في مرآقد شعبية كالحمامات، لأن أصحابها لا يطلبون بطاقات التعريف، وتارات أخرى أتسلل قبل دخول حضر التجول بدقائق إلى المحل. مع عمي علي نحو " فلفلة": أشار عليّ رئيس خليتي الذي كان يوصيني بالترّيب، وبالحدّر، والتقليل من التحرك في الحيّ لأن خطر إلقاء القبض عليّ معناه أنّ الخلية اكتشفت، وأنه أيضا في موضع خطر. ما كنت أتحصّل عليه من العساكر، وما كنت أشتريه من المغازتين، كان رئيس الخلية إضافة إلى ما يتحصّل عليه يسلمه إلى الشيخ عمي علي الكهل الذي ملك شاحنة يقودها له أحد السّواق يُورد بها الفحم من منطقة غابات "فلفلة" الواقعة شرقي سكيكدة، الفحم المُتأثّي من أشجار الغابات المحروقة نتيجة قنبلة الطيران الفرنسي.

عمي علي في حقيقة الأمر مُتاجرته بالفحم عملية تمويهية للاستعمار الفرنسي، وأعوانه، ومُخبريه، في كل رحلة يتّصل بالمجاهدين في تلكم الغابات، ويمدّهم بما مدّه به رئيس خليتي، ورؤساء خلايا أخرى ثورية نجهلها.

لما ضاقت بي السُّبل، وشعرتُ أنني في خطر اتصلت بعمي علي في شهر اجوان 1960، وألححتُ عليه أن يأخذني معه إلى غابات فلفلة كي ألتحق بالمجاهدين هناك جنديا في جيش التحرير الوطني دون أن أعلم رئيس خليتي، امتنع عمي علي عدّة مرّات متنقلا إلى المنطقة دون أخذي معه، ولما أصررتُ، وأخرجته، أخذني معه، وأنا أمّني نفسي قريبا أكون جنديا في جيش التحرير، مرتديا البذلة العسكرية، وعلى كتفي البندقية، أو الرشاش 49، ضمن جنود إحدى الفرق العسكرية.

مكثنا مدّة أسبوع في الغابة، تارات يغيب طويلا عمّي علي، وتارات  
أخرى يغيب سائقه، وكلّما عاد يتحسّر أمامي بأنه ما وجد المجاهدين، وبأنهم  
غادروا المنطقة. ثم رجعتُ إلى مدينة عنابة خائبًا وفي حلقي غصّة.

## 5. اعتقال بشع.. فتعذيب أبشع

ابتعدتُ عن حيِّ محلِّي، تحرّكي صار أكثر في حي "لاكولون"، وحي "الاسيتي"، وحي "جبانة اليهود" القريب من مخرج المدينة نحو طريق قسنطينة. ربطت علاقة مع شخصٍ اتّسم بالغباء، أو ربّما أوهمني كما أوهم غيره بذلك، اتّخذ من براكّة حديدية مأوى له بمحاذاة مخرج المدينة في اتجاه قسنطينة وسكيكدة، صرّتُ أتردّد عليه يوميا، كان يعتاش من قمامة العسكر الغير البعيدة، يجلب منها بقايا الخبز، والأجبان، والحلويات، وممّا ينفردُ به، وهذا ما قرّبي إليه: السخرية، والنكت، والضحك، ارتحتُ إليه، وصرّتُ أقضي معه أغلب الصباحات، وبكلّ صدقٍ حتى تاريخ اليوم الذي أكتب في هذه السطور لم يساورني شكُّ بأنه كان عميلا للاستعمار، راودتني شكوكٌ في وقتٍ ما.

**اعتقال بشع:** في صباح يوم 20 أوت 1960 وأنا كعادتي معه في براكته منسجما معه، سمعتُ همساتٍ، ما أن التفتُ نحو مصدرها حتى كانت فوهات الرشاشات موجهة نحوي، وأمرتُ أن أقف، ويداي فوق رأسي. كان عشرات العساكر يطوّقون المكان، برفقة رجال الأمن بلباس مدني، والآليات العسكرية غير بعيدة، تلقّفوني بعد أن أشبعوني ركلا، وضربا بأعقاب البنادق على كل أعضاء الجسم، وطوّقوا يديّ ثم رموا بي في سيارة "جيب" عسكرية، بمحاذاة، وأمامي عساكر مدججون بالسلاح، توجّهوا بي إلى نقطة استنطاق في مدخل المدينة، غير بعيدٍ

عن ضريح سيدي إبراهيم. الركل، والضرب، والشتم، والكلام البذيء لاحقني إلى أن دخلوا بي إلى غرفة تعذيب، جرّوني من ملابسني، ورموا بي فوق سرير حديديّ، قيّدوني فوق السرير، أحاطوا بي من كل الجهات، شرعوا في التعذيب بأن ربطوا أسلاكاً كهربائية في أصابع القدمين، ووضعوا أنبوب ماء فوق فمي، بدأت عملية التعذيب في نفس اللحظة: الكهرباء تهرّ جسمي، الماء يدخل بقوة إلى بطني، اللكمات تنهال على وجهي وبطني الذي امتلأ ماءً، كما اللكمات انهالت على أعضائي التناسلية، والصراخ والسبّ تواملاً، الهدف كان استنطاقني بمكان تواجد رئيس الخلية، وذكر أعضائها، ومكان تواجدهم. استمرّ ذلك التعذيب قرّب الساعة، توقفوا ساعة ثم واصلوا دون نتيجة لأني لا أعرف مكان إقامتهم؛ ثم إننا تعاهدنا على أن نموت تحت التعذيب، ولا نكشف لا على التنظيم، ولا على مهمة الخلية، ولا على أعضائها.

**وجهٌ منتفخٌ .. عينٌ مغلقة:** أفقتُ صباح اليوم الموالي 21 أوت، وجدتُ وجهي منتفخاً، عيني اليمنى مغلقة، والثانية أرى بها بصعوبة وآلام حادة في جسمي، خاصة ما بين الفخذين، استخلصت أني قضيت الليل مُغمى عليّ من شدة التعذيب. شرعوا مرّة أخرى في التعذيب، بأن أضافوا إلى الاستنطاق الرسالتين اللتين وجدوهما عندي مُوجهتين من رئيس الخلية إلى عميلين، وجدت نفسي تجاه تحدّ كبير في حالة ما إذا اعترفتُ بأني من كتبهما سأفتح باب جهنّم على نفسي، ويتحوّل الاستنطاق إلى أني أنا كاتب الخلية، وأنّ مراسلات رئيسها إلى القيادة، كلها أعلمها، وهذا كنزٌ للسلطات الاستعمارية، أصررتُ تحت طائلة التعذيب

أني أمي لا أقرأ، ولا أكتب، ولا علم لي بمن كتبهما. دوري فقط أن أوصلهما إلى أصحابهما، بأن أضعهما تحت بابي منزلهما بالمدينة، وهذا ما واصلته فيما بعد أثناء محاكمتي في محكمة الجنايات بمحكمة عنابة.

بين أنياب كلب شرس ألماني؛ بعد ثلاثة أيام من الاستنطاق والتعذيب فك وثاقي من السرير، عجزت عن الوقوف في البداية، ثم وأنا أحاول وبعد أن لبست ملابس بصعوبة، واستمرارا في إخافتي وبث الرعب في أطلقوا علي كلبا شرسا ألمانيا ( chien doberman ) هجم علي بشراسة، وغرس أنيابه في جسمي، وما أذكره أنه مزق سروالي من أعلاه إلى أسفله، وكذا القميص، وترك جروحا في جسمي، ولولا مسكه، وإبعاده لكان المآل أشنع. نُقلت إلى مركز استنطاق تابع للشرطة السرية، بمحاذاة محطة القطار بالمدينة، وغير بعيد عن الميناء الذي ترسو فيه بالكاد يوميا السفن العسكرية لإنزال آلاف العساكر، ومئات الجنزرات، والآليات، والذخائر العسكرية. بدأ معي الاستنطاق من جديد، علما أني ما تلقيت لا علاجًا، حيث وُضعت في زنزانة منفردة، تصافت مع زنانات أخرى بها سجناء آخرون، صراخهم، عويلهم نتيجة التعذيب تقشعر له الأبدان، لاحقهم السب، والشتم مثلي. زنزانة بابها حديدي، يُفتح إلا حينما أُؤخذ إلى الاستنطاق، لا أعطية بها ما عدا حصيرة حلفاء بالية موصخة، ملوثة ببقع دماء بشرية، بالزنزانة مرحاض مكشوف في إحدى زوايا الغرفة. بعد يوم من تواجدي بالزنزانة وتحديدا في منتصف النهار فُتحت كوة قُرب الباب أُلقيت إلي منها خبزة مرفقة بسيل من السب والشتم، كما فتح من ألقى إلي الخبزة حنفية خارجية موصلة بأنبوب صغير تحت الكوة لمدة دقيقة واحدة بغية شرب جرعات سريعة، ثم

أغلق الحنفية، التهمت بعدها نصف الخبزة على الريق، وأرجأت النصف الآخر إلى وقت آخر، لأن الشعور بالوقت انعدم عندي في تلكم الليالي؛ الزنانة في رواقٍ مظلم دون نافذة، دون إضاءةٍ أحياناً أتفطن إلى أن يوماً جديداً هَلَّ من صوت حركة القطارات التي تتحركُ إلا نهاراً، لأنها تكون هدفاً لتفجير أسود الثورة، أعرف أنه نهارٍ لما أساق إلى الاستنطاق خلال صباحات، أو مساءات الأسبوع، وما كنتُ أعرفُ ذلك يومي العطلة من أسباتٍ، وآحادٍ.. خبزة صغيرة واحدة، ودقيقة من الماء في الأربع والعشرين ساعة، لمدة عشرين يوماً.. استنطاق بدأ بالربع في النهار الأول بأن أطلقوا عليّ كلباً ألمانيا شرساً بالكاد جسمه يساوي أو يفوق جسمي، هجم عليّ بوحشية، كانوا في ضحكٍ هستيري، ولما سقطتُ على الأرض شبه مغمى عليّ أبعده عني.

**استنطاق تولاه يهود:** استنطاق تراوح فيه الصفع، والركل، والتهديد والوعيد بالموت، والترغيب بإطلاق السراح مقابل الكشف عن خلايا ثورية في المدينة، كما الكشف عن تحركات رئيس الخلية عبد السلام السبتي، وغيره. ولما يئسوا من ذلك فتحوا محضراً، وضغطوا بكل أنواع التعذيب أن أقرّ بأبي شاركت في العمليات الفدائية التي وقعت في المدينة بداية من أول سنة تسعة وخمسين، زمن مجيئي إلى حيّ لابلاز دارم، شاركت فيها منفذا الإعدام، أو مشاركاً، وكاتباً لرئيس الخلية، ومشاركاً بمالي من خلال المحلّ.

**احتجاز رهيب في زنزانية:** بعد ذلك الاستنطاق الرهيب نُقلتُ إلى ثكنة عسكرية فوق مرتفع جبلي تطلّ على المدينة من جانب البحر، كما تطلّ على حيّ لابلاز

دارم، ووسط المدينة، كان يُطلقُ عليها "القصبة"، وجدتُ نفسي ضمنَ مساجين آخرين في زنزانات متلاصقة عددها ثمانية زنزانات، كل زنزانة بها سجينان.. هذا الموقع من + الثكنة هو مركز عبور للسجناء بعد إكمال الاستنطاق، ربّما بعضهم يُطلق سراحهم، وهم قلّة، والأغلبية من هذا الموقع يُساقون إلى المحكمة الواقعة في الجهة الغربية آخر ساحة "لاكور" الرئيسة في المدينة. وجدتني مع عمّي إبراهيم رحمه الله شيخ في السبعينات من عمره، عُذّب عذابا شديدا سبّب له ضيقًا في التنفّس، وصعوبة كبيرة في الجلوس والنوم، وألمًا كبيرًا لا يتوقف في الخصيتين نتيجة التعذيب الوحشي، ممّا سبّب له انتفاخهما. قضى الليالي ذهابًا وإيابًا من باب الزنزانة إلى الجدار المقابل، زنزانة عرضها متران، وطولها ثلاث مترات مُخصصة لفردين، وذات ليلة أتوا بأعدادٍ أخرى من السجناء أضافوا إلينا سجينًا آخر.. في الزاوية المُحاذاة للباب وُضعتْ علبةٌ خمس كيلوغرام معدنية لقضاء حاجتنا البشرية دون ستارٍ كما هو الحال في الزنزانات الأخرى لإذلال السجناء، إن كان رفيقك يقضي حاجته، ما عليك إلا أن تلتفت إلى ناحية الجدار المقابل، تتغطّى لا يوجد غطاء في الزنزانة، حصيرة بالية من الحلفاء؛ ربّما من حسنات هذا المركز، أن السجناء يُخرجون إلى الرّواقِ الفاصل بين الزنزانات بعرض مترين، وطول الزنزانات الثماني، لمدّة نصف ساعة مرّة واحدة، قبل منتصف النهار ذهابًا وإيابًا لتسريح الأرجل تحت أعين الحُرّاس، في مشيهم وهم يتقابلون يميّون بعضهم بعضًا بالهمس، أو بالإشارة لأن الكلام ممنوعٌ، كما أنه في هذه الفسحة يُطلب منهم إخراج علبة فضلات الحاجة البشرية كي يلقوا ما بها في بالوعة في الممرّ. في الساعة السابعة صباحًا، كما في منتصف النهار، وفي الساعة السابعة

مساءً، يأتي العساكر بقهوة وحليب الصباح، ووجبتى الغذاء والعشاء، فيكَلّف سجينٌ تحت رقابة الحراس بالتوزيع على السجناء دون أن يخرجوا بعد فتح الأبواب من قبل الحراس، زنزانة بعد أخرى؛ للأمانة أنّ هذه الوجبات صحيّة وهي نفس الوجبات التي يتناولها العساكر في الثكنة لأنّها من طَبْخ أيديهم. لَمّا اشتدّ المرض على عمّي إبراهيم نقلوه إلى وجهة أخرى وما التقيتُ به بعد ذلك، حلّ محلّه معتقلٌ آخر ثلاثة أيام، فأخر لمدة يومين، توالى المعتقلون ذهاباً وإياباً.

أغلبُ المعتقلين في هذا الموقع الاحتجازي المؤقتُ منهم من مكث أسبوعاً، ومنهم من مكث أقلّ، ما عدايا بقيت فيه من منتصف شهر سبتمبر حتى يوم صبيحة يوم 12 ديسمبر 1960 لأنهم رهنوا على إلقاء القبض على رئيس خليتي، وأعضائها، وهذا ما تمّ فعلاً في شهر أكتوبر، ألقى القبض على أعضاء الخلية ورئيسها وخليتين أُخريين في شهر أكتوبر 1960، كوّنهما في المدينة كان البحثُ جارياً على الجميع. وتمّ إلقاء القبض على الكلِّ بما في ذلك ثلاثُ نساء اثنتان متزوجتان، وفتاة في بداية العقد الثالث من العمر.

**إلى المحكمة العسكرية:** في يوم 11 ديسمبر 1960 نقلونا إلى السجن المدني بجانب المحكمة الواقعة في نهاية ساحة " الكور " من الجهة الغربية، بمجرد وصولنا أخذونا إلى الأدواش للتنظيف، أمرونا بنزع ملابسنا، وصرنا كما ولدتنا أمهاتنا في قاعة كبيرة مقابل بعضنا البعض تحت أنظارهم، المرشّات فوق رؤوسنا ونحن بجانب بعضنا، أو في مقابلة بعضنا في الصفّ المقابل.

الحرّاس بمنجعتهم، وشراستهم وصراخهم سبًا وشتمًا دفعونا إلى الوقوق تحت المرشّاة، فتح أحدّهم الماء البارد جدا، ونحن في شهر ديسمبر عراةً، ما تحمّلنا فتزحزحنا، انمّالت علينا اللكمات، وقفنا من جديد، فُتِح علينا الماء الساخن جدا، حصة عذاب بين الماء البارد جدا، والساخن جدا، وبينهما ضربات العصيّ، تحمّلتُ مثل غيري هذا العذاب، لأن جسدي ما سقطت عليه قطرة ماء منذ يوم اعتقالي بتاريخ في 20 أوت 1960 كما أسلفتُ، إلى يوم 11 ديسمبر 105 أيام، وزعوا علينا ألبسة مَخيطة في السجن، لكلّ سجين بذلة من نسيج الأغطية المخصصة للعساكر، وقميصٌ.. ما قامت به السلطات الاستعمارية ليس عطفاً علينا، ولا حباً فينا؛ إنّما من باب إظهارنا في المحكمة يوم الغد 12 ديسمبر في هيئة إنسانية لائقة تُظهرُ أنّها تطبق معاهدات حقوق الإنسان، والاهتمام بالسجناء وفق ما يدعو إليه الصليب الأحمر الدولي، حيث تكون وسائل الإعلام الفرنسية والدولية موجودة في المحكمة، منها وسائل ضدّ الحرب في الجزائر، ومؤيدة للشعب الجزائري في حقّ الاستقلال.

**في المحكمة؛** في صبيحة يوم 12 ديسمبر 1960، يوم المظاهرات العارمة في أغلب مناطق الوطن الجزائري، انتفض الشعب الجزائري، التحم بالثورة وبقيادتها أكثر، ورفض أطروحات الجنرال دوقول، في هذه الأيام بالذات، نكايّة في هذا الشعب، قادونا إلى المحكمة العسكرية لمُدّة ثلاثة أيام، انطلقت مُجريات المحاكمة بداية من الساعة العاشرة صباحا، حتى العاشرة ليلا، مع توقُّفٍ بعد الساعة الواحدة ظهرا لمدة ساعتين، نُقاد إلى السجن المدني لتناول وجبة سريعة. عيّنت هيئة المحكمة لكلّ سجين محاميا للدفاع عنه، فكان محاميّ كهلا فرنسيا. لما وقفتُ أمام هيئة

المحكمة واجهني رئيسها بعدة تُهم منها أني مجرم قاتلٌ أزهق العديد من الأرواح البريئة، وأنني مؤنثٌ "الفلافة" المجرمين بالجبال بالعتاد، والدواء، وأنني كاتبٌ رئيس الخلية الفدائية، وأظهر الرسائل التي وُجدت لدي يوم إلقاء القبض عليّ. نفيت كل التهم، وأصررتُ على أني أجهل ما في الرسائل التي لأني أميٌ أجهل الكتابة والقراءة. وكيل الجمهورية أضاف للتهم التي واجهني بها رئيس هيئة المحكمة، بأنني اتخذت المحلّ التجاري وكراً للجريمة ضدّ فرنسا الكريمة، العادلة، وكذا للتخطيط وتنفيذ الجرائم، وإزهاق الأرواح البريئة، وطالب بعقوبة الإعدام في حقّي.

أمّا مُحامي في البداية أظهر تعسّف هيئة المحكمة في محاكمتي، إذ قانون القضاء الفرنسي عهد ذلك لا يُحاكم إلا من وصل عمره 21 سنة فما فوق، وأنا كنت حينها في عمر 19 سنة، والتهم التي واجهتني بها المحكمة دحضها واحدة بعد الأخرى، طالب ببراءتي، وإطلاق سراحي. كنت متأكدا أنّ هذا من المستحيلات. أصدرت المحكمة أحكاماً قاسية في ساعة متأخرة من يوم 16 ديسمبر 1960: الحكم بالإعدام في حقّ المرحومين الثلاثة: عبد السلام السبتي (رئيس الخلية)، برييش عبد الحميد، عديم اللقب عبد السلام، وآخرين رأيتهما إلا أيام المحاكمة، الحكم عليّ أنا وعلى المرحوم يوسف بخمسة عاما سجنا، الحكم بعشر سنوات سجنا على ثلاثة آخرين، والحكم على النساء بثلاث سنوات سجنا، وهنّ ثلاثة.

إلى سجن "لامبيس": بعد يومين حُشرنا جميعا، ما عدا النساء أُبقين في السجن - في ثلاث شاحنات مصفّحة، نحن وسجناء آخرين كانوا بالسجن المدني، تحت

حراسة عسكرية مشدّدة إلى سجن " الكُديّة " بقسنطينة، أُبقينا فيه ثمانية أيام، ثم نُقلنا إلى سجن تازولت " لامبيس " قُرب باتنة، وجدنا أنفسنا فيه بداية من يوم **28** ديسمبر **1960**، أُبقي على من حُكم عليهم بالإعدام في هذا السجن لأيام، ثم نُقلوا إلى فرنسا خشية اغتيالهم من طرف المنظمة السرية **O. A. S**، وكما هو معلومٌ أعضاؤها من المُعمّرين الغلّاة حيث كانوا متواجدين في كل الهيئات، وحتى بين حراس السجون.

DIRECTION DE LA RECHERCHE  
SOUS-DIRECTION DE LA DOCUMENTATION

CERTIFICAT DE PRESENCE EN DETENTION

CERTIFICAT N° 2 9.5.4

Jr. soussigné, .....

certifie que **MONSIEUR** **R.H.E.L.E.F.** **Bachir** // // // //

né à **GUENAR** // // // // // // // // // //

le **28.1.06.1941** // // // // // // // // // // // //

et de **OURMELKEBIR** **BENT** **ANNED** // // // // // // // // // //

a été détenu à **La maison centrale de L.A.A.B.E.S.E.** // // // //

sous le n° **8.7.D.1** // // // // // // // // // // // // //

du **28.1.12.1960** // // // // // // // // // // // // //

ou **05.1.05.1962** // // // // // // // // // // // // //

1° **son nom** a été condamné par le tribunal permanent des  
**forces armées de ANNABA** // // // // // // // // // // // //

le **16/12/1960** // // // // // // // // // // // // //

à **QUINZE (15) ANNEES DE**  
**RECLUSION CRIMINELLE** // // // // // // // // // // //

pour : **Association de malfaiteurs, complicité de tentative d'as-**  
**assinats** // // // // // // // // // // // // //

**Amnistie** le **05/05/1962** // // // // // // // // // // // //

décret du **22/03/1962** // // // // // // // // // // // //

// // // // // // // // // // // // //

Il Elle a été détenu en prison à la maison d'arrêt de **ANNABA** du  
**22/08/1960** // // // // // // // // // // // // //

ou **28/12/1960** // // // // // // // // // // // // //

(Scrou 2646) // // // // // // // // // // // // //

jour de son transfert  
sur la maison centrale de **L.A.A.B.E.S.E.** // // // // // // // // // //

// // // // // // // // // // // // //

// // // // // // // // // // // // //

En foi de quoi le présent certificat est délivré pour servir et valoir ce que de droit.

Fait à Alger, le 10 5 AOUT 1997

P / le ministre de la Justice.



Le Directeur  
de la Direction  
de la Documentation  
*[Signature]*  
SECRETARIA AD CAUSAS

## 6- "لامبيس" .. قفزة في الهواء

تازولت "بالإنجليزية: Tazoult"، التسمية رومانية الأصل ( Lambaesis)، هي مدينة عسكرية رومانية، تبعد بـ 10 كم عن مدينة باتنة، على الطريق الوطني رقم 31 بين باتنة وخنشلة. تازولت من أهم المَدين الأثرية في الجزائر من ناحية مَحزونها التاريخي التراثي المادّي، الذي يوجد به متحف للآثار ومحكمة رومانية، وكذلك يوجد سجن كبير من أكبر السجون زمن الاستعمار الفرنسي، والآن هو (مؤسسة إعادة التربية والتأهيل) الأول على مستوى الوطن من حيث المساحة. أشهرُ سجنَ بالجزائر، سجن "لامبيز" الرهيب الذي بناه الفرنسيون سنة 1852، أي ثماني سنوات بعد تأسيس مدينة باتنة سنة 1844، وفي ذات الموقع الذي كان من المفترض أن يؤسس فيه الفرنسيون باتنة الجديدة باسم "نيو لمباز" قبل أن يهبط سكان المدينة ليكون سجنًا بدل حاضرة! السجن القلعة: في طريقك إلى مدينة "تازولت" المدينة الرومانية المشهورة بالآثار الرومانية كباب "لامبيز"، يتراءى لك أشهر و"أخطر" سجن مثل "القلعة الحمراء" في نهاية طابور من البنايات، والفيلات الفخمة، والمطاعم الممتدة على طول 10 كلم جعلت السجن يقع في الضاحية الشرقية لباتنة، على مدار 551 سنة حافظ "لامبيز" على سطوته كمكان للرعبة، والقمع أطلق عليه الكثيرون بـ"الكاتراز الجزائر" و آمن مكان في الجمهورية الفرنسية زمن الاستعمار، بعد

مكتب وزير الداخلية الفرنسي. نزل بهذا السجن مشاهيرُ السياسة على غرار الزعيم، والرئيس التونسي لحبيب بورقيبة، وغيره. أنزلنا من الشاحنات المصفحة تحت الحراسة المشددة بعد رحلة شاقّة يوم 82 ديسمبر 1960. ملقّي تضمّن: السجن المُسمّى بشير خلف، متّهمٌ بأفعال إجرامية منها: الانتماء إلى جمعية أشرار، متّهمٌ بمحاولة الاغتيالات، حكمت عليه محكمة القوات المسلّحة الفرنسية لمنطقة عنابة بخمسة عشرة عامًا سجنًا.

سجن لامبيس قرية كبيرة محاطة بسور كبير عالٍ، في أعلاه أبراج مراقبة،



سورٌ سطحه متسع، يسمح للحراس بالتنقّل، والمراقبة، من الجهة الداخلية، كما الخارجية، بمحاذاته في كل الاتجاهات مساحات فاصلة بين السور، والبلدة ملعّمة، قلعة عسكرية بمحاذاة البلدة، بلدة لامبيس..

داخل القربة، القلعة العسكرية تنتصب عمارة من ستة طوابق بها مئات الزنزانات الفردية، أغلب السجناء من المحكوم عليهم بالإعدام، أو بالسجن المؤبد، سواء من أبطال الثورة التحريرية، أم من المحكوم عليهم في حوادث الثامن ماي 1945. إضافة إلى تلكم العمارة توجد أربع قاعات كبرى مقسمة كل قاعة إلى عُرفٍ مسيجة نوافذها، وبها حديدي تعلوه كُوَّةٌ يراقب منها الحراس حركية السجناء الأربعة في الغرفة، نزلاء هذه العُرف أفضل حالا من الزنزانات الفردية، غرفة رباعية الشكل، أضلاعها ثلاثة أمتار، في الزاوية المتواجدة وراء الباب وُضع مرحاضٌ مكشوفٌ، دون ستارٍ، يقضي به السجناء حاجتهم البشرية، وإن سعوا إلى وُضع الستار ينزعه الحراس. في اليوم الذي وصلنا فيه نُزعتْ منّا الهويّة البشرية، صرنا أرقامًا بها تتعامل، وتتواصل معنا إدارة السجن، كان رقمي: **8701** لمّا أسمع من مكبرات الصوت المُثبّنة في كل مكان هذا الرقم، أو يسمعه العديد من زملائي، يعني بشير خلف، تستدعيه الإدارة، هذا الرقم كُتب على ظهر ستري بحجم كبير، مثل كلّ السجناء حتى نكون تحت رقابة الحراس وإدارة السجن. قادونا إلى ورشة الخياطة التي عمل بها سجناء آخرون، سلّمنا قمصانًا بيضاء دون أكمام، سترة قطنية مأخوذة من أغطية عسكرية " زاور"، وحذاء عسكريًا. دون ملابس داخلية. وُزّعنا على القاعات، بدل الزنزانات؛ لأن الأحكام الصادرة في حقنا تتراوح بين العشرين سنة، وخمس سنوات.

**مجتمعٌ إنسانيٌّ مسلوبٌ الحرّية**؛ وجدّني في إحدى عُرف القاعة 19 مع المرحوم عوامر عبد المجيد ثوري من عنابة، والمرحوم كوزي محمد قيادي من قيادات الثورة في عنابة، انتمى إلى قيادة الناحية الثالثة، المتمركزة في جبال " إيدوغ" الرابع

نسيئُ اسمه، لكلِّ منَّا سريره الخاصّ، انسجمنا مع بعضنا منذ البداية، تدريجيا، تأقلمنا مع حياتنا الجديدة. بالسجن مطبخٌ كبير يُعدّ وجبات لـ 2000 سجين، منهم حوالي 100 سجين الحقّ العام لا علاقة لهم بالثورة، عزلتهم إدارة السجن بعيدا، كما يوجد حوالي 100 سجين مصاليبيّ، والبقية من المنتمين لجيش، وجبهة التحرير الوطني. كان يعمل بالمطبخ سجناء ذوو كفاءة وتجربة، يقوم بمساعدتهم كل يوم مجموعة من السجناء، تأخذهم الإدارة دوريا، كل سجين قد يكون دوره مرّة في الشهر، هؤلاء المساعدون يقومون بتنظيف الخضر، أو تقشير البطاطا، أو تنظيف أواني الطبخ. أمّا داخل الغرفة نُجر على تسييق وتنظيف الغرفة يوميا، وتنظيف رواق الغرف، وتسييقها يكون دوريا. كما بالسجن مستشفى مُجهّز، به الأدوية الكافية للأمراض العادية، كان يتولّى أمر العلاج به مُمرّضون، وأطباء جزائريون سجناء سياسيون. بالسجن أيضا ورشات لحرف الحدادة، والنجارة، والصباعة، والحلاقة يعمل بها سجناء، وكل من يبتغي التدرّب، واكتساب هذه الحرف تسمح له إدارة السجن، وما يُنجز في ورشتي الحدادة، والنجارة ما زاد عن حاجة السجن تبيعه إدارة السجن في مدينة باتنة إلى السكان، والمال المُتأتّي من ذلك يُحتفظ بنسبة منه لأؤلئكم السجناء الحدادين، والنجارين في حساب خاصّ، يسلم إليهم نقدا يوم مغادرتهم السجن، أو يبتاعون به من تعاضدية السجن ما يخلو لهم مثل: الملابس الداخلية، السجائر، حلويات، حليب "نستلي"... كما بالسجن ملعبٌ لكرة القدم، تُجرى فيه تدريبات، ومقابلات بين فرقة هذه القاعة، أو تلك في مناسبات الأعياد، إضافة إلى قاعات صغيرة للتعليم.

**بُقْعَةُ ضَوْءٍ؛** في كلِّ يوم كانت سلطات السجن تفتح الأبواب، وتسمح للسجناء بالخروج واللقاء ببعضهم، والتحدث بحرية في الساحة التابعة للقاعة، وفي منتصف سنة واحد وستين، سمحت لكل السجناء اللقاء مع بعضهم، والتنقّل إلى هذه العمارة، أو تلك القاعة، يستغرق ذلك نصف ساعة، ثم مُدِّد إلى ساعة، صباحا مساء. في الأعياد إضافة إلى المقابلات الرياضية، سُحِّح لنا بسماع خطبتي العيد، وأداء صلاة العيد في ساحة كبيرة، كما إدارة السجن كانت تسمح لأهالي السجناء بإدخال أطعمة وحلويات، أيضا تتكرّم أيضا بوجبات خاصة بالمناسبة، كما تسمح لأحد المصوِّرين يأتي من باتنة يلتقط صوراً لنا فردية، أو جماعية لمن أراد، ولديه نقود في إدارة السجن أخذت منه يوم قدومه، أو أرسلت إليه من ذويه الأقربين بإثباتات وثائقية، أو كانت من نصيبه إن كان عاملاً بإحدى ورشات السجن.

**اتصالٌ بالعالم الخارجي؛** كما كانت السلطة الفرنسية بالسجن تفتح لنا إذاعة الجزائر عبر مكبّرات الصوت المُثبّتة أينما تواجد السجناء، في منتصف النهار، والثامنة ليلاً لسماع الأخبار من جانبٍ واحدٍ، ومن الرؤية الفرنسية؛ بطبيعة الحال أخبار كلّها تستعرض انتصارات الجيش الفرنسي على " الفلّاقة المجرمين، الخارجين على القانون، والشعب الجزائري الفرنسي " لأن كل الجزائريين هم فرنسيون لدى السلطة الفرنسية"، وقد تسبق نشرات الأخبار أغاني خليفي أحمد، الحاج محمد العنقاء. كما نشرات الأخبار إضافة إلى ذلك ما انفكّت في كل نشرة تعلن عن الأعداد الكبيرة للفلّاقة الموتى، وعدد المُتخلّين عن النشاط الثوري، المُسلمين أنفسهم، وأسلحتهم، أي " المرندين". كما الذين أسرّتهم.

من يتمنّ في هكذا حياة السجناء، وقد توفّرت لهم هذه الحقوق الإنسانية كسائر الناس خارج السجن، يستخلص أن فرنسا دولة الحقوق الإنسانية، وحافضة كرامة الناس، ولو كانوا أشدّ أعدائها. تلکم الحقوق ما أتت إلّا نتيجة انتفاضات داخل السجون، وإضرابات الجوع، وضغوط متواصلة من منظمات حقوقية دولية، وهيئات دولية منها منظمة الصليب الأحمر الدولي التي كثّفت من زيارتها المراقبية للسجون، منها هذا السجن؛ كانت زيارات هذه الهيئة دورية، رأيتُ أعضاءها، وهم غير فرنسيين من جنسيات أوروبية، وأمريكية، في زيارتهم يطلعون على الكبيرة والصغيرة ممّا يهّم السجناء من ظروف سكن، وإطعام، وعلاج، وتعليم، ومعاملة، بل يُجرون حوارات مع السجناء حول ظروف حياتهم، ومعاملة السلطة لهم.

**انتصارات الثورة أنعشتنا:** في سنة **1961** لا أذكر الشهر بالضبط، قد وردتنا أخبار عن انتصارات الثورة، ومفاوضات تجري سرّيا بين الحكومة المؤقتة الجزائرية والحكومة الفرنسية، إثر فشل دوقول في مساعيه لإجهاض الثورة، وكذا مؤامرة فصل الصحراء، قام السجناء بانتفاضة تأييدا للثورة، كان ردّ السلطات في السجن إغلاق الأبواب على كل السجناء، ومنعت عنهم الطعام والشراب طوال أيام ثلاثة، فكان ردّهم الصراخ والعويل، والضرب بـ"قميلة الطعام" الفردية على سياج النوافذ الحديدي، وإسماع الصوت إلى قيادة السجن، والحراس، والسكان خارج السجن؛ ممّا أدّى بالسكان المدنيين خارجًا إلى التظاهر، والتنديد بما تقوم به السلطة ضد السجناء الذين كانوا من نوافذ زرنانات العمارة يشاهدون قمع

السلطات العسكرية للسكان، فازداد هياجهم، وتلاحمت الانتفاضتان داخل السجن وخارجه، وفشلت السلطة في احتواء الوضع.

.. المصاليون؛ في القاعة 19 التي كنت مع غيري في إحدى غرفها توجد أعلاها قاعة أخرى يقيم بها السجناء المصاليون، ما شاركونا في الانتفاضة؛ بل نزلوا ومارسوا حصص المشي، مبتهجين بما آل إليه الوضع، ولما حان وقت الغذاء توجهوا إلى المطبخ، وأتوا بوجبة الغذاء، ومساء بوجبة العشاء.

صباح يوم الغد سعت إدارة السجن إلى تهدئة الأوضاع، وإقناع السجناء بأن هناك مفاوضات تجري، وأن لا دخل لها فيما ستسفر عنها، هي منقذة للأوامر، غير أنها فشلت، وتحولت المطالب إلى مطلب واحد هو إخراج المصاليين من السجن نهائياً، الانتفاضة تتوقف إلا بتنفيذ هذا المطلب بسرعة، رُفض الطلب، تزايد الهيجان داخل السجن وخارجه. في مساء ذلك اليوم ليلاً، وفي جُح الظلام بعد أن أطفأت إدارة السجن الأضواء أُخرج المصاليون من السجن، ورُحلوا في شاحنات إلى سجن آخر، وانتهت الانتفاضة. بأمر من قيادة الثورة بالأوراس.

**الثورة بيننا؛** إن كانت السلطة الفرنسية لها القيادة الإدارية، والحراسة المشددة على السجن، ومن فيه؛ فإن هناك قيادة أخرى وطنية تنظيمية كانت تقود السجناء، توجههم وطنياً، تنظيمياً، روحياً، تزودهم دورياً بأخبار الثورة، وانتصاراتها، داخلياً، وخارجياً، ومسار المفاوضات، رفقاً للمعنويات، وصموداً، وعدم الخشية والاستكانة، وصدًا للشكوك التي سعى الاستعمار إلى زرعها في نفوس محشورة بين الأسوار.

بالسجن قيادة وطنية من السجناء تكونت من حوالي عشرين فردا، أحدهم كان أصيل بلدة تغزوت المرحوم الطيب خرّاز، تصل التعليمات، والتوجيهات من قيادة الولاية الأولى، تعليمات في تنظيم صفوف السجناء، تكوينهم وطنيا، تذكيرهم بالمناسبات الدينية، الوطنية، بأبطال الجزائر، بأخبار الثورة، بانتصاراتها، هذه القيادة الوطنية تقوم بمهامها سرّيا بين السجناء، استعانت في تنظيم تحركات السجناء خارج القاعات بهذه المهام وغيرها بشرطة أعوانها يؤدون مهامهم خلال حصص المشي، واللقاء مع بعضهم، وكنت من بين هؤلاء.

حراس السّجن الجزائريون .. الولاء للثورة: قد يقول قائل: كيف تصل هذه التعليمات والتوجيهات من قيادة الولاية الأولى؟.. يأتي بها بعض حراس السجن الجزائريون الثّقاة المنتمون للثورة دون علم السلطات الفرنسية، بطبيعة الحال؛ هم في وضعية لا يُحسدون عليها، لأنها لو علمت بهم لكان مصيرهم مشؤوماً؛ إنما الحذر، لا يعني هذا أن هذه السلطة غافلة، عيونها مَبْثُوثَةٌ بين السجناء، وبين الحراس؛ إذ أحياناَ هذه العيون تنبثّ عن طريق سجناء، وهم ليسوا بسجناء، يُؤتَى بهم من سجون أخرى بعد أن يكونوا أدّوا مهمتهم، وقد يكونون ضمنّ سجناء حقيقيين يُضافون إليهم دون علمهم، ما عرفته طوال تواجدي بهذا السجن في حالات مثل هذه، تُسرّب القيادة الوطنية تحذيرات إلى السجناء من القادمين الجدد كيفما كانوا.

في هذا الإطار كتبتُ قصّتي " الأبيّ " في سنة 1972، وهي أوّل قصة لي التي نشرتها لي مجلّة " آمال " في العدد 14 يدور موضوعها عن سجين بهذا

السجن سعت السلطة الاستعمارية إلى تجنيده مخبراً عميلاً في السجن، أبي فعوقب بوضعه في زنزانة انفرادية عقاباً له.

**طالب علم**؛ لما أنزلوني بهذا السجن، مضتْ غيرُ أيام قليلة حتى عرفتُ أن فيه العديد من السجناء المفكرين، المثقفين، علماء ينتمون إلى جمعية العلماء كالمرحوم أحمد حمّاني، المرحوم الشارف، وغيرهم، وكذا عبد الله فاضل، وقيادات في جبهة التحرير الوطني، وجيش التحرير الوطني، وقيادات في أحزاب أخرى تواجدت قبل ثورة التحرير.

من الحقوق التي تحصّل عليها السجناء من السلطة الاستعمارية، وضغوط الصليب الأحمر الدولي، الحقّ في التعليم لمنْ رغب باللغتين العربية والفرنسية، ومن واجب سلطة السجن أن توافق على منْ يتقدّم للتدريس من السجناء، ويوافق عليه هؤلاء، أيضاً توجّب عليها مدُّ كلِّ متعلّم أسبوعياً بكراس 96 صفحة، وقلم أزرق، وآخر أحمر.

كنت من السبّاقين إلى الانضمام لهذا التعليم، كان أستاذي في اللغة العربية من نحوٍ، وصرفٍ، وإملاء المرحوم الشارف الذي صار بعد الاستقلال إطاراً في الشؤون الدينية، وعضو لجنة الفتوى، كما كان أستاذي في الأدب العربي شابّاً متحمّساً للغة العربية يعشقها، ويتلذّد، وهو يتكلمها سرداً، وشعرًا، وأقوالاً لأعلام، وحكمًا؛ فحبّبي فيها من ذاك العهد (نسيت اسمه).

مما لا أنساه أنّ أوّل قصيدة رأيت أبياتها على السبّورة مكتوبة، وقد استخراج حكمها، ودوّنها على السبّورة بطبشور أصفر، وسمعتُه يتغنّى بها طرباً،

لامية ابن الوردي، قصيدة مشهورة من أجمل اللاميات الإرشادية، والأخلاقية، والاجتماعية، والسياسية، والأدبية، والحكومية، والتجارب اليومية.

نظّمها الشيخ الفقيه النحوي القاضي المؤرخ زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المعري البكري نسبة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، المشهور بابن الوردي، من شعراء القرن الثامن الهجري، من أبياتها<sup>1</sup>:

اعتزل ذكر الأغاني والغزل	وقل الفصل وجانب من هزل
ودع الذكرى لأيام الصبا	فلأيام الصبا نجم أقل
إن أننا عيشة قضيتها	ذهبت لذاتها والإثم حل
واترك الغادة لأتحفل بها	تمس في عز رفيع وتجل
وافتكر في منتهى حسن الذي	أنت تمواه تجد أمراً جل

هذا الأستاذ الأريب الأديب من حبه للعربية وجواهرها كان وهو يقدم لنا لآليها يرفقها دائما بابتسامة رقيقة مشفوعة بإشارات، وتلميحات إنسانية راقية عن جمال هذه اللغة، ونزول القرآن الكريم بها.

---

1 - عرض وتقديم: محمد سليمان حسن لديوان ابن الوردي. اللامية. مجلة المعرفة السورية: كتاب الشهر.

عن طريق أستاذه ولجّت عالم الكُتُب ؛ أستاذه باللغة الفرنسية قدير بهذه اللغة مثلما هو قدير باللغة العربية، كان يعلمّ قسما بمستوى ثانٍ أحسن منّا مستوى، وكنا نحن مستوى أول بدأ معنا بالأبجدية، وكتابة وقراءة كلمات بسيطة، لنترقّى إلى المستوى الثاني في آخر سنة 1961 هذا الأستاذ لا أتذكر اسمه، صورته لا تزال للذكرى في ألبومي، عرفتُ أنه من قالمة؛ بعد الاستقلال انتمى إلى سلك الشرطة، ورُقّي إلى محافظ شرطة.

متّنتُ علاقتي بأستاذ الأدب العربي، صرّنا نلتقي كثيرا أثناء فترة الخروج والالتقاء في ساحات المشي، نتحاور في عديد القضايا، هو الذي شجّعني على المطالعة، والاستفادة من الكتب التي كان يستعيرها، ويُسمح له بإخراجها باعتباره معلما، من مكتبة السجن الغنيّة بعشرات العناوين المختلفة المعرفة. هي مكتبة جاءت نتيجة الانتفاضات، والإضرابات، وضغط هيئة الصليب الأحمر الدولي، كُتّبها حديثة الصدور، وأغلبها لكُتّاب مصريين، ثم لبنانيين؛ منه تعرّفت وإن بنسبة قليلة على طه حسين، العقاد، أحمد حسن الزيات، أحمد شوقي، حافظ إبراهيم، جبران خليل جبران، مي زيادة؛ إن من فقرات قدّمها لنا في دروسه، أو من حديث عن أولئك الأدياء.

حرصتُ بكلّ قوّاي، وأنا الذي حُرمتُ من التعليم أن أشفي غليلي من معارف هؤلاء الأساتذة أثناء وجودي معهم لأني في غرفتي المغلقة مع ثلاثة زملاء أحسنهم يتقن إمضاءه بصعوبة بالفرنسية، مكتفيا بحفظه لسورٍ قصار يصلّي بها الفرائض، لا يشاركني واحدٌ منهم في التعلّم، وجدّثُ نفسي ليس بإمكانني فتح كتابٍ، أو إنجاز تمرين في الغرفة التي جمعتنا، لضيقها.

عندما أعلن قرارُ وقف إطلاق النار في 19 مارس 1962 وتأكّدت مثلما تأكّد كلُّ السجناء ممّا يصلنا من قيادة الولاية الأولى، ومن أخبار الأهالي الذين يزورون أقاربهم بالسجن، من باتنة ومن المناطق القريبة أنّ موعد إطلاق سراحنا قد قُرب، كان مستوأي اللغوي، والمعرفي مقبولاً أهلياً فيما بعد إلى المواصلّة.

**مرارةٌ في الحلق . . لا تزال !:** ما ترك مرارة في نفسي إلى يوم الناس هذا أيّ منذ أن ألقى القبض عليّ حتى قدومي إلى سجن "لامبيس" ما زارني أحدٌ من أبناء مسقط رأسي، لا منه، ولا من عنابة، ولا أحد أرسل إليّ رسالة، أو سأل عنيّ، ما عدا المرحوم تواتي عمّار الذي حلّ مكاني في محليّ، إذ أرسل لي حقيبة صغيرة بها ملابس داخلية، وعلطور، وشوكولاتة.

والدتي رحمها الله ما سمعت بوجودي في السجن إلّا بعد أن وصلتها رسالة مني عن طريق إدارة السجن بعد مراقبة مضمونها، مثل مراقبة الرسائل الواردة إلى السجناء من ذويهم فقط.

التنقل من الجنوب الخاضع للحكم العسكري إلى الشمال ما بعد مدينة بسكرة كان يخضع لرخصة من الحاكم العسكري بالوادي، غير أنّ من يعرفوني من السوافة بعنابة موقفهم عبّر عنه ممثلهم الذي جاءني إلى المحلّ، وأعلن لي أنّ السوافة جاؤوا من مسقط رأسهم، وقطعوا المسافات من أجل "الفرنك" لا علاقة لهم بما يُسمّى "الوطن".

بعد الإعلان عن توقيف القتال، ونجاح المفاوضات الجزائرية الفرنسية؛ بقدر ما غمرتنا الأفراح كسائر الجزائريين، إلّا أنّ توالي أخبار جرائم المنظمة

السريّة O. A. S، وعلّاة المعمرين، جعلتنا نتابع الأحداث ساعة بساعة، والخشية تسري في نفوسنا من أن تمتدّ الاغتيالات والتفجيرات في سجننا، وعشرات الحراس الفرنسيين ممّن يروننا يوميا شزراً.

**بشائر الفرج لاحت:** في شهر أفريل 1962 بدأ وصول بعض المحكوم عليهم بالإعدام من فرنسا إلى سجننا، وقد نجوا من تنفيذ حكم الإعدام، كما نجوا من اغتيالات هناك؛ استبشرنا خيراً، وبدأنا نمّي أنفسنا بقرب إطلاق سراحنا الذي حقيقة بُدئ فيه وفقاً لاتفاقيات "إفيان" في محورها الأول، وفي بندها الأول الذي نصّ على ما يلي فيما يخصّ السجناء:

«إطلاق سراح جميع السجناء الذين كانوا يقبعون في السجون، سواء في الجزائر أو في فرنسا»، بُدئ بإطلاقنا أواخر هذا الشهر أفريل على دفعات، وحذرٍ شديدٍ من أن ينال المُفرج عنهم مكروهٌ خارج السجن، أو هم في طريق عودتهم إلى ديارهم. تفاديا لكلّ مكروه، كان يستلم السجين المُفرج عنه، أو مجموعة من منطقة واحدة، إضافة إلى أهاليهم أفراداً مدنيون مسلّحون من نظام الثورة، يُوصلونهم آمين إلى المنطقة التي تمّ القبض عليهم فيها.

**الحرية هلّت عليّ بهيئة:** أُطلق سراحي يوم 05 ماي 1962 رفقة مجموعة كبيرة من مساجين عناية، خارج السجن وجدنا مواطنين كثيرين أتوا من باتنة، ومن غيرها لاستقبالنا، والاحتفاء بنا، وتقديم الهدايا، حصل في كل أيام إطلاق السجناء.

رافقنا أولئك الإخوة إلى عناية، حيث وجدنا في انتظارنا استقبالا كبيرا مثلما حصل أمام السجن، من كانوا معي وجدوا أهاليهم، وأصدقاءهم في

استقبالهم، أما أنا فما وجدتُ أحدًا في استقبالي، مكثتُ مع أحد رفاقي في السجن بمنزله بمدينة عنابة يومين، ثم شرعتُ في الاتصال بتجار بلدي بحثًا عن وسيلة نقلٍ تُوصلني إلى مسقط الرأس؛ فساق الله إليّ صديقين من أصدقاء الطفولة، والرفقة في كُتّاب القرية، هما: الحاج أحمد بّي أطل الله في عمره، وابن أخيه المرحوم ميلود الحاج بّي عُمر أطل الله في عمره.

كان الحاج أحمد سائقًا لشاحنة كبيرة تملكها عائلته، يساعده عُمر بن أخيه ميلود، يشحنان عليها سلعا مختلفة بين منطقة وادي سُوف ومدينة عنابة؛ ما أن سمعنا بي حتى تمسّكا بمرافقتهما إلى مسقط الرأس. تطلّبت الرحلة التي في العادة تكون يوما كاملا، ثلاثة أيام بلياليها؛ لأن الشاحنة تعطلت قبل وصولنا مدينة بسكرة؛ إذ تمّ جرّها، وإصلاح عطبها في مدة يومين. وصلت مسقط الرأس، للأمانة فقد استقبلتُ استقبال الأبطال، كان الاحتفاء كبيرا جدا، بدءا من مدخل البلدة حتى وسط البلدة أين أسكن بمحاذاة الجامع العتيق الأول، جامع سيدي المسعود الشّايّ.

أرسل إليّ "قائد البلدة"، الذي لا زال حينذاك يمثّل السلطات الاستعمارية؛ لأن إنهاء وجودها ومن يمثّلها كان إلّا بعد أن أدلى الشعب الجزائري بتأييده استقلال البلد في الخامس جويلية ألف وتسعمائة، واثنين وستين؛ لبيت دعوته، استقبلني بحفاوة، وشكرني كثيرا على المشاركة في الثورة.

## 7- جندي في الجيش الوطني الشعبي

مكثتُ بعد إطلاق سراحي بمسقط الرأس مع الوالدة وأخويّ، والأقارب خمسة عشر يومًا، ثم عدتُ إلى عنابة رغبة مني في الانضمام إلى الجيش الوطني الشعبي، لأن قياديين في جبهة التحرير الوطني (التي كانت أم كل الجزائريين، وقائدة الكفاح الوطني، وقائدة نهضة الجزائر الحديثة، تحوّلت في سنة 1989 إلى حزب كسائر الأحزاب، إذ فقدت الريادة، والمكانة). أولئك القياديون خيرونا بين العودة، والانضمام إلى الجيش الوطني الشعبي الوطني، وبين البقاء في الحياة المدنية، ولما كان في داخلي حينئذٍ، وما تمكّنتُ من تحقيقه قبل إلقاء القبض عليّ بالانضمام إلى المجاهدين في الجبال بمنطقة " فلفلة " ضواحي سكيكدة، كما أسلفتُ، جاءني فرصة ذهبية.

في مركز تدريب: عدتُ إلى عنابة في آخر شهر ماي، التقيتُ بتلك القيادات، كما التقي غيري، انضمّ إلينا مجتدون جدّدٌ ممن أُطلق عليهم فيما بعد "جنود 19 مارس"، حيث كان عددنا حوالي مئة رجلٍ. في الخامس من شهر اجوان، وتحت جُنح الظلام توجهوا بنا مشيًا في صفٍّ طويلٍ وراء بعضنا بمحاذاة الطريق المؤدي إلى قسنطينة، كانت القوات الفرنسية لا تزال بمجزراتها، وآلياتها في دوراتها، ونشاطها كالعادة. ليلتها كلّما لاح نورُ سيارة، أو آليات عسكرية، نؤمّر بالانبطاح أرضًا، قطعنا التلال، والمنخفضات متخفّين عن القوّات العسكرية

الفرنسية مسافة طويلة، في اتجاه منطقة جبلية هي " فلفلة" شرقي مدينة سكيكدة، القريبة منها، ما أن أشرقت الشمس، وانتشرت أشعتها حتى وجدنا أنفسنا في معسكر تدريب. في الوقت الذي كان الشعب الجزائري ينتظر انتخابات "نعم.. لا" للاستقلال، ثم الاحتفال بالخامس من جويلية 1962 عيد الاستقلال.

**تكوين عسكري قصير المدى:** في ذاك المعسكر القابع في الهواء الطلق، خضعنا لتدريب عسكريٍّ لمدة عشرين يوماً في استعمال السلاح، والهجوم على العدو المضاداً لاستقلال الجزائر، ووقف زحفه من الشرق، ليتّم نقلنا ليلة أربعة جويلية 1962 إلى منطقة "موريس سابقاً" بلمهيدي حالياً، وتحديدنا إلى سيدي قاسم شرقي بلمهيدي، في اتجاه مدينة القالة، كُنّا مئات من العساكر المدجّجين بالسلاح، السلاح الفردي من رشاشات نوع 49، والبنادق 36، ومدافع الهاون، والسلاح المضادّ للآليات، حُدّدت لنا المواقع، وطريقة التحرك، وكيفية ضرب العدو بمجرد ظهور آلياته؛ هذا العدو المكّون من "القومية الحركي، وجنود عبد الرحمن فارس المنشقين المتمردين" وفق تعليمات قيادتنا.

**بين أنياب الفتنة.. ١١:** اكتشفنا صباح اليوم الموالي أننا سنقاتل أبناء الجزائر، الجيش القادم من الحدود الشرقية ليلة الخامس جويلية، ويوم فرحة عيد الاستقلال، لولا ضباط أوفياء للجزائر، حريصون على حبّهم لشعبها فهموا اللعبة، بدل تصادم الجيشين: جيش الدّاخل، وجيش الخارج.. كان اللقاء وكان الحوار، والتفاهم، ووُئدت الفتنة في حينها. من الصعب على جيش خارج من حربٍ ضروسٍ، ومؤسسات الدولة ما ظهرت إلى الوجود إلّا في سبتمبر سنة ألف


وتسعمائة واثنين وستين إثر ظهور المجلس الشعبي الوطني الأول التأسيسي، جيش قادم من الحدود الشرقية والغربية أخذ من التدريب والتأهيل، مسلحًا تسليحًا عصريًا، مزودًا بأحدث أسلحة ذلك العهد، خاض المعارك على الحدود، وأمامه الخطان المكهربان، والمحاطان بالألغام الفتاكة، وجيش داخلي كافح، قاتل ببطولة قوات الاستعمار الفرنسي في كل شبرٍ من الجزائر وجهًا لوجه.

نجحت القيادة رغم الصعوبات المالية، والإدارية، والتنظيمية في توحيدده، وجعله جيشًا واحدًا يخضع لوزارة واحدة، هي وزارة الدفاع الوطني. بعد وأد الفتنة وجدتي في فيلق عسكري تكوّن من خمسمائة جندي، وضابط، وضابط صفٍ في مدينة " الحروش " قريبا من سكيكدة، وقسنطينة في ثكنة عسكرية كان بها مئات العساكر الفرنسيين، كانت ظروفنا صعبة فالوجبات تأتينا من قسنطينة إلا في اليومين، أو الثلاثة مرّة واحدة في صائفة 1962، ووجد البعض منا ضالته في البدلات، والأحذية العسكرية التي تركها العساكر الفرنسيون، بدلات كان أغلبها متسخًا، وبها حتى القمل، غسلناها جيدا، ولبسناها.

كما كنّا ندعمّ غذاءنا ذلك الفقير بالتسلّل فرادى إلى المزارع المجاورة التي ملكها المعمرون، العامرة بالعنب، والتفاح، والإجاص، والبرتقال فيما بعد.

## جيش في وضع عادي:

ما أن هلّ الشهر الأخير من سنة 1962م حتى كان الجيش في وضعية جيدة، ومنه فيلقنا الذي صار به مطعمٌ حديث آلي، وقُدّمت لنا البذلات الجديدة،

Signes particuliers : <i>neant</i>	NOM: KHALEF	اللقب	N°: 1362
Taille: <i>1m 70</i>	Prénoms: BACHIR	الاسم	
Signature du Titulaire: <i>Khalaf</i>	Né le: 28/6/1941	المزاداد يوم	GHARMAR
	N° matricule: 16 MAI 1963	رقم التسجيل	
	Delivrée par: LE COMMANDEMENT DU 11° SOUS-GROUPEMENT.	يوم	
	Signature: <i>[Signature]</i>	امضاء	

وأسلحة حديثة موحّدة لنا بدل الأسلحة المختلفة الطرازات المتأتية من مختلف المصادر، وبفضلها، وفضل المجاهدين الأبطال تحرّرت الجزائر، إضافة إلى شبه مرتّبات شهرية. القيادة العسكرية لما أمّنت للجيش مستلزماته، شرعت في التدريب اليومي داخل الثكنة وخارجها؛ التدريب المعروف في النّظم العسكرية الحديثة. في مدرسة الجيش التقيتُ، وعرفتُ رجالاً كانوا في الصفوف الأولى للثورة منذ انطلاقتها، عرفتُ رجالاً كانوا من رواد الحركة الوطنية، التقيتُ بقيادات قديرة على خوض المعارك ضدّ العدو الاستعماري، وحقّقوا انتصارات، وتدرّجوا في المسؤولية القيادية.

منهم تعلّمتُ حبّ الوطن أكثر، منهم تعلّمتُ أن الجزائر واحدة، لا فرق بين جنوبها، وشمالها، شرقها، وغربها؛ أينما تنادينا نحن في خدمتها؛ الوطنية تضحية، انتماء لأمة متجذّرة في التاريخ، الجيش الوطني امتداداً لمن سبقوه

مقاومة، نضالاً، استماتة، تضحية، التقيتُ أيضاً بشباب انضمّوا إلى الجيش، كلهم حماسٌ لخدمة الجزائر، عايشوا مآسي حرب التحرير، رأوا بأبّ أعينهم ما ارتكبه الاستعمار، في بلدهم، وفي حقّ أهاليهم، وأقاربهم. تكوّنتُ في مدرسة الجيش وطنياً، وعسكرياً، وانتمائياً لوطنٍ أنا جزءٌ منه. من خلال تحرك فيلقي من الحرّوش إلى شلغوم العيد "شاطودان سابقاً" التابعة حالياً لولاية ميلّة، في الهضاب، ثم إلى مدينة القل، فقسنطينة، ثم سكيكدة، ومنها إلى بشار سنة 1963.



ضمّن فرقةً مسرحية: من الطرائف التي حدثت لي وأنا جنديّ بالجيش الوطني الشعبي في القل، أن استقرّ فيلقنا، وتكثّف التدريب العسكري، وثكّنتنا بمحاذاة البحر ووسط المدينة، وراءنا الجبال العالية التي تغطّيها الغابات الكثيفة، وأشجار الزيتون، ارتأت قيادة الفيلق أن ترفّه عنّا، سعت إلى تكوين فريق رياضي لكرة القدم يتنافس مع فرق

رياضية أخرى تابعة لفيالق عسكرية أخرى؛ كما سعت إلى نشاطات أخرى، منها المسرح، حيث تكوّنت فرقة كنتُ أحد أعضائها الرئيسيين في تأسيسها، وفي كتابة نصّ المسرحية الأولى رفقة أعضاء آخرين، منهم شابٌّ من قالمة رحمه الله تُوفّي في

حادث مرور بعد زواجه بشهر واحدٍ، وهو عائد من قافلة إثر إجازة. قدّمنا المسرحية في الثكنة بالقل، بعد ما نصّبنا لها خيمة، على أرضيتها رُكِّح كبيرٌ، مضمون المسرحية جريمة قتل لبريء، كان دوري وكيل الجمهورية، كانت باللغة العربية الفصحى، حضرها كل أفراد الفيلق، بما في ذلك هيئة القيادة، كانت ناجحة جدًا مما أدّى بقائد القطاع لناحية سكيكدة أن يأمرنا بعرضها في مدينة سكيكدة على كل أعضاء الفيلق المتمركز به، وحضر هذا القائد عرض المسرحية، وأعجب بها.

**محطات في حياتي العسكرية:** بعد أيام من ذلك، ونحن لا زلنا في تلك النشوة جاء أمرٌ من ذاك القائد بأن يُختار له خمسة شبّان من الفيلق يتمتعون بلياقة بدنية، وسلوكٍ حسنٍ، يحسنون القراءة والكتابة، واقترح هو شخصيا البعض منهم، وكنتُ أحد المقترحين مع اثنين آخرين من الذين رأهم خلال عرض المسرحية بسكيكدة، وكما هو الحال في النظام العسكري "نفذ ولا تناقش"، وفي أحسن الحالات "نفذ ثم ناقش".

نُودي علينا الخمسة، أمرنا بإحضار أغراضنا، ثم امتطينا سيارة لاندروفر عسكرية تحت إمرة ضابط صفٍّ، استوضحنا عن الوجهة، كان الصمت؛ أفقنا إلّا ونحن في المستشفى المركزي بسكيكدة، نزل الضابط وسلّم لإدارة المستشفى رسالة كبيرة، صعد السيارة، أمر السائق بالانطلاق، ما فهمنا شيئاً، اقترب منا أحد الموظفين، طلب منا أن نتبعه، ما تحركنا، طلبنا منه أن يشرح لنا سبب مجيئنا إذ أننا بصحة جيدة، ولا نحتاج إلى علاج.

أفهمنا بأننا سندخل في فترة تكوين مدّة عشرين يوماً في فنّ الطبخ، نعود إثرها إلى مطبخ الفيلق الذي يفتقر إلى طبّاحين مؤهّلين؛ جنّ جنوبي، أبعدها هذا الجهاد أثناء حرب التحرير؟ أبعدها هذا الفراق لوالدتي وأخوأي؟ أبعدها هذا التكوين العسكري، والتأهيل القتالي؟ أبعدها ذلك التآلق المسرحي أكون طبّاحاً؟..

لا وألف لا، مرّحى بالسجن، ليكنّ ما يكون. انضمّ إليّ اثنان، وخاف اثنان فاستسلما، وتوجّهوا مع الإداري الذي أوصلهما إلى إدارة المستشفى كي تُتيح لهما التكوين المطبخي، الموظّف الإداري لما عاد طلبتُ منها مهاتفة القطاع العسكري، وإعلامه برفضنا التكوين، ما هي إلاّ ساعة ونصف الساعة حتى عادت السيارة العسكرية، وأعادتنا ليس إلى القل حيث فيلقنا؛ إنما إلى مقرّ قيادة القطاع العسكري بالمدينة، والمسؤولة على الفيلق بالقل، وغيره من الفيالق الأخرى بالناحية.

أمر قائد القطاع العسكري بوقوفنا أمامه، وبخنا، وأسمعنا من الكلام الذي لا يتمنّى أيّ إنسان سويّ سماعه، أمر بحلق رؤوسنا، وتجريدنا ممّا نحمل من نقود، وبطاقات هويّة عسكرية، وأحزمة السراويل، وإلقائنا في زنزانة كان بها عساكر آخرون مُعاقبون، كان عدداً بالزنزانة الواقعة بجانب مراحيض الثكنة إحدى عشرة فرداً، ما قدّم لنا طعاماً في اليوم الأول.

صباح اليوم الموالي، أخرجتُ أنا ورفيقي من الزنزانة دون إعطائنا فطور الصباح، سلّم لكلّ واحدٍ منّا عربيّة، ومعها منقارٌ وبالة لتعبئة التراب، وقادنا ضابط الصفّ إلى ربوة ترابية، وأمرنا بنقل ترابها بواسطة العربات من الجهة الشرقية بالثكنة إلى الجهة الغربية، استمرّ العمل بهذه الكيفية من شروق الشمس

إلى منتصف النهار، وفي اليوم الموالي أعدنا التراب من الجهة الغربية إلى الجهة الشرقية. السكّان القاطنون في العمارات المُطلّة على العمارة أطلوا علينا، وتهمّموا بنا، وصاحوا: يا خونة..!!.. يا قومية..!!، أقلعوا عن ذلك عندما صحّنا فيهم وصحّنا لهم حالنا.

في مساء كل يوم من أماسي تلك الأيام السبعة كان أحد ضبّاط الصفّ المرسل من قبل قائد القطاع يتّصل بنا إن قرّرنا الموافقة على التدريب المطبخي، كان جوابنا الرفض.

أمر قائد القطاع العسكري إعادتنا إلى الفيلق بمدينة القل، وأن تمتدّ عقوبتنا في سجن الثكنة لمدة أسبوعين. في الثكنة قائد الفيلق المدعو بوحمره، وهو اسمه الحربي في الثورة وهو من عنابة؛ علمًا أن بوحمره حيّ كبير هامشيّ من أحياء مدينة عنابة ظهر أثناء حرب التحرير من المهّمّشين، والنازحين من الأرياف والبوادي هربًا من بطش الاستعمار الفرنسي. كان بوحمره بالرغم أنه يعرفني أيّ ثوريّ، ومجاهد مثله كان يُكنّى لي كرمًا شديدًا، وكلّما صادفني في الثكنة أمامه كان يخلّق أيّ سببٍ كي يعاقبني كأني ما حيّته العسكرية التي تليق به، أو أيّ لم ألفت إليه، أو أنّ حذائي غير ملمّع، أو أنّ ذقني غير حليق، أو أنّ بذلتي غير نظيفة، وكان كلّما صادفته يصرخ في: يا السوفي، مرفقًا ذلك بإشارة تهديد، ووعيد.

لما أعدتُ إلى الفيلق وهو قائده كان في نشوة، أمر بأن لا أُخرج من قاعة السجن، وأحرم من أيّ فسحة للمشي، ومنع الجميع من الاتصال بي، كما أمر بتنقيص وجبتي؛ لأنّ زميلاي أطلق سراحهما بعد يوم، وأعيدا إلى كتيبتهما

بالفيلق جنديين ضمن الفيلق. لكن أصدقائي من الجنود، عبر نافذة علوية زودوني بأكثر مما أحتاج من الطعام، وبذلاقي العسكرية التي كانوا يغسلونها، ويلقوا بها إليّ نظيفة؛ بل زودوني بمذياعي الشخصي من نوع " أوسيانيك Postes TSF Océanic.Radio" الذي اشتريته، وأشغله ليلا، وخلال الأوقات العادية خارج العمل.

في إطار الحركة النقلية للعسكريين وهو إجراء عاديّ نُقلتُ إلى فيلقٍ آخر بمدينة شلغوم العيد" اسمها شاطودان" في العهد الاستعماري أنا ومجموعة كبيرة من الجنود، وضباط الصفّ. مدينة شلغوم العيد حينذاك الواقعة على الطريق المؤدي إلى العاصمة كانت تشكّل ولا تزال محوراً هاماً من التراب الوطني؛ استحسنْتُ ذاك النقل، تخلّصاً من قائد الفيلق بوحمرة من جهة، وتعرّفاً على مناطق أخرى من الوطن، والتقاء برجالٍ آخرين من مناطق مختلفة؛ وهذه كلها من فوائد الحياة العسكرية.

الاحترام عاد إليّ؛ وجدتُ نفسي في فيلق آخر، كان قائده مجاهدٌ كبير السنّ، أبلى البلاء الشديد في ثورة التحرير، الرتبة التي تحصّل عليها ما أتت من ترقية عادية بعد الثورة؛ إنما نالها في صفوفها، نتيجة بلائه، وقيادته الناجحة للمعارك، هذه الخبرة، وتلك الحكمة والرزانة غطّت على أميته بحيث لا يعرف من أجديات الكتابة بنوعيّها العربي، والأجنبي غير رسم لقبه بصعوبة؛ كقائد للفيلق في حاجة إلى كاتب يكتب له أوامره إلى عناصر الفيلق، ويقرأ له أوامر القيادة وتعليماتها التي ترده من القطاع العسكري بقسنطينة.

أخبر عني من قائد الكتيبة التي أنتمي إليها بعد أن رأني أتلو القرآن من المصحف الشريف، أخبر قائد الفيلق الذي عينني كاتبًا له، فأعفيت مباشرة من مهام الحراسة، والتدريب العسكري اليومي، والتنظيف الدوري للقاعة التي كنا نقيم بها، وكذا العمل بالمطبخ.

**كاتب لدى قائد الفيلق:** لما توطدت علاقتي بقائد الفيلق، طلب مني كَلِّمًا أوشك على أخذ إجازة أن أقرأ له من كتاب سلّمه إليّ، وأوصاني بإخفائه، وعدم الحديث عنه لأَيِّ كان، وأن يُبقي الأمر سرًّا بيني وبينه، كما أنّ هذا الكتاب ما سبق لي الاطلاع عليه؛ لما سلّمني الكتاب كان العنوان "الرحمة في الطب والحكمة"، وطلب مني في كلّ مرّة أن أقرأ له بابًا في كيفية تقوية الباه، وتدويني له في ورقة موادّ معيّنة تساعد على ذلك، إذ يشتريها من دكاكين البلدة، أو يُوصي عناصر مقرّبين له بشرائها كالعسل، واللوز، وعقاقير أخرى، كما يشتري أدوية أخرى من الصيدلة. كان يشعر بمتعة كبيرة، وأنا أقرأ له عن تلك المقويّات الجنسية، وكان يصفّق يديه جدلا، معلنا أنه سيقتنيها، ويأخذها معه.

لما يعود من الإجازة أعرف من ملاحظته، وسلوكاته مدى مفعول تلك العقاقير، والأدوية. مكثت معه ثلاثة أشهر، وتمّ نقلي إلى العلمة التي كانت تحمل في العهد الاستعماري اسم السقّاح الفرنسي "ساپارنو saint arnaud"، إلى فيلق آخر، ثم في شهر أكتوبر إلى مدينة سكيكدة، فيإلى الناحية العسكرية بشار في شهر ديسمبر 1963 بعد الاعتداء المغربي على جزائرنا الحبيبة التي لا زالت

حينذاك جراحها تنزف دمًا، ومآسي، ومخلفات حربٍ تحريبية ضدّ عدوّ شرّسٍ دامت سبع سنوات، ونيف، وهي ما أطلق عليها بـ "حرب الرمال".

**حرب الرمال .. أقلعتنا من مضاربنا:** في الثامن أكتوبر عام 1963، نشبت حربٌ بين الجزائر والمغرب اصطُح عليها بـ "حرب الرمال". دامت الحرب 29 يومًا، وانتهت بتوقيع اتفاق وقف لإطلاق النار في 20 فبراير 1964 في مالي، بعد وساطات قامت بها الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الأفريقية. صراع مسلح، اندلع بين الدولتين الشقيقتين بعد أن اعتدى المغرب أولاً على الجزائر، دون اعتبار للأخوة في الدم، والدين، والجيرة، ويُقال بسبب مشاكل حدودية، بعد عام تقريباً من استقلال الجزائر وعدة شهور من المناوشات على الحدود بين البلدين.

اندلعت الحرب المفتوحة في ضواحي منطقة تندوف وحاسي بيضة بالمغرب، ثم انتشرت إلى فكيك، واستمرت لأيام معدودة. توقفت المعارك في الخامس من شهر نوفمبر حيث انتهت بوساطة الجامعة العربية، ومنظمة الوحدة الأفريقية.

قامت المنظمة الإفريقية بإرساء اتفاقية لوقف نهائي لإطلاق النار في 20 فبراير 1964 في مدينة باماكو عاصمة دولة مالي، ولكنها خلفت توتراً مزمناً في العلاقات المغربية الجزائرية مازالت آثارها موجودة إلى الآن. لتُضاف إليها منذ 1975 قضية الصحراء الغربية، التي هي قضية حقِّ شعبٍ طالب، ويطالب بحقه في تقرير مصيره، والمغرب رفض، ورفض، والجزائر وقفت منذ ذاك التاريخ مع هذا الشعب، ولا تزال.

" المريخ " نقطة التقاء البلدين: في شهر ديسمبر سنة 1963 نُقل فيلقنا بكل عناصره، وعتاده على متن القطار في رحلة دامت ثلاثة أيام إلى مدينة بشار، بعد استراحة لمدة يوم، نُقل الفيلق في شاحنات عسكرية إلى منطقة " لمريخ " جنوب قنادة على الحدود المغربية، لكن فيلقنا ما دخل في معارك مباشرة مع الجيش المغربي الذي كان متمركزا أمامه مباشرة، لأن حدة المعارك في ذاك التاريخ خفت، وبالكد توفقت بفضل الوساطات العربية، والدولية.

كانت الحدود مفتوحة، والسكان، كما الرعاة ينتقلون بين البلدين، لاحتواء أولئك السكان، والرعاة وخشبة جرهم المغرب إلى صفوفه عيوناً له ضد جيشنا، كتفت قيادة الجيش على الحدود الاتصال بهم، وتخصيص خيام قارة لهم ولأسرهم، والعناية بهم علاجياً ومعيشياً، كما خصصت لأبنائهم قسماً دراسياً. فيلقنا حل محل فيلق آخر شارك في المعارك نحو بشار، من بين عناصره جندي كان يُعلم أبناء السكان والرعاة في ذاك القسم، بحث قيادة فيلقنا عن جندي يواصل تعليم الأطفال، كنت أنا ذاك المعلم الجديد.

مشروع معلم...: فصلٌ دراسيٌّ به ما ينيف عن العشرين متعلماً بمستوي سنة أولى، وسنة ثانية ابتدائي، من كان قبلي رحل دون أن ألتقي به. وجدت نفسي أمام أطفال أبرياء تتراوح أعمارهم ما بين الست سنوات، والأربعة عشر سنة، بفطرتي شرعت في التعرف عليهم واحداً، واحداً، كتبت كلمات وحروفاً على السبورة، وأقرأهم إيها تعرفاً على مستواهم، ولما تحقق لي ذلك، بقيت عاجزاً في

طريقة تعليمهم، وقائدي المباشر في كل يومين، أو ثلاثة يستوضح مني فيما قمتُ به معهم.

ما طالت بي الحيرة كثيرا، فقد تذكّرتُ أساتذتي في السجن، وطرق تدريسهم، وكتابة جمل، وعبارات، ونصوص من عندهم إنْ انعدم وجود الكتاب، شرعت مع تلاميذي في البداية في كتابة سُورٍ قرآنية قصيرة على السبورة وتحفيظها إيّاهم وفق مستواهم، ثم شرعت في تدريبتهم على القراءة والكتابة، إذ وفّرت لهم القيادة الكراريس، والأقلام، كما وفّرت لهم وجبة إثر انتهاء الدوام من وجبات الفيلق التي كان يُؤتى بها من مدينة بشار يوميا.

في شهر مارس 1964 أُعيد فيلقنا إلى مدينة بشار، وجدت نفسي وقد انفصلتُ عن الفيلق في "الثكنة الجامعة quartier général" التي منها التوزيع، والنقل، وخشية نقلي إلى فيلق آخر في منطقة أخرى، بدأت تخامرني فكرة الخروج من الجيش، والعودة إلى الحياة المدنية، وقد فعلها العديد ممّن كانوا معي في الفيلق، وفي فيالق أخرى قبل الحرب التي شنتها المغرب، وبعد انتهائها في وقتٍ قريبٍ.

.. وانبلج الصُّبحُ؛ بقائي شبه معلّمٍ مع تلاميذ "المريخ" جنوب بشار، لفت نظري إلى مهنة التعليم التي ربّما تكون مستقبلي، لما انتهت الحرب، وعدتُ إلى مدينة بشار، واستقرتُ في الثكنة المركزية انتظارا لإعادة توجيهي إلى إحدى الوحدات العسكرية.

ما مكثتُ غيرَ أيامٍ قلائل في الثكنة حتى سمعتُ ذات يوم، وأنا في مقرّ إقامتي، والمذيع بجاني في نشرة الواحدة زوالا إعلانا عن مسابقة خاصّة

بالانضمام إلى سلك التعليم برتبة "مُمرّن"، تُجربها مقاطعة التعليم المحليّة. اتصلت  
يوم إجازتي بالمقاطعة، التقيت بالمستشار التربوي الذي كان من مدينة تقرت.

لَمَّا علم أيّ من وادي سُوف رَحَب بي كثيرًا، وشجّعني على المشاركة،  
والعودة إلى الحياة المدنيّة والانضمام إلى سلك التعليم؛ أقنعتني بأنّ التعليم رسالةُ  
الرسول، والأنبياء، والمصلحين؛ مستقبله مشرقٌ وضاء في وطن بدأ يخوض معركة  
النهضة، وبناء عقول الأجيال. ساعدني على كتابة طلب المشاركة . بقيّة الوثائق  
تُضاف بعد النجاح، وقُرِب الشروع في العمل . أتذكّر حينها معضلة واجهتني، أنّ  
المسابقة ستكون في مدرسة البنات المركزيّة للبنات ببشار يوم 24 أبريل 1964 في  
شارع رئيسي بالمدينة بداية من الساعة الثامنة صباحًا، وكان الخروج من الثكنة  
ممنوعًا، والحراسة مشدّدة كما هو الحال في الحياة العسكريّة في كل الجيوش،  
والإجازات تكون مساءً، وليست في كل الأيام، فما العمل؟

ثم إنّ الشرطة العسكريّة يجوب أفرادها الشوارع حفاظًا على الأمن من  
جهة، وإلقاء القبض على كل عسكري قد يكون تسلّل خارج الثكنات؛ يوم  
المسابقة، تحايّلت على أحد الحراس بعد أن ابتعد الضابط مسؤول الحراسة بأنّ  
أوهمته أنني سأشتري علبة سجائر، وأعود بسرعة، أغريته بأنّ أشتري له ما يرغب  
فيه، وافقني حذرًا، وطلب مني ألاّ أدخل إلاّ إذا كان الضابط غير موجود.

أسرعتُ السير نحو المدرسة، وجدتُ العديدين من الراغبين المشاركة في  
المسابقة أمام الباب الذي ما فُتح بعد، انضمتُ إليهم وأنا أنظر إلى كل  
الاتجاهات أختلس النظر إلى الشرطة العسكريّة، ساورني الشكّ أنّ جنديّ  
الحراسة ربّما بلّغها عنيّ.

فجأة ظهرت فرقتها قادمة من بعيد، تفرقت بين جدار المدرسة، وبين أرجل المشاركين تخفياً. مرّت الشرطة العسكرية دون التفنّن إليّ، سرعان ما فُتح الباب، ودخلنا.

تضمّنت المسابقة اختباراً كتابياً في اللغة العربية، ومسائل بسيطة في الحساب، والقرآن الكريم، وفقه العبادات، ومحادثة شفوية لاختبار سلامة النطق. مرّت ثلاثة أيام، وأعلنت مفتشية التعليم عن طريق الإذاعة في نشرة الواحدة عن أسماء المقبولين، وكنت واحداً من بين الـ 15 ناجحاً، حصلت على 59.5 نقطة من عشرة، دون ذكر الترتيب في الشهادة التي كانت "مفتشية المعارف لعمالتي الواحات، والساورة بالأغواط قد أعدّتها وأمهرتها بجاتها".

كانت فرحتي كبيرة، اتّضح أمامي مسارٌ حياتي المستقبلية، اتصلت بذلك السيد الذي شجعتني على المشاركة في المسابقة، والخروج من الجيش، شكرته كثيراً؛ سلّمني شهادة النجاح.

**إلى الحياة المدنية رغم الإغراءات:** السؤال الذي انتصب أمامي كاجل أيامها: كيف الخروج من الجيش؟ ما هي الطريقة؟ بمن أتّصل؟ من يساعدني؟ لا علاقة لي إطلاقاً بأيّ ضابط.. كيف الحل؟ وما السبيل؟..

قرّرتُ أن أقابل المرحوم عبد الله بلهوشات قائد الناحية العسكرية الثالثة المسؤول على الجميع، عرفتُ أنه من الصعوبة بمكان مقابلته، انتظرتُ يوم مقابلته الأسبوعية، ولما جاء دوري دخلتُ مكتبه، حيّيته التحية العسكرية، عرفته بنفسه فدائياً، سجيناً ثم جندياً، فمعلّماً جندياً، ارتاح إليّ مثلما ارتحتُ إليه، وبرّرتُ له

رغبتي في الخروج من الجيش لكويني لي والدة أرملة وأخوان صغيران؛ جميعهم في حاجة إليّ، وإلى قُرْبِي منهم، وتولّي أمرهم.

رفض لكون الجيش في حاجة إلى أمثالي ممّن جاهدوا، وضحوّوا، وروح الجزائر تسري في دمائهم، وهم الأقدر على غيرهم في بناء الجيش، وتطويره، وتكوين عناصره؛ ما قدر يومها على إقناعي، منحني إجازة خمسة عشرة يومًا ذهبتُ فيها إلى مسقط الرأس، كي أغيّر مجرى حياتي، التقيتُ بالوالدة، وأخويّ، والأقارب، والمعارف؛ أوصتني والدة رحمها الله أن أخرج من الجيش، وأن أكون في التعليم مثل فلان، ومثل علّان بمجرد عودتي إلى بشار سعيتُ إلى مقابلة عبد الله بلهوشات قائد الناحية العسكرية مهما كان الأمر.

تمكّنتُ من ذلك، ذكرّته بنفسي، قدّمت له طلبي من جديد، سعى كالعادة إلى إقناعي بالبقاء في الجيش على أن يُضيفني إلى بعثة عسكرية إلى موسكو، تستغرق فترة التكوين ثلاث سنوات، أعود بها برتبة قبطان في الجيش الوطني الشعبي، باب الترقيات فيما بعد مفتوح، كي أصير ضابطًا ساميًا في الجيش؛ سعيتُ بدوري إلى إقناعه باختيار قراري. سألني بهدوء، وتفرّس جيّدًا في وجهي:

- من أيّ منطقة أنت تحديدًا؟
  - من وادي سُوف.
  - إن خرجت من الجيش، ماذا ستشتغل؟
  - سأبيع الفول، أو أشتغل في زراعة النخيل، أو ورشات البناء.
- تغيّرت سحنته رحمه الله، غضب، وأجابني:

- غبي أنت، تبيع الفول، وتترك مستقبلاً زاهراً لك في الجيش.
- هو قرارٌ لا رجعة حضرات، حتى لو وضعتني في السجن.

سكت، نظر إليّ جيداً، وخاطبني:

- حقاً أنتم السوافة الذين حولتم الرمال القاحلة إلى جنّات فيحاء تنتج تمور دقلة نور الذهبية بإمكانكم وأنت واحدٌ منهم الاستغناء عن رتبة سامية في الجيش. اعلم يا بني أن سراحك من الجيش لم، ولن يكون على يدي.. هيا انصرف من أمامي.

غادرتُ مكتبه حزينا. اسودّت الدنيا في وجهي؛ لكن ما فقدتُ الأمل، في تلكم الأيام قيل لي إنه ذهب إلى العاصمة، وترك نائبه القبطان أحمد، طلبتُ مقابلته، عرفته بنفسي، أعلنتُ له رغبتني في الخروج، رفض بدوره؛ لما رأى إصراري، وافق شريطة أن لا أطلب أي شيء من الجزائر المستقلة لا بصفتي فدائياً سجيناً، ولا بصفتي جندياً؛ وافقتُ، طلب مني أن أكتب بيدي طلب الخروج، وأن أتعهد كتابياً بذلك الشرط، كتبتُه في الحين، أمر كاتبه بإعداد قرار التسريح الذي يحمل الرقم **12990** المؤرخ في يوم **14** ماي **1964** كان فحواه: «قيادة الناحية العسكرية الثالثة، تُقرر تسريح المحارب المسمى بشير خلف المولود في **28** اجوان **1941**، رتبته جندي من الجيش الوطني الشعبي بناء على طلبه.»

REPUBLIQUE ALGERIENNE  
DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE

ARMEE NATIONALE POPULAIRE

MINISTRE  
DE LA  
DEFENSE NATIONALE

REGION MILITAIRE

N° 12990

**FICHE DE DEMOBILISATION**

LE COMMANDEMENT DE LA 3<sup>e</sup> REGION MILITAIRE  
atteste avoir démobilisé ce jour 14 - Mai - 1964 le combattant

Nom KHELLAF Prénoms BACHIR

Pseudonyme

Date et lieu de naissance 28 Juin 1941 - à Guy-mac (Oran)

Fils de BELGACEM et de LAYACE-DELKHIL

Date d'incorporation dans l'ALN EN. 1960

Grade ou fonctions DJOUNDI

Sur sa demande, réforme, inaptitude physique (1)

Adresse actuelle Nagasin n° 451 - Sidi-Salem - Aïnaba - (ex-Bône)

Observations

Sur sa demande

SERVICE des EFFECTIFS  
3<sup>e</sup> Région Militaire

Armée le 14 - 5 - 64.  
La Direction Régionale de Personnel

(1) Réserve des militaires invalides

حينها كانت وسيلة النقل الوحيدة التي تربط الجنوب الغربي ومنطلقه بشار بالشمال الجزائري قطار الساعة مساء، خشية ألا أجد مقعدا به، أو ربّما يصدر قرار بإعادتي، قرّرتُ عدم البقاء في المدينة، لبست لباسي المدني، سلّمتُ سلاحي، ملابسي العسكرية، مستلزماتي الشخصية الأخرى، غادرتُ الشكّنة في اتجاه مخرج المدينة. كانت الساعة الثانية مساء، الحرارة على أشدها، الشهيلي يصل، يُنذر بالويل؛ أطلتُ شاحنة كبيرة مجرورة، أوقفْتُها، اعتذر سائقها الذي كان بجانبه شخصٌ آخر؛ لما ألححتُ عليه، أشار عليّ بالركوب في الجرار في الهواء الطلق، وافقتُ، وصلتُ مدينة سعيدة بحلول الساعة السابعة مساء. تأكّدتُ حينها أي صرّتُ حرًّا.. تنفّستُ الصعداء.. شعرتُ بالرّاحة.. يا لها من راحة.

## 8-... إلى رسالة الرُّسلِ والأنبياءِ

توجَّهْتُ رَأْسًا إلى عَنَابَةِ آمِلَا أن أُعَيِّنَ بِهَا مَعْلَمًا في المَوْسَمِ القَادِمِ، اتصَلْتُ بِـ"أكاديمية التعليم"، قيل لي شهادة نجاحك مقبولة، عُدْ إلينا في بداية شهر سبتمبر. لَمَّا كُنْتُ عَسْكَرِيَا في الإجازة التي أُمْنَحَهَا، أُنْقَلُ على حساب وزارة الدفاع، وأنا مَدِينٌ والجيب فارغ، والدخل معدومٌ، وزيارة الأهل أكثر من ضرورة، فما العمل؟

**فَلَّاحٌ فِي مَزْرَعَةِ التَّسْيِيرِ الذَّاتِي:** اتصَلْتُ بِقِسْمَةِ جبهة التحرير الوطني وراء بلدية عنابة المتربعة في ساحة "لاكور" ساحة الثورة بعد الاستقلال، عرضوا عليّ العمل حينًا في إحدى مزارع التسيير الذاتي مع العمّال الذين بعضهم أصلا فلاحون، وآخرون أشباهي لا علاقة لهم بالأرض، ولا بخدمة الفلاحة، قبلتُ لكن ما التحقتُ. قضيتُ فترة الصيف في ضيافة أخوين كريمين لا أنسى فضلهما، وكرمهما، تارة أكون مع هذا أسبوعًا، وتارة أكون مع ذاك أسبوعًا، أوَّهَّما المجاهد المرحوم حوامري عبد المجيد الذي كان رفيقي في الغرفة بسجن لامبيس، اعتبرني أحد أفراد أسرته، ثانيهما أصيل مسقط رأسي لشهب مصطفى الذي كان عازبًا، وصاحب متجر موادّ غذائية، كُنَّا نقطن معًا في غرفة مجاورة لمتجره، كان طبَّاحًا ماهرًا، تولَّى إكرامي، إقامة وإطعامًا. في صائفة تلك السنة 1964م وقع حادثٌ

خطيرٌ في مدينة عنّابة، كنتُ شاهداً؛ بل وضحية رغبٍ اجتاحني، مثلما أصاب عشرات الآلاف من سكان المدينة وضواحيها، على امتداد عشرة كلم، أو أكثر.

**جريمة باخرة "نجمة الإسكندرية" ..:** منذ حوالي خمسة عقود ونيف اهتزّت مدينة عنابة في العاشرة ليلاً من يوم **23** جويلية **1964** على وقع انفجار مرّوع لبخرة "نجمة الإسكندرية" بميناء عنابة التي كانت مَحْمَلَة بشحنة من السلاح قادمة من مصر، كان انفجاراً رهيباً، خلف خسائر جسيمة مادية وبشرية كبيرة.

إذ أفادت المعلومات التوثيقية لأرشيف هذا الملف المنسي بأن البخرة المصرية "نجمة الإسكندرية" أبحرت انطلاقاً من ميناء الإسكندرية خلال الأسبوع الثاني من شهر جويلية **1964** باتجاه الجزائر محملة بشحنة كبيرة، وهامة من الأسلحة، والذخيرة الحربية، ذخيرةً ملكاً للثورة المسلحة، ومخزنة في أماكن خاصة بمصر، ومنها مرسى مطروح، ومرسى السلوم غربي الإسكندرية، وهذا بناء على قرار اتُّخذ بالجزائر لتحويلها إلى أرض الوطن. وأجمعت التوثيقات المتوفرة والشهادات بأن البخرة رست بميناء عنابة قبل أيام، وفي يوم **23** جويلية **1964** وعند الساعة العاشرة ليلاً هزّها انفجار عنيف أعقبته انفجارات متلاحقة على مدى **40** دقيقة زرعت الرعب، والهلع لدى سكان المدينة وحولتها إلى جحيم، وتجاوز صدى دوي الانفجارات إلى البلدات، والقرى المجاورة على قطر **40** كلم، وتحول الميناء إلى كتلة من اللهب أضاء سماء المدينة التي امتلأت أجواؤها بتطاير شظايا الكتل الحديدية التي وصل مدى تساقطها على بعد **5** كلم. وغطت سماء المدينة بسحابة سوداء داكنة على ارتفاع **300** متر، واختلطت المدينة حابلها بنابلها

وسط الضجيج، والعيول، والصياح، ومنبهات سيارات الإسعاف في حالة طوارئ قصوى، امتلأت المستشفيات الثلاثة للمدينة بعشرات الجثث والجرحى.

الخسائر البشرية فاقت 150 قتيل من عمال الميناء، وأعاون وموظفي مختلف المصالح المعنية بنشاط الميناء، من بينهم 26 ضحية مفقودة نهائيا بفعل انصهار أجسادهم مع حمم اللهب، و32 ضحية انشطرت أجسادهم إربا، وأشلاء ممزقة ابتلعتها مياه حوض الميناء، فيما بلغ عدد الجرحى 3000 شخص، بينهم 250 شخص مصاب بعاهات مستديمة إلى يومنا هذا. العديد من القتلى، والجرحى ما تمكنت المستشفيات الثلاثة بالمدينة آنذاك من استيعابهم، أو إنقاذهم، وتوسعت رقعة الخراب إلى جميع الأزقة والشوارع والمباني وسط المدينة، وفي حزامها الحضري محدثة حطاما كبيرا في المحلات، والمباني السكنية، والإدارية، والمرافق الاجتماعية. وأمام هول الحادث حلّ في اليوم الموالي كل من الرئيس أحمد بن بله ووزير دفاعه هوارى بومدين لمعاينة مخلفات الحادث في عين المكان، ومن ثمّ أحيل هذا العمل الإجرامي للتحقيق، وهو الأول من نوعه لحكومة بداية الاستقلال.

**انفجار زلزل المدينة:** جاء هذا الحادث بعد سلسلة من الحوادث المماثلة، والأقل ضراوة ومنها الهزة التي أصابت مخزنا للدخيرة في سيدي فرج، وأخرى في منطقة نادي الصنوبر، وثالثة بمركز الطرود بميناء الجزائر، كما تزامن الحادث وفي نفس اليوم الذي كانت تحتفل فيه الثورة الناصرية المصرية بعيدها الثاني عشر الموافق ليوم 23 يوليو، وعلى الصعيد الداخلي تزامن الحادث مع بداية احتدام

الصراع الدائر بين الزعماء السياسيين على دواليب السلطة بين الجناحين ممن كانوا أثناء الثورة في الداخل، وخصومهم من كانوا في الخارج. <sup>1</sup> قال مُحي الدين عميمور: «عُرف عام 1964 بعام وجود إرادة في مكان ما لتخريب التضامن الجزائري المصري، كما عُرف بعام قضية انفجار "نجمة الإسكندرية". يومها كنتُ مسؤولاً عن الشؤون الطبية، ومحافظاً سياسياً للبحرية الوطنية؛ كُلفت بإجراء التحقيق، واتّهم الرئيس بن بله حينها جهات خارجية بتدبير الانفجار، وكان ممّا يمكن تصويره تسرّب ضفادع بشرية معادية تقوم بوضع مواد متفجرة على جدار السفينة، أي أن التفجير خارجي، وهو ما يواجهه احتمال آخر بأن التفجير حدث داخل السفينة نفسها. وكان ما أثار اهتمامي أن الانفجار وقع يوم 23 يوليو، الذي تحتفل فيه مصر بذكرى ثورتها. والاستنتاج الوحيد الذي وصلتُ له، طبقاً لما تمكنت الحصول عليه من معلومات، أن احتمال المؤامرة يظل هو الاحتمال الأول، خصوصاً، وأن نفس الأيام عرفت ثلاثة انفجارات غريبة بتزامنها، أولها انفجار سُجّل في منطقة نادي الصنوبر بالعاصمة، وثانيها انفجار حدث في مركز الصكوك البريدية المجاور لميناء العاصمة، وثالثها وأهمها انفجار مخزن الذخيرة في منطقة سيدي فرج. كانت الخطة تقضي بتفجير الباخرة يوم احتفال الثورة المصرية بعيدها، ويكون التفجير في ميناء العاصمة على وجه التحديد. ونظراً لطبيعة موقع ميناء عنابة أمام منطقة القصبة، كانت الخطة الجهنمية تهدف إلى حجم كبير من الدمار في الحي التاريخي، وإلى سقوط أعداد

---

1 - المنتدى العربي للدفاع والتسلح. بتاريخ: 17 أغسطس 2013

كبيرة من الضحايا، وتُتهم مصر على الفور بأنها وراء الانفجار، مما يدفع الشارع الجزائري للقيام بأعمال عنف ضد المصريين في الجزائر، تؤدي إلى ردود فعل مماثلة من جانب المصريين، ويقع البلدان في فخ الحلقة المفرغة التي تصنع العداء بين الشعوب. لكن الحكمة سادت لدى القيادة الجزائرية.<sup>1</sup>»

**من دبر المكيدة؟** السؤال الذي حير الجزائريين حتى تاريخ اليوم، من دبر المكيدة؟ الجواب لم يظهر، ونسيها أغلب الجزائريين إلا من عاشوا الفاجعة، أو من كانوا ضحاياها. عشتُ الرعب، والخوف في تلك الليلة، وأنا المقيم مع صديقي الحوامري عبد المجيد، رفيق السجن بين أسرته في عمارة بمنطقة حي " المانديان " المحاذي للبحر غربي المدينة، رأيت اللهب المتصاعد إلى السماء الذي أثار كل المدينة، وشظايا الانفجارات تتطاير، وحتى أجزاء من جسم السفينة، ليلة جحيم، ما درى الناس ليلتها، وهم ينزلون من العمارات، أو ينفلتون من منازلهم، وقد تركوا كل شيء، ما عدا النجاة بالروح، وخطف أبناءهم فرارا بهم التقى الجميع في الشوارع، والساحات، اختلط عليهم الأمر: أهي حرب؟ أهو هجوم طائرات حربية؟ أم انفجارات؟ أين تحديدا؟

**ندمٌ وحسرةٌ تجذرا . . :** أتذكر بكل حسرة أني لما سمعتُ الانفجارات، والعمارة اهتزت، وتصاعد الصياح والعيول من كل العمارات، ومنازل الحي، تصاعد في الشقة التي كنت أقيم فيها مع العائلة الكريمة من السيدة وأبنائها الصغار، تملكني

---

1 - أ. محي الدين عميمور. أيام مع الرئيس هواري بومدين وذكريات أخرى. دار اقرا للنشر والتوزيع والطبع

- بيروت لبنان الطبعة الاولى 1995

الرّعب كغيري، ما فكّرتُ إلا في الهرب والنزول من العمارة بدل أن أساعد في تهدئة أولئك الأبناء الصغار وأمهم، وهذا ما لم أقم به؛ بل الأغرّب أنه لمّا تعلقّت بي إحدى البنات الصغيرات محتمية بي، بدل أن أحميها، وأحتضنها، وأخفّف من روعها؛ أبعثتها عنيّ، ورأت أمها ذلك متيّ؛ ما لبثت أن خاطبتني بهدوء معاتبة:

- بشير.. واش بيك، الطفلة التصقت بيك خائفة؟ لحظتها شعرتُ بالخرج، وقد تصبّب العرق متيّ، وما وجدتُ جوابًا؛ بل انخيتُ ورفعَت الطفلة، ونزلت بها بسرعة جنونية مثلما أنزل الوالد، وكذا السيّدة البقيّة. تلکم السيدة طوال مدة شهرين، وأنا في بيتها اعتبرتني فردا من العائلة، خصصتُ لي غرفة خاصة بها كل مستلزمات الراحة، وجباتي الثلاث أتناولها مع الزوج الصديق عبد المجيد، حتى ملابسي تُغسل، وتُحدّد؛ بل سعت تلك السيدة إلى تزويجي أختها التي كانت مقيمة خارج المدينة في منطقة فلاحية ريفية، كانت جميلة جدا، حيّية، أصيلة عائلة عُرفت بالتدين، والعفّة، وسموّ الأخلاق، قد تعرّفْتُ على والدها الذي كان يزور العائلة من حين إلى آخر، ما تمّت تلك الأمنية، وعلمتُ أن تلك الفتاة بعد سنوات اختارها الله إلى جواره، رحمها الله، وغفر لها. يوم الغد بعد أن انتشرت حقيقة الانفجار الرهيب، سعدنا إلى العمارة، وما انقشع الخوف بعدُ من النفوس، لأن الكثير من العائلات، ما عادت إلى مساكنها بعد، صديقي عبد المجيد ما أظهر لي ما يشير إلى ما يُظهر أنه غير مرتاح لتصرّفي الأحقّ تجاه البنيّة، ولا السيّدة؛ إلا أني صرتُ أشعر بالخرج، ربّما أقول و " بالندم"، الندم قد يكون ناتجا عن ارتكاب إثمٍ في حالة وعيٍ، هل كنت واعيا في تلك الدقائق الرهيبة، وأنا

أرى الجحيم يتطاير أمامي في الشرفة، وفوق العمارة؟ لا أدري ماذا دهاني ليلتها. هروباً من نفسي قبل أن يكون اختفاء من عائلة كريمة قدّمت لي الكثير، واعتبرني عضواً منها؛ بل مبعّلاً، ودّعتهم بزعم أنني سأتوجّه إلى مسقط رأسي لزيارة الوالدة، والأهل قبل بداية الموسم الدراسي.

**واقع تربويّ بئيس عند الاستقلال:** كان التعليم الابتدائي سنة 1962 بداية الاستقلال في حالة يُرثى لها على غرار الميادين الأخرى، حيث قاربت نسبة الانتساب إليه 20% من مجموع التلاميذ الذين بلغوا سنّ التمدرس، كانت مهمة المدرسة زمن الاحتلال الفرنسي تتلخّص في تكوين ما احتاج إليه الاستعمار من مساعدين، وأعاون. أوّل دخول مدرسي زمن الاستقلال في أكتوبر 1962، اتخذت وزارة التربية قراراً يقضي بتمدرس كلّ من بلغ سنّ التمدرس في كلّ ربوع الجزائر، وكذا بإدخال اللغة العربية في جميع المدارس الابتدائية بنسبة سبع ساعات في الأسبوع. ورثت الجزائر قلة هياكل الاستقبال، مع قلة الإطارات، ومشكلة سيطرة اللغة الفرنسية، واستهداف التعليم على مناطق وطبقات دون أخرى، وقد عمدت السلطة الجزائرية تعديلات مختلفة منذ 1962. ومن الإجراءات الفورية التي اتخذتها اللجنة الوطنية التي عقدت اجتماعها الأول في 15 ديسمبر 1962، الجزيرة، الديمقراطية التعليم، التعريب، والتكوين العلمي والتكنولوجي، واستمرّ تطبيق مجموع الإجراءات السنة تلو الأخرى. في أكتوبر 1967، طبّق القرار القاضي بتعريب السنة الثانية الابتدائية تعريباً كاملاً، حيث دُرست كلّ المواد المبرجة باللغة العربية وحدها بتوقيت 20 ساعة أسبوعياً.

قناعة قيادة الدولة الجزائرية الفتية حينذاك، أنّ منظومة التربية الجزائرية أداة فعّالة لإقامة المجتمع الجزائري الجديد، إذ وضعت قواعد متينة منذ البداية للسياسة التربوية الجزائرية على مبادئ أساسية، أهمّها إقامة نظام ديمقراطي يضمن لكلّ الأطفال الذين بلغوا سنّ التمدرس الحق في الاستفادة من تربية قاعدية مجانية، ونظام تربوي وطني يعتمد اللغة العربية في تقديم الدروس، واشتُرط أن يكون التأطير، وكذا مضامين البرامج جزائرية، مع التأكيد على التوجّه العلمي والتقني. وممّا واجهته الجزائر ليس نقص الهياكل فحسب، إنّما التسيير البشري البيداغوجي، والإداري.

**من وحي . . الدخول المدرسي الأول:** إن نجاح أول دخول مدرسي بالجزائر المستقلة في أكتوبر 1962 كان بمثابة "معجزة" و "تحديّ" للاستعمار الفرنسي من خلال الدور الكبير الذي أدّاه أوّل وزير للتربية الوطنية في الجزائر المستقلة المرحوم عبد الرحمان بن حميدة لكسب هذا التحديّ. الوضعية المزرية التي كانت عليها الجزائر غداة الاستقلال من نقص "فادح" في الاطارات القادرة على تربية الناشئة، وكذا غياب الهياكل لاستقبال التلاميذ. بعد 132 سنة من الاحتلال". قبل ان يغادر الاستعمار الفرنسي الجزائر أخذ معه جميع الإطارات، والكفاءات، ودمر جميع الهياكل ذات المنفعة العامّة. إلّا أنّ الشعب الجزائري، وفي مقدّمته تلك القيادات المشحونة بحبّ الوطن رفعت التحديّ. بعد الدخول المدرسي الأول بعد الاستقلال في أكتوبر 1962، تشكّلت لجنة وطنية وعقدت أوّل اجتماع لها في 15 - 12 - 1962، حدّدت الاختيارات الكبرى للتربية والتعليم

في الجزائر المستقلة: التعريب، الجزائر، ديمقراطية التعليم، التكوين العلمي، والتكنولوجيا. كان التعليم في الجزائر غداة الاستقلال مقسما إلى مرحلتين: مرحلة التعليم الابتدائي، ومرحلة التعليم العام الذي صار يُعرف من بعد بالتعليم المتوسط. في أول دخول مدرسي في شهر أكتوبر سنة 1962 اتخذت وزارة التربية الوطنية قرار إدخال اللغة العربية إلى جميع المدارس الابتدائية بنسبة سبع ساعات أسبوعيا. وفي الدخول المدرسي الثاني 1964/1963 اتُّخذت إجراءات أكثر لتنظيم تدريس اللغة العربية تنظيمًا، وتطبيقًا، ومتابعة؛ إذ تقرّر في ذاك الموسم تعريب السنة الأولى الابتدائية تعريبا كاملا بتوقيت 15 ساعة أسبوعيا، كل المواد باللغة العربية، وإدخال 10 ساعات للغة العربية على باقي برامج السنوات الابتدائية الأخرى التي كان توقيتها 30 ساعة أسبوعيا. في أكتوبر 1967 تمّ تعريب السنة الثانية الابتدائية تعريبا كاملا، تُدرس كل المواد باللغة العربية بحجم ساعي 20 ساعة أسبوعيا. ما تمّ تعريبها قبل بدعوى أنّ اللغة العربية عاجزة عن تدريس الحساب.<sup>1</sup> تعريب سنة دراسية يعني أنّ كل المواد المبرمجة لها تُدرّس للتلاميذ باللغة العربية كمواد اللغة من (محادثة، قراءة، تعبير، قواعد، إملاء، محفوظات)، التربية الدينية الأخلاقية، التربية المدنية، الحساب، الأناشيد، الرسم.

---

1 - الطاهر زرهوني: التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1994م

**التأطير التربوي:** تلکم الإجراءات الفعّالة استلزمت مجهودات كبيرة لتلبية عدد التلاميذ المتدربين الذي قفز في الموسم الدراسي الثاني من **353853** تلميذا في موسم **63/62** إلى **636.777** تلميذا، بزيادة فاقت **100%**، وتغطية ساعات اللغة العربية المدخلة على البرامج، اللغة العربية التي كانت غريبة في وطنها. غادر صبيحة الاستقلال معظم المعلمين الفرنسيين، ولم يبق من سلك التعليم من الجزائريين غير **450** معلماً جزائرياً من مجموع **2600**، منهم **10.000** معلم من أصل فرنسي، بينما كان يحتاج أول دخول مدرسي نحو **20.000** معلم، وبقيّة المعلمين الجزائريين غادروا التعليم أيضاً، ممّا ألجأ وزارة التربية سنتها إلى:

– التوظيف المباشر لعددٍ ضخمٍ من المساعدين حاملي شهادة الأهلية، والممرّنين ذوي المستوى الأقل عن طريق الامتحانات، من توفروا على مستوى مقبول في اللغتين العربية والفرنسية لسدّ الفراغ، فنتج عن هذا الإجراء توفير قرابة **7000** معلم جزائري.

– التعاون مع فرنسا نفسها، ممّا وقر **7700** معلماً فرنسياً. – تغطية الاحتياجات المتبقية من الدول العربية مغرباً ومشرقاً ممّا وقر **2500** معلماً.<sup>1</sup> وزير التربية الوطنية المجاهد، المرحوم عبد الرحمان بن حميدة الذي استهلّ عمله بعملية جردٍ لكل الجزائريين ذوي المستوى الثقافي المقبول لتوليّ مهام "رتبة الممرّنين" لكي "يتكونوا ويكوّنوا الجيل الصاعد". قال في هذا الشأن السيد عبد المجيد شيخي

---

1 - أحمد التريكي/ توجهات التعليم في الجزائر بعد استعادة السيادة الوطنية. مجلة دراسات (155-157)

جامعة طاهري محمد / بشار

المدير العام للأرشيف الوطني، ومعلم سابق إنه كُلف في أوت 1962 بـ: «جرد قائمة تضم اسم كل جزائري ذي مستوى ثقافي مهما كان، إن كان بإمكانه أن يكون معلما أم لا». "هكذا بدأنا». أضاف شيخي: «أن الاعتماد على الطاقات الوطنية لتعليم الجزائريين كانت فكرة المرحوم بن حميدة من أجل مواجهة معضلة قلة المعلمين، وأن الوزير ابن حميدة، عمل على تكوين الممرنين الذين "مكّنوا المدرسة الجزائرية من الانطلاق والاستمرار».

تم توظيف 3452 معلما للعربية و16450 للغة الأجنبية، منهم عدد من الممرنين قصد سدّ الفراغ المُفجِع الذي أحدثه عمدا، أكثر من 10 آلاف معلم فرنسي غادروا الجزائر بصفة جماعية. نتيجة الجهد المشرف الذي أدّاه المرحوم ابن حميدة في إيجاد التأطير البيداغوجي الجزائري، وجد الأطفال الذين بلغوا سنّ التمدرس مكاثمهم بالمدرسة الجزائرية في أكتوبر 1962م.. فكان التحدي، وكانت الانطلاقة. للتذكير، كل من اطلع، أو يطلع على تاريخ الجزائر، سيّما حالة التعليم لا ريب أنّه وجد، أو يجد أن نسبة الأمية بالجزائر سنة 1830م، كانت لا تتعدى 20 بالمائة أي 80 بالمائة من الجزائريين كانوا يقرأون، ويكتبون؛ ولكن في سنة 1962 بلغت نسبة الأمية 80 بالمائة بسبب سياسية التجهيل التي عامل بها الاستعمارُ الجزائريين.

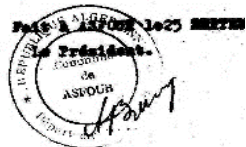
DEPARTEMENT D'ANASSER  
ARRONDISSEMENT D'ANASSER  
COMMUNE DE ASFOUR

REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE

Procès - Verbal d'installation

Nous, soussigné Président de la Délégation Spéciale  
Commune de ASFOUR, certifie que Monsieur KHELIF  
nommé Monsieur Contractuel dans la dite commune, par  
nominatien n° 1417/EA-64 en date du 23/9/64 de Mr  
l'Inspecteur d'Académie de ANASSER.  
Mr KHELIF Bachir est installé dans ses fonctions  
dite Commune à compter du 25 Septembre 1964

Signature de l'Enseignant.



مسارُ معلّمٍ .. بدايةُ الحكاية؛ كان لي الشرف أن أكون من معلّمي المدرسة " المُجزّارة" في موسمها المدرسي الثالث 64 / 65 برتبة " ممرّن " ناجح في امتحان الممرّنين بمدينة بشار، عاصمة منطقة " السّاورّة " حينها في الجنوب الغربي الجزائري بمحاذاة الحدود المغربية؛ اخترتُ العمل في الشمال الشرقي، الساحلي الجزائري قريبا من الحدود التونسية. اخترتُ "عمالة" عنابة تحديداً لأني عشتُ فيها سنوات، فيها تفتّحتُ عيني على عالمٍ آخر غير عالمي الضيق الذي كُنْتُه في الصحراء، تكيّفتُ مع الحياة في تلك المدينة، مع البيئة الساحلية البحرية. رحل الصيف. حلّ شهر سبتمبر سنة 1964، اتصلتُ من جديد بأكاديمية التعليم، طلبوا مِنّي وثائق ملفّ التوظيف، سافرتُ إلى مسقط رأسِي، وأحضرتها؛ تمّ تعييني معلّما ابتدائيا في مدرسة تقع أعالي بلدة " عصفور " شرقي مدينة عنابة أين كان يُنجز حينذاك سدٌّ كبير أطلق عليه " سدّ بوناموسة"، بلدية عصفور. بلدية من بلديات دائرة البساس ولاية الطارف الواقعة بأقصى الشرق الجزائري. اعتمد، ويعتمد سكانها في معيشتهم على الفلاحة، وتربية الأغنام والأبقار، وبعض الحرف التقليدية. اشتهرت هذه المنطقة ببساتين الحمضيات كالبرتقال بأنواعه، والتي كانت فيما مضى مفخرة البلدية، حيث وصلت شهرتها إلى ما وراء البحار، أين سُوقَ إنتاجها إلى بعض الدول الأوروبية. في سبتمبر 1964 لما عُيّنِت في تلك المنطقة كانت وسائل النقل قليلة جدًّا، فالذهاب إلى قرية "موريس"، مدينة بالمهيدي حاليا، المتربّعة بمحاذاة الطريق المؤدي إلى مدينة القالة، فالشقيقة تونس، كان ميسورًا نوعًا ما. أمّا من هذه إلى قرية " عصفور " ليس سهلا، كنا

نقطع هذه المسافة مشياً على الأقدام، أو على متن شاحنة، أو على سطحِ جرّار فلاحى.

ومن قرية " عصفور " إلى أعاليها حيث يُبنى عام ذاك " سدّ بوناموسة " الطريق ذات منعرجات، ومنخفضات جبلية، وسائل النقل الخاصة منعدمة. قد نكون محظوظين لما نتوقف لنا شاحنة من شاحنات الشركة الرومانية المُنجزة للسدّ، وفي أكثر الحالات نقطع المسافة مشياً على الأقدام. المدرسة التي عُيّنت بها مدرسة ريفية تقع بجانب الطريق الجبلّي المعبّد، المؤدّي إلى منطقة بوحجّار بولاية الطارف حالياً، فوق قمة من قمم جبال بني صالح التي كانت مُحضناً حصيناً للثورة الجزائرية، ومُجاهديها؛ كما كانت الطريق الآمن لهم للذهاب إلى تونس، وكذا جلب السلاح منها. مدرسة صغيرة بدون سُورٍ، بها قاعتان للتدريس، وسكنٌ واحدٌ وظيفيّ للمدير. لا يوجد بقربها مساكن، تقبع وحدها في المكان، يأتيها التلاميذ من منازل، وأعشاشٍ تباعدت، مشياً على الأقدام، قاطعين مسالك جبلية وعرة. كانت تقطن تلك المنازل الريفية البسيطة، والأعشاش أُسرٌ فقيرة، نعتاش من تربية الحيوانات، أو تفليح مساحات فلاحية بسيطة لا تدرّ ربحاً يفي بكل مستلزمات العيش، انعدمت حينذاك في المنطقة شبكة الكهرباء، والمياه الصالحة للشرب. الموقع الوحيد الذي جُلب له التيار الكهربائي " السد.. سد بوناموسة "، حيث كان في مرحلة الإنجاز. كما انعدمت وسائل النقل، ماعدا بعض السيارات الخاصة القديمة التي قد تمرّ إحداها طوال الصبيحة، أو لا تمرّ، قد تأتي الفرصة على ظهر شاحنة قديمة، مثلما قد تأتي في سيارة R4، أو 403، أو على ظهر جرّار.

مدير فرنسي شاب؛ وصلت المدرسة يوم 25 سبتمبر 1964م، قدمت من قرية "عصفور" على ظهر جزائر، رأف بي صاحبه، وجدت بها المدير الفرنسي الشاب السيد "بوساك" وزوجته الشابة، ذوي الجنسية الفرنسية دون أطفال، علمت فيما بعد أنهما تزوجا حديثاً، ووجهها إلى الجزائر ضمن اتفاقات التعاون الفرنسي الجزائري، الذي كانت أرضيته بنود اتفاقات "إيفيان". وصلا من فرنسا قبل يومين، حلاً مثلي بالمدرسة لأول مرة. رحبا بي، قدمت له تعييني، دخلنا إلى غرفة الدراسة التي كان بها مكتبه البسيط، حيث نصّبي. استلمت فيما بعد محضر التنصيب المعد من بلدية "عصفور" الذي تضمن: «طبقاً لتعيين السيد خلف بشير المؤرخ في 23 سبتمبر 1964م، تحت رقم EA. 64 / 1417 الصادر عن مفتش أكاديمية عنابة، نصّبنا بشير خلف في منصبه بداية من يوم 25 سبتمبر 1964م».

نصّبي المدير معلماً للغة العربية في السنة الأولى المعربة في ذاك الموسم، بحجم 15 ساعة، مُبقياً على قسم السنة الثانية لزوجته بتوقيت 20 ساعة فرنسية، و10 ساعات عربية لمعلم آخر التحق فيما بعد السيد ابن عمارة، أما السنة الثالثة حجمها الساعي باللغتين كالسنة الثانية، أسندها له، وساعات العربية للمعلم القادم، الذي سرعان ما التحق في اليوم الموالي، ابن عمارة أصيل منطقة "وادي سوف"، كان من العائلات الجزائرية السوفية المقيمة بمدينة تونس أثناء الثورة، قدم إلى الجزائر بعد الاستقلال كباقي الأسر الجزائرية العائدة إلى أرض الوطن، ينتمي في عنابة إلى عائلة كبيرة حملت لقبه، اشتغلت بالتجارة، ولا تزال. انتمى إلى التعليم دون امتحان، لأنه تحصّل على شهادة التعليم المتوسط المزدوجة في تونس، كباقي أبناء الأسر المهاجرة إلى جانب التلاميذ التوانسة.

**مطلبات . . على الدرب:** أن تعمل، أن تقوم بواجبك الرسالي، المهني، أن تؤدي وظيفتك كاملة، أن تثقنها، أن تكون معلماً ناجحاً، ماهراً في التربية قبل التعليم؛ يُفترض أن تتوفر لك إمكانات العيش من استقرار في إقامة لائقة، تغذية مقبولة، مصروف جيب يومي؛ أما إذا وجدت نفسك في منطقة جبلية بعيدة عن العمران، لا سكن، لا أهل، لا معارف، لا مال لديك؛ هذا ما وجدته عليه يوم أن التحقت بالمدرسة، ونُصبتُ من طرف مديرها. ونفس الوضعية وجد زميلي ابن عمارة نفسه فيها. ما العمل، والجيب خاو، أنزل كل مساء مشياً على الأقدام إلى الأسفل من قمة السلسلة الجبلية إلى قرية "عصفور" حيث المرحوم باري عبد الكريم أصيل مسقط رأسي، الذي يعمل معلماً بمدريستها؟ أم أبيت في حجرة الدرس مؤقتاً إلى حين يأتي الفرج. كان القرار المبيت بالحجرة لمدة ثلاث ليالٍ، رفقة رفيقي. في تلك الأيام الأولى خارج وقت العمل، كنا ننتقل إلى المحيط القريب اكتشافاً، وتواصلاً مع من التقينا؛ بما في ذلك ورشات الأشغال الكبرى لإنجاز "السد" الذي كانت تشرف على إنجازه شركة رومانية مديراً، مهندسين، عمالاً جزائريين من المنطقة، أيضاً بعض الإداريين القلائل العاصميين.

**الفرج أتى . .:** في اليوم الثالث تعرّفنا على إداري شاب من الجزائر العاصمة، استأنسنا به. سألنا عن ظروفنا المعيشية، والإقامية؛ تأثر لحالنا، وعدنا أن يتدخل من أجلنا لدى مدير المشروع الروماني الأصل. كانت مكانة المعلم في ذلك الزمن الجميل مقدّسة، مبدلة؛ وبدا لنا أنّ ذلك الشاب العاصمي متأثرٌ بمكانة المعلم. للتذكير في زمن الاستعمار؛ كان المعلمُ ضمن الثلاث الذين نُظر إليهم نظرة

تقدير واحترام؛ بل تقديس: المعلم، الطبيب، رجل الدين. استطاع ذلك الشاب نتيجة تلك المكانة التي شعر بها تُجاه المعلم إقناع المدير المهندس الروماني بمساعدتنا خلال الموسم الدراسي. أقبل علينا مبتسمًا، فخورًا بتحقيق المسعى المُتمثل في منحنا غرفة مستقلة من الغرف الجاهزة بسريرين منفردين مع الأغطية، إضافةً إلى مكتب إداري لإنجاز أعمالنا التدريسية من تحضير للدروس، وتصحيح لأعمال التلاميذ، ومطالعات. كما وافق مدير المشروع على تناولنا الوجبات مجَّانًا مع تقنيي المشروع، والنقل المجاني إلى مدينة عنابة في حالة تصادف تنقل وسائلهم مع توجُّهنا إلى المدينة في عطلة آخر الأسبوع. كانت فرحتنا كبيرة، أبدينا شكرنا وتقديرنا لذلك الشاب، ومدير المشروع أكبر، ربط ذلك الشاب صداقة كبيرة معنا، فكان كلما عاد من العاصمة إثر زيارته لأسرته؛ إلَّا وحمل معه هدايا لنا.

**معلم دون مرتب..:** مصروف الجيب، وشراء الكتب كلِّ ما تدبَّر أمره؛ أنا في كل مرة أستلف من معلم أصيل مسقط رأسي، أو من منطقة " وادي سوف" حتى جاء الفرج بأن استلمتُ أول مرتب لي في آخر الموسم الدراسي اجوان **1965م**، من وزارة التربية التي تولَّت دفع المرتبات حينذاك، (**51000** سنتيم للشهر)؛ وما طال الحال حتى استلمتُ مرتبات باقي الأشهر دفعة واحدة. دفعت ديوني، بعد العطلة توجَّهتُ إلى مسقط الرأس، حيث الوالدة رحمها الله، وأخوأي، والأهل، والأقرباء، وأصدقاء الطفولة. سلَّمت الوالدة " أول الغيث" كانت فرحتها فوق الوصف، غمرتني بدعائها الصادق، وتوسَّلتها إلى الله جلّ جلاله أن يحفظني، وأن يمهد الطريق أمامي؛ فاستجاب الله دعاءها. وله الحمد

والشكر. تسلّمتُ السنة الأولى ابتدائي، كان عدد تلاميذها 36 تلميذا، أعمارهم تفاوتت ما بين الستّ سنوات، والستّة عشر سنة. سلّمني المدير: قائمة أسماء التلاميذ، علبة طبشور، مُمحاة، مسطرة كبيرة مسطّحة صفراء، نصف دائرة، فرجار. لا برنامج، لا كتابٌ مدرسيّ، لا وسيلة تعليمية توضيحية؛ وعدني بالإتيان بها حالما يتصل بـ" الأكاديمية في عنابة" المرجع الوحيد الذي سلّمني البرنامج التعليمي في شكّل عناوين الدروس لكلّ مادّة.. صباح يوم 26 سبتمبر وجدتُ نفسي مع تلاميذ فيهم من ظهر الشعر على وجهه، وفيهم من تُجلّله البراءة الطفولية.

**معلّمٌ مبتدئٌ دون كتبٍ مدرسيةٍ ومناهج:** وجدتُ نفسي أمامهم، وهم متشوّقون إلى ما سأبدأ أقدمه إليهم. كان الفضول، وكانت البراءة سيماهم، كنت أعزلٌ من الكتاب المدرسي، خُلّوا من الوسيلة التعليمية، ساءني ذلك، انتابني الحيرة، ترجّيتُ الله أن يساعدي. تذكّرت حينها تواجدي مع تلاميذ " المريخ " ببشار شبه معلّمٍ معهم، تذكّرتُ أساتذتي في سجن "لامبيس"، استجمعت تلك المعاشة، طرق التدريس عندهم، خبرتي أنا، توكلتُ على الله، شرعت مع تلاميذي الجدد بداية البرنامج الدراسي بمادّة " التربية الدينية " وفق جدول التوقيت الوزاري الذي سلّمه إليّ المدير مع البرنامج السنوي للسنة الأولى.



في الأسبوع الأول تعاونت مع زميلي المرحوم ابن عمارة الذي قضى نحبه بعد سنتين في حادث مرور، إذ كان متوجّهاً إلى تونس في إحدى العطل، خططنا لطريقة العمل مع التلاميذ، تبين لي أنّ له بعض الطرق التدريسية أفضل مني، بحكم أنه تتلمذ في تونس على معلمين، وأساتذة انتهجوا الطرق التدريسية الحديثة، المتبعة في ذلك العهد.

في عطلة الأسبوع نزلنا إلى مدينة عنابة، التقيت بمعلمين كما أسلفت من مسقط رأسي، زودوني ببعض الوثائق، ودلّوني على مكتبات تبيع الكتب المدرسية، بعضها من المغرب، وتونس، وبعضها الآخر من لبنان ومصر: ككتاب "اقرأ" للسنة الأولى الذي ألفه المرحوم أحمد بوكماخ المغربي، كتاب عمليّ اعتمده أكثر المعلمين في الجزائر قبل أن يظهر الكتاب المدرسي الجزائري؛ لأن ما به متوافق مع التلميذ الجزائري؛ كذلك كتاب: "حدائق القراءة" اللبناني الذي كان لكلّ سنوات التعليم اللبناني، وإن كان مضمون نصوصه مُستقى من البيئة

اللبنانية، به قطعٌ شعريّة جميلة للحفظ، وأخرى للإنشاد الطفولي. اشتريتُ أيضا كتابين لتعليم الحساب، إحداهما لبناني، والآخر مصريّ.

بتلك الكتب توقّرت لي المراجع التي بما طبّقتُ برنامج السنة الأولى لا أقول بـ "راحة"، لأنني افتقرتُ إلى التكوين التدريسي، واكتساب الخبرة؛ وهذا ما تيسّر لي فيما بعد، وبداية من منتصف شهر أكتوبر 1964م، بمعدل ندوة تربوية كل خمسة عشرة يومًا مخصّصة لسلك "الممرنين" أشرف عليها المرحوم المستشار التربويّ الجليلاني العوامر، أصيل منطقة وادي سُوف، كان من المهاجرين بتونس، تلقى تعليمه بجامع الزيتونة، كما شارك في الثورة الجزائرية. أمّا المساعدون الذين حملوا شهادة التعليم المتوسط B. E. M، تولّى تكوينهم، ومتابعتهم مفتش المقاطعة المرحوم الأستاذ السعودي، خريج جامع الزيتونة، والذي كان من القيادات الثورية المدنية السريّة بعناية أثناء الثورة.

**عمالة عنابة.. إلى الحدود التونسية:** كانت "عمالة عنابة" في ذلك العهد ذات مساحة شاسعة ضمتْ أقاليم: تبسة، سوق أهراس، قالمة، عنابة. وجدتُ نفسي مع ممرّنين جددا وقدماء من هذه الأقاليم كلّهم شوقًا، واستعدادًا لكسب المعرفة، والتكوين البيداغوجي؛ كما حبّأ في مهنة التدريس. تميّز المستشار الجليلاني العوامر بالطيبة والحميمية، وروح النكته الحبيبة، والطرافة الأدبية؛ إضافة إلى القدرة على وخز السخرية المبطنّة. في ذاك الجوّ الجديد وجدتُ نفسي ضمن

---

• - المستشار التربوي: مساعد مفتش التربية المشرف على مقاطعة تربوية. مهمّة المستشار تكوين الممرنين والمساعدين المتربّصين.

هذه الفيسفء البشرية من أقاليم أربعة جمعنا عشقُ التدريس، وحبّ اللغة العربية، والحرص على التكوين المعرفي، والبيداغوجي تحت إشراف رجل متمرّس خبرة في التدريس، ذي خبرة ميدانية، جمعنا حبّ الجزائر، والاستعداد الصادق لخدمتها من خلال أداء رسالة تنوير العقول، واجتثاث آفة الجهل.

الندوة التربوية النصف الشهرية انطلقتها الساعة الثامنة صباحًا، الكل ملزمٌ بالحضور في هذا الوقت، ممّا حتمّ على الأبعاد المبيت في المدينة، أو ضواحيها القريبة. برنامج الندوة تكوّن من مداخلة يقدّمها المستشار التربويّ لمُدّة ساعة تتعلّق بمادّة تعليمية من تعريفٍ للمادّة وأهميتها المعرفية، والنفسية الإدراكية، والتعليمية للمتعلم، وترابطها مع الموادّ التعليميّة الأخرى، أهدافها، الغايات المعرفية، النفسية، الوجدانية، الحركية، التعليمية المُبتَغى الوصول إليها؛ كما طريقة تدريسها، والوسائل المادية من صور توضيحية، وأدوات تعليمية تساعد على تحقيق تلكم الأهداف. بطبيعة الحال، يفتح المستشار باب النقاش للاستفسار، والاستزادة من الشرح، كما الإثراء، وكما في كلّ التجمّعات سيطر منْ لهم خبرة، أو استقرهم المشرف؛ كل الندوات سارت بهذا المنحى، يُحمّدُ فيها المعلم القديم، وإن كانت أقدميته نسبية . لأنّ الكلّ جديدٌ . من حيث السيطرة على الندوة، وأخذ الكلمة.

**لا تتكلّم أنت...**!! أذكر أني في الندوة الرابعة، وقد زال مني التهيب، واندمجتُ أكثر في المهنة، وصار لي العديد من الأصدقاء أن رفعتُ يدي رغبة في المشاركة

في التعقيب على درسٍ تطبيقي في مادّة تعليميّة أدّاه مساعدٌ ذو خبرة سنتين؛ فما أن رأيت " سيادة المستشار " حتى نهزني، قائلاً أمام الجميع:

- لا تتكلّم أنت.. أنت ممرّنٌ جديد لا خبرة لك، ليس لديك ما تقول.

كانت طعنة سكينٍ حادّة ما نسيّتها له رحمه الله، أضمرتُ الردّ إلى حين. لاحظتُ الغضب حينها لدى أغلب الزملاء، إذ أكثرهم جدّاً مثلي، قد خدمني بالرغم من ذلك دون أن يشعر، فقررتُ أن أكون معلماً مساعداً في أقرب وقتٍ. بالرغم من ذلك ما أظهرت له عدم رضاي على سوء تصرّفه، كنت أحييه، وأستشير. أفدتُ منه في الندوات، والملتقيات، والتربّصات الدّورية. كما أستفدتُ أيّما إفادة من كتابه " طرق التدريس في التعليم الابتدائي " للأمانة ضاع من الذاكرة العنوان بالضبط، غير أن مضمون الكتاب ركّز على طرُق تدريس الموادّ التعليميّة لتلاميذ المرحلة الابتدائية في السنوات الستّ، الكتاب خصّصه الأستاذ العوامر لمساعدة المعلمين المبتدئين مثلي. اشتريتُ الكتاب الذي كان في طبعة بسيطة جداً خلا من تقنيات الطبعة الحديثة من تصميم، وتلوين، وتشكيل فنيّ، وتصنيف راقٍ، وورقٍ صقيلٍ.

من تعلقي بذلك الكتاب الذي ساعدني في مساري الأوّل، أن احتفظت به طوال مدّة تدريسي كمعلم، ثم مدرس مدة 16 سنة قبل أن أتحوّل إلى سلك الإشراف التربوي "التفتيش" لمدة 22 سنة. بعد مداخلة المستشار، قدّم درسٌ تطبيقيّ في مادة من موادّ اللغة العربيّة: محادثة بالنسبة للسنتين الأولىين الابتدائيّين، أو تعبيرٍ للسنوات الأربعة الأخرى، أو درس نحو أو صرفٍ، أو إملاء، أو محفوظات، كما يكون درس حساب، أو تربية دينية أخلاقية.

ثمّ الدرس التطبيقي الثاني بعد أخذ قسطٍ من الراحة، يتلو ذلك بطبيعة الحال نقْدُ للدرسين، ثمّ نهاية الندوة بعد منتصف النهار بتوجيهات عملية تتعلّق بطريقة تدريس المادتين من لدن المستشار التربوي. قضيتُ السنة الدراسية الأولى في تلك المدرسة تحت إشراف السيد " بوساك " الذي كان مديراً بامتياز، هادئاً، رزيناً، قليل الكلام، منضبطاً، كما كنت أنا ورفيقي في ضيافة المهندس الروماني الكريم، مدير مشروع إنجاز " سدّ بوناموسة "، الذي انتهت أشغاله في شهر ماي 1965م، ودُشّن رسمياً شهراً بعد ذلك من طرف أول رئيس جمهورية جزائري المرحوم أحمد بن بلّة رفقة وفدٍ رسميٍّ كبير.

كان الرئيس بجانبه عامل عمالة عنابة حينذاك الأستاذ عبد الحميد براهيمى الذي تولّى الوزارة الأولى في مرحلة ما. كنت حاضراً حفلة التدشين عن قُربٍ لأن مدير المشروع الروماني، مكّنا نحن المعلمين من أن نكون رفقة الموظفين، والتقنيين في الصفّ الأول (صور التدشين بين يديّ باللونين الأبيض، والأسود) حتى الآن.

على أبواب المدينة...: بعد مساعٍ حثيثة، ورغبة منّي عيّنت في الموسم المدرسي الموالي 66/65 بمدرسة علاّلة عيسى الواقعة في مزرعة " الدوزيام ) "، مقابل مطار عنابة، تبعد عن مدينة عنابة بمسافة 12 كم، مدرسة أُجّزت أثناء العهد الاستعماري من أجل تدرس أبناء المعمّرين، مالكي المزارع الممتدّة المساحات الواسعة، أراضي حُصّصت للكروم، وعصرها، وتصنيعها، وتصدير أغلبها إلى أوروبا، ويُبّع المُتبقّى في حانات المدينة المنتشرة، كما باقي المدن والبلدات

الجزائرية. تلکم المخازن الموجودة على السطح، وفي الطابق الأرضي ضمت خواي، وبراميل كبيرة اتسعت لمائيات اللترات من الخمر المعتق، من حيث: النوع، الجودة، اللون، الذوق، الأقدمية.. موردٌ ماليٌّ كبيرٌ، أُسند إلى الديوان الوطني للخمور.

**وضعٌ جديدٌ هزّ حياتي:** مدرسة بها مكتبٌ مبنيٌّ بإتقان، مجهّزٌ بكل مستلزمات التسيير الإداري البيداغوجي، كما وجدت حجرتان مبنيتان، بهما الكثير من وسائل التدريس من خرائط، وموازين، ومعاييرها، ومكاييل، وصور توضيحية، وكتب مدرسية أغلبها بالفرنسية. إضافة إلى مكتبة قيّمة تضمّ كتباً في الثقافة العامّة، أيضاً عشرات وسائل التعليم المساعدة، أثناء رؤيتي لتلكم التجهيزات، والوسائل كان وجه المقارنة أمام عيني بين المدرسة التي كنتُ بها في العام المنفرط، وبين هذه المدرسة شاسعاً. في الموسم الدراسي الثاني بعد الاستقلال أُضيفت للمدرسة أربع حجرات " **pris fabrique** البناء الجاهز"، بحيث صارت بها ستّ عُرفٍ توافقت مع الأفواج الدراسية الستّ بالمدرسة.

كان مدير المدرسة السيد كواشي مسعود برتبة مدرّس مرسّمٌ باللغة الفرنسية، نصّبني حال وصولي لأستلم فيما بعد محضر التنصيب المنجز من قبله، والمصادق عليه من قبل بلدية "بسباس"، المتضمّن: «في يوم 05 أكتوبر 1965م نصبنا السيد بشير خلف في مدرسة علالة عيسى، بلدية بسباس كمرن، طبقاً لقرار السيد مدير التربية والثقافة لولاية عنابة المؤرخ في 25 أكتوبر 1965م، تحت رقم: **EA/3054**».

السيد كواشي مسعود، إداري محنك، ورجل تربية بامتياز، تولى بعد سنوات إدارة المركز الولائي للكتب والوثائق المدرسية لسنوات في مدينة عنابة، ثم بعدها نائباً في المجلس الشعبي الوطني. ومن المعلمين الذين عملت معهم طوال سنتين بالمدرسة، السيد عز الدين حنون، معلم باللغة العربية، (أخ لوزية حنون)، الناصر ابن خالة المدير معلم بالفرنسية، مدرّس فلسطيني باللغة العربية من خان يونس بقطاع غزة، مدرّس فرنسي، معلّمة جزائرية باللغة العربية، وأخرى جزائرية معلّمة باللغة الفرنسية..

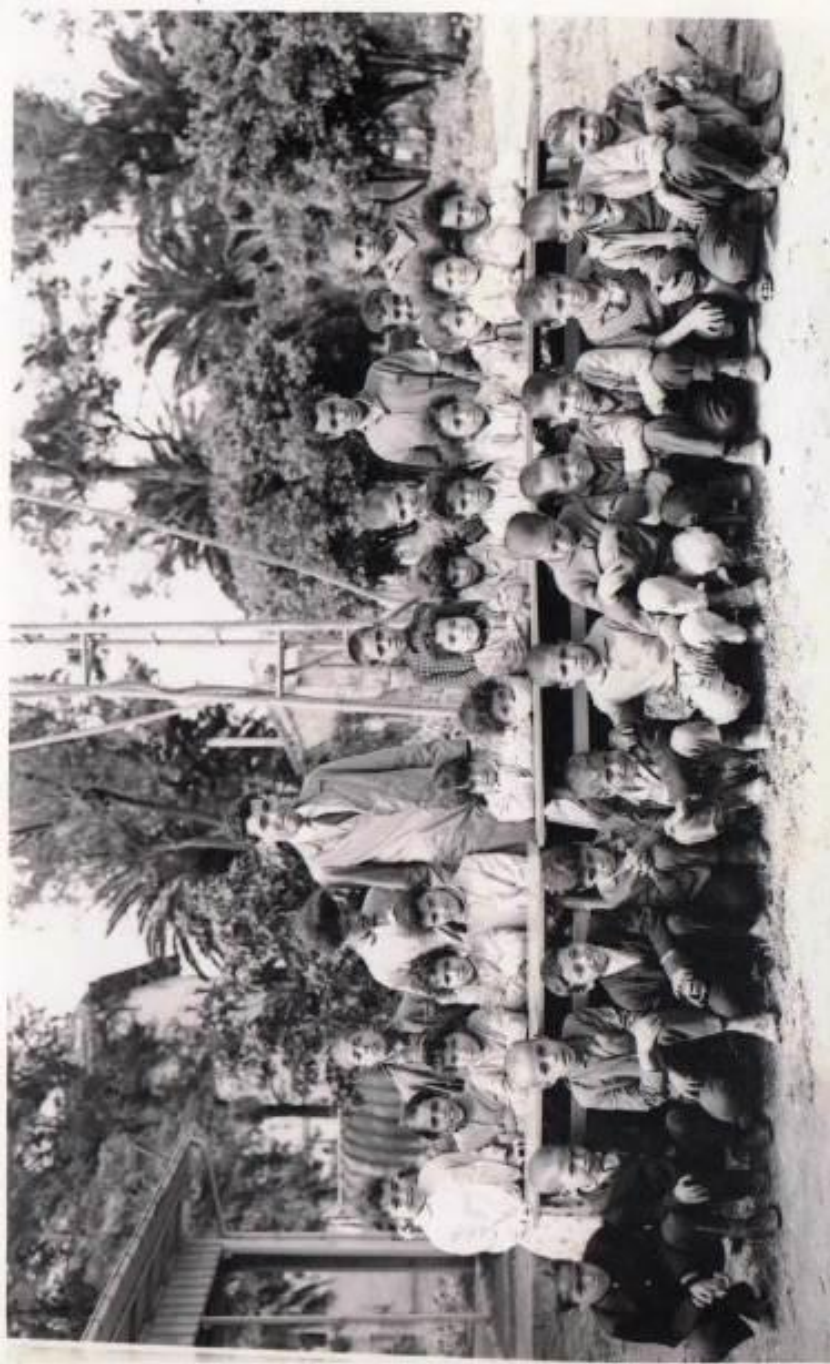
معلمان ومعلّمة بالفرنسية، معلمان ومعلّمة باللغة العربية؛ إضافة إلى المدير. للأمانة أنني في هذه المدرسة تكوّنت ليس فحسب في طرق التدريس، واكتساب فنيات الأداء، والتبليغ، والتعامل مع المتعلمين بطريقة حديثة وثرية من الخبرة الجزائرية، والفرنسية، والعربية الفلسطينية. إنما في أشياء أخرى جميلة، فمن المدير كواشي مسعود اكتسبت الخبرة في التسيير، والانضباط، واحترام الوقت، والتخلّي عن مشاعر التعارف، والصدّاقة أثناء تأدية العملية التدريسية؛ بل والصرامة في تطبيق القانون والتعليمات، والتوجيهات. كان كواشي مدرسة لكل من عمل معه.

**مدير نموذجي**..: طوال حياتي المهنية مدرّساً، ثمّ مفتشاً كنت ملتزماً بما اكتسبته من مدرسة كواشي مسعود، بل في حياتي الخاصة حتّى وأنا في مرحلة التقاعد. هذا المدير القدير أثناء العمل تعامل معنا، وكأنه ما عرفنا، رابطنا العمل.. العمل فحسب، بمجرد انتهاء الحصّة المدرسية، والالتقاء خارج وقت العمل. مسعود كواشي المدير الصارم، يتحوّل إلى إنسان آخر غير الذي كانه، شخصٌ ثانٍ رقة، بهاء، حميمية، كرماً.

مما اكتسبته من المعلم الفلسطيني روح السماحة، والحميمية، وحسن العشرة، والتعايش، والبسمة الدائمة، كما تعلمتُ منه " فن كتابة الخط النَّسخي الجميل"، ومما تعلمته من المعلم الفرنسي اللغة الفرنسية النقيّة تحاطبًا، والروح المرحة، وحبّ التعايش، والتماهي، والمشاركة، والبسمة الدائمة. مما كان يتميّز به تخصّصه في " فنّ التصوير الفوتوغرافي" كان بحوزته حينذاك آلة تصوير متطورة جلبها معه من بلاده، إذ ما انفكّ يلتقط لنا الصُّور في كل فرصة، صورٍ مميزةٍ فرادى وجماعة تبعًا لفصول السنة (لديّ العديد من صورهِ)، كما أن المعلمتين كانتا فاضلتين متخلقتين جدا، بقدر ما كانتا منفحنتين في تقبل التوجيهات من أيّ طرفٍ دون عقدة. كنت في الشهور الأولى أنتقل من مدينة عنابة إلى المدرسة على درّاجة نارية من نوع " موتو بيكان" اشتريتها في بداية السنة الدراسية، أرتدي بذلة جلدية، وخوذة اتقاء البرد، والرياح الباردة، كما الأمطار القوية والكثيرة في فصلي الخريف والشتاء، وبالرغم من ذلك أصِلُ المدرسة، أو أعود إلى المدينة في حالة يُرثى لها. انفرج الوضع فيما بعد لما اشتري زميلنا حنون عز الدين سيارة جديدة من نوع "أروند 60" صرت آتي معه رفقة المعلمتين مقابل مساهمة مالية من كل واحد منّا مقدارها 100 دينارًا جزائريًا للشهر. ومما اتفقنا في شأنه أن نأتي بغذائنا معنا كل يوم على أن يكون الدور تباعا.

علمًا أن السيد المدير ما فتى في استضافتنا في منزله الوظيفي بين الحين والآخر، رفقة الزميلين الفرنسي والفلسطيني القاطنين في المدرسة. هذه المحطّة الثانية في حياتي التدريسية كانت من أهمّ المحطّات في تشكيل شخصيتي الحياتية، والاتصالية، والعلاقية الإنسانية، والخبرّاتية المهنية.. رفقة امتدّت لمدة سنتين تعرّفت فيها على عائلات التلاميذ، وعلى آباءهم المشتغلين أكثرهم بالفلاحة،

كما تعرفت أكثر على المنطقة من حيث قيمتها الاقتصادية، والمحمولات القيمة، التي تشبّع بها التلاميذ وأسرهم، استفدْتُ كثيرا من الزوّار، والشخصيات التي زارت المدير، إذ قدّمنا إليهم، وعرفنا بهم؛ كما ذهب بنا المدير كثيرا إلى المطار لقضاء أوقاتٍ في التسلية والترفيه، وتناول بعض المرطبات والمشروبات مع أصدقاء له ممّن زاروه في المدرسة.



المدينة.. سحر الغواية؛ هناك جمالٌ يضجُّ بالحياة، وجمالٌ باردٌ باهتٌ لا روح فيه، وكلاهما جمالٌ؛ الفرق ليس في التفاصيل والملامح، ولكن في الأثر الذي يتركه هذا الجمال، أو ذاك في نفوس وقلوب من يراه، والجمال لا يقتصر على البشر؛ فالله لم يخلق الإنسان جميلاً فقط، ولكنه خلقه في أحسن تقويم وأحسن صورة.

ثم إن جمال الإنسان فاتنٌ ومغرٍ، وقد يقود المتأمل الشديد التمعن إلى التعلق به وعشقه والوقوع في هواه. إن من الجمال لفتنة، والفتنة في المدن كما في الإنسان، فهناك مدنٌ تقع في هواها من النظرة الأولى، ومدنٌ تمرُّ بها فلا تترك فيك أثراً، الفرق في روح المكان وجاذبيته، وعذوبة التفاصيل!

تلك روح المدن الأصيلة، فما من مدينة منها مشيت في أزقتها، وعبرت شوارعها، وتواصلت مع ساكنيها إلا وبدأ لك ماضيها شامخاً من خلال ذلك كله. التاريخ ليس عنصراً موازياً للموت أو النسيان؛ فمدينة بلا تاريخ هي مدينة بلا روح، ويحدث أن يوجد تاريخ لا يحرك فيك شيئاً، يقف ببلادة معلناً عن نفسه بجيادية تامة، وهناك تاريخ يعني الإنسانية كلها.

من هذه المدن ذات العبق التاريخي والسحر الجمالي مدينة عنابة، إحدى مدن الجزائر الرئيسة، لُقبت بجوهرة الشرق الجزائري إشارة إلى جمالها الأخاذ، رابع أكبر مدينة في الجزائر، وكانت تسمى في فترة الاحتلال الفرنسي بون (BONE). كما أُطلق عليها في العصور القديمة اسم فرس النهر، أو الكرسي الملكي، البعض يطلقون على هذه المدينة تسمية بلد العناب نظراً لتوفر هذه الفاكهة في

محيطها الشرقي بكثرة، ومن هنا أخذت المدينة تسمية عَنَابَة. عنابة مدينة العلم، والفن، والجمال، مدينة ساحرة، أنيقة، كل من زارها إلا استولت على عقله، وسكنت وجدانه، تستلقي في دلال على حافة البحر الأبيض، هي الجميلة الشرسة تداعب أمواج المتوسط بقدميها، وتتكى برأسها جنوبا على سفح جبل الإيدوغ بغاباته الجميلة المتناسقة، وحقوقه وبساتينه الخلابة الساحرة، بونه الأنثى الحبيبة، العاشقة والمعشوقة، أروع ما أبدعه الخالق.

ها أنذا العاشق لهذه الأنثى المدللة قد استقررتُ في حيٍّ من أحيائها التاريخية العتيقة، حي "لاكولون" الذي كان موطن الكثير من المعمرين الأوروبيين من فرنسيين، ومالطيين، وإيطاليين، ويهود (استقروا بالجزائر قبل الاستعمار الفرنسي)، جميعهم عقب الاستقلال، تركوا ديارهم ذات العمارة الغربية، وحلَّ محلهم جزائريون ممن سكنوا في نفس الحي، أو حلَّوا به من أحياء أخرى شعبية نزحوا هرباً من ويلات الحرب من المناطق الريفية.

ذاك الحي العتيق حينذاك كان فسيفساء لخليطٍ من الساكنة المُختلفي الشكل، ملبسًا، مشيا، تعاملًا، تخاطبًا؛ هذا بلباسه البدوي، غطت رأسه العمامة الصفراء المخططة، يخاطب غيره باللهجة البدوية، وذاك بلباسه الأوروبي، غطى رأسه بـ "البيري الأوروبي"، خاطب غيره بلهجة أكثر كلماتها فرنسية ركيكة، وهذا الآخر جمع النقيضين.

**شارع الغزالة . . بهجة الجميع**؛ وجدتني في شارع " الغزالة " بهذا الحي، سُمي باسمها لأن تمثالا جميلا لهذا الحيوان نُصّب في مدخله. أقمتُ عند أحد أبناء مسقط رأسي، ملك محلاً تجاريا لبيع المواد الغذائية، اشتغلنا معًا عاملين عاديين

عند غيرنا في مجال التجارة كما سبقت الإشارة في صفحات سابقة، أثناء الثورة في محشر "سيدي سالم". هذا الرجل الشَّهْم الكريم السيد شنه عبد الرحمن لِيُطِل الله في عُمره، الذي أُدين له بالفضل، حيث أسكنني في غرفة إقامته التابعة لمتجره، وقر لي فيها مستلزمات الإقامة المريحة لي، وللسيد طالبي عبد القادر.

كنا الثلاثة نقيم بالغرفة؛ ما اكتفى بذلك؛ بل وقر لنا الوجبات الثلاث التي رغم اشتغاله بالمتجر كان يعدّها لنا، في غيابنا أو حضورنا. كان سعيدا جدا بوجودنا معه، ومؤانستنا له شنه عبد الرحمن المقيم حاليا في مسقط رأسنا، مدينة قمار، الذي لم، ولن أنسى كرمه وفضله. مسارُ حياتنا فيه ما رسمناه بأنفسنا، وفيه ما هو خارجٌ عن إرادتنا، ولا دخل لنا في صنعه، مثلما هكذا للأفراد، هو للشعوب. في تلك المرحلة من حياة الشعب الجزائري، وانطلاقته في مساره النهضوي، كل أفراد عهد ذلك عاشوا لسنوات فرحة الاستقلال، واسترجاع السيادة الوطنية، تطلّع الكل إلى بناء دولة قويّة، أملاً في القضاء على مخلفات الحقبة الاستعمارية البغيضة من تخلف في جميع القطاعات.

تأقلمتُ مع حياة المدينة، تعدّد أصدقائي المعلمين بعضهم من مسقط رأسي كالمرحوم دريدي عبد الله، المرحوم باري عبد الكريم، المرحوم العروم بشير الذي قضى نحبه في حادث مرور، وهو متوجه إلى العمل خارج المدينة، المرحوم خشخوش الصادق، المرحوم الزائز الصادق، نيس علي، إضافة إلى أصدقاء آخرين من مدينة عنابة، ومن خارجها. كنا نلتقي في مقاهي "الكور.. ساحة الثورة" أسبوعيا، كما كنا نلتقي شبه يومي في مقهى عمّي مسعود في حي لا كولون الذي أقمّتُ به حينذاك. لقاءاتنا التي كثفناها في فصل الصيف بالتّنزه

يوميًا في ساحة المدينة الكبرى، والتوجّه مرتين في الأسبوع إلى شواطئ المدينة الغربية، أو إلى شواطئ: "الشطايبي" وراء جبل "إيدوغ". أغلب لقاءاتنا كان الحوار فيها عن التكوين المعرفي والمهني، وتبادل المعلومات، والخبرات المهنية، واستعراض ما تمّ في الندوات التربوية والتربّصات الدورية.

.. وجعل بينكم مودةً ورحمةً: في سنة 1958م، كان عمري 17 سنة، ولما تأكّدت الوالدة رحمها الله أنّ صار لديّ مدخول متأتّ من عملي في متجر "الحاج لخصر رضوان" في قرية سيدي سالم؛ بل محشر سيدي سالم العسكري سعت إلى تزويجي من بنت أختها "صحرة"، أي بنت خالتي؛ اعتذرت لها بأن وقت الزواج ما حان بعد، فهمت حينها أي غيرٍ راغبٍ في تلك البنت، أعادت الكرة في السنة الموالية قبل إلقاء القبض عليّ من طرف الاستعمار الفرنسي، بأن عرضت عليّ الزواج من بنت أختها الأخرى المرحومة "ماما"، أي بنت خالتي. جيلٌ ذاك العهد ممّن لا يزالون على قيد الحياة رأوا، ويرون أنّ الزواج بالنسبة للبنات "سُترة وحفظ"، وبالنسبة للولد "قيدٌ، ومسؤولية، واستقرار، وإعمار".

من العمارة، أي أنّ الشابّ يجب تقييده بالزواج، وتحميله مسؤولية أسرته بأن يعمل، ويعتمد على ذاته؛ بل يكون عونًا لوالده في مجال الفلاحة، أو عاملاً في ورشات البناء، وهما المجالان المتصدران الحياة حينذاك، كما يقصد به "إعمار" أن يوفّر المال كي يشارك في بناء منزل العائلة الكبير الذي يجمع كل الأبناء والبنات، تحت مظلة الأسرة الأبوية البطيركية، حيث سيطرة الأب، أو الجدّ على العائلة، الذي هو المحور الذي تنتظم حوله الأسرة، وهو رب البيت وعموده،

وسيطرة الأب هذه في العائلة، وكذلك في المجتمع كله، تجعل إرادته مطلقة، بحيث تقوم على التسلط على الأبناء، والأحفاد والخضوع والطاعة الكاملة من جهة الإناث كالزوجات، والبنات، والحفيدات، وزوجات الأبناء. علمًا أن بناء المنازل في ذاك العهد تمّ، ويتمّ بأدواتٍ محليّة من الجبس والحجارة المقتلعة من الأرض؛ المنزل تكوّن من عدّة عُرفٍ لكل ابن وزوجته غرفةً، كل الغرف تُفتح على ساحة داخلية واحدة، يشترك الجميع في مطبخ بدائي واحد، يُسمّى هذا المنزل بـ " الحوش"، لا يزال هذا الاسم متداولًا؛ كما هذا النوع من البناء لا يزال منتشرًا، يشكّل الحيز الأكبر من الأحياء القديمة في مدن، وبلدات، وقرى ربوع وادي سُوف.

اخترتُ زوجتي الحالية عن قناعة ورضا، وحبّ إثر اختيار وتوسّطٍ من خالتي خديجة أطل الله في عمرها، زواج تمّ في 06 أفريل سنة 1966م في مسقط رأسي بين أهلي، وأقاربي، ومعارفي، وتحديدًا في عطلة الربيع لتلك السنة، إثر انتهائها انتقلت بزواجي إلى مدينة عنابة. قبل العطلة ساعدتني أسرة من مسقط رأسي، لها قرابة بوالدي كلتاهما من عرش " لعيس " قدّمت تلك الأسرة بعد الاستقلال من تونس، حيث كانت مهاجرة، ومن الأسر التي أطلق عليهم في الجزائر في ذلك العهد " اللاجئون"، اقتحمت تلك الأسرة شقّة في إحدى العمارات الأربعة المرتفعة بالمدينة آنذاك مثل كل ساكنها بمنطقة " السانكلو"، ساعدتني على الحصول على الشقّة المقابلة لها وكانت فارغة؛ علما أن تلك القريبة الأم استضافتني العديد من المرّات، وأكرمتني الكرم الحاتمي بأن سعت بكل الوسائل تزويجي ابنتها " خديجة"، بدون جدوى. تبين لي حينذاك أن

العمارات الكبيرة الأربعة سكانها أغلبهم لاجئون اقتحموها، وأقاموا بها وما اتصلت بهم أية سلطات، حدث بدوري حذوهم.

**شقة في عمارة.. اقتحمها دون دفع الإيجار؛ جهزت الشقة بما هو ضروري**  
لأسرة صغيرة فتيّة، ما كانت المكيفات، ولا المراوح الكهربائية معروفة؛ بل حتى الثلاجات ما كانت منتشرة، وسيلة التبريد الوحيدة آنذاك هي قوالب الثلج التي كانت تُباع. ثقافة التكييف، والتبريد كانت غائبة؛ ولما تشتدّ الحرارة يتوجّه الجميع نحو الشواطئ القريبة. ممّا جهّزت به الشقة كرسيان بقيا لديّ ما ينيف عن الثلاثين سنة ثمن الواحد منهما حينذاك **30.000** سنتيم، وغرفة نوم كاملة بـ **315.000** سنتيم، رافقتني في كل رحلتي بالكاد لمدة ثلاثين سنة.

في خريف تلك السنة بلغنا أن هيئة إدارية تكوّنت لتسيير، وتحصيل ثمن كراء الشقق في تلك العمارات، وغيرها من العمارات المفتحة، قيمة التحصيل ستكون من سنة الاقتحام، أي من حين دخول القادمين من تونس، القرار يطبق على الجميع، على كل من أقام بالشقة منذ ذاك العهد، أم أقام شهورا كحالي، تريتشت إلى أن تأكّدت بأن القرار بُدئ تطبيقه في عمارة مجاورة، استقدمت صباح يوم عطلة، وأغلب الساكنة ما زالوا نائمين، والإدارة في عطلة؛ كما المخبرين لا يتمكنون من توصيل الخبر.

عربة لتحميل المتاع والأثاث؛ وأنزلت ما بالشقة بمساعدة صاحب العربة، وغادرتُ بدون رجعة صوب حيّ " لاكلون " أين اكترى لي صديقي المرحوم سنة علي بيتنا، ومطبخًا في منزل جماعي يأوي به العديد من العائلات المشتركة في الحمّام، وبيت الراحة، بما فيهم مالك البناية عمي الحاج، المالك لأراضٍ فلاحية

خصبة في إحدى البلديات الريفية، لما طعن في السنّ ترك خدمة الأرض، والإشراف عليها لأبنائها، واستقرّ في مدينة عنابة بعد شرائه البناية من أحد المعمّرين الفرنسيين إثر وقف إطلاق النار، كانت كل عائلة من العائلات المقيمة في الطابقين الأرضي، والأعلى تدفع **10.000** سنتيم للشهر.

بطبيعة الحال في مثل هكذا الحالات السكنية الجماعية كثيرا ما وقعت، وتقع مناوشات، بين النساء المقيمات، والأبناء عن أسبقية الدخول إلى الحمام الوحيد، وبيت الرّاحة الوحيدة بكل طابق؛ لأنّ الرجال عادة يدخلونها في وقت مبكّر، أو يتوجّهون إلى المقاهي المنتشرة بكثرة هنا وهناك.

## 9..- وطن جريح

مكث الاستعمار الفرنسي في بلادنا مدة 132 سنة، مدة طويلة، تركّة ثقيلة خلفها المستعمر وراءه، إضافةً إلى ما خلفته الحرب خلال سنّ سنوات ونصف، من يتامى ومعطوبين، وفقر وأمراض. كل هذه التركة الثقيلة، واجهت الجمهورية الجزائرية غداة استرجاع الحرية والكرامة الوطنية (الاستقلال)،

**تركة ثقيلة بشعة؛ 1- اجتماعية:** أسفرت حرب التحرير عن أكثر من مليون ونصف شهيد، وعن ثلاثة ملايين من الذين كانوا محتشدين في التجمعات والمحتشدات الإجبارية، وعن أكثر من 400 ألف كانوا معتقلين، وموقوفين في معتقلات، وسجون العدو. وعن أكثر من 500 ألف كانوا لاجئين خارج الوطن، خصوصاً في تونس والمغرب وعن أكثر من 300 ألف يتيم، من بينهم 30 ألف يتامى الأب والأم، وأكثر من 300 ألف مجاهد، من بينهم الكثير من المعطوبين، وأكثر من 700 ألف مهاجر، جاؤوا من الأرياف والقرى نحو المدن، بالإضافة إلى العديد من الأرامل والعائلات الذين وجدوا أنفسهم غداة الاستقلال، بلا مأوى ولا عمل. إن هذا العدد الضخم من السكان، والذي يزيد عن 50% من مجموع السكان (9 مليون نسمة)، كان هذا المشكل الأول لحكومة

الجمهورية الجزائرية، وكان عليها أن تجد لهم العمل والسكن والعلاج، وكل ما تتطلبه الحياة الكريمة في ظل الاستقلال الوطني.

**2-ثقافية:** لقد غادر البلاد غداة الاستقلال أكثر من 800 ألف شخص، بما فيهم الأغلبية الساحقة من المعلمين والأطباء، والمهندسين والاختصاصيين، وكذا المعمرين " الكولون "، ورجال الأعمال الذين أغلقوا مزارعهم ومصانعهم، وحملوا ما استطاعوا من معداتهم وأموالهم ووثائقهم الضرورية. كما قام الموظفون الفرنسيون بإتلاف السجلات الهامة التي ما استطاعوا أخذها، وقد أثار قرارهم هذا، وتهريب أموالهم، وبقايا ديونهم غير المسددة مشاكل كبيرة للبلاد. كما كانت نسبة الأمية لأكثر من 95 % مع تخريب المدارس، والجامعة، وإحراق المكتبة العمومية من قبل **S. A. O.**، وقلة المعلمين والمنشآت الثقافية والتعليمية.

**3. إقتصادية:** دمر الاستعمار ما يزيد عن 8000 قرية تدميرا كاملا، وحرق آلاف الهكتارات من الغابات، وسلب وقتل الكثير من الماشية، حتى انخفض عددها من سبعة ملايين رأس إلى ثلاثة ملايين رأس، بالإضافة إلى ما فعلته فرنسا طيلة سبع سنوات ونصف من الحرب، وأكملت "منظمة الجيش السري" (لواس) تخريب ما تبقى من منشآت اقتصادية، وثقافية وصحية، وغيرها.

انعكست هذه الآثار التخريبية التدميرية على المجتمع الجزائري، فانتشرت البطالة وقل الإنتاج، وازداد الفقر، وانتشرت الأمراض. وكان على

حكومة الجمهورية الجزائرية، أن تجد حلاً ناجحة لهذه المشاكل العويصة.

**4. سياسية:** إن اتفاقيات " إيفيان " ما تلاءمت ووضع بلاد مستقلة. خاصة المواد المتعلقة بالاقتصاد الوطني، وكذا تحرير التراب الوطني من القواعد العسكرية، وقضية التعاون الجزائري الفرنسي، الذي وضعته هذه الاتفاقيات على أسس استعمارية بحتة.<sup>1</sup>

فعلاً خلفت اتفاقيات " إيفيان " مشاكل لحكومة الجزائر المستقلة في الميادين الاقتصادية، السياسية والعسكرية. وقد أدت هذا المشاكل إلى مفاوضات طويلة مع فرنسا في مختلف الميادين.

**تداعيات مؤتمر طرابلس:** كان اللقاء الأخير للمجلس الوطني للثورة الجزائرية في طرابلس بليبيا سنة 1962م، بمثابة دورة استثنائية مصيرية للتكفل بمهام الدولة الجزائرية المستقلة بعد وقف إطلاق النار بحزم. في ذلك المؤتمر انقسمت الآراء لدى قيادة الثورة إلى قسمين:

**1 . قسمٌ حَبَد بقاء مؤسسات الثورة (الحكومة المؤقتة، المجلس الوطني، هيئة الأركان) كما هي إلى غاية دخول أرض الوطن، حيث ينعقد مجلسٌ وطني تبتثق عنه قيادة جديدة.**

---

1 - شال روبيير اجيرون، محمد بلعباس. تطوّر الجزائر من 1962 إلى 1992 / المعهد التربوي الجزائري.

2. قسّم رأى عكّس ذلك، وحبّته أنّ الظروف مناسبة لوضع برنامج سياسي للبلاد، وانتخاب قيادة جديدة تباشر مهامّها، بمجرد دخولها أرض الجزائر.<sup>1</sup>

مثّل رئيس الحكومة المؤقتة ابن يوسف بن خدة التيار الأول، ويقف إلى جانبه الأخضر بن طوبال، كريم بلقاسم، عبد الحفيظ بوصوف، إضافةً إلى بعض مسؤولي الولايات في الداخل. أمّا التيار الثاني تمثّل في الزعماء الخمسة الذين خرجوا من السجن، هيئة الأركان، عدد من مسؤولي الولايات في الداخل.. رأت الحكومة المؤقتة بقيادة ابن خدة بأنّها هي التي تمثّل الشرعية؛ في الجهة المقابلة كان المكتب السياسي، قادة هيئة الأركان العامة للجيش بزعامة العقيد هواري بومدين، رأوا أنّهم الشرعيون؛ وهكذا كانت نتيجة مؤتمر طرابلس جزائر بولايات مفكّكة<sup>2</sup>، ومنقسمة، بل وقيادات متصارعة على السلطة.

نتيجة ذلك الصراع برز إلى الوجود غياب مشروع مجتمع أدّى إلى حدوث أزمة 1962م التي كانت صراع، وتصفية حسابات بين القادة المتصارعين على السلطة. قد كانت هذه الأزمة إحدى المظاهر الرئيسة للمؤامرة الكبرى التي استهدفت ثورة نوفمبر<sup>3</sup> وأنّ ما حصل ما كان، ولم يكن لفائدة الشعب الجزائري الذي دفع الثمن باهضا بخسارة حوالي 100 قتيل.

---

1 - حنيفي هلايلي. أزمة صيف 1962 بالجزائر من خلال كتابات بعض مسؤولي الثورة الجزائرية. ص:

163. المجلة التاريخية المغربية. السنة الرابعة والثلاثون. العدد 128، اجوان 2007.

2 - أ. حربي محمد. جبهة التحرير الوطني: السراب والواقع، الاستيلاء على الحكم. 1945 - 1962. ص

344. المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. الجزائر. 1963

3 - حنيفي هلايلي. مرجع سابق. ص: 183

إنّ إراقة تلك الدماء في تلك السنة، ما كانت لتقع لولا الرغبة العارمة في السلطة، وهو ما عبّر عنه المرحوم أحمد بن بلّة في ندوة صحفية "المشكل الوحيد هو مشكل السلطة".<sup>1</sup> " بقيت آثار مؤتمر طرابلس بين الإخوة الأعداء تفعل فعلها الخبيث، أفعى الخلاف ظلّت تطلّ برأسها بين الفينة والأخرى، آثارٌ صبغت حياة الجزائر المستقلة بعدم الاستقرار بعد سنوات عديدة من استرجاع السيادة الوطنية؛ بل رسمت مسار الجزائر حتى تاريخ الناس هذا بإيجاباته، وسلبياته الكثيرة التي أدخلت الجزائر في أزمت تعددت وجوهها، وفي صدارتها الزلزال السياسي الأمني في أواخر الثمانينات، حتى نهاية العقد الأول من القرن الحالي، الواحد والعشرين.

نتيجة ذلك تفاجأ الجزائريون معهم العالم صباح يوم 19 جوان 1965م بواقع جديد عسكري، سياسي، قالوا من قاموا به " تصحيح ثوري"، وقال عنه العالم "انقلاب عسكري"، الشعب الجزائري حينها ما فهم شيئا، راقب الوضع بحذرٍ، وخوفٍ، وهو الذي دفع الكثير من أجل الاستقلال، وضخى بأبنائه، ودمائهم لم تُنس، وجراح الآلاف ما اندملت بعد. الراحل هواري بومدين الذي هندس، وقاد الحركة التصحيحية. إن سلّمنا بذلك. الذي أدلى بحديث للكاتب اليساري لطفي الخولي أواخر 1965 حيث نفى الطابع العسكري عن الحركة، قال: «الانقلاب العسكري هو عملية عسكرية بحتة، يقوم بها بعض المغامرين

---

1 - أ. علي هارون. خيبة الانطلاق، أو فتنة صيف 1962 م ص: 208. دار القصة 2003 الجزائر.

العسكريين، في جيش تقليدي محترف من أجل السيطرة على الحكم لمصالحهم الخاصة، أو مصالح قوى رجعية، تؤيدهم لمصلحتها ضد الشعب، ونحن لسنا جيشا محترفا، نحن مناضلون.. أبناء الفلاحين، والعمال.»، ثم أضاف:

«ليس انقلابا، وإنما ممارسة ثورية، نعم نزلت الدبابات إلى بعض الشوارع، ولكن لمدة 24 ساعة فقط، ضد أي محاولة تخريب، وانسحبت على الفور، بعد أن لاذ المخربون بالجحور خوفا من الشعب، وإرادته الكاسحة»، وتساءل قائلا: «هل فرضت حالة طوارئ، أو مُنع التجوال ولو لدقيقة؟ هل شنت حملة اعتقالات ضد المواطنين؟ كل المعتقلين لم يزد عن خمسة أفراد<sup>1</sup>».

في ملفٍ أعدته "الخبر الأسبوعي" في عددها الصادر بتاريخ 2005/06/16، نقرأ عن محتوى الهدوء وحالة اللاطوارئ التي تحدث عنها العقيد المرحوم: «في عنابة كان القمع رهيبا، المتظاهرون كانوا مسالمين، وقال بعض الشهود إن جنود الجيش الوطني الشعبي أطلقوا النار على مدنيين ومناضلين في جبهة التحرير، فيما رفض آخرون.»، وقال الصحفي منتصر اويترون الذي أعدّ الملف بكل جرأة وموضوعية:

«إنّ المظاهرات، والاعتقالات التي استمرت أياما، إلى يوم أحداث 1965/06/21، حيث تحولت مظاهرة سلمية حاشدة، إلى مذبح حقيقية، إذ اتجهت المظاهرة صوب الولاية.. كانت الساعة منتصف النهار، عندما بدأت

---

1 - أ. ربيع بشاني. حركة 19 جوان 1965 بالجزائر تصحيح ثوري أم انقلاب دموي؟ صحيفة " دنيا الوطن

" بتاريخ: 2007/06/19

المجزرة بالثكنة، الجنود يتفرجون بهدوء، كانت فرقة تصوير قد انسحبت، صاح محمد عطاييلية (الجنرال فيما بعد) "فرات.. فرات"، هنا خطاب من العاصمة، سنلقيه عليكم، فدخل الناس إلى الثكنة، وبقي البعض في الخارج، أمر عطاييلية بغلق الباب ثم أعطى أوامر بإطلاق النار على المدنيين، وجاء جنود آخرون من ثكنة سلاح المدفعية، وأطلقوا النار على المتظاهرين خارج الثكنة، وأعلنت عنابة مدينة مغلقة، وفرّ المواطنون عبر الطرق، والأزقة الغير محروسة، للالتحاق بمنزلهم، ومداشرهم، وتمّ اعتقال الكثير منهم<sup>1</sup>»

**ما دخل سيرتك الذاتية في هذا؟:** ربّما القارئ يسألني، ما دخل سيرتك الذاتية في أحداث سياسية عامّة لست من صانعيها، ومقرّريها، ولا من المشاركين فيها؟ كمواطن جزائري أحبّ، ويحبّ وطنه؛ من حقي أن أقول كان بإمكان قياداتنا حينذاك، والجزائر ما اندملت جراحها أن لا يقع ما وقع، بالتحاور، والتشاور الهادئ المسؤول.

كما أني كنتُ شاهدا على ما وقع في مدينة عنابة، كما أسلفتُ في يوم 19 اجوان كان المواطنون بعد ما علموا بما وقع، التزموا الحذر، بقدر ما تملّكهم الخوف، وهم الذين التّفوا حول رئيس شرعيّ منتخب، وزعيم ثوريّ أحمد بن بلّّه ؛ اكتسب حبّ الشعب الجزائري، ومنذ أيّام قريبة حلّ بمدّينتهم في زيارة رسمية، استقباله بحفاوة، دشّن الصّرح الاقتصادي الكبير " سدّ بوناموسة"، من أجل ذلك ما صدّق المواطنون ما وقع، ولمّا تأكّدوا خرجوا في مظاهرة عارمة، كنتُ

---

1 - أ. ربيع بشاني/ مرجع سابق.

شخصيا من المشاركين فيها، نزل المواطنين من كل أحياء المدينة، جابوا الشوارع الرئيسية لتحتضنهم الساحة الكبيرة بالمدينة " ساحة الثورة".

كان المرحوم خشخوش الصادق المعلم أصيل مسقط رأسي بجاني في تلك المسيرات كنا نصرخ: " يحي ابن بلة"، " نعم للرئيس الشرعي المنتخب"، " لا للانقلاب". ممّا لا أزال أتذكره أننا كنّا بالمئات نقطع الساحة من الجهة الشرقية، الجهة المقابلة للميناء، تلقّانا عناصر من الشرطة قد جردوا من أسلحتهم، وطلبوا منّا بهدوء الانسحاب، والعودة إلى مساكننا حيث الوضع خطير جدا، حياتنا مهدّدة، وغير بعيدة من ذاك المكان، وأنا أقطع الساحة، ناداني أحد الجنود كان يجرس مقرّ البنك المركزي، بمجرد ما اقتربتُ يا هول ما رأيت عيناى، كان جدار البنك الأمامي ملطّخًا بدم أحدهم وقد سقط بفعل رصاصات أصابته، كتب اسمه بدمه قبل سقوطه أرضًا.

طلب مني ذاك الجندي المغادرة حالًا، وقد أشار إلى الدم، والجثّة؛ اتّضح لي أنّ ذلك الجندي هو المرحوم قحف عمّار أصيل مسقط رأسي الذي بعد مغادرته الجيش الوطني الشعبي تويّ أمانة اتحادية حزب جبهة التحرير الوطني بالوادي.

في اليوم الموالي 20 اجوان، استمررنا في المظاهرات، وتوتّرت الأمور أكثر، وشعر الجميع أنّ نُدُر الشرّ لاحت، فعلا، حدثت الفاجعة في منتصف النهار لمّا أعطى العقيد عطائلية الأمر بإطلاق النار على المدنيين داخل الثكنة، وخارجها؛ فررت كغيري من المواطنين صوب إقامتي في حي " لاكولون".

غير أن هوارى بومدين السياسي الخنك والقائد العسكري الداهية، الرئيس الثاني للجمهورية الجزائرية: (1965م - 1978م)، الذي كان أسلوب التقشف، وحب العزلة وحب الحكمة والعمل والدهاء في المواجهة هي السمات البارزة على شخصيته، وحبّه للجزائر، والغيرة عليها. بعد استلامه الحكم عمل على تكريس هبة الدولة الجزائرية داخليا وخارجيا، وبناء دولة عصريّة كانت لصالح الشعب الجزائري. في بداية السبعينيات توهجت صورة الجزائر إقليميا، ودوليا وباتت تساند بقوة القضية الفلسطينية وبقية حركات التحرر في العالم، ولعبت الجزائر في ذلك الوقت أدوارا كبيرة من خلال منظمة الوحدة الافريقية، ومنظمة دول عدم الانحياز. المرحوم هوارى بومدين استطاع كسب حُبّ أغلبية الشعب الجزائري، والتعلّق به؛ حتى من عاداه، وما هضم ما قام به يوم 19 اجوان 1965، جنازته في 27 شهر ديسمبر 1978م جنازة وطنية تاريخية.

**الجرح العربي المفتوح : حرب 1967** وعُرفت أيضاً في كل من سوريا، والأردن باسم نكسة حزيران، وفي مصر باسم نكسة 67، وسمّيت في إسرائيل بحرب الأيام الستة. الحرب التي نشبت بين إسرائيل، وكل من مصر، وسوريا، والأردن بين 5 اجوان 1967 والعاشر من الشهر نفسه، وأدّت إلى احتلال إسرائيل لسيناء، وقطاع غزة، والضفة الغربية، والجولان؛ واعتُبرت ثالث حرب ضمن الصراع العربي الإسرائيلي. وقد أدت الحرب لمقتل ما بين 15.000 - 25.000 شخص في الدول العربية مقابل 800 في إسرائيل، وتدمير 70 . 80% من العتاد

الحربي في الدول العربية مقابل 5.2% في إسرائيل، إلى جانب تفاوت مشابه في عدد الجرحى والأسرى.

كما كان من نتائجها صدور قرار مجلس الأمن رقم 242 وانعقاد قمة اللاءات الثلاثة العربيّة في الخرطوم، وتهجير معظم سكان مدن قناة السويس، وكذلك تهجير معظم مدنيي محافظة القنيطرة في سوريا، وتهجير عشرات الآلاف من الفلسطينيين من الضفة بما فيها مخو قرى بأكملها، وفتح باب الاستيطان في القدس الشرقية، والضفة الغربية.

لم تنته تبعات حرب 1967م حتى اليوم، إذ لا تزال إسرائيل تحتلّ الضفة الغربية، كما أنها قامت بضم القدس، والجولان لحدودها، بل وضمتّ الجولان للدولة الإسرائيليّة في سنة 2019 بتزكية من الرئيس الأمريكي " ترامب" وكان من تبعات حرب 67 أيضاً نشوب حرب أكتوبر عام 1973م، وفصل الضفة الغربية عن السيادة الأردنيّة، وقبول العرب منذ مؤتمر مدريد للسلام عام 1991 بمبدأ «الأرض مقابل السلام» الذي نصّ على العودة لما قبل حدود الحرب لقاء اعتراف العرب بإسرائيل، ومساملتهم إياها.

ما تحقّق أيّ شيء من تلك الوعود، بل أعلنت إسرائيل القدس عاصمة للدولة اليهودية، وحوّلت الولايات المتحدة الأمريكية سفارتها إلى مدينة القدس. دول عربيّة عديدة أقامت علاقات منفردة مع إسرائيل سياسيّة، أو اقتصادية، سيّما دول الخليج، بل تحالفت معها في الكثير من القضايا الأمنية والعسكرية.

في شهر اجوان 1967م أجرينا امتحانات آخر السنة، وقلّ ضغطُ العمل اليومي علينا في الفصول الدراسية نوعاً ما، وشرعنا نميّ أنفسنا بقضاء عطلة

صيفية مُريحة؛ كما كنّا في نفس الوقت نتابع أخبار الشرق الأوسط، كانت نُدرّ الحرب تطلّ برؤوسها، وكسائر النزاعات، والصراعات الكثيرة في العالم كانت تسيرها الحرب الباردة بين المعسكرين، لم نكن نتصوّر أن تندلع حربٌ بين العرب وإسرائيل. عشنا الحماس العربي القومي، عشنا الحلم الأبدي بوجود وطن عربي كبير، كنّا ننام على حنّ الخطاب المطمئن بجاهزية الجيوش العربية، واستعدادها، وقدرتها في تحقيق الانتصارات، وأنّ إسرائيل قريبا لا أثر لها على الخريطة، وأنّ كلّ يهودها سيكونون لقمة سائغة لسماك البحر الأبيض المتوسط.

**الصدمةُ فاجأت الجميع:** كانت الفاجعة.. كانت الكارثة.. كانت الضربة قوية على الإنسان العربي أينما تواجد، ما صدّق في البداية، إنما هي الحقيقة أوجدت واقعا مرّا زرع الهزيمة واليأس في النفوس، كعادة العرب سلاحهم الصراخ، والعيويل، رفع شعار " مؤامرة الامبريالية، والاستعمار القديم"، لا بدّ من التحرك، لا بدّ من التنديد. كنتُ من الذين تحركوا مع غيري، من الذين ندّدوا بالمؤامرة الخبيثة، انضممتُ إلى المسيرات، والمظاهرات، والتجمّعات في ساحات المدينة، وفي شوارعها لمُدّة ثلاثة أيام. سرعان ما خفتت الأصوات، وانحسر الحماس، وتفرّق الجميع، وابتلع الكلّ الموسى بدمها.

**عصا النّرحال..:** شعرت بالاغتراب النفسي قبل الاغتراب المكاني، تراءى لي أن أغادر هذه المدينة، أن أرحل، أن أعود إلى الصحراء، وجّهتُ طلب الخروج من أكاديمية عنابة التي كان يديرها حينذاك المرحوم محمود بن محمود، لما جاءني الموافقة كتابيا، أرفقتها بطلب الدخول إلى أكاديمية الواحات التي كان مقرّها

بمدينة الأغواط، بتاريخ: 03 أبريل 1967م، جاءني الردّ بالقبول بتاريخ 11 أبريل 1967م من طرف السيد مفتش أكاديمية الواحات المرحوم ابن الشيخ عبد القادر بداية من الفاتح أكتوبر 1967م. في افتتاح الموسم الدراسي لتلك السنة توجهتُ إلى مدينة الأغواط، حيث استلمتُ تعييني الذي كان بقرية سيدي خليل، بلدية المغير، مقاطعة توقرت، المتضمّن: «بداية من تاريخ 02 أكتوبر 1967م، أعلمكم أنكم عينتم معلما باللغة العربية بصفة مؤقتة في مدرسة سيدي خليل، مقاطعة توقرت، التعيين حمل رقم: 1489 / 40 / موظفين».

كنت أجهل تلك المنطقة؛ استوضحتُ موظفي الأكاديمية عن موقع المدرسة فكان جهلهم أكثر منّي، اكتفوا بأن وجهوني إلى مفتشية توقرت التي وجهتني إلى المغير أين تواجد مسؤول المقاطعة السيد "فين" الفرنسي الجنسية، المدرس القديم بالمنطقة، والمدير للمدرسة المركزية بمدينة المغير الذي دلّني على قرية سيدي خليل القابعة جنوبي المغير، الواقعة داخل واحة النخيل، يربطها حينذاك بالطريق الوطني الرابط بين بسكرة، تقرت، ورقلة، حاسي مسعود طريق بالكاد طوله كيلو متر واحد. قرية فلاحية، لا دخل مادّي لسكانها غير ما تدرّه عليهم منتوجات تمور دقلة نور سنويا، أشجار النخيل غابات تُسقى من خلال شبكة سقي وفق حصص يختار وقتها، وكميتها كلُّ فلاح وفق إمكاناته، ومساحة غابته، البعض ملكوا مئات النخيل، البعض عشرات، وغير هؤلاء اشتغلوا عمالا دائمين، أو موسمين. لما حللتُ بتلك القرية في تلك السنة صُدمتُ لمستوى التخلف في جميع المجالات، والجهل المتفشّي بشكل مُفجعٍ وصادمٍ. لا كهرباء، لا طرقٌ معبّدة، لا مستوصفٌ صحي، لا شبكة مياه صالحة للشرب، لا خضر، لا

فواكه، لا خبز، متاجر للموادّ الغذائية بسيطة، لا مرافق عمومية، المرفق الوحيد الذي يرمز للدولة هي المدرسة، والمعلمون الوحيدون الدّالّون على وجودها.

**جهل برسالة المدرسة:** كانت نظرة الأولياء للمدرسة على أنّها مرفق لإطعام أبنائهم قبل أن تكون منارة للمعرفة، ونشر التعليم. التلاميذ كان من الصعب علينا تعويدهم الانضباط، والحضور المستمر، والتربية على النظافة، والعناية بالصحة، لا زلتُ أتذكّر أن أغلب التلاميذ كانوا وهم قادمون إلى المدرسة حفاة، ولما يصلون إلى عتبة المدرسة يضعون أرجلهم في نعالهم البسيطة، كما أنّي أتذكّر لما كنت أعلمُ في حجرة خارج سور المدرسة، كان يتحلّق كل يوم تحت ظلّها أشخاص يلعبون لعبتي "الدومينو، والكارطة"، يتصايحون، بل أحيانا يتخاصمون، سعينا كمعلمين لإقناعهم بأن ذلك لا يجوز، وأنّ للتعليم حرمة، وأن تصرّفهم يُعيق عملنا، ويصعب عملية الاستيعاب لدى أبنائهم. كان سكان تلك القرية يتكوّنون من سكّان قاريّين في منازلهم الطينية البسيطة، والمشتغلين بالفلاحة كما أسلفتُ، ومن سكّان آخريّن رُحّلٍ أقاموا ضواحي القرية بمحاذاة بساتين النخيل، حلّوا بالمنطقة لسنوات عديدة بداية فصل الخريف لما تخفّ درجة الحرارة نسبيًا، ويهلّ موسم نضج التمور، يقيمون في خيام من الشعر، معهم أنعامهم من غنم، وإبل، وحمير، وحتى الدجاج؛ يبعثون حركية في المنطقة، يرسلون أولادهم الذكور دون البنات إلى المدرسة، كغيرهم من السكّان يروّون في هذا المرفق الحكومي وسيلة لإطعام أولادهم فحسب؛ قبل أن يكون مرفق معرفة وتعليم. من المفارقات التي عانيتُ منها مع زملائي المعلمين كثرة غيابات التلاميذ بسبب، أو بدون سببٍ وبموافقة الآباء، كان التلميذ يتغيب وبدون إذن، أو إشعار مدّة

أسبوع أو أكثر، حيث يرافق أسرته التي تنتقل إلى المغرب، أو جامعة، أو تقرت، أو ورقلة لحضور عرس أقارب، ثم يعود التلميذ وكأن لا شيء حدث؛ في الجهة الأخرى، الأسرُ الرحّالة بمجرد أن تنتهي عطلة الربيع تشدّ الرحال، وتعود إلى مواطنها في الشمال، ولا يهتمها ابنها أنجح في دراسته، أم أخفق؟ هل انتقل؟ أم أخفق؟

**قوة التقاليد والعادات . . .** لا؛ الله جلّ جلاله كرم الإنسان، وقر له المواهب، والقدرات العقلية، أعطاه القوة البدنية كي يكون خليفته في الأرض عمارة في كل ما تتطلبه الحياة، فيتكاسل، ويحرم نفسه؛ من ذلك أن سگان سيدي خليل في ذاك العهد كانوا يملكون بساتين روعة في الجمال، ومساحات مسقاة، بإمكانها أن تدرّ الخير من خُضر وفواكه، كانوا يكتفون بالحشيش غداء للماعز الذي يحتاجون حليبه، والقليل من الخضر، إذ كان الواحد منهم لما يهديك ربطة بصل، أو سلق، قد أكرمك باعتبارك معلما، ولست من مالكي البساتين. ما كنت أستغرب أن العديدين منهم يمتطون القطار القادم من مدينة توقرت صوب بسكرة صباحا، الساعة الثامنة للانتقال إلى المغرب وقضاء يوم بها، والعودة في القطار القادم من بسكرة من أجل جلب بعض الخضر كالطماطم، والفلفل، أو حتى البصل، وتخفيف الرأس بزعم أن الحفاة في المدينة لها هالتها، ورونقها.

**. . من إشراقات المدينة إلى سديم القرية:** وأنا القادم من عاصمة الساحل الشرقي الجزائري، عروس البحر الأبيض المتوسط، وجدت نفسي وزوجتي نقطن منزلا طينيا اكرتيناها بعشرة آلاف سنتيم، لا كهرباء، لا ماء، لا مرافق صحية

كالحمام، والمرحاض العصري، جهّزناه بمستلزمات بسيطة جلبتها من بلدي، كانت الإضاءة تقليدية: بالشمع، أو قنديل الكاربيل، ضوء القمر، أمّا الماء كنت أحضره من السواقي المارة بين البساتين، ووجدتني في كلّ تلك الأيام مصطفًا مع النساء، والبنات، وتلاميذي، ومّا أتذكره جيدًا أنّ ماء الساقية غالبًا ما يكون مختلطًا بكائنات صغيرة تسبح في الماء، يُطلق عليها في أغلب مناطق الصحراء "الزغلال"؛ خضتُ معارك في إبعاده عن حاشية الطّاسة التي أملاً بها البيدون البلاستيكي، معركتي مع تلك الكائنات الصغيرة شغلت يومياتي طوال سنة دراسية كاملة حتّى تسلّمي سكنًا مدرسيًا أنجز في تلك السنة مع سكنٍ آخر شغله السيد خليل عبد اللطيف مدير المدرسة، ومعلم اللغة الفرنسية في موسم 69/68م، حينها تعاقدتُ مع أحد السّاكنة على جلبِ ماءٍ نظيفٍ لي يوميًا مقابل قيمة ماليّة اتفقنا عليها.

مدرسة متكونة من أربع حجرات دراسية، وسكن وظيفي، إضافة إلى سكينين جديدين، مدرسة واقعة خارج القرية، يديرها مديرٌ أصيلٌ مدينة الوادي، قطن مع أسرته السّكن الوظيفي، ومن المعلمين الذين لا زلتُ أتذكرهم السيد قادري عبد الحميد أصيل القرية، والمنحدر من عائلة متعلمة، الذي ارتقى فيما بعد إلى منصب مفتش لغة عربية لمرحلة التعليم المتوسّط، والسيد الصائغي أحمد أصيل وادي سُوف، معلم اللغة الفرنسية الذي قضى أغلب أوقات حصص السنة الدراسية في القراءة وإنجاز أبحاثه على حساب حقّ التلاميذ، تحضيرًا لامتحانٍ غير مهنة التعليم. أعلن لي مرّات صراحة أنّ لا بقاء له في مهنة التعليم، وما وجوده إلّا توفيرًا لمالٍ يساعده على مواصلة الدراسة.

سَلَّمَنِي المَدِير السَّنَةِ الثَّالِثَةَ ابْتِدَائِي، تَفَاوَتَتْ أَعْمَارُ التَّلَامِيذِ؛ أَتَذَكَّرُ أَنَّ أَحَدَهُمْ فَاقَ أَقْرَانَهُ بِسِنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ، وَحَفِظَ أَغْلَبَ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، كَانَ مَتَفَوِّقًا عَلَى أَقْرَانِهِ، فَنَقَلْتَهُ بِمُوَافَقَةِ الْمَدِيرِ مِنَ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ إِلَى السَّنَةِ الْخَامِسَةِ، وَوَأَصَلَ تَفَوُّقَهُ فِي كُلِّ الْمَرَاهِلِ؛ إِنَّهُ الدُّكْتُورُ الْبَاحِثُ بَرِّي حَوَّاسُ الْأُسْتَاذِ بِجَامِعَةِ الْجَزَائِرِ، الَّذِي دَرَّسَ لِأَكْثَرِ مِنْ عَشْرِ سِنَوَاتٍ فِي جَامِعَةِ سُلْطَنَةِ عَمَّانَ. انْسَجَمَتْ فِيمَا بَعْدَ مَعَ الْبَيْئَةِ الْجَدِيدَةِ، طَيِّبَةِ السَّكَّانِ، وَحَمِيمِيَّتِهِمْ، وَاحْتِرَامِهِمْ لِلْمُعَلِّمِ، وَهَدْوَعِهِمْ، وَصَبْرِهِمْ، وَقِنَاعَتِهِمْ جَعَلْتَنِي كَغَيْرِي بَيْنَهُمْ، وَقَدْ شَعَرْتُ أَنِّي وَاحِدٌ مِنْهُمْ؛ كَمَا أَنَّ عِلَاقَتَنَا كَأَسْرَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، دَفَعْتُنَا إِلَى التَّعَاوُنِ، وَالْإِنْسِجَامِ. فَقَطَّ مَا أَلْمَنِي، وَنَدَمْتُ عَلَيْهِ، وَلَا أَرَأَى أَنِّي وَزَمِيلَايَ خَاصَّةً ابْنَ الْقَرِيْبَةِ عَبْدِ الْحَمِيدِ قَادِرِي مَا وَضَعْنَا حَدًّا لِتَصْرِفَاتِ الْمَدِيرِ لَمَّا كَانَ يَضَعُ مَوَادَّ الْمَطْعَمِ الْغِذَائِيَّةِ مِنْ خَضِرٍ، وَفَوَاكِهِ، وَلَحُومٍ، وَغَيْرِهَا فِي مَنْزِلِهِ، وَتَصْرَفِهِ فِيهَا وَزَوْجَتِهِ، وَأَبْنَائِهِ؛ وَكَأَنَّهُ اشْتَرَاهَا مِنْ جِيْبِهِ؛ بَلْ كَانَ يَنْفِلْتُ أَبْنَاءَهُ خَارِجًا وَفِي أَيْدِيهِمْ هَذِهِ الْفَاكِهِةَ، أَوْ تَلْكَ.

**مَدِيرٌ مُخْتَلِسٌ فِي وَضْحِ النَّهَارِ:** غَيْرَ أَنِّي مَعَ الْمَدِيرِ الَّذِي خَلَفَهُ، أَصِيلُ مَدِينَةِ الْوَادِي، فِي السَّنَةِ الدَّرَاسِيَّةِ الْمُوَالِيَةِ 69/68م، لَمَّا اسْتَقْدَمَ فِي آخِرِ السَّنَةِ وَنَحْنُ عَلَى أَهْبَةِ مَغَادِرَةِ الْمَدْرَسَةِ، سِيَارَةَ وَشَحْنَهَا بِمَوَادِّ الْمَطْعَمِ الْمَدْرَسِيِّ الْغِذَائِيَّةِ مِنْ: حَمَصٍ، لُوبِيَا، أَرْزٍ، عَدَسٍ، زَيْتٍ، عَلْبِ طَمَاطِمٍ؛ حَتَّى سَخَّانَ الْمَاءِ اقْتَلَعَهُ مِنَ السَّكَنِ وَوَضَعَهُ فِي السِّيَارَةِ، وَقَفْتُ لَهُ بِالْمَرْصَادِ رَفَقَةَ قَادِرِي عَبْدِ الْحَمِيدِ، تَعَلَّلَ الْمَدِيرُ بِأَنَّ السَّخَّانَ عَرِضَةٌ لِلسَّرْقَةِ، وَالْمَوَادَّ الْغِذَائِيَّةُ عَرِضَةٌ لِلضِّيَاعِ بِفَعْلٍ

التسوّس، وما أخذُهُ لها إلا للحفاظ عليها في منزله بالوادي حتى الدخول المدرسي القادم.

من سلوكات المدير الأول شعوره بنرجسية التمكّن من اللغة الفرنسية، ونظرته الدونية إلى معلمي اللغة العربية، وعلاقته المتينة؛ وارتباطه بمسؤول المقاطعة السيد "فين"، والاستقواء به، واستضافته باستمرار في منزله، وإكرامه ببذخ على حساب حقّ التلاميذ؛ ذلك الاستقواء أدى به إلى الطلّب من الجميع ليس الولاء له كمدير، كمكوّن؛ إنما أن تزور زوجاتنا زوجته التي كانت تخرج سافرة، وتفتخر أنّها زوجة المدير المسير للمدرسة، والمتحكّم في الجميع، تنازعنا، نخاصمنا كثيرا معه إلى أن خضع، لما واجهناه بأننا موظفون لدى الدولة الجزائرية، وليس عنده.

**تسونامي اجتاح الجزائر؛ في سبتمبر سنة 1969م**، اجتاح الجهات الشرقية من الجزائر، ومنطقة الزيبان كما الصحراء الشرقية جنوب الأطلس الصحراوي فيضاً رهيباً، مدمّراً، حيث في هذا الشهر هطلت أمطار طوفانية غزيرة عُرفت في منطقتي وادي ريغ، ووادي سُوف باسم عام "النكبة" أو عام الطوفان، استمرّ أكثر من عشرة أيام، خلف تدمير عشرات القرى، والمداشر، والمنازل، ومئات الكيلومترات من الطرق المعبدة، والسكك الحديدية.. وسُدّت الطرقات، وحوصر الناس وبقوا دون مأوى ولا غذاء؛ ممّا اضطر السلطات إلى التدخّل، وإعلان حالة الطوارئ، وتدخل القوات الأمنية، والعسكرية، وما ملكته من طائرات مروحية لإيصال المؤونة والأغطية للمتضرّرين ونقلهم إلى المدارس، والمباني الإدارية لإيوائهم.

**حصيلة ثقيلة:** كانت الحصيلة حسب رئيس الهلال الأحمر الجزائري آنذاك وفاة عشرات الأشخاص وتشرد أكثر من **110** آلاف من السكان بينهم عدة مفقودين، وتدمير ثلاثين ألف منزل، وإغراق مئات الهكتارات من الأراضي الزراعية، علاوة على ضياع محصول التمر ضياعا كلياً.. ووصلت هذه الفيضانات بفعل الأمطار الغزيرة التي تواصلت إلى بداية أكتوبر **1969**م إلى منطقة وادي ريغ، ووادي سوف، فأتلقت محصول التمر بالكامل في المنطقتين؛ إضافة إلى الخسائر البشرية والمادية كباقي المناطق الأخرى المتضررة.

لما عُدتْ بعد العطلة الصيفية في تلك السنة، وشارفتُ على قرية سيدي خليل في بداية الموسم الدراسي **70/69** وجدتها معزولة، بحيرة كبيرة جدا تفصلها عن الطريق الوطني، دخلتها مشمراً عن ساقبي، وجدتُ سكني المدرسي قد جُمع أثاثه، ومتاعه به ووضعه في المطبخ، وأسكنتُ به ثلاث عائلات، فما كان مني إلا أن غادرتُ القرية، ويمتُ صوب مدينة تقرت، حيث طلبت من مفتش المقاطعة حينذاك المرحوم باسة موسى نقلي إلى جهة أخرى، فتمّ تعييني بمدينة جامعة الواقعة بين المغير وتقرت، والتي تبعد عن تقرت بـ **50** كيلومتر.

**أستاذ لغة عربية:** عُيِّنتُ مدرّساً للغة العربية في متوسطة التعليم الفلاحي، التي أدارها في ذلك العهد المرحوم يتيم تومي، الذي تولّى فيما بعد مصلحة الموظفين بأكاديمية الواحات بورقلة. عُيِّنتُ بموجب قرار تعيين مُضى من المرحوم عطاء الله مفتش أكاديمية الواحات للسنة الدراسية **69 /70**م، وفي السنة الموالية **70 /71** عُيِّنتُ بنفس المدينة في مدرسة الذكور المركزية، التي كان يديرها السيد "ليوزيك"

ذو الجنسية الفرنسية، وأكملتُ بقية النصاب الأسبوعي بعشر ساعات في متوسطة قريبة مقابلة للمدرسة، خمس ساعات للسنة الأولى متوسط، وخمس ساعات للسنة الثانية متوسط. كان يتيم تومي مزدوج اللغة وبمستوى ثقافي ممتاز، كان جدياً، صارماً آمناً إلا بالعمل، والانضباط، غير متساهل، متشبعاً بالفكر الماركسي، الماوي، بالرغم من حميميته معنا؛ إنما ليس على حساب أداء العمل. تواجدت المؤسسة التعليمية الفلاحية خارج مدينة جامعة غرباً بعيدة عن العمران، أُجِزْتُ في مدخل أرض مساحتها اختيرت أن تكون ميداناً للتكوين الفلاحي، والتجارب الزراعية الصحراوية لتكوين شباب منطقة وادي ربيع ذي الطابع الفلاحي. كنتُ مدرّس اللغة العربية للسنوات الثلاث، مع معلمة للغة الفرنسية ذات جنسية فرنسية، ومهندس فلاحي جزائري السيد رجم أصيل منطقة المسيلة، إضافة إلى المدير أصيل مدينة كوينين السُوفية الذي تولّى بدوره تدريس اللغة الفرنسية. المؤسسة ذات بناء جاهز، بما في ذلك مكتب المدير الذي من خلاله تابع عملنا في الحجرات القريبة، واستمع إلى ما قدّمناه للطلبة. نبّهنا إلى الأخطاء التي نكون قد وقعنا فيها، وطلب منا تصحيحها في الحصّة الموالية، حصل ذلك في كلّ أيام السنة الدراسية طالما هو موجود بمكتبه، أو في زيارته لنا في الفصول. علماً أنه نادر الغياب عن المؤسسة.

**طلبة بشلاغمهم .. بعضهم في فرق رياضية:** وجدّتي أدرّس مستويات أعلى، ممّا حفّزني على البحث أكثر، والحرص على اقتناء كتبٍ توافقت مع برنامج كل سنة تعليمية بالمؤسسة، فكانت ضالّتي في الكتب اللبنانية أكثر، ووجدتُ صعوبة في

الشهرين الأولين مع الطلبة الذين كانوا كبار السنّ، سيّما طلبة السنة الأخيرة، أغلبهم اقتربوا من العشرين سنة؛ بل من تعدّاهم، العديد منهم في فرق رياضية محلية؛ انتهجت معهم في البداية الشدّة والعقاب اللفظي، وحتى الجسدي؛ تقبلوا شدي وتوبيخي عن مضضٍ؛ خارج الحجرة، أو في مدخل المؤسسة لما أمرت فطنتُ إلى همساتهم، وسخريتهم. أتذكرُ أني ذات يوم وأنا أعاقب أحدهم ضرباً على كتفيه، التفتُ كانوا ينظرون إليّ غير راضين؛ لحظتها خاطبني الطالب المعاقب:

- سيدي ألا ترى أني كبير السنّ، وشلاغمي كبرت، صرتُ رجلاً؛ ثمّ إني عضو فريق رياضي معروف في منطقتنا، لستُ تلميذاً صغيراً أعمل هكذا.

هتفوا جميعاً:

- نعم سيدي، ما قاله هو الحقيقة.

وكأنّ من صبّ عليّ دلو ماء باردٍ، توقفتُ، شعرتُ بإحراج شديد؛ ومن ذلك اليوم غيرتُ طريقتي في تعاملي معهم، صارت معاملة الوالد لأبنائه، تمتنت علاقتي بهم فيما بعد، ازدادوا قريباً مني، تضاعف استيعابهم لموادّ اللغة العربية، ارتفع مستواهم فيها؛ ممّا ساعدهم على الانتقال، والنجاح.

في السنة الدراسية الموالية 70 / 71 تمّ تحويلي إلى مدرسة الذكور المركزية بالمدينة، وتكلمة النصاب بمتوسطة مجاورة كمدرس لغة عربية في السنة السادسة ابتدائي في الأولى، وكأستاذ في الثانية لموادّ اللغة العربية. كانت سنة دراسية إيجابية من حيث علاقتي بالزملاء المعلمين، والأساتذة، من مصريين، وفلسطينيين، وجزائريين، ومن الذين ارتبطت بهم عملاً، وجواراً، ورفقة، وصداقة حتى يوم الناس هذا، الحاج شنة بوبكر الصديق الوفي، أطال الله في عُمره، وباركه الذي

تزامننا معًا فيما بعد كمعلمين في مدرسة الذكور بقمار، وهو الذي كان من رواد الصحافة في السبعينات، والثمانينات عندما كان المراسل الصحفي للمنطقة بيومية النصر، أيضًا السيد درداخ أحمد القماري أطل الله في عمره، والمرحوم سليمان أوبيرة الذي انتخب عضو البرلمان فيما بعد، والمرحوم شوية، والسيد ببة الذي صار مدير متوسطة العلامة خليفة بن حسن بقمار، والأخوين زاھري، والمرحوم الشيخ عُمان، وغيرهم.

استفدتُ من حُسن تسيير السيد المدير " ليوزيك " بما كان يميّز به من هدوء، وصبر، وحسن علاقات مع الجميع مع الصرامة في العمل، وتنفيذ التوجيهات، والتعليمات، وتتبع تطبيق البرامج. لا أنسى علاقتي الروحية مع تلاميذي في المتوسطة الذين، واللواتي حبّبتهم في اللغة العربية، وأنشأت معهم مجلّة القسم الأسبوعية، وشجعتهم على الكتابة فيها، وما مضى الفصل الأول حتى بدأ بعضهم يبدع شعرًا وقصة، وخاطرة. أغلب أولئك الطلبة نجحوا في دراساتهم في كلّ المراحل؛ البعض منهم تولّى مناصب مرموقة، وبعضهم الآخر ولجوا ميدان الطاقة والبتروك؛ تفاجأت ببعضهم بعد عشرات السنين، أتوا بحثًا عني للقاء، والتحية. في ذلك العهد كان التعليم والتجارة مُعطّين بالكاد من السوافة في كل منطقة وادي ريغ، وتقرت، وورقلة؛ بل حتى الإدارة الولائية والمحلية في الأخيرتين.

**العودة إلى الديار:** انتقلت في بداية السنة الدراسية 71 / 72م، وبطلب منّي إلى منطقة وادي سُوف أملًا في القرب من مسقط رأسي، فتمّ تعييني في مدرسة "هبة"

الفلاحية المختلطة شمال قمار مسقط رأسي بعشرين كيلومتر، بمحاذاة الطريق الوطني: الوادي - بسكرة. بموجب قرار صادر عن مفتشية أكاديمية الواحات بورقلة، مؤرخ في 20 جويلية 1971 م

**قرية " هُبة " الفلاحية:** هي واحدة من مشروع قسنطينة الذي خطته السلطات الفرنسية الاستعمارية سنة 1958م لخنق الثورة الجزائرية. اعتبر ذلك المشروع في نظر الفرنسيين مشروعا اقتصاديا، واجتماعيا وثقافيا مفيدا، بينما نظرت إليه قيادة الثورة حينذاك أنه مشروع استعماري هدفه إفشال الثورة، وإبعاد الشعب الجزائري، وفصله عن جيش التحرير الوطني، وإقناعه بضرورة الاندماج في فرنسا. وكان الجنرال ديغول هو الذي أعلن عن المشروع في 04 أكتوبر 1958 في خطابه بمدينة قسنطينة. كما سبقه مشروع آخر سنة 1955 عُرف باسم مشروع "سوستال" الإصلاحية. تناول مشروع سوستال الإصلاحية عدّة جوانب إصلاحية إدارية، اقتصادية، اجتماعية، وثقافية الهدف منه الوصول إلى دمج الجزائريين بفرنسا. اعتمد سوستال الحاكم العام في الجزائر، على عدة شخصيات في تطبيق مشروعه مثل جرمان تيون، الباحثة الاجتماعية الفرنسية. ولكن الثورة الجزائرية ردّت عليه بهجمات 20 أوت 1955. كما أن الكولون المعتمّرين أنفسهم رفضوا دمج الجزائريين مع فرنسا.

استخدم الرئيس الفرنسي الجنرال ديغول في هذا المشروع، مشروع قسنطينة وسائل (التهدئة) للقضاء على الثورة الجزائرية، وخلق فئة من المتغربين

- الجزائريين يحكم من خلالهم الجزائر بعد أن يتمكن من تدجين الشعب الجزائري.
- مشروع قسنطينة وُضع لتحقيق الأهداف التالية في ظرف 5 سنوات:
- بناء 200 ألف مسكن لإيواء مليون شخص.
- توزيع 250 ألف هكتار من الأراضي على الجزائريين.
- توظيف الجزائريين ضمن إطارات الدولة الفرنسية بنسبة 10% في الإدارة والجيش والتعليم.
- تدمير مليون ونصف طفل في المدارس من بين الأطفال الذين بلغوا سن التعليم.
- تسوية المرتبات والأجور في الجزائر مع مرتبات وأجور فرنسا.
- إيجاد 400 ألف وظيفة جديدة بواسطة إيجاد معامل عديدة تهدف إلى تصنيع الجزائر.

وأعلن أن هذا المشروع سيُمول بألفي مليار خلال السنوات الخمس المقبلة أي 400 مليار فرنك في العام تدفع الميزانية الفرنسية نصفها على أن تدفع رؤوس الأموال الخاصة النصف الآخر. ونظرا لعدم الالتزام بالتمويل، وبحكم أن المشروع في حد ذاته هدف إلى فصل الشعب عن الثورة، ما تحققت أهدافه. ما كان برنامجا اقتصاديا بقدر ما كان مشروعا استعماريًا دعائيًا. مشروع قسنطينة ضمّ جوانب إصلاحية منها المشروع الثقافي، والمشروع الإداري، والمشروع الصحي، والمواصلات، واستغلال الصحراء، وتكوين نخبة متغربة عُرفت باسم القوة الثالثة تحكم الجزائر باسم فرنسا<sup>1</sup>.. البند الأخير تحقق، وأعطى

---

1 - المتحف الوطني للمجاهد بسكيكدة (بتصرف).

ثمارة المرة على الجزائر وشعبها، ولا يزال إلى يوم الناس هذا يتم فصل في كل القطاعات. قرية هبة ثمرة من ثمار هذا المشروع الاستعماري الاقتصادي، خصّصت فرنسا لهذه القرية مساحة واسعة صالحة لزراعة النخيل، خاصة دقلة نور ذات المردود الاقتصادي الوفير، وكذا المنتوج الوطني الفلاحي الاستراتيجي، بعد إنجاز مساكن القرية استقدمت لها فلاحين فقراء من مناطق عدة بوادي سّوف؛ وزّعت عليهم المساكن، ومساحة هكتار، أو ما ينيف على كل واحد منهم، وساعدتهم بشتلات النخيل؛ كما وقّرت لهم مياه السقي الكافية، وتوفير الكهرباء، وبناء المدرسة. فسيفساء من الساكنة توطّنت في الموقع، واتجهت بجدّ إلى خدمة النخيل؛ غير أنّ الانسجام، والتقارب، والعيش المشترك ما تحقّق بينهم حتى سنة قدومي إلى القرية في بداية الموسم الدراسي 1971م. تسلّمتُ العمل في هذه المدرسة الكبيرة كمدرّس للغة العربية، جلّ المعلمين من مدينة قمار، الوادي، أغلبنا في بداية الموسم الدراسي نأتي في وسائل النقل التي كانت قليلة، ثم استقرتُ رفقة زوجتي التي كانت معلمة معي في نفس المدرسة وابني بلقاسم، وابنتي نادية الصغيران.

**الطُّرُقِيَّةُ عَنكَبَتْ فِي الْعُقُولِ:** كان الجهل متفشياً، وثقافة التعليم والتمدرس ما ترسّخت بعد؛ كما كانت الطُّرُقِيَّةُ معشّشة في الأدمغة إمّا الطريقة التجانية وهي الغالبة، أو الطريقة القادرية، كان هذا التعشّش مؤثراً في علاقات التلاميذ بينهم كما كان بين العائلات ممّا أدّى إلى التنايد والتخاصم حتى بين الكبار بأنّ هذا " قرميطي"، أي غير تجاني، وذاك " شريف"، أي تجاني.

حتى أنّ المرحوم عمراني اسماعيل مفتش المقاطعة الذي كان رفقة المرحوم دربال عبد القادر المستشار التربوي سألاني ونحن متجهون إلى بلدة الرقيبة

المجاورة عن حالة المدرسة، وواقع التعليم بها، ومدى إقبال التلاميذ على التعلم، حدّثتهما عن التشردم الطرقي بين التلاميذ، ومحاولاتي تصفية عقولهم منها، وتوجيههم نحو الدين الحقيقي المستند إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ أتذكر جيداً أنّهما طلبا منّي الكفّ عن ذلك، إذ قد أتعرض لاعتداء جسديّ من طرف أهاليهم ولا أجد مُغيثاً في قرية لا مرفقاً صحياً بها، ولا سلطة.

مما عايشته أن التلاميذ غياباتهم كثيرة، غير مبرّرة، أياماً، أسبوعاً، أكثر في فصلي الخريف والربيع، رافقوا أهاليهم في مواسم زيارة الزاوية التجانية بتماسين، ما همّ تلك الأسر تأثير تلك الغيابات على أبنائهم من تأثير سلمي على تحصيلهم التربوي التعليمي؛ ما كان يهتمهم أكثر، وقد يخاصمون إدارة المدرسة من أجله، وجبة المطعم المدرسي لأبنائهم، نادراً أن يأتيك أحدهم، ويسأل عن تلمذ ابنه. كثيراً ما لاحظت التلاميذ يأتون إلى المدرسة وجيوبهم مملؤة بالكاوكاو، ولما استفسرتُ تبين لي أنّها بذورٌ أعطتها وزارة الفلاحة لأبنائهم بغية تجريبها في بساتينهم، حتى إذا ما نجحت التجربة تُعمّم في كل المنطقة، فضّلوا قلبها، وأكلها مع زوجاتهم، وأبنائهم. كان الفريق التربوي في ذلك الموسم الدراسي 72/71 تحت إدارة السيد خشانة محمد علي الذي غادر التعليم بعد ذلك، واستقرّ في مدينة ورقلة تاجرًا، ثمّ إلى الولايات المتحدة الأمريكية ملتحقاً بابنائه هناك؛ ثمّ في الموسم الموالي 73/72 تحت إدارة عيسى نصبة الذي غادر التعليم فيما بعد إلى العمل في مطار قمار موظفًا سامياً، أصرّ الفريق البيداغوجي التعليمي في كلتا السنتين على أن يتجنّد لتحقيق هدفين رئيسيين:

– أولاهما: نزع الخرافات، والتقاليد، والأفكار المُحِبطة، المُعيقة للحصول على المعرفة لدى المتعلّمين.

- ثانيهما: أداء الرسالة التعليمية بحِدٍّ، وبإخلاصٍ، وتعويد التلاميذ حبَّ التعلُّم، والحرص الذاتي على المطالعة، والارتباط بالكتاب. نجحنا في الهدف الأول إلى حدِّ ما، والهدف الثاني حققناه بنسبة متقدِّمة، حيث كانت نسبة النجاح في امتحان السنة السادسة مرتفعة، وأن التلاميذ المتفوقين استطاعوا مواصلة دراستهم فيما بعد بطريقة جيِّدة بالرغم من أنَّ المتوسطة في منطقتهم كانت غير موجودة، والفقر، ووسائل النقل قليلة؛ كما أنَّ التمدرس الثانوي إلا بمدينة قمار. تخرَّج من بين أولئك التلاميذ العديد من المعلمين والأساتذة، والإداريين الذين اشتغلوا في سنوات لاحقة بمنطقتهم.

**إلى مسقط الرأس:** بعد رحلات أرست بي في جزائرنا العزيزة، ومناطقها البهية بداية من موقع "سد بوناموسة"، أعالي جبال بني صالح، بلدية عصفور، فمدرسة علّالة عيسى، في مزرعة "الدوزيام"، بمحاذاة مطار عنابة، فتحولاً من الشمال البحري نحو الجنوب الشرقي، تحديداً بوادي ريغ في قرية سيدي خليل، ثم بلدة جامعة؛ حيث جنّات النخيل، والفضاء السحري، وزرقة السماء وصفافؤها، وحميمية الإنسان الصحراوي، المتماهي مع نفسه والآخر في عيش هنيئ، استقراراً بقرية هبة، ثمرة مشروع قسنطينة، "غواية" الثعلوب الجنرال دوقول.

ها هي رحلتي تلطّفتُ، فرست بي في مسقط رأسي، قمار البهية، تلبية لطلبي في حركة موظفي التربية سنة 1973م بورقلة. طبقاً لقرار السيد مدير التربية والثقافة والتكوين أحمد بن حبيلس مؤرخ في: 26 جوان 1973م تحت رقم 008647 / موظفين.

هذه المدرسة من أقدم المدارس في ربوع وادي سُوف أنجزتها السلطات الاستعمارية الفرنسية خصيصاً من أجل نشر اللغة الفرنسية في بلدة قمار،

وقمدرس أبناء الفرنسيين إنَّ وُجدوا، وأكثر لتعليم، وإعداد أبناء الجزائريين الموالين لها كي يكونوا أعضاء في الإدارة المحليّة، وكذا مترجمين بينها وبين الأهالي.

.. بوابة التعليم العصري الأولى في البلدة: فتحت المدرسة أبوابها يوم الإثنين 01 أكتوبر 1907م بمعلمين اثنين فقط، لا تزال المدرسة حتى أيامنا هذه تُعرف بمعلّمها الأول المتمثّل في الحجرتين الدراسيتين المنجزتين حينذاك بموادّ بناء محليّة "الجبس والحجارة"، إذ لا تزالان في حالة جيّدة، أخيرا اتُّخذت إحدى الحجرات منهما متحفا مدرسيا تاريخيا للمدرسة، والثانية مخصصة للتعليم التحضيري.

كانت المدرسة حتى ما بعد سنوات الاستقلال تُدعى "مدرسة الذكور" لأن إلى جنبها مدرسة "البنات" التي بنتها السلطات الفرنسية بعد ذلك، وفتحت أبوابها سنة 1948م، تُدعى حاليا "مدرسة الخنساء". سُمّيت مدرسة الذكور، ثمّ أُطلق عليها اسم الشهيد الكاتب "أحمد رضا حوحو".

المدرسة الكبرى الوحيدة في البلدة حتى عهد الاستقلال، حيث كان التعليم باللغة الفرنسية؛ فيما كانت مدرسة النجاح الحرّة تؤدي رسالتها التربوية التعليمية باللغة العربية، إضافةً إلى الكتابات التي تواجدت في أغلب مساجد القرية حينذاك. أغلب الهيئة التدريسية والإدارية كانت فرنسية حتى إلى السنوات الأولى من مرحلة الاستقلال.

سكّان البلدة بين رأيين: من السكان من استقبلها بالفرحة والإعجاب، فهرعوا إلى تسجيل أبنائهم بها، ومنهم من نظر إليها نظرة الحذر المرتاب، الخائف من أن تكون مهمتها الغير المعلنة: تنصير الأطفال" ..

أما الصنف الثاني وهو الأكثر غيرة على دينه، فكان يُرشي " شيوخ البلدة " كي يتغاضوا عن تسجيل أبنائهم في المدرسة؛ بل كانوا يضعون مسحوق الشّمة في عيون أبنائهم حتى ترفضهم المدرسة خوفا من مرض الرمد.

سنة 1962 كان عدد التلاميذ 486 منهم 16 بنتا . منذ فتحها حتى سنة 1973 تولى إدارتها السيد شايب علي، فثمانية مديرين فرنسيين . درّس بالمدرسة قبل الاستقلال 69 معلما ومعلمة منهم فقط 7 معلمين جزائريين .

لمّا حلّت بالمدرسة في بداية الموسم الدراسي 73 / 74م، وصل عدد التلاميذ بها 1106 من بينهم 90 تلميذة، أشرف على تعليمهم ما ناف عن العشرين معلّمًا ومعلمة، تحت إدارة المرحوم دحة عبد الرحمن الذي صار مفتشا للتعليم الابتدائي باللغة الفرنسية، ثم أدار المدرسة المرحوم حمّانة بشير، فالسيد سحّة بشير، أطال الله في عمره، والذي في عهده، وتحديدًا في بداية الموسم الدراسي 78 / 79م.

غادرت المدرسة والتحقّت بمركز تكوين المفتشين، وإدارة المعاهد التكنولوجية بغية التخرّج مفتشًا، ومديرا لتلك المعاهد. في كل السنوات الدراسية التي قضيتها بالمدرسة درّست سنوات السنة السادسة رفقة كوكبة من المعلمين المميّزين ذوي الكفاءة والخبرة.

شغفٌ . . بل هوسٌ وراء التربية والتعليم: بعد الاستقلال نتيجة جهود الفريق التربوي، والتصميم على طلب المعرفة من الأبناء والآباء، كانت هذه المدرسة محرّك التربية والتعليم؛ بل والتثقيف لما كانت تُضيفه من أنشطة ثقافية متعدّدة. العديد ممّن تدرّسوا بها قبل الاستقلال باللغة الفرنسية، وباللغة العربية في مدرسة

النجاح؛ ثم بعد الاستقلال باللغتين، وتأطير جزائري، تمكّنوا من تبويّ مناصب مرموقة في كل قطاعات دواليب الدولة الجزائرية الفتية.

تُعتبر مدرسة الذكور سابقاً "رضا حوحو" حالياً بمدينة قمار مدرسة رائدة، متميّزة، متفرّدة لا لكونها مدرسة قديمة من حيث إنشائها في سنة 1907م؛ بل لدورها الريادي مُدْ ذاك التاريخ إلى يوم الناس هذا. هذه المدرسة في الفترة الاستعمارية ما قبل الاستقلال قامت بدورها التعليمي بمعية مدرسة البنات المخاذية لها (1948م) تحت الإدارة الفرنسية بتطبيق المناهج، والبرامج الفرنسية، وبطبيعة الحال كلّ ذلك باللغة الفرنسية، إلى جانب مدرسة "النجاح" التي أسّسها العلامة الشيخ محمد الطاهر تليلي بمعية مجموعة من أعيان البلدة الذين آمنوا برسالة الإصلاح التي رفع لواءها المرحوم العلامة عمّار بن الأزعر، الذي هاجر سنة 1937 إلى المدينة المنورة فراراً من الاستعمار الفرنسي وأذنابه القماريين.

**مدرسة النجاح.. صرْحُ الهويّة الوطنية:** فتح الشيخ محمد الطاهر تليلي مدرسة النجاح في يوم 19 أكتوبر 1948م، وكان هو مديرها، والمعلّم بها إلى سنة 1963م<sup>1</sup>؛ ظاهرياً حتى لا يغلقها الاستعمار الفرنسي كانت المدرسة مستقلة، إنما كانت تابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين من حيث المناهج التعليمية، والبرامج المستمدّة من شعار الجمعية: الإسلام ديننا. العربية لغتنا. الجزائر وطننا. وظيفتها ترسيخ هويّة الأمة الجزائرية، سبق لي شخصياً أن اطلعتُ على أرشيف

---

1 - الشيخ محمد الطاهر التليلي. هذه حياتي. دار سامي للطباعة والنشر. ط 1 سنة 2017. ص 78

المدرسة: مناهج، برامج، طرق تدريس، توجيهات، قائمات أسماء التلاميذ، توجيهات، تعليمات داخلية، من الجمعية.

**تعددت مصادر المعرفة:** تلکم الثنائية بين مدرستي " الذكور " و " النجاح " أدت بسكان قمار إلى إرسال أبنائهم إلى المدرستين كي ينهلا المعرفة منهما، الفرق فقط في لغة التعليم. ولعلّ الذين لا يزالون على قيد الحياة يتذكرون أن العديد من التلاميذ حينها كانوا ينهلون المعرفة من ثلاثة مصادر:

الكتاب، مدرسة النجاح، مدرسة الذكور. ثم إن مدرسة الذكور منذ إنشائها تعلّم فيها أبناء مدينة قمار، وأبناء بلدة تغزوت، سيّما أبناء الأحياء المحاذية لقمار، والقريبة من المدرسة حتّى إلى عقد السبعينات من القرن العشرين.

**تنافس على زيادة التحصيل المعرفي:** من هذه المدرسة تعلّم الآلاف من التلاميذ، والمئات من التلميذات، ومن المدينتين انتقلوا إلى مستويات تعليمية، ومراكز تكوين. (الوثائق بالمؤسسة) تؤكد هذا.

كان لي الشرف الكبير أن عملتُ بهذه القلعة التربوية التعليمية مع أصدقاء بعضهم رحلوا، رحمهم الله، والبقية أحياء، أطال الله في أعمارهم، ورزقهم الصحة والسلامة مدرّسًا من موسم سنة 73 / 74م، حتى أكتوبر 1978م، ثم مشرفًا تربويًا (مفتشًا) عليها من سنة 1981م حتى سنة تقاعدي في أكتوبر 2001م. صلتي ما انقطعت بالمدرسة، كما أن صداقتي ممّن عملوا معي فيها صداقة عُمرٍ.

## 10. في رحاب علم النفس وعلوم التربية

بتلكم الندوات واللقاءات مع الزملاء، والتعامل بالكتب المدرسية، والاطّلاع على كتاب " برامج التعليم الابتدائي الصادر سنة 1964" الذي أصدرته لأول مرة وزارة التربية الوطنية الجزائرية، ما مكّني من بداية أخذ المبادرة. وزارة التربية الوطنية حرصت على الرفع من المستوى التكويني البيداغوجي للمعلمين الجدد بإقرار مجموعة من الإجراءات المتمثلة في:

1. الندوات التربوية المشار إليها سابقاً، امتدّت لنصف يوم كل أسبوعين.
2. لقاءات تكوينية بيداغوجية دورية امتدّت ليوم أو يومين.
3. أيام تكوينية تواصلت لثلاثة أيام.
4. ملتقيات تكوينية امتدّت لمُدّة أسبوعٍ أثناء العُطل المدرسية.
5. مجلات كان يرسلها المعهد التربوي من الجزائر ذات مضامين معرفية، وتربوية، هدفت إلى رفع المستوى المعرفي العام، والتكوين البيداغوجي التربوي، تحضيرا للامتحانات العامة كالأهلية، والبكالوريا، والمهنية كالترقية إلى رتبة معلم مساعد، فرتبة معلم مدرّس.
6. تلك الدروس التي تضمّنتها تلكم المجالات في شكل حلقات متسلسلة يومية في جريدة " الشعب اليومية " التي كانت قد عُرّبت في شهر ديسمبر 1962م.

.. **مربيًا لا موظفًا:** أن تكون مربيًا، ومعلمًا عليك أن لا تكون موظفًا إداريًا يتعامل مع الأوراق، أنت تتعامل مع الإنسان، الإنسان الصغير، تربية، صقلا، تكويننا، تعليمنا، إعدادًا للحياة، عنصرًا صالحًا لنفسه، لمجتمعه وفق قيم إنسانية راقية، تحترم الذات الإنسانية أينما تواجدت، تؤمن بالاختلاف الثقافي، الاجتماعي، الحضاري، العقائدي؛ إنسان متعاون مع الجميع. أن تؤدي رسالتك التربوية قبل التعليمية عليك أن تطلع على أقوال الأولين، والآخريين في علم النفس التربوي، وكذا قواعد التربية، وفنّ التدريس. من أهم ما تتميز به العملية التربوية " إنسانيتها "، موضوعها الأساسي هو الإنسان؛ ذلك أنها تتناول شخصيته بالنشئة، والتكوين، والصقل، والتطوير، والتقويم حتى يرتقي وبصير إنسانًا جديرًا بالقيام بواجبه الفردي والإنساني:

. الإنسان هو موضوع التربية . الإنسان هو هدف التربية والتعليم .

. التربية والتعليم يتغيان خيرية الإنسان وسعادته دنيا، وآخرة .

.. التربية؟ تعني كل أنواع النشاط الإنساني " الموجه " التي تؤثر في قوى الفرد،

واستعداداته فتُتمِّمها لإعداده لحياته المستقبلية فردًا متكاملًا لنفسه ومجتمعه .

.. التعليم؟ يعني نقل المعارف من المعلم إلى المتعلم؛ التربية شمولية؛ بينما التعليم

محدودٌ يتضمّن نقل المعرفة .

**الإسلام وحقّ الإنسان في التعليم:** موقف الإسلام من التعليم موقفٌ ثابتٌ،

حيث هو العامل الأول، والرئيس وراء انتقال العرب من الجاهلية، وبدائها إلى

المعرفة، ونشر حضارة الإسلام. العلم والتعليم في الإسلام ضرورة إنسانية ودينية واجبة استنادًا إلى ما جاء في القرآن الكريم:

- 1 . اَفْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اَفْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. (سورة العلق)
- 2 . الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ. (سورة الرحمن)
- 3 . ن . وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) (سورة القلم).
- 4 . شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. 18 (سورة آل عمران).

وفي السنة النبوية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

- فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي على أدناكم. (رواه الترمذي)
- إنَّ اللهَ وملائكته وأهل السموات والأرض حتى الثملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على مُعلِّمِ النَّاسِ الخَيْرِ). (رواه الترمذي)
- مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنِ الْمَلَائِكَةُ لَتَرْتَضِيهِ أَجْنَحَتِهَا رِضَاءً لَطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنِ الْعَالَمُ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحَيْتَانِ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ. إِنِ الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنِ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ. . سَيَأْتِيكُمْ أَقْوَامٌ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَقُولُوا لَهُمْ: مَرْحَبًا مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاقْنُوهُمْ. " اقْنُوهُمْ: عَلِّمُوهُمْ" (رواه ابن ماجه).

ابن خلدون رائد التربية والتعليم : العلامة، عالم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون كان سباقاً لوضع قواعد علمية وفنية لتعليم الأطفال، وتظهر معالم منهجه التربوي في الطريقة الناجعة التي رسمها في تعليم الناشئة، وفي تحديده للآداب والشروط الواجب توفرها في المعلم والمتعلم، فقد أكد صراحة أن عملية التعلم والتعليم طبيعية في العمران البشري<sup>1</sup>، فالإنسان متميز عن سائر خلق الله بالفكر الذي يهتدي به، فهو تواقٌ إلى تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات، فينشأ عن ذلك موقف تعلّمي. وتقوم عملية التعلم عادة على ثلاثة أعمدة: وهي المعلم، والمتعلم، والطريقة. وتتحقق الأهداف التربوية والتعليمية بمقدار ما يتوفر لهذا الموقف التعليمي من شروط ذلك أن التعلم عموماً هو "اكتساب العلوم واجتلابها إلى القلب"<sup>2</sup>. قال ابن خلدون: «اعلم أن العلوم البشرية خزانتها النفس الإنسانية بما جعل الله فيها من الإدراك الذي يفيدها ذلك الفكر المحصل لها التصور للحقائق أولاً، ثم بإثبات العوارض الذاتية لها أو نفيها عنها ثانياً...»<sup>3</sup>

- «وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا، يجهلون طرق التعليم، وإفاداته ويجضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقلدة من العلم، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه

---

1 - أ. عبد الأمير شمس الدين، الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرقي، دار اقرأ، بيروت 1984، ص

.79

2 - أبو حامد الغزالي، الإحياء طبعة عيسى البابي الحلبي، ج 3، القاهرة، 1957 ص21.

3 - العلامة بن خلدون، المقدمة، ج 1، دار الجبل، بيروت، ص 428.

ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها.<sup>1</sup>

- "وذلك أن إرهاف الحد بالتعليم مُضِرٌّ بالمتعلم سيما في أصغر الولد لأنه من سوء الملكة ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو الممالك أو الخدم سطا به القهر وضيق عن النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة.."<sup>2</sup>

- وهذا كما فعله المتأخرون في صناعة النحو... لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها نقلا واستدلالا، وأكثروا من التفاريع، والمسائل بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها مقصودة لذاتها. وربما يقع فيها لذلك أنظار ومسائل لا حاجة بها في العلوم المقصودة بالذات، فتكون لأجل ذلك من نوع اللغو، وهي مضرّة أيضا بالمتعلمين على الإطلاق"<sup>3</sup>

"روسو" .. التربية تُستمدُّ من "الطبيعة": يعتبر روسو واحدا من بين فلاسفة عصر الأنوار، وبكونه فيلسوفا، فقد انخرط في قضايا مجتمعه، بحيث ساهم في نقد الأوضاع السياسية والاجتماعية والتربوية التي كانت سائدة آنذاك، وقدم مشروعه السياسي، التربوي بديلا لتلك الأوضاع، لأن الغاية من مشروعه هذا هو تحقيق الحرية في النهاية وتخليص الإنسان من العبودية.

---

1 - العلامة عبد الرحمن بن خلدون. المقدمة، ج 1، دار الجيل، بيروت، ص 589.

2 - المقدمة، ص 597.

3 - المقدمة ص 700

«.. يرى روسو أن الطفل لا يجب أن تفرض عليه قيود منذ حدوثه، لكونه حين يولد يكون بحاجة إلى مد أطرافه وتحريكها، كي يطرح عنه ما ركبه من الانقباض والتجمع الطويل في أحشاء أمه، إذن علينا أن نُحوّل بينه وبين الحركة داخل القمط، وهكذا تكون الحرية حقًا طبيعيًا قبل أن تكون حقًا مدنيًا للإنسان.»

. «التربية تأتي من الطبيعة أو من الناس، أو من الأشياء، فنمو وظائفنا وجوارحنا الداخلية، ذلكم هي التربية الطبيعية، وما نتعلم من الإفادة من ذلك النمو، ذلكم هو تربية الناس وما نكتسبه بخبرتنا عن الأشياء التي نتأثر بها، فذلكم هو تربية الأشياء".<sup>1</sup> ومن خلال ذكر روسو لتربية الأشياء فإنه قسم التربية إلى ثلاثة ضروب "ومن بين ضروب التربية الثلاثة، نلقى تربية الطبيعة خارجة عن إرادتنا، وأما تربية الأشياء فلا تتدخل تحت تربية سلطاننا إلا بمقدار، وأما تربية الناس فتلك دون سواها مطبوعة بنا بحق، بيد أننا لسنا مسيطرين عليها إلا افتراضًا، فمن ذا الذي يتناول فيطمع أن يهيمن الهيمنة جملها على أقوال كل من يحيطون بالطفل وأفعالهم"<sup>2</sup>

من هنا يبين روسو أن فعل التربية، يتداخل فيه ما هو إنساني، وما هو طبيعي، وما هو شئني، أي أن لكل ضرب حدوده بحيث أن التربية الطبيعية خارجة عن سيطرة الإنسان، إذ هي خاضعة لشروط بيولوجية وفيزيولوجية؛ بينما فعل الإنسان في التربية يمنح له هامشًا من الحرية للتربية، وتدجين وإدماج الفرد؛

---

1 - جان جاك روسو: إميل، ترجمة الدكتور نظمي لوقا، دار النشر، الشركة العامة للطباعة والنشر، الطبعة

1، 1958، ص26.

2 - المرجع السابق. ص 26

أما تربية الأشياء، فهي مزيج بين الخبرات التي نكتسبها في ممارسة فعل التربية، ومعايشتنا للأشياء.

**العلم قبل العمل:** في العصر الحديث كان للمرحوم العلامة عبد الحميد بن باديس آراء قيّمة في طرق التربية والتعليم:

«العلم قبل العمل ومن دخل العمل بغير علم، لا يأمن على نفسه من الضلال»<sup>1</sup>، وقال أيضا: «لن يصلح المسلمون إلا إذا صلح علماءهم، لأنهم بمثابة القلب للأمة، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم.»

إن الشيخ يرى أن من أهداف التربية، كمال الحياة الفردية والاجتماعية، وبالتالي بناء الشخصية المتكاملة، التي تنبني على الجوانب الأخلاقية والعقلية والعملية والعضوية، وهذا ما أنتجته النظريات التربوية الحديثة بعد تعب وجهد، ومخاطر تُصرف عليها الأموال الطائلة، ويوضح الشيخ في موضع آخر ما المقصود بالكمال الإنساني؟: «إن الكمال الإنساني متوقف على قوة العلم، وقوة الإرادة، وقوة العمل، فهي أسس الخلق الكريم والسلوك الحميد»<sup>2</sup>

إنّ حياة الأفراد والأمم الناجحة مبنية ومتوقفة على الإرادة والفكر والعمل، ولا شك أن مسلوب الإرادة غير مكلفين شرعا ورفعت عنهم الأقالم، فهم عالة على غيرهم ولا يُرتجى منهم أي أمر، أما المُقلِّدون والمُعطلون لقدراتهم العقلية تحت أي داع سواء ديني كالتسليم لأهل الفتيا المزيفين!! أو الماديين الذين

---

1 - عبد الحميد بن باديس. كتاب آثار الإمام. ص 104

2 - العلامة عبد الحميد بن باديس. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير وهو المعروف بتفسير ابن باديس. تفسير سورة الإسراء آية 84 - 85.

ينساقون وراء نزوات الرّبح والشهوات، أما الذين لا همّة لهم في تحقيق أحلامهم بالعمل الصّالح فلا مكان لهم في المجتمع الفعّال الصّالح. وأضاف قائلاً: «وحياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها مبنية على هذه الأركان الثلاثة: الإرادة، والفكر، والعمل، وهي متوقفة بدورها على ثلاثة أخرى لا بد للإنسان منها البدن والعقل والخلق» (تفسير آية 62 من سورة الفرقان)، ويكمل الشرح لهذه الأصول التربوية في إسهاب ودقة نظر المنظر المرّبي مرتقياً بالمرّبي المخاطب سواء كان سامعاً أو قارئاً إلى مراتب التطبيق في يسر وسهولة العبارة قائلاً:

«... فالعمل متوقف على البدن، والفكر متوقف على العقل، والإرادة متوقفة على الخلق، فالتفكير الصّحيح والإرادة القوية من الخلق المتين، والعمل المفيد من البدن السليم؛ فلهذا كان الإنسان مأموراً بالحفاظة على هذه الثلاثة: عقله وقلبه ودينه، ودفع المضار عنها، فيثقف عقله بالعلم، ويقوم أخلاقه بالسلوك النبوي، ويقوي بدنه بتنظيم الغذاء، وتوقّي الأذى، والتريّض على العمل». كما أوصى رحمه الله المعلمين: «على المرّبين لأبنائنا وبناتنا، أن يعلموهم ويعلموئهن هذه الحقائق الشرعية ليتزودوا ولتزدون بها، وبما يطبعوئهم ويطبعوئهن عليه من التربية الإسلامية العالية لميادين الحياة»<sup>1</sup>. يقول المرّحوم الأستاذ محمد الصّالح بن عتيق، عن طريقة ابن باديس في التدريس:

«وأما الطريقة الحديثة عنده فتعتمد على الحوار بينه وبين التلاميذ، والمشاركة في دراسة النصوص، وتوجيه الأسئلة المفاجئة لهم من وسائل الدرس، وبذلك يجعل التلميذ في تنبّه ويقظة، وكثيراً ما يلاحظ الأستاذ غفلة أحدهم فيوجه له السؤال،

---

1 - مجلة ج 1م13 الشهاب. ص 5-8-1352-1937م.

فيرتباك، ويخجل؛ حيث لم يستطع الجواب، فيقول له الأستاذ: كنْ معنا يا بني؛ وبهذا الأسلوب الحكيم يضمن فُهم التلاميذ للدرس، وهي طريقة كاد ينفرد بها، فلم نعرف لغيره من الأساتذة من نَحَج هذا المنهج في زمنه...»<sup>1</sup>

**المدرسة تنوب عن الأسرة:** إن المدرسة بصفتها مؤسسة اجتماعية أقامها المجتمع كي تنوب عنه في تربية وتعليم أبنائها وفق طرق علمية، وأساليب فنية قد تجهلها الأسرة، يقوم بها رجال متخصصون، ونساء متخصصات للقيام بهذه الوظيفة الإنسانية الراقية، المدرسة وفق هذا المنظور تقوم بـ:

**1.** إكساب التلاميذ والتلميذات صفاتهم المجتمعية.

**2.** تزويدهم بالمعارف، والمهارات الضرورية للاندماج في مجتمعهم، وأداء عمل، ووظيفة، حرفة ما.

**3.** تنمية المعارف العامة وتنميتها، وفق البيئة المحلية، والوطنية والعالمية

**4.** إكسابهم سلوكات إنسانية راقية تتوافق مع قيم مجتمعهم، ودينهم الإسلامي الحنيف، تؤمن بالعيش المشترك، والتسامح، والتعاون، والحرية.

**5.** نقلُ القيم الثقافية، الاجتماعية المُتفق على قبولها من المجتمع.

**التعليم جزءٌ من التربية الشاملة:** إن التعليم هو جزءٌ من النسق الاجتماعي العام؛ ممَّا يستلزم أن يخدم كلَّ أفراد المجتمع كحقِّ إنسانيٍّ؛ كما أنَّ للتعليم وظائف رئيسة منها: العمل على استمرارية الحياة الاجتماعية، إذ أنه يزوّد مختلف أفراد المجتمع برموز، وقيم، وثوابت لصهرهم في بوتقة موحّدة بنسبة كبيرة مقبولة ترتبط

---

1 - أ. محمد الصالح بن عتيق. أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية، والحركة الوطنية في الجزائر.

ص 74. منشورات دحلِب بالجزائر.

بالوطن الواحد، وتؤدي مواظبتها بقناعة وتضحية. إنَّ التعليم هو أفضل الإجراءات الإنسانية الراقية، وترسيخ قيم موحّدة، بين مختلف أفراد، وجماعات المجتمع الواحد، والوطن الواحد. هذا الرّخم من المعارف المتعدّدة من الشرق والغرب، من العلماء المسلمين، والغربيين وهم كُثُرٌ انطلقا من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية فيما يخصّ التعامل مع التلاميذ، وتربيتهم، وتعليمهم، وإكسابهم قيم مجتمعتهم، وإعدادهم للحياة تلقّفتُ القليل منه في تلكم الندوات التربوية، واللقاءات البيداغوجية، والتربصات الدورية التكوينية التي كانت أغلبها تستهدف مدنا بالطرق التدريسية، والتعامل معهم في تدريسهم موادّ التعليم التي كانت في مرحلة التعليم الابتدائي تنيف عن العشر موادّ تعليمية، عكس التعليم في مرحلة التعليم المتوسط، فالأستاذ تخصّص في مادة واحدة كالرياضيات، أو مواد اللغة العربية، أو العلوم الطبيعية، أو التربية التكنولوجية، أو الرسم، أو الرياضة البدنية.

**معلم الابتدائي . . موسوعة معارف بقوة القانون: معلم الابتدائي "المسكين"**  
معلّم كل المواد: تربية إسلامية، رياضيات، تربية تكنولوجية، تربية مدنية، رسم، أناشيد. مواد اللغة العربية: قراءة، تعبير شفوي، تعبير كتابي، قواعد نحوية، قواعد صرفية، إملاء، محفوظات. كان عليّ حتى أكتسب خبراتٍ، ومهارات تدريسية فعالة أن أنوع مصادر المعرفة في مجالات ثلاث: علم النفس العام، علم النفس التربوي، التربية التطبيقية.

**1 - كي أتمكّن من التحكّم في فنيات التدريس، وتحقيق نتائج جيدة لدى المتعلمين الذين أشرف على تربيتهم، وتعليمهم.**

**2 -** أصل إلى مستوى معرفي ثقافي مقبول في الثقافة العامة، وفي علم نفس الطفل، والتربية العامة، والبيداغوجية التطبيقية تؤهلني للمشاركة في الامتحانات المهنية التدريسية، والترسيم وصولاً إلى رتبة مدرّس، الرتبة الأخيرة المميّزة للتدريس في مرحلة التعليم الابتدائي.

لا أزال أتذكّر الكتب التي استهلّتها بها إبحاري في مجال علم النفس العام، وعلم النفس التربويّ، وعلوم التربية العامة والتطبيقية، وطرق التدريس:

- أسس علم النفس لعبد الستار إبراهيم. - أسس الصحة النفسية لعبد العزيز القوصي. - أساسيات علم النفس التربوي لحمد فرحات القضاة. - نظريات التعلم للدهري صالح حسن أحمد. - التربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام لأنور الجندي. - التربية وطرق التدريس لروبير دو ترانس. - أضواء على التربية والتدريس لعبد الرحمن بن اللونة. - التربية العملية وطرق التدريس لإبراهيم عصمت مطاوع. - الموجه الفتيّ لمدرسي اللغة العربية. أعرف نفسيك. للمرحوم السوري فاخر عاقل. إضافة إلى المناهج والبرامج التي أرسلتها وزارة التربية في شكل توجيهات، وتعليمات، أو تأتي في كتاب لكل سنوات التعليم الابتدائي.

لما انتقلت من عناية إلى سيدي خليل بوادي ربيغ كانت رتبتي " معلّمًا مساعدًا متربصًا"، متربص تعني أني غير مرسمٍ ممّا جعلني غير آمنٍ على وجودي في سلك التعليم فقد يُستغنى عني، عليّ أن أسعى للترسيم بالتحضير لامتحان مهنيّ، أُطلق عليه حينذاك "الشهادة العليا لأهلية التعليم الابتدائي BREVET. SUPERIEUR. DE CAPACITE"، تتكون هذه الشهادة من جزأين:

**1 . الجزء الأول في الثقافة العامة:** اجتزته بتاريخ **28 ماي 1968م** بمدينة تقرت، النجاح فيه يُسمح للنجاح باجتياز الجزء الثاني في السنة الموالية. أتذكّر أني

حضرت لهذا الامتحان طوال السنة الدراسية 67/ 68 بسيدي خليل في ظروف، وإن كانت تفتقر إلى الحياة العصرية المريحة ؛ إلا أن العزلة وهدوء المنطقة، وبساطة الحياة مكنتني من التحضير المركز مما مكّني من النجاح بتفوق، إذ كنت الناجح الوحيد في تلك السنة في المنطقة. الطريف أني قضيت عطلة الصيف كلها أحضر للامتحان مع الصديق لشلح عبد الحميد أمد الله في عمره بمنزلهم العائلي، بذلنا جهودا كبيرة، وضحينا بالوقت، والمال، والراحة ولما انتهت العطلة، اتصلت بمفتشية التعليم الابتدائي في مدينة تقرت، والتقيت بالمرحوم المفتش باسة موسى مُستوضحًا عن نتائج الامتحان. سألني بدوره:

. أما سمعت بالنتائج؟

. لا.. ما سمعتُ.

. إنك الوحيد الناجح في الدورة.

أذكرُ أن أحد المعلمين رحمه الله، من مسقط رأسي سبق أن درس في جامع الزيتونة قبل الثورة، ثم شارك فيها جنديا على الحدود التونسية الجزائرية؛ لما التقينا صبيحة يوم الامتحان في المركز بمدرسة البنات بتقرت، وهو القادم من قمار، وأنا القادم من سيدي خليل، بعد التحية نظر إلي متعجبًا، متسائلا عن وجودي، أجبته بأن سبب وجودي هو سبب وجودك، قال لي بكبرٍ واستعلاء:

. أنت تشارك في امتحان كهذا؟ يا عجب العُجاب!!

**عطلة صيفية في ضيافة أساطين الفكر:** لم أندم على ما بذلته في عطلة الصيف مع صديقي عبد الحميد لشلح، حيث كان تدعيماً، وترسيخاً لما تضمّنه برنامج هذا الجزء من الشهادة. ممّا لا زلت أذكره أن البرنامج كان مكثفًا:

1. حديث الأربعاء بأجزائه الثلاثة لطفه حسين.

2. ساعاتُ بين الكُتُب لعباس محمود العقّاد.
3. الأيام لطفه حسين.
4. ديوان حافظ إبراهيم.
5. ديوان " الشوقيات " لأحمد شوقي.
6. ديوان محمد العيد آل خليفة.
7. البؤساء لفكتور هيقو.
8. أوديسة هوميروس. ملحمة شعرية إغريقية. وضعها الشاعر الإغريقي هوميروس في القرن 8 قبل الميلاد.
9. مقامات الهمذاني.
10. البخلاء للجاحظ.

أوديسة هوميروس...: تحصّلتُ على هذه المراجع بصعوبة كبيرة، تنقلتُ إلى الجزائر العاصمة ومدينة عنابة بحثًا عنها، وشراءً. ممّا أذكره أن أوديسة هوميروس ما عثرتُ عليها في أي مكتبة، ولا عند الأصدقاء. وجدتها بالمكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة، أقمتُ في فندق من أجلها ثلاثة أيام بلياليها. اشتركت في المكتبة، اقتنيت كتاب الأوديسة، وانكبتُ على نقله في كراسة 288 صفحة، ثم عدت مواصلاً تحضير الامتحان.

**2- الجزء الثاني في: علم النفس، وعلوم التربية، وتعليمية المواد، وتحسين الخبرة التدريسية من خلال دراسة علم النفس، وخاصة علم نفس الطفل لما له من علاقة في التعرف على الأطفال، ومراحلهم العمرية، وخصائص كل مرحلة: الجسدية، النمو الحسي، الحركي، الإدراكي، حتى أعرف ما يلزم كل مرحلة من معلومات، وتعاملات مع المتعلم. أيضا التعمق أكثر في فنيات التدريس، وطُرق**

تدريس كل مادة تعليمية، وكيفية تدعيم الطرق بأدوات، ووسائل تعليمية مدعمة. ومن الكتب التي استفدت منها في تحضيرى لهذا الجزء الثانى:

- التربية العملية والتطبيقية لأحمد عضاضة. - أصول التربية وتطبيقاتها في دور المعلمين والمعلمات، إصدار جامعة دمشق. - مهارات القراءة للدكتور حسنى عيد الوهاب. - كيف تلقى درساً، دار التربية الحديثة بدمشق. - تقييم التعليم أسسه، وتطبيقاته. دار العلم للملايين ببيروت. - سلوك التدريس للدكتور محمد أمين. - المدخل إلى التربية والتعليم، الجامعة الأردنية. - نحو مدارس أفضل لكيمهول ولز. - محاضرات في التحليل النفسى لسجيموند فرويد. - فن الإقناع ليونيل روي. - علم النفس التربوي لمجموعة من المؤلفين.

**مدرّس متربّص:** اجتزتُ هذا الامتحان بتاريخ 05 اجوان 1969م بمدينة تقرت، بهذين الامتحانين ترقّيت إلى منصب مدرّس متربّص. في شهر ديسمبر 1969م خضعتُ إلى امتحان تطبيقي من طرف لجنة مكوّنة من المرحوم كينة الجيلاني أتاب عن المفتش، والسيد إبراهيم الخطيب (فلسطيني)، مستشار تربوي، ومعلم آخر غاب عني اسمه، طبقتُ أمامهم درسا في اللغة العربية، درسا آخر في الحساب، درسا في الأناشيد، وأجبتُ عن أسئلة خاصة بالتشريع المدرسي. أعلنت اللجنة بعد الاستشارة نجاحي في شهادة الكفاءة التربوية. C. A. P، بذلك صرّتُ مدرّسا مرّسما باللغة العربية في التعليم الابتدائي.

## 11- تجليات المعرفة

في سيرورة حياتنا قد نلتقي بأفراد قد يُسيؤون إلينا دون شعورٍ منهم، وقد تكون إساءتهم متعمّدة للئيل منّا، أو بعث الإحباط فينا؛ إنما لا يدرون أنهم قدموا لنا خدمات جليّة بأن حفّزونا على المُضيّ قدماً نحو مآرب ما كنّا نعطيها أهميّة، أو ربّما ليست في الصّدارة لدينا؛ وهذا ما حصل لي مع المرحوم العوامر الجليلاني المستشار التربوي المُكلّف حينذاك بتكوين المعلمين (الممرّتين) الجدد، وكما أسلفتُ، وأنا واحدٌ منهم في الموسم الدراسي 65/64م، كما أشرتُ سابقاً لما رفعتُ يدي بغية المشاركة في نقاش أعقب تطبيق درسٍ أدّاه أحدُ المعلمين القدماء، طعني المستشار في الصميم لَمّا خاطبني:

. اصمتْ أنت، لا تزال جديداً، ليس لك الخبرة في نقاش كهذا.

**مدرسة صال بوج .. خطواتٌ أولى:** كان عليّ أن أردّ على تلك الإهانة التي أساءت إليّ نفسياً، ومعنويًا أمام زملائي، بقدر ما أساءت إليهم طالما أنهم في نفس وضعيتي. منذ صانفة تلك السنة 1965م، وقد استقررتُ في مدينة عنابة، إثر تعييني في مدرسة علّالة عيسى بمحاذاة المطار، أن انتسبتُ إلى مدرسة حرّة تدعى " صال بوج" لصاحبها الحاج سي عمّار، كانت تقع في الساحة المؤدية إلى حي لاكولون الواقعة جانب الحديقة العمومية بالمدينة. وجدتُ نفسي مع الكثير

من المتدريسين: معلمين، طلبة، موظفين في فصول ذات مستويات مختلفة من السنة الأولى متوسط، إلى السنة الثالثة الثانوية، وقد سرتني أن وجدت معلمين من مسقط رأسي سبقوني في هذه المدرسة، منهم: السيد نيس علي، أمد الله في عمره، المرحوم عزوم بشير، المرحوم زايذ الصادق، إضافة إلى معلمين آخرين من المدينة ممن تعرفت عليهم، كانوا يعملون في مدارس المدينة، مقابل 10.000 سنتيم للشهر، قيمة مالية معتبرة بالنسبة لمعلم مبتدئ كان يتقاضى 51000 سنتيم.

درّس بالمدرسة معلمون مشاركة أكفاء أغلبهم من الشقيقة سوريا، في مواد اللغة العربية وآدابها، الرياضيات، الفيزياء، الكيمياء، واللغة الفرنسية يدرّسها معلمون جزائريون. اكتفيتُ بدروس المشاركة الذين ربطنا معهم صداقات، فأخلصوا العمل معنا، انكببتُ كغيري على التبحر في علوم اللغة العربية، وقواعدها، وبلاغتها، وآدابها من شعر، ونثر، كما وجدتُ نفسي أتبحر في المعادلات الرياضية والفيزيائية، والكيميائية؛ كما تعرفت على الكنوز المعرفية للعلماء العرب والمسلمين الرواد، والغريين، وإن كانت ذاكرتي نسيت أولئك الأساتذة المشاركة؛ فإني أتذكر شكل كل أستاذ، وكيفية وقوفه أمام السبورة، وطريقة مخاطبته لنا التي تنم عن احترام، وتقدير بقوله لنا: "يا إخوان". كان الأستاذ يوظف كل دقيقة في تقديم معلومة، أو شرح أخرى، أو إشراكنا في إنجاز تمرين جماعي. ومما استفدته منهم، وأفدتُ به المعلمين فيما بعد وأنا في سلك التفتيش "جمالية الخط النسخي، الخط الرقعي"، وكذا منهم الهدوء، والحميمية،

والبسمة المستمرة، وعدم التوتر حتى في حالة ما استعصى علينا الفهم في موضوع ما، أو معلومة رياضية، فيزيائية، كيميائية.

**الشعور بالحرمان . . حافظنا:** تأكيداً أنّ ما كان يحفزنا على النهل من شتى العلوم شعورنا بالحرمان من التعليم النظامي في طفولتنا، وشبابنا، كما إيماننا الوطني بأن العلم هو المنقذ الوحيد لبلدنا من التخلف والجهل، كما حاجتنا نحن إلى مستوى علمي راقٍ يساعدنا على الارتقاء إلى رتب أعلى في المهنة، والحصول على ثقافة عامة تفتح أعيننا على العصر الذي نعيشه، وتربطنا بجذورنا، وترسخ هويتنا. أرشدنا الأساتذة إلى أهم الكتب التي ساعدتنا في التحصيل، وتدعيم ما يقدمونه لنا. خلت عهدها المكتبات من الكتب العلمية في الرياضيات، الفيزياء، الكيمياء؛ ما عدا الكتب العلمية اللبنانية، والمغربية، كما الكتب اللغوية والأدبية المصرية. كانت علاقتنا جيدة جداً بسي عمّار مدير المدرسة الذي حرص على توفير أحسن الأساتذة لنا، والصبر علينا في حالة قصورنا عن الدفع إذا ما تأخرت المرتبات من الجزائر العاصمة.

**مكتبة كبرى عامرة:** ممّا أتذكره أنّ الهيئة العامّة المصرية للكتاب نصّبت مكتبات تجارية كبيرة في المدن الكبيرة الجزائرية كالجزائر العاصمة، وهران، قسنطينة، عنابة. كانت مكتبة عنابة تقع وراء المسرح الوطني، مكتبة كبيرة ذات مساحة واسعة، رُتبت فيها الكتب وفق مواضيع، منها ما هي ذات حجم كبير، ومنها ما هو بحجم متوسط، ومنها كتب الجيب. كتب جميعها ذات طبعات شعبية، أسعارها منخفضة جداً في متناول الجميع. كان الإقبال عليها كبيراً، لا

غزو أن يدخل الزبون، ثم يخرج محتضناً " كرطونة" كُتِب من معارف مختلفة؛ وهذا ما حصل لي في كل مرّة أدخل هذه المكتبة. من الكتب التي لا تزال لدي على سبيل المثال في مكتبي كتاب " تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات"، ومجلة " الرسالة" للمرحوم نفسه، كنت أبتاعها من أكشاك المدينة بساحة الثورة " الكور سابقاً. ساعات بين الكتب للعقاد.

**بصيص أمل؛** امتدّت عمالة عناية في ذلك التاريخ جنوباً حتى " النقرين" ضمتّ: تبسة، سوق أهراس، قالمة، عنابة، مارست أكاديمية التربية والتعليم بعناية صلاحياتها في هذه المناطق، بما في ذلك الامتحانات المدرسية التي كانت منها شهادة الأهلية التي نظمتها في شهر أكتوبر 1966م، وقد شاركت فيها، كنت واحداً من الستّة الناجحين، والحمد لله. بعد افتتاح الموسم الدراسي 67/66م، وانطلاق السنة الدراسية الجديدة بدأنا عمليات التكوين التي أشرف عليها كالعادة المستشار التربوي العوامر الجيلاني، ومنها الندوات التربوية التي كانت أولها في شهر نوفمبر. مداخلة للمستشار في علوم التربية، فموضوع للتشريع المدرسي، ثم درس تطبيقي في مادة تعليمية قدّمه معلّم قديم، كالعادة فُتح النقاش، كنتُ أول من رفع يده، واجهني المستشار بنفس التصرف؛ فلقمته مباشرة:

- ما عدتُ ممرّناً أستاذ، أنا الآن معلم مساعد. قد نجحتُ في شهادة الأهلية في دورة أكتوبر لهذه السنة.

تعالَت أصوات المعلمين مباركة مُهنّئة. وجم المستشار، بُهت الذي تعالی تغطرسًا. علاقته كانت عادية مع باقي المعلمين؛ وكانت جيّدة مع بني منطقتة " سُوف". معي كانت فاترة، حتى مغادرتي عنابة. رحمه الله وغفر له.

مدرّسٌ مرسمٌ.. وما زال.. ما زال: كان دافعًا لي ومحفّزًا على تجاوز ذاتي، وممارسة التحديّ الهادف، الهادئ. بعد حصولي كما سبق على شهادة **BREVET. SUPERIEUR. DE CAPACITE**، وصعودي إلى رتبة مدرّس "معلّم"، تاقَت نفسي إلى رتَبٍ أخرى أعلى، فكانت وجهتي شهادة البكالوريا طالما أن التحضير لها سبقه استيعابٌ معمّقٌ لبرنامج الشهادة السابقة؛ كما استيعابٌ لشهادة الأهلية، إضافة إلى المطالعات الخاصة للعديد من الكتب المختلفة في مجالات المعرفة.

إضاءة أخرى في الدّرب: في شهر أكتوبر 1971م، وجمت طلب الانتساب إلى المركز الوطني للتعليم المعتمّم بالجزائر العاصمة، الواقع مقرّه في أعالي القصبة، مرفقًا بنسخة من الشهادة السابقة، ونسخة من شهادة الأهلية، تركت الأمر لإدارة المركز في تحديد السنة الدراسية؛ سرعان ما جاءني الردُّ بالموافقة، وإدراجي في السنة الثالثة ثانوي، شعبة آداب وفلسفة. كانت المراسلة مرفقة بتوجيهات، وإرشادات علمية بيداغوجية، وقائمة بعناوين الكتب التي يجب أن أقتنيها حتى تمكّني من التحضير، وتوسيع معارفي. أرفقت المراسلة ببرنامج كل مادة: 1- اللغة العربية وآدابها. 2- الفلسفة 3- تاريخ وجغرافيا. 4- العلوم الإسلامية.. 5- اللغة الفرنسية. 6- اللغة الإنكليزية.

كما كانت مرفقة بمجموعة دروس لكل مادة تغطي أسابيع الشهر الواحد، وكلّ درسٍ مُدبّل بمجموعة تمارين، لا بدّ من الإجابة عنها كلها؛ ثم إرسال كل التمارين مرتبة حسب كل مادة، على أن تُعاد في إرسالية واحدة في الأسبوع من الشهر الموالي إلى المركز. كانت فرحتي كبيرة حينها، وتفاجأت بتحدّي جديد أمامي من جهة، ومنتعة مواجهة هذا التحديّ باقتحامي مجالات معرفية واسعة حُرمتُ منها، والفرصة سُنحت أمامي كي أروي ظمئي، وأُشبع جوعي.

**صديقٌ رحل .. استقرّي الذاكرة:** حينذاك كنتُ أستاذًا في متوسطة التعليم الفلاحي بمدينة جامعة، وكان مديري المرحوم يتيم التومي، أصيل مدينة كوينين. كان مثقفًا ثقافة واسعة، وأتقن اللغتين العربية والفرنسية، كان مستواه في اللغة الفرنسية أقوى؛ لأنه درسها في المدرسة الفرنسية دراسة نظامية، على يد أساتذة فرنسيين. كانت علاقتي به جيّدة جدا رحمه الله، وكان جاريًا لي في السكن؛ اتفقتُ وإياه أن نشارك في شهادة البكالوريا دورة اجوان 1972م، على أن نُحضر لامتحانها معًا في جلسات يومية مسائية بعد ساعات العمل، وصباحية أيام العطل إن كنتُ موجودًا في جامعة؛ لأنني كنتُ أزور بلدي قمار مرّة في الشهر. المرحوم درس حتى نهاية مرحلة التعليم الثانوي، فهو لا يحتاج الانتساب إلى مركز التعليم المعمّم مثلي، وضعنا رزنامة يومية صارمة، التزمنا بها: يوم للأدب العربي، يومٌ للفلسفة، يومٌ للتاريخ والجغرافية، جزءٌ من يومٍ للغة الفرنسية مساعدة لي أنا فيها. الجزء الثاني للإنجليزية لكلينا. برنامج الفلسفة خصّص حيزًا كبيرًا للفلسفة العربية الإسلامية. ما خصّصنا يومًا للعلوم الإسلامية، لأنّ المرحوم كان متشبعًا بالفكر

الماركسي الاشتراكي؛ ما عايشه، وما كان رآه من ردّة في العالم العربي الإسلامي، وما تجرّعه من مرارة نتيجة الهزائم العربية سيّما الاعتداء الفرنسي، الإنكليزي، الصهيوني على قناة السويس، ونكسة اجوان 1967م التي خسر فيها العرب الجولان، الضفّة الغربية، سيناء ثم إحباط انتصارات العبور 1973م، جعلته حزينا؛ حيث اقتنع حسب رؤاه أنّ أمة بمثل هذه الهزائم، هي أمة " قول "، لا أمة " فعل "، وأنّ العالم الإسلاميّ كله بما فيه العرب مجتمعون هو "نمرٌ من ورقٍ". كان رحمه الله منبهراً بالنموذج الصيني، وبما حقّقه على يد قائده " ماوتسي تونغ". احترمتُ قناعته، ودرستُ العلوم الإسلامية وحدي.

من الكتب التي درسناها، وتعمّقنا فيها، ووقعت بيننا نقاشات عديدة عن مضامينها: تاريخ الأدب العربي للمرحوم المصري حسن الزيات . كتاب تاريخ الأدب العربي للمرحوم حنا الفاخوري . تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية للمرحوم عبده الشّمالي، هذا الكتاب اختلفنا كثيرا على ما جاء فيه، إذ قلّل من الدور الذي قام به العرب في مسار " الفلسفة" عبّر التاريخ . أيضا كتاب المرحوم توفيق المدني: " هذه هي الجزائر" كان المرحوم يتيم التومي عقلائيًا، لا مجال لديه للعاطفة البتّة. أن تجد نفسك مع هنري ميد في كتابه: الفلسفة، أنواعها ومشكلاتها. كتُبَ قيمة تعمّقنا فيها. أبحرنا في مواضيعها، اختلفنا، واتفقنا؛ إنما من مُتعتها نسينا أحيانا أننا نحضّر لامتحان شهادة البكالوريا. أن ترافق المرحوم الكاتب القدير الأديب، الإعلامي صاحب مجلة " الرسالة "، المجلة الثقافية الأدبية الرائدة، الشهيرة أحمد حسن الزيات في كتابه القيم، تاريخ الأدب العربي، متعة كبيرة:

**1 - الباب الأول، العصر الجاهلي:** نشأة اللغة العربية. أطوار تهذيب اللغة العربية. **2 الباب الثاني، الأدب في عصر صدر الإسلام والدولة الأموية. 3 .** مصادر الأدب الإسلامي: القرآن الكريم، الحديث النبوي، الشعر الجاهلي، الأدب الأجنبي. أنواع الأدب الإسلامي. الشعراء وطبقاتهم. الشعراء الإسلاميون. النثر والخطابة. الخطباء. الكتابة. **4 . العصر العباسي:** اللغة والنثر. الكتابة والخطابة. الكتاب. الشعر والشعراء. العلوم الشرعية. العلوم العقلية. القصص والمقامات. **5 - العصر التركي، وتأثيرات الانحطاط العام على الفكر والأدب العربي. 6 - العصر الحديث، والعوامل الحديثة التي مسّت الأدب العربي.**

**في رياض الفلسفة:** أن تتعد عن الأدب ومكُوناته الجمالية، الفنية، الخيالية، البلاغية، أن تكون عقلايا في رحاب الفلسفة وأهلها، عليك أن ترافق أساطينها، كان لي ذلك مع صديقي المرحوم يتيم التومي، خاصة مع برنامج الفلسفة للسنة الثالثة ثانوي:

**1 . مفهوم الفلسفة . موضوع الفلسفة . دور الفلسفة في الحياة الإنسانية . الثقافة والفلسفة . مفهوم الأخلاق . الضمير الخُلقي . المذاهب الأخلاقية . الحقوق والواجبات . العدل والمساواة . المسؤولية .**

**2 . نشأة المجتمع وعوامل تكوينه . أنواع المجتمعات . التطور . الأسرة . الأمة . الحياة السياسية . الشغل . الحياة الاقتصادية .**

- 3 . مراحل التفكير المنهجي . أسس البحث العلمي . منهج العلوم الطبيعية .  
منهج الرياضيات . منهج العلوم الإنسانية .
- 4 . الحرية . العقل . المعرفة وإدراك الحقيقة . الدين والفلسفة . الإنسان ومصيره .  
الروح والمادة . الله .

ثم مع كتاب: تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية للمرحوم عبده الشّامي:

- 1 . العرب والفلسفة اليونانية . الفكر العربي في العصر الجاهلي . الفكر العربي في  
العصر الإسلامي . 2 . العصر العباسي الأول: التّقل والنّقلة . تأثير النقل في اللغة  
والتفكير . 3 . العصر العبّاسي الثاني: الفلسفة العربية وفلسفة اليونان . 4 . العصر  
عبّاسي الثالث: أبو العلاء المعريّ . ابن سينا . إخوان الصفاء . 5 . العصر  
عبّاسي الرابع: الصّوفية . الإشراق . الغزالي . ابن الفارض . ابن العربي . 6 . الفكر  
العربي في المغرب: ابن باجة . ابن طفيل . ابن رشد . ابن خلدون . 7 . أثر الفكر  
العربي في التفكير الغربي . رحلة جميلة في رياض الفكر الفلسفي العربي الإسلامي  
أتممتها في تلك السنة وحدي مع كتاب: " الفلسفة أنواعها ومشكلاتها " ، كما  
اسلفتُ لمؤلّفه هنري ميد أستاذ الفلسفة التحليلية وعلم النفس في معهد  
كاليفورنيا التكنولوجي . ترجمة المرحوم الدكتور فؤاد زكريا المفكر القدير ، أستاذ  
الفلسفة بجامعة القاهرة . الكتاب قيّمٌ جدًّا ، ثريٌّ:

«لا بدّ لنا من التفلسف . الفلسفة وجبراتها . المثالية: العالم ملائمٌ لنا . المذهب  
الطبيعيُّ: العالم غيرٌ مكترثٍ . أصلُ الحياة ومجراها . الذهن: لُغزٌ ، أم أسطورةٌ ، أم  
نظام آلي؟ الحقيقة: مشكلة بيلاطس ومشكلتنا . نظرية المعرفة: ماذا يمكننا أن

نعرف؟ الميتافيزيقا: ما الواقع؟ الميتافيزيقا: الثنائية والتعددية. التجريبية المنطقية. الاخلاق: ماذا ينبغي أن نفعل؟ الأخلاق: ما الخير الاسمي؟ الحتمية في مقابل الاحتمية. الأخلاق المعاصرة ومشكلاتها. علم الجمال ريبب الفلسفة. الخلود في أيّ شيء آملٌ. النزعة الإنسانية والجودية.»

إضافة إلى رفقتنا للكاتب الكبير الجزائري الموسوعي توفيق المدني في كتابه القيم " هذه هي الجزائر "، أو كتاب الجزائر. " كتابٌ تناول تاريخ الجزائر وجغرافيتها حتى تاريخ تأليفه سنة 1931م، جغرافيا طبيعية، سياسية، عناصر سكانها، مدنها، نُظُمها، قوانينها، مجالسها، حالتها الاقتصادية، والعلمية، والاجتماعية.. كتاب جمع بين الجغرافيا والتاريخ.

**مع المركز الوطني للتعليم المُعمّم:** هذا غيضٌ من فيضٍ، على سبيل المثال. إضافة إلى هذا التحضير مع يتيم التومي في الأدب العربي، الفلسفة، التاريخ والجغرافية، اللغة الفرنسية في مساعدي، وصلتني دروس المعهد الوطني للتعليم المُعمّم بانتظام، أنجزتُ تمارينها وأرسلتها بانتظام؛ فكانت تُعاد إليّ مقيّمة، تملؤها العلامات المرفقة بالملاحظات المشجّعة جدا. فيما يخصّ اللغة الإنكليزية تعلّمتُ مبادئها من كُتب مدرسية للسنة الأولى متوسط تحصّلتُ عليها من المتوسطة الفلاحية التي عملتُ بها في تلك السنة الدراسية، إضافة إلى كُتبٍ أخرى بها تقنيات ترجمة الجمل، العبارات، الفقرات القصيرة من الفرنسية إلى الإنكليزية.

هذه الكُتب ساعدتني على الإلمام البسيط بهذه اللغة الأجنبية الثانية التي من المفروض لو كانت سيادتنا بين أيدينا كاملة، وليست بيدي فرنسا الاستعمارية

بواسطة أذناها، كانت اللغة الإنكليزية هي اللغة الأجنبية الأولى. الطريف في امتحان البكالوريا لما كنتُ أمتحن في هذه المادة في اجوان 1972م بثانوية عقبة بالجزائر، وكانت ورقة الامتحان بين يديّ عبارة عن دراسة نصّ قصير بهذه اللغة: شرح مفردات، إدخال أخرى في جُمْلٍ، تحويل جمل منها إلى اللغة الفرنسية، أو العكس، ثم كتابة فقرة قصيرة عن مضمون النصّ. أتذكر أنّ كل الممتحنين أحرارٌ وليسوا تلاميذ نظاميين، اعترضتني ترجمة الجملة التالية من الفرنسية إلى الإنكليزية: *la vie est belle*. رفعتُ رأسي. مسحتُ القاعة بنظرة شاملة. الكلّ منكبٌّ على الورق. البعض كان يتصبّب عرقاً. فما كان منيّ إلا أن أشرتُ إلى الحارسة، أستاذة فرنسية الجنسية، لما اقتربتْ همستُ لها بالجملة السابقة، وأشرتُ إليها بما يقابلها باللغة الثانية، ابتعدت عنيّ، ثمّ عادت وكأَنَّها في دورة مراقبة عادية، اقتربت منيّ، نطقت: *life is good*. ربما أدقّ: *life is beautiful*.

في بداية شهر جانفي 1972م، وصلتني شهادة مدرسية للسنة الثالثة ثانوي شعبة آداب، وفلسفة من مركز التعليم المعتمّم، وأعلموني أنه بما يمكن لي المشاركة في امتحان شهادة البكالوريا بتكوين ملفّ، وإرساله إلى مديرية الامتحانات والتوجيه المدرسي بوزارة التعليم الابتدائي والثانوي (حينذاك)، كوّنتُ الملفّ، أرسلته قبل الأجل المحدّد. كتّفت التحضير، سواء مع صديقي يتيّم، أو وحدي. في شهر أفريل من تلك السنة وصلني الاستدعاء عن طريق البريد، لما كان البريد بريداً، تصلك رسالتك في مدة ثلاثة أيام أو أربعة؛ وليس كالآن في مدّة ثلاثة أشهر؛ إن لم تضع.

مركزٌ وحيدٌ وطنياً للأحرار: كان عددُ المشاركين الأحرار حينذاك قليلاً بدليل أنه حُصِّصَ لهم مركزٌ وطنيٌّ واحدٌ بثانوية عقبة بالجزائر في مدخل يسار باب الوادي. في ذلك الوقت النتائج يعلن عنها في الصحافة المكتوبة، في تلك الأيام كنت أقضي أياماً صيفية رفقة أسرتي الصغيرة عند قريبة لزوجتي في عمارة أعلى مقهى الطونونفيل بساحة بور سعيد، كما انتظرتُ نتائج الامتحان من خلال صحيفة المجاهد اليومية باللغة الفرنسية؛ حيث كان بياقة فرنسا وعبيدها المسخرون لا ينشرون في صحيفة الشعب بالعربية، حيث رأوا أن شهادة البكالوريا حينذاك شهادة كبيرة، وذات ميزة أكاديمية اجتماعية مكان الإعلان عنها صحيفة فرنسية. كنتُ أشترى الجريدتين يومياً، "أفليهما فلياً" كما يقول المثل الشعبي، في يوم من أواخر شهر اجوان فاجأتني في الجريدة قائمة الناجحين في البكالوريا (أحرار).

.. هي شهادة البكالوريا: كان اسمي ضمن الناجحين، ما صدقتُ في البداية، أعدتُ قراءة اسمي عديد المرّات. اطمأنتُ إلا بعد أن أخرجتُ بطاقة تعريفية، وقارنتُ أحرف اسمي فيها مع أحرف الاسم المنشور. كان معي من الناجحين خمسة من بلدي قمار، أتذكر منهم: المرحوم الحاج دريدي عُمر، الحاج لشلح عبد المجيد، الحاج دحه علي. لمّا عدتُ إلى البلدة في شهر جويلية وجدتُ شهادة نجاحي سبقتني عبْر البريد. تحت رقم: 4037 مؤرخة في 01 جويلية 1972م، عن مديرية الامتحانات والتوجيه المدرسي بوزارة التعليم الابتدائي والثانوي. بعد أن أوضحت الشهادة بين يدي، تافت نفسي إلى رتبٍ أخرى:

- أسجّل في جامعة الجزائر، أم أسجّل في جامعة قسنطينة؟ لأتخرّج بعد أربع سنوات حاملاً لليسانس في الأدب العربي كي أكون أستاذ تعليم ثانوي. صعوبة هذا الخيار بالنسبة إليّ يتطلّب انتداباً لمدة أربع سنوات تتم الموافقة عليه من الوزارة حتى لا ينقطع المرتّب الشهري، هذه الموافقة تتطلّب مساعي جدّ صعبة في العاصمة، وأنا العبد الفقير مقصوص الجناحين، إضافة إلى الابتعاد عن أسرة فنية: زوجة وثلاثة أبناء صغار، أكبرهم ذو أربع سنوات.

- أشارك في امتحان C. A. P. E. M، شهادة الكفاءة في التدريس في التعليم المتوسط.

**تسجيل بجامعة قسنطينة:** بتأثير من الأستاذ الفاضل أستاذ الفلسفة بجامعة قسنطينة (ولا يزال)، أمدّ الله في عمره الدكتور علي سعد الله أصيل مدينة قمار، شقيق عميد المؤرخين المرحوم أبو القاسم سعد الله، سجّلتُ في جامعة قسنطينة في بداية الموسم الجامعي 72 / 73م. سجّل معي المرحوم دحّه عبد الرحمن، لشلح عبد المجيد. عرفنا أنّ الأمر ليس هيئاً، المسافة بين إقامتنا ومدينة قسنطينة أكثر من 450 كلم، وكذا التوفيق بين العمل، ورعاية الأسرة والدراسة الجامعية، كما أنّ ظروف النقل عصيّة، إذ لا يوجد نقلٌ مباشرٌ، ووسائل النقل قليلة، خاصة النقل الخاص.

في أوّل رحلة لنا للتسجيل انتقلنا في سيارة دحّه عبد الرحمن رحمه الله R. 8، بعد رحلة شاقّة بدأت الساعة الثانية صباحاً، وصولاً عند الساعة العاشرة،

فبحثًا عن الأستاذ علي سعد الله الذي رافقنا في عملية التسجيل. قرّرنا ونحن متعبون أن تكون عودتنا إلى البلدة غدا، وأن نطلق الساعة السادسة.

جينا مدينة قسنطينة القديمة بحثًا عن فندق، ما وجدنا غير فندق متوسطِ الجودة قُرب محافظة "جبهة التحرير الوطني"، عرض علينا صاحب الفندق الغرفة الوحيدة المتبقية في الطابق الأرضي المقابلة لمكتب الاستقبال، والمحاذية للمرحاض الجماعي للمقيمين بالطابق، وأصحاب المحلات القريبة من الفندق.

ما نمنا ليلتها قضيناها بين جدل وصراخ عامل الفندق مع أصدقائه، وبين سمفونية ضيوف المرحاض، والروائح "الزكية" التي أنعشتنا الليل كله. ما نمنا ليلتها. أنسنا الوحيد كان قرقشة تقشير القسطل، وأكله، اقتنينا منه زادًا وفيرًا؛ وكأننا علمنا مسبقًا ما ستكون عليه ليلتنا. عدنا "بحقّي حنين". أقلعنا نهائيًا نحن الثلاثة عن الدراسة في الجامعة، ملفٌ أغلقنا صفحاته نهائيًا.

## 12. في رحاب الإشراف التربوي

**طالب مفتش:** سبقني إلى ميدان التفتيش في التعليم الابتدائي مديري، مدير مدرسة الذكور (رضا حوحو) بقمار المرحوم دحّه عبد الرحمن الذي التحق بعد مسابقة وطنية بمركز تكوين المفتشين بحي "تيلملي" بالجزائر العاصمة، قضى سنة تكوين، وبعد امتحان آخر السنة عُيّن مفتشاً للتعليم الابتدائي للغة الفرنسية في مدينة تقرت. فكّرتُ سنة 1977م بين أن أشارك في مسابقة الالتحاق بمرحلة التعليم المتوسط أستاذًا للغة العربية والتربية الدينية، وليس التربية الإسلامية كما أُطلق عليها فيما بعد، أو أبقى معلمًا في التعليم الابتدائي إلى تقاعدي؛ بما أن التعليم في مرحلة التعليم الثانوي تطلّب شهادة اليسانس. استقرّ رأيي على المشاركة في مسابقة التفتيش في السنة الموالية 1978م، على أن أحضّر لها تحضيرًا معمّقًا؛ لأنها مسابقة وليست امتحانًا، أي أنني دخلتُ في سباقٍ على عدد محدود من المناصب مع غيري وهم بالعشرات.

**تربصّ أولّ بربوع سوف:** اتصلتُ حينذاك بالأستاذ الفاضل الصديق، الذي كان مفتشي، والذي مرّ بمركز التفتيش تكوينًا، وتخرّجًا المرحوم منصوري جا بالله، أطل الله في عمره، عرضتُ عليه الأمر، شجّعني، أعطاني فكرة عن المركز، وعن برنامجه، وطريقة التكوين به، شرعتُ في التحضير للمسابقة التي كانت تركز على اللغة العربية، وجودة التحكّم فيها، وفي قواعدها، وحُسن توظيفها شفاهيا

وكتابيا، كما اللغة الفرنسية وإن بمستوى أقل، تاريخ الجزائر، وجغرافيتها الطبيعية، والاقتصادية، علم النفس العام، علم النفس التربوي، أصول التدريس وتقنياته. كان الالتحاق بمركز التفتيش التابع لوزارة التربية يُعطي الأولوية لحاملي شهادة الليسانس، ويكمل المناصب المُتبقّاة عن طريق المسابقة لحاملي شهادة البكالوريا، وأقدمية التدريس لمدة عشر سنوات في المرحلة التي يرغب أن يكون مفتشا فيها" مفتشا للتعليم الابتدائي، وإدارة المعاهد التكنولوجية" و" مفتشا للتعليم المتوسط "حسب مادة التعليم: لغة عربية، رياضيات، علوم طبيعية، لغة فرنسية، علوم فيزيائية، رسم فنيّ. التعليم الابتدائي له مفتشان، "مفتش اللغة العربية" لكل مواد التعليم، و"مفتش اللغة الفرنسية" لمواد اللغة الفرنسية فقط.

كانت الشهادة المسلمة للمتخرجين في اللغتين تحمل "شهادة التفتيش في التعليم الابتدائي وإدارة المعاهد التكنولوجية" أي أنّ المتخرج بإمكانه الخيار بين التفتيش، أو أن يكون مديرا لمعهد تكنولوجي. المعهد التكنولوجي كان يعني معهد تكوين معلمي الابتدائي باللغتين، وكذا أساتذة التعليم المتوسط لكل مواد تلك المرحلة. بمجرد ما تمّ الإعلان عن المسابقة ووصلت مديريات التربية التي أبلغتها إلى المفتشيات، والمؤسسات التعليم أرسلت ملفّ المشاركة. جرت المسابقة يوم 20 مارس 1978م، بمركز التفتيش بحي تليملي بالجزائر العاصمة. كانت من جزئين: جزء كتابي، وجزء شفوي مع لجنة ثلاثية لتقييم الشخصية، في كل السيمات، ومدى قدرتها على القيام بمهامّ المفتش المكوّن. في يوم 04 أبريل 1978م أعلنت مديرية التكوين بوزارة التربية عن نتائج المسابقة كتابيا، وأرسلتها إلى المقبولين تربييا، كان عدد المقبولين في التفتيش الابتدائي، وإدارة المعاهد

التكنولوجية باللغة العربية 11 مقبولا، رتبي كانت الأولى وطنيا، عددُ المقبولين باللغة الفرنسية لنفس المهام 14 مقبولا. بموجب قرارٍ وزاريٍّ مؤرخ في: 04 أبريل 1978م، دورة 20 مارس 1978م.

**حارس القاعة سمع بي دون أن يعرفني:** ممّا أتذكره أي يوم الاختبار كان من حراس القاعة شخصٌ من بلدي كان سمع بي كثيرا وكنت أنا سمعتُ به؛ إنما ما تلاقينا البتّة، أثناء مراقبته للاستدعاءات، وبطاقات الهويّة ومدى مطابقتها للشخص المؤدّي للاختبار، تفحصني جيّدا عن قُرْب، وأشار إليّ أهذا أنت؟ كان الأستاذ نوار محمد، حينذاك مستشارا تربويا مع المرحوم المفتش حسن جرمون في حي باب الوادي بالعاصمة. مذ تلك السنة صرنا أصدقاء، أمضى هو أيضا السنة الدراسية 78 / 79م في مركز التفتيش، ما شارك في المسابقة لأنه حاملٌ لشهادة الليسانس في اللغة العربية وعلومها من جامعة الجزائر. إنّ الناجح في المسابقة والملتحق بالمركز يكون في حالة انتداب، يضمن له نظامُ التكوين حقوقه كما لو أنه في حالة أداء وظيفته، كالمرتب والمنح. قبل الالتحاق بالمركز في أواخر أكتوبر 1978م، وُضعتُ في فترة تدريبية أولى مع مفتش المقاطعة حينذاك الأستاذ الفاضل الصديق منصوري جا بالله، رفقة المرحوم هبينة السعيد. فترة تدريبية رافقنا فيها المفتش منذ ما قبل فتح المدارس واستقبال التلاميذ، معاشة لكل إجراءات التحضير من اتصالات بالبلديات فيما يخصّ الإعداد المادي وتوفير العمّال، حضورا في اجتماعات المفتش مع مديري المدارس، بغية تبليغهم تعليمات الوزارة، والبرامج التعليمية، كذا تعليمات مدير التربية. رافقنا المفتش في يوم افتتاح المدارس مع السلطات المحلية لبعض المدارس بمدينة الوادي، ثم إلى

المدارس البعيدة والنائية الريفية في اليومين المواليين، حضرنا وعاشنا الدخول المدرسي في عين المكان، لاحظنا تدخلات المفتش، وتوجيهاته للمديرين، للمعلمين، كما تدخلاته لدى رؤساء البلديات، وكذا رئيس الدائرة.

بعد انطلاق الموسم الدراسي حضرنا، وعاشنا عمل المفتش اليومي الإداري في مقرّ عمله مع كاتبه، استقبلاته لأولياء التلاميذ، للمديرين، للمعلمين، حصر المناصب الشاغرة خاصة في المناطق النائية، الاتصالات اليومية مع مصلحة الموظفين بمديرية التربية تغطيةً للمناصب الشاغرة بتعيين المعلمين، ضماناً لتمدس كلّ التلاميذ عملاً بمبدأ " الحقّ في التعليم للجميع". كل تلك المعاشية، والمشاركة كنا نسجلها يوميا. في نهايتها حضر كل واحد منا تقريره الخاص، تحت عنوان " الدخول المدرسي في دائرة الوادي للموسم الدراسي 1978/1979م "سلم كل واحدٍ تقريره إلى المفتش المشرف الذي اطلع على مضمونه، دون ملاحظاته، تقيّمه لشخصية كل واحد ومدى قدرته على ممارسة وظيفة مفتش. سلمني تقريره مغلقاً؛ سلمته بمجرد وصولي إلى إدارة المركز في أواخر أكتوبر بداية مرحلة التكوين.

**تكوين مكثف:** في المركز كان التكوين ذا منحين: منحي نظري، ومنحي تطبيقي، فالمنحي النظريّ انصبّ على علم النفس العام، وعلم النفس التربوي، التربية وأصول التدريس، التربية التطبيقية وتعليمية المواد، اللغة الفرنسية، اللغة العربية وتدعيمها. كان يدير المركز الأستاذ المرحوم جيجلي محمد، الإداري القدير المحنك، رجل التربية والتعليم، كان مفتشا فيهما قبل أن يكون مدير المركز. نخبة من خيرة الأساتذة كانوا يدرسوننا في المركز:

الدكتور عبد القادر فضيل مفتش التربية والتكوين الذي تولى فيما بعد مدير التعليم الأساسي، والذي كان يُطلق عليه "أب المدرسة الأساسية." "درّسنا التربية التطبيقية وتعليمية الموادّ. الأستاذ عبد الله حوجال الذي تولى مهامّ مدير التربية في عدّة ولايات، درّسنا علم النفس العام، وعلم النفس التربوي. الدكتور المرحوم الأستاذ بجامعة الجزائر تركي رابح، درّسنا مادة التربية وأصول التدريس، كما درّسنا المرحوم الأستاذ تواتي اللغة الفرنسية" الوظيفة". أمّا الأستاذ الكبير المرحوم الذي كان حينذاك مفتشاً عامّاً مشرفاً على لجنة تأليف كتب التربية الإسلامية في كل مراحل التعليم، وتولى فيما بعد حقيبة وزارة الشؤون الدينية عبد الرحمن شيبان، درّسنا مادّة أسماها هو "مادّة تدعيم اللغة"، أي تدعيم اللغة العربية عندنا من خلال البلاغة، تحليل نصوص راقية لأدباء، شعراء؛ كان رحمه الله حميميا، ذا نُكْتٍ وطرافة، وخفّة روحية، اكتسبها من تونس التي عاش بها كثيرا أيام دراسته بجامع الزيتونة وبعدها، بقدر ما كان كذلك شحيحاً في إعطاء العلامة.

**متربصٌ بباب الوادي:** أمّا الجزء التطبيقي من التكوين كان بوضعنا أفواجا لا يتعدّى الفوج أربعة طلبة مفتشين تحت إشراف مفتش مقاطعة في منطقة من مناطق الجزائر العاصمة. وُضعت في الفصل الأول تحت إشراف المفتش المرحوم حسن جرمون بباب الوادي، إذ كان مقرّ مفتشيته بشارع عقبة. انصبّ التدريب البيداغوجي على حضور الندوات التربوية التي نظمها المفتش لصالح معلمي مقاطعته، أو المديرين، وكذا الأيام التكوينية لهم، كما الحضور معه أثناء مراقبة تطبيق الدروس من قبلهم، كما كنّا نحضر مع لجان ترسيم المعلمين، والتفتيش

الإداري للمديرين. المفتش في كل ذلك طلب منّا صياغة تقرير كتابي على غرار تقريره، إذ يعطيه علامة تقييمية.

.. **بيوزريعة، ثم الأبيار:** في جزء من الفصل الثاني وُضعنا تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبد القادر فضيل في منطقة بوزريعة حيث تابعنا معه تدريس مواد اللغة العربية لدى المعلمين والمعلمات، وفي الجزء الثاني من الفصل وُضعنا تحت إشراف المرحوم الأستاذ محمد الطاهر فضلاء الموسوعي، الحكيم الذي كان مفتشا إداريا، وتربويا على منطقة الأبيار، رافقناه في كل مهامه الإدارية والبيداغوجية، والتكوينية للمعلمين والمعلمات، والمديرين والمديرات مثلما قام به الأستاذ حسن جرمون.

.. **بجسين الداي:** أما الفصل الأخير من السنة الدراسية من مارس إلى أوجوان 79م، وُضعنا تحت إشراف الأستاذ الحميمي الهادي، القدير محمد الطاهر الأطرش الذي كان مفتشا إداريا وبيداغوجيا في منطقة حسين الداي بالعاصمة. تلك السنة، سنة التكوين النظري والتطبيقي على أيدي أساتذة، وإطارات ذات كفاءة عالية من أحسن الكفاءات الجزائري، اكتسبنا فيها فنيات التفتيش البيداغوجي والإداري في التعليم الابتدائي، وإدارة معاهد تكوين المعلمين. جزاهم الله كل خير، وأمدّ الله في أعمار الأحياء، ورزقهم الصحة والسعادة، ورحم من رحلوا إلى دار البقاء. اجتزّت في اجوان 1979م الاختبارات الكتابية ثم التطبيقية المتمثلة في القيام بندوة تربوية للمعلمين والمعلمات، وتفتيش بيداغوجي لمعلم، ثم تفتيش إداري لمديرة مدرسة. كان يرأس اللجنة المرحوم المفتش العام محمد الطيب

العلوي المعروف بمجديته وصرامته، ونزاهته، ويُعده عن كل ما يؤثر عليه في قرارته، وأحكامه.

**نتائج مُنصِفة:** في يوم **27** اجوان **1979**م أعلن المركز الوطني لتكوين مفتشي التربية التابع لوزارة التربية النجاح النهائي حسب الاستحقاق في شهادة الكفاءة للتفتيش في التعليم الابتدائي والمتوسط، وإدارة المعاهد التكنولوجية للتربية، منهم الذين دخلوا بالليسانس، ومنهم بالمسابقة كما أسلفت. في شعبة التعليم الابتدائي للغة العربية **16** ناجحًا. كانت رتبتي السادسة. شعبة التعليم المتوسط أدب: **9** شعبة التعليم الابتدائي للغة الفرنسية: **9**

أثناء السنة الدراسية كنّا بالمركز من أغلب ولايات الوطن، بعضُ المفتشين الطلبة، الآتون من الولايات الشمالية الحاملون للشهادة الجامعية ينظرون إلينا نحن أبناء الجنوب والهضاب نظرة استعلاء، لما ظهرت نتائج التخرج نجح كل من انتموا إلى المركز عن طريق المسابقة وجلّهم بالكاد من الجنوب والهضاب؛ بينما رسب العديد من حاملي الشهادة الجامعية. بعد هذا التكوين المكثف على أيدي أكفأ إطارات وزارة التربية اتّضحت لي مهامّي القادمة بدءًا من الموسم القادم **79** / **80**م.

**بصمات في الذاكرة:** أغلب الأساتذة والمفتشين الذين تكوّننا على أيديهم في مركز التفتيش لهم مواقف مشرّفةٌ معنا، خفّفت علينا من غلواء البعد عن الأهل، ومكان الإقامة:

**1** - محمد الجيجلي مدير مركز تكوين المفتشين، ذو كفاءة في التسيير، والمعرفة التربوية والتعليمية. كان أنيقًا جدًّا، ذا مهابة، بقدر ما كان صاحب دعابة ونكتة،

لأنه عاش في تونس فترة من حياته. بعد ما استقرّ بنا المقام في معهد تكوين المعلمين ببوزريعة في جناح العمارة خاصّ بنا، المعهد الذي كان يديره حينذاك، والذي تولّى فيما بعد الأمانة العامّة لوزارة التربية، ثم أمين عام حزب جبهة التحرير الوطني المرحوم عبد الحميد مهري؛ لما اسقرّ بنا المقام، وعاشنا الوجبات الغذائية التي افتقرت إلى ما يجود به البحر؛ ذات صباح بالمركز وقبل دخولنا الفصول الدراسية، مرّ بيننا المدير محمد الجيجلي كعادته في أناقته، وخيالاته كديك في عنفوان شبابه، اقترب منه المرحوم هببته السعيد، بادره بتحية الصباح، وترجّاه في تلبية طلب من أغلب الطلبة. توقّف المدير، اقترب منهما بقية الطلبة. السعيد هببته بتلقائته، وطرافة حديثه ولهجته التونسية خاطب المدير:

– أستاذنا الكبير، وأخونا الفاضل سيادة المدير، أغلبنا من الجنوب والهضاب، ظهر لنا بعد مُضيّ الشهر، وكأنّ العاصمة غير مرحّبة بنا؛ وإلا كيف شحّت علينا بما يجود به بحرّها الرّحّب.

– يا لك من داهية، فهمتُ الرسالة، أعدكم بأن يكون لكم السمك ثلاث مرّات في الأسبوع.

**2** – في النصف الأول من الفصل الثاني من السنة الدراسية وُضِعَتْ تحت إشراف المرحوم الأستاذ محمد الطاهر فضلاء الموسوعي، الحكيم الذي كان مفتشا إداريا، وتربويا على منطقة الأبيار، عائلة فضلاء كلها عُرفت بالوطنية، والدفاع المستميت عن هوية الأمة الجزائرية، سيّما اللغة العربية، رأيتُ بأمّ عيني، وعاشيت غيرته، ومقاومته الشّراسة عن هذه اللغة وهو يمارس مهامه سواء داخل المؤسسات التربويّة، أو تجاه الإدارة، والمحيط اللذين كانا يجاربان هذه اللغة. في

تلك السنة وأنا أزور معه رفقة طلبة مفتشين آخرين مدرسة الأبيار المركزية، وكانت مديرتها زوجته، اختار أن تكون الزيارة لمدرسة فلسطينية، لما دخلنا حيّاها تحية تليق بمقامها مدرسة، وأختنا ضيفة عزيزة من فلسطين. كان الدرس الأول الذي بدأت به درسًا في التربية الدينية، تحديداً " القرآن الكريم"، كتبت السورة بخط جميل مع الشكل اعتماداً على الذاكرة، وليس من المصحف، ثم بعد تلاوتها النموذجية، كلفت التلاميذ والتلميذات بالتلاوة. كانت أخطاء الكتابة على السبورة، مثل تلاوتها فضيحة لا يمكن الاستمرار فيها مهما كانت الاعتبارات. في تلك الأثناء كنتُ جالسا بجانبه، سمعته يخاطب نفسه بصوتٍ منخفضٍ: - يا للهول.. ما هذا العبث؟

أشار إليها أن تقرب منّا (دون علم التلاميذ)، نبهها إلى الأخطاء، وأن تعمل على تصحيحها، بدا عليها الاضطراب، كما بدا عليها العجز. ما لبث أن أشار علينا بالمغادرة والالتحاق بمكتب المديرية زوجته التي عاتبها بحضورنا على عدم مراقبتها لها باستمرار، سيّما في حصص التربية الدينية، زوجته أكّدت أنها زارتها عديد المرّات، ونبّهتها إلى كل الأخطاء، من جهتي أنا وزملائي أستخلصنا دون التيقن إلى أنها مسيحية؛ بينما المفتش فضلاء بمجرد عودته إلى مكتبه، رفع تقريراً إلى رئيس أكاديمية الجزائر طلب إنهاء عقد المدرسة الفلسطينية.

**3** . ممّا أتذكّره عن المرحوم المفتش محمد الطيب العلوي في يوم ترسمي، وقد كنّا في تفتيش المديرية رحمها الله لما حلّت الساعة الواحدة ظهراً، أوماً إليها بأدبٍ أن تنصرف لمدة نصف ساعة لتناول غذائها، ثمّ أوماً إليّ بأن أقصد مطعمًا أو أيّ مكانٍ أتناول وجبة، أو لمجة ثمّ أعود بعد نصف ساعة. عدتُ في الموعد،

وجدته في مكانه ما غادره، واصلنا العمل مع المديرية التي فتشتها دون أن يتدخل، كان يراقب طريقة تعاملي مع المديرية: سلوكا، حوارًا، طلبًا للوثائق والسجلات، تقييمًا لأعمالها الإدارية والبيداغوجية؛ كل ذلك صغته في تقرير إداري مكتوب بعد ما منحني مهلة ساعة كي أسلمه التقرير. طرحت عليه سؤالًا ونحن نفترق أمام باب المؤسسة لماذا ما ارتاح، وما تغدّى؟ فاجأني بأنه تغدّى وقد أتى بغذائه الذي اعتادت زوجته أن تعدّه له في مثل هذه الحالات "لمجة خفيفة"، حتى لا يتغدّى في المؤسسات، تفاديا للقييل والقال، وتحاشيا لما قد ينجّر عن ذلك من مساومات المديرين في حال ما إذا تغدّى عند أحدهم. كان هذا السلوك الراقبي عبّرة لي سلكته في مساري التفيتشي؛ إلا في حالات نادرة. " لكل قاعدة استثناء".

**4 -** لا أنسى ذلك الأستاذ الشيخ السبعيني في مركز التفيتش، أستاذ اللغة الفرنسية المرحوم تواتي الذي قرّب إلينا تلك اللغة، ورغبنا في تعلّمها، واكتسابها، واستعمالها فيما بعد في عملنا، وأدائها توظيفيا بطرقٍ سهلةٍ.. الشيخ تواتي ليس من أولئك المتقربين، المتفخين، الاستعلايين على غيرهم باللغة الفرنسية، يراها لغة أجنبية كغيرها، وظيفتها أدائية، وليست هوية. كان في بداية الأسبوع يقدم إلينا ملفًا كاملاً عن موضوع حياتي نحياه في يومياتنا: ملف الدخول المدرسي، ملف الصحة، ملف النقل، ملف المياه، ملف التسوق، ملف البريد، ملف البلدية، ملف الامتحانات، ...

الملف يتكوّن من كل الوثائق التي يتعامل بها المواطن مع تلك الهيئة، أو هذه: في الحصة الأولى يوزّع علينا الشيخ اتواتي نصًا مكتوبًا عن تلك الهيئة كأن

يكون البريد، وما يؤديه من خدمات للمواطن، في البداية يقرأ هو النصّ قراءة متأنية، ثم تتالى قراءة اتنا الفردية، يلي ذلك حوار شفويّ بالفرنسية عن مضمون النصّ، تُنهي الحصة بتمارين كتابية. في الحصة الموالية تكون بين أيدينا الوثائق التي نتعامل بها مع البريد: حوارات، صكوك، رسائل، طرود، شكاوي، كل وثيقة لها حصّتها: تعرّفًا وقراءةً، تعميرًا بالفرنسية.. ينتهي الملف في آخر الأسبوع بنصّ كتابيّ يعده كل واحدٍ منّا منفردًا عن زيارته لمكتب البريد، وما قام به، وما وجدته.

**التفتيش .. الإشراف التربوي:** يُعتبر التفتيش في قطاع التربية إشرافًا تربويًا، وإداريًا يهدف إلى مراقبة نشاطات، وأعمال الموظفين المشمولين بالإشراف، وتصحيح أدائهم المهني، وتكوينهم، وضرورة توافق هذه النشاطات مع الأهداف التربوية التي نشأ من أجلها مرفق التربية، ومدى مطابقتها للنصوص التنظيمية.

بينما في المشرق العربي استُبدل مفهوم "التفتيش" بـ "الإشراف التربوي" الذي يرمي إلى تحسين العملية التعليمية، وتنمية كفايات المعلم المهنية في إطار عملية تربوية تشاركية، وليست فردية تتمّ بتفاعل جميع أطراف العملية التربوية، وعناصرها المختلفة (معلم، متعلم، منهج، بيئة تعليمية....)

**خصال المفتش .. ووظائفه: 1-** إنّ كلمة التفتيش تعني الرؤية الحادة، أو النافذة للأشياء، والقدرة على تحديد مظاهر القوة والضعف فيها، وقديما كانت تُشيرُ مشاعر الخوف باعتبار تسليط العقوبات على المخالفين، والمقصرين في أداء مهامهم؛ لكن التطور الحاصل في مختلف المنظومات التربوية العالمية أدى إلى جعل عملية التفتيش اتصالاً إنسانياً بين المفتش، والموظفين الموجودين تحت إشرافه، والتخلي عن الأساليب الاستبدادية، وإعطاء الأوامر والتوجه نحو

الأسلوب الديمقراطي الذي يتيح الفرص للجميع، ويجرر المبادرات، وذلك بالاعتماد على التحليل، والكشف عن العوامل التي أدت إلى النجاح، أو الفشل وهو ما يسمى بالتشخيص، والتقييم، والتقويم. كلُّ هذا باعتبار أن المفتش له الخبرة، والكفاءة، وبإمكانه التعرف على فعالية مختلف الأنشطة، حيث يتمتع بالقدرة على تحمُّل المسؤولية؛ وبالتالي يؤدي دورا كبيرا في رفع المردودية التربوية، وتحسين مستوى الأداء التسييري، كما النتائج المدرسية كمًّا ونوعًا.

**2.** إن التفتيش في قطاع التربية ينقسم إلى شعبتين: البيداغوجية (هي الأساس)، والإدارية، والتسيير وهذا يفترض وجود قواسم مشتركة بين الشعبتين وبمعنى آخر إن المفتش بصفة عامة له صفات وميزات شخصية نوعية، ومهام متعددة، وأنواع وأساليب متطورة، متجددة.

يُعرف المفتش على أنه الشخص الراغب في المعرفة الدقيقة لطبيعة الأشياء، ومكوناتها، ومعرفة الظاهر والباطن منها، وهو ما يعبر عنه في المنظور الفلسفي بالتعرف على الحقيقة سواء كانت ايجابية وسلبية.

**3.** ينبغي أن يتمتع المفتش بما يلي:

قوة الشخصية والثقة بالنفس. القدرة الكبيرة على القيادة والتحكم في التسيير الإداري والتربوي. سليم الجسم والحواس. له قدرات ذهنية وفكرية وعلمية. رصيد علمي وثقافي وخبرة مهنية تؤهله للقيام بعمليات التكوين والتوجيه والتبليغ. أن يكون عمله قائما على العدل، والمساواة بين جميع المتعاملين على اختلاف درجاتهم ومسؤولياتهم. أن تكون له القدرة على التكيف مع الأوضاع، والمستجدات.

أن تكون له القدرة على التعرف على نفسية، وطباع من يعمل معهم. أن يكون لائق المظهر فصيح اللسان. أن يتحلى بالأخلاق الحسنة ويكون محل ثقة وتقدير من طرف الجميع.

**4 -** بما أن التفتيش عملية اتصال إنسانية قائمة على تشابك العلاقات بين الموظفين، ينبغي على المفتش أن يتحلى بالصفات التالية:

زرع روح التعاون، وتوطيده داخل المؤسسات التربوية. احترام آراء الآخرين وتوفير حرية الفكر والعمل الفعال. العمل على تأسيس مناخ عمل فردي، وجماعي ملائم وفعال. ترقية الروح العلمية ورفع المعنويات لجميع الموظفين المشمولين برعايته. الإيمان بالديمقراطية والاستماع لمختلف الاقتراحات وتأييد ما هو مناسب منها. تقدير جهودات الموظفين وتحسيسهم من اجل زيادة الجهود.

التحلي بالتزام اللباقة سلوكا وفكرا. تقبل النقد البناء واحترام آراء الآخرين.

**5 -** أن يكون المفتش على إطلاع بعلوم التربية، وإدارتها، وعلى علم بمختلف المستجدات على الساحة التربوية. رسم سياسة تكوينية بعد تشخيص مختلف النقائص الملاحظة في الميدان.

ضرورة أن يكون المفتش قادرا على استعمال تقنيات البحث التربوي والإداري. التمتع بروح المبادرة والعمل على غرسها في نفوس المشمولين بإشرافه. التشبع بمنهجية التشخيص والتقييم والتقويم. القدرة على تنظيم مختلف

النشاطات مثل الندوات التربوية والملتقيات وإدارة المراكز التي تنشأ لأغراض متعلقة بالتربية والتعليم.

**6 -** بعد أن عرفت مهام المفتش تطورا كبيرا مرتبطا بتطور المنظومات التربوية، وتشابك العملية التربوية، والبيداغوجية، وتعدّد أطرافها، وضرورة وجود دعم وإسناد مادي لها. كان لزاما أن تستند طبيعة التفتيش إلى معيار الهدف، أو الغاية من العمل التفتيشي ممّا يستوجب وجود أنواع عديدة من التفتيش: التفتيش التصحيحي، التفتيش البنائي، التفتيش الوقائي، التفتيش الإبداعي، التفتيش القيادي.

**7 -** ينبغي على المفتش إتباع خطة عمل شاملة ومنهجية علمية لمختلف المهام التي يكلف بها سواء كانت العادية، أو المهمات الخاصة وهذه المنهجية تتمثل فيما يلي: التخطيط، التنظيم، التقويم، التكوين.

## 13- مفتش للتربية والتعليم

عُيِّنَتْ مفتشا للتعليم الابتدائي باللغة العربية بدائرة تقرت بموجب قرار وزاري مؤرخ في يوم 09 جويلية 1979م من نيابة مديرية الموظفين تحت رقم 9710 / م. ع. موظفين.. تمّ تنصبي يوم 02 سبتمبر 2079م من طرف مديرية التربية بورقلة. أُسندت إليّ مقاطعة شاسعة الأطراف في ثلاث اتجاهات: قطاع "الطيّيات" شرقاً تجاه وادي سُوف، ينتهي عند بلدة ابن ناصر. قطاع تماسين جنوباً تجاه ورقلة حاسي مسعود، ينتهي عند قرية "قوق". قطاع شمالي تجاه ولاية بسكرة، ينتهي بقرية "سيدي سليمان" تُجاه بلدة جامعة.

**تقرت.. البداية:** بمدينة تقرت وجدتُ ثلاثة مفتشين غيري: المرحوم الحاج الجيلاني كينة مفتش اللغة العربية الذي أكرمني، وأحسن مثواي قبل أن أجلب أسرتي، والذي ساعدني، وعرفني بالجهة، وبأعيانها، وما بخل عليّ بخبرته؛ بل في عدّة مرّات يحلّ محليّ في نشاطات بيداغوجية، واجتماعات إدارية في البلدية، أو الدائرة؛ كما كثيراً ما غطّي غياباتي لما أغادر قبل نهاية العطلة الأسبوعية إلى مسقط رأسي. المفتش الثاني للغة العربية الأستاذ مُعَاذ إدريس الذي كان في الوقت نفسه رئيس بلدية تقرت، أدّى بالنيابة عنه وظيفته مستشاره التربويّ الأستاذ عطية مسعود الذي قام بالمهامّ البيداغوجية، والإدارية. معاذ يُمضي على الوثائق باعتباره المفتش الفعلي؛ هذه الازدواجية بالاتفاق مع مدير التربية حينذاك أحمد بن حبيلس صديق مُعَاذ الذي أصلاً غير متخرّج من مركز

التفتيش، إنما هو مفتش مكلف من مدير التربية (تبادل المصالح). المفتش الثالث للغة الفرنسية الأستاذ بلعمودي ابن المدينة والشخصية الديناميكية فيها، المتابع لكل حراكٍ بها صاحب الطموح الاجتماعي والسياسي الذي تبوّأ في الانتخابات البرلمانية سنة 1987م مقعداً في البرلمان، واستطاع من منصبه أن يقدم خدمات كبيرة للمدينة منها تقسيم مدينة تفرت إلى أربع بلديات لاستفادة كل بلدية من مشاريع التنمية عوض بلدية واحدة. بالعمودي تشبّع بالثقافة الفرنسية ولغتها مثلما هو متمكّن من اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم. كانت نظرته إلى مفتشي اللغة العربية ومديري المدارس المعرّين نظرة دونية، عكس نظرته إلى المديرين ذوي اللغة الفرنسية. في هذا الجوّ بدأتُ العمل في نفس المقرّ الذي كانت به مكاتب المفتشين الآخرين، كان لكل واحدٍ كاتبه الخاص، بما أن مناصبي جديد بقيتُ زهاء ثلاثة أشهر دون كاتب. كنت صباحاً في المدارس، أو في عمليات تكوينية للمعلمين، مساءً أنا الكاتب أرتب الوثائق، أطلع على البريد المرسل، أردّ عليه، أعدّ التوجيهات، التعليمات أرسلها إلى المدارس، أستقبل المديرين، المعلمين، الأولياء. كما أسلفتُ وجدتُ المساعدة اللامحدودة من المرحوم الجليلي كينة، ومن عطية مسعود الذي عمل أيضاً معي مستشاراً تربوياً، في نفس الوقت الذي كان يقوم بمهام المفتش المكلف رئيس البلدية معاذ إدريس.

**سنة دراسية إشرافية استثنائية:** كانت سنة دراسية استثنائية بالنسبة إليّ، من حيث إثبات الذات، إظهار القدرات الشخصية: الفكرية الثقافية، القدرة على التسيير، القدرة على تحديث عملية التأطير والتكوين بمقاطعتي، عصرنتُ أساليب التدريس، وتقنيات تبليغ المعارف للتلاميذ، إحداث هزة عنيفة لدى مديري المدارس في تطوير وعصرنة مهامهم خاصة البيداغوجية في المساهمة في عمليات

تكوين المعلمين، وتوجيههم. كما كان الرهان الوطني في تلك السنة منصباً على التحضير لانطلاق المدرسة الأساسية بداية من السنة القادمة حينذاك 80 / 81م، تعددت المنتقيات بورقلة، كما حضرنا الملتقى الوطني الجهوي لولايات الوسط في مدينة المدية لنفس الغاية. في تقررت، وضعنا رزنامة لعمليات تكوينية مشتركة كانت بعض العمليات موجهة للمديرين، وأخرى للمعلمين والمعلمات وفق مستويات تعليمية تارات لمعلمي السنة السادسة، أو السنة الخامسة، أو الرابعة، أو.. حضرناها كمفتشين كلنا، كل منا قدم مداخلة في موضوع ما، طبقت دروس لمستوى معين، شاركنا معاً في الردّ الإيجابي، المُنقَع على الأسئلة المطروحة علينا. كانت نظرة السيد بالعمودي نحوي في بداية الموسم شابها الحذر ظاهرياً، وفي الباطن ما اختلفت عن نظرتة إلى غيري من مفتشي اللغة العربية.

من خلال تلكم الرزنامة التكوينية المشتركة، وتعدّد لقاءاتنا، وحتى حواراتنا في كل المجالات سيّما في عالم التربية، والتطوّرات الحاصلة في العالم. كنت مشبعاً بتلك التطوّرات التي سبقنا إليها المغرب الشقيق الذي تفاعل خبراه مع التطورات البحثية في بلجيكا، وكندا؛ حيث تمكّن الأخوة المغاربة من أن يؤلفوا عديد الكتب في أصول التدريس، وتعليمية المواد. كنتُ وأنا في مركز التفتيش تحصّلتُ على تلك الكتب مصوّرة من أصدقاء بدورهم تحصّلوا عليها مصوّرة خاصة من المفتشين الطلبة المنحدرين من ولاية تلمسان. تلكم الكتب مكّنتني من أن أقدم نظرة جديدة تجاه المفتش على أنه الشخص ذو المعرفة الواسعة، ذو الثقافة التربوية البيداغوجية، الآتي بالجديد، القادر على إحداث ثورة تربوية في مقاطعته. في تلك العمليات التكوينية التي تفاعل معها المعلمون والمعلمات، وتماهوا معي، وتحمّسوا كانت النتائج لدى المتعلمين في تحسّنٍ مطّردٍ؛ حينذاك

تغيّرت نظرة بالعمودي إليّ، واعترف لي بالكفاءة، في جلسة الوداع، بكى أمامي متأثراً لَمَّا أعلمته في شهر سبتمبر 1980م أنني تحوّلت إلى دائرة الوادي. وجدتُ محبّة كبيرة من زملائي المفتشين، وتعاضداً؛ كما وجدت استجابة من المعلمين والمعلمات، ومن المعلمين السّوّافة الذين كانوا حينذاك يشكّلون النسبة الكبيرة في منطقة وادي ريغ: تقرت، جامعة، المغير؛ وحتى ورقة.

**المعلمون السّوّافة . . إشكالية انضباط الحضور:** ما أتذكّره أنّ منطقة الطيّبات شكّل المعلمون السّوّافة بها نسبة بالكاد تقارب المائة بالمائة، كان أغلبهم دون أُسرٍ، ما عدا المديرين، وكانت وسائل النقل في آخر الأسبوع تنقطع ما بين تقرت والوادي، فكانوا يغادرون المدارس منتصف يوم الخميس، وصباح يوم السبت يأتون متأخرين، فلا يعملون منتصف النهار صباحاً، في أحسن الحالات يبدوون العاشرة والنصف. كنتُ غير متسامحٍ مع هذا السلوك، إذ كنتُ بدوري أقدم من قمار باكرا، فأكون قريباً من باب المدرسة التي ليس بها مديرٌ مقيمٌ السابعة والنصف ماكناً بسيارتي أراقب، فإذا ما مرّت الثامنة والنصف، ولم يحضر المعلمون، أغادر إلى مدرسة أخرى نائية خاصّة ممّا لا تقع على الطريق الرئيسي. كان حراس المدارس من السكّان المحليين، غير راضين على سلوك المعلمين ذلك، كما كان الكثير من السكّان المحليين لا ينظرون بعين الرضا إلى السّوّافة عموماً. أتذكّر ذات يوم ولم يحضر المعلمون في موعد الدخول الرسمي؛ أنّ حارس مدرسة " الخبنة" تجاذبتُ معه أطراف الحديث عن المعلمين وانضباطهم، خاصة مساءات أيام الخميس، وصباحات أيام الأسبات، زمّ شفّتيه ثمّ صارحني بأن المعلمين السّوّافة أغلبهم يعيشون على ظهورنا في منطقتنا تجارة، وتعليمًا، حتّى وسائل

النقل لهم وحدهم، أثناء الحوار سألني عمّن أكون، ومن أين أتيتُ، أجبتهُ بهدوء،  
وبحميمية بأني من بلدة قمار؛ ارتعد خوفاً، طمأنته بأن ما قاله هو الحقيقة.  
.. عودَةٌ برائحة الجنين: ما دفعني إلى مغادرة مدينة تقرت سببان إثنان:

**1** - أن الوالدة رحمها الله أصيلة مدينة قمار ما ارتاحت إلى العيش في تقرت  
لابتعادها عن أختها القاطنة بجانبها، وبعدها عن الحي الذي سكنته طوال  
عمرها، في منزلها كانت لها أسرة من الماعز، والحمام، كما كانت تمارس حرفتها  
الحبّبة إليها، حرفة نسج البرانيس الصوفية . القشاشيب . الفراشيات . كان يومها  
مشغولاً في مملكتها التي تديرها وحدها في منزل واسع توسّطته ساحة كبيرة  
(حوشٌ)، تتسلّل إليه الشمس منذ الصباح الباكر، تغمره بالضياء، والهواء  
المنعش . وجدتُ نفسها في مسكن مدرسي ضيقٍ مغلقٍ، لا قريبات، ولا عنزات،  
ولا حمامات . كما أن الزوجة وكانت معلمة فقدت تلاميذها، وتلميذاتها الذين،  
واللّائي رافقتهم، ورافقتهم منذ السنة الأولى ابتدائي، كما فقدت رفيقاتها اللواتي  
عملت معهنّ طوال ثماني سنوات، وابتعدت عن والديها.

**2** - كانت الموادّ الغذائية من حليبٍ وزيتٍ وسكّرٍ نادرة، ولا تُعطى إلاّ بـ"  
المعرفة"، لأنّ الديوان الوطني للتجارة احتكر كل المواد، وقنن توزيعها على  
التجار الذين يجلبوا جيرانهم، أقاربهم، معارفهم . كما كانت الحضر قليلة لأنّ  
فلاحي المنطقة رغم خصوبة الأرض، وتوفّر المياه في بساتينهم اكتفوا بفلاحة  
النخيل، وزرع حشيش الأنعام، فكانت الحضر القليلة القادمة من الشمال يقع  
صراع بين الزبائن من أجل الحصول عليها، كما كانت أزمة الخبز من أشدّ  
الأزمات، إذ كانت المخازن قليلة، عملت إلاّ صباحاً من الفجر إلى طلوع

الشمس، كنت أضحيّ بصلاة الصبح مع الجماعة، كان عليّ أن انضمّ إلى الطابور مع آذان الفجر كي أتخصّل على خبزتين عوض أربعة، أحيانا قبل أن أصل محسب المخبزة ينفد.

في بداية الموسم الدراسي 80 / 81م تحوّلت من ولاية ورقلة إلى ولاية بسكرة، كانت وادي سوف دائرة، إذ تحوّلت إلى ولاية سنة 1984م نتيجة التقسيم الإداري الوطني. بعد مساعي قمتُ بها شخصا في الجزائر العاصمة، وقد أعانني حينذاك الفضلان، وتنقلّ أحدهما شخصا معي إلى وزارة التربية وهو الدكتور عبد القادر فضيل الذي درّسني بمركز التفتيش، والذي منذ تلك السنة ربطتني به صداقة حميمة كبيرة إلى يومنا هذا، كما أن الأستاذ الثاني عبد الله حوجال الذي درّسني علم النفس في مركز التفتيش، والذي رُقّي في تلك السنة التي التقيته فيها بوزارة التربية إلى مدير تربية في ولاية تيزي وزو. بمجرد أن التقيته، وأبديتُ له رغبتني صعد إلى مدير الموظفين الذي كان صديقه، وابن منطقتي من ولاية تيزي وزو، كانت الموافقة الفورية على تحويري.

.. من جنوب سُوفا إلى أقصى شمالها: في بداية شهر أكتوبر 1980 نُصِّبْتُ بمقاطعة الرياح التفتيشية إداريا، وتربويا، ودائرة قمار تربويا التي كانت تمتدّ حتى قرية لمقيرة الفلاحية وراء الحمراية في اتجاه بسكرة. دائرة الرياح ضمّت مدارس الرياح، النخلة الشرقية، النخلة الغربية، العقلة، العقيلة، وضمتّ منطقة قمار مدارس قمار، الرقيبة، الحمراية، إضافة لكلّ ذلك خمس مدارس بمدينة الوادي. كان مكتبي بمدرسة الإمام الغزالي ببلدة الرياح، كان عليّ أن أقطع المسافة الفاصلة بين قمار والرياح التي تنيف عن الثلاثين كيلومترا وصولا إلى مكتبي إذا لم أتوجّه شمالا نحو الرقيبة أو الحمراية، أو أعمل في مدارس قمار، أو الوادي.

مقاطعة شاسعة متعدّدة المدارس، كثيرة المعلمين والمعلمات، صعبة التغطية الإشرافية، التكوينية.

**المدرسة الأساسية . . مشروع فرحة أجهض:** إضافة لكل ذلك في تلك السنة بُدئ بتنصيب المدرسة الأساسية بداية بالسنة الأولى الابتدائية التي تمّ التحضير لها في الموسم السابق 79 / 80م، كان التكوين ذا شقين: تكوين المعلمين القداماء كما المعلمين الجدد المتربصين المتخرجين من معاهد تكوين المعلمين، والموظفين مباشرة، في نفس الوقت تكوين معلمي السنة الأولى ابتدائي أساسي، تكوين نظري سيّما المنهج والبرامج الجديدة، إلى جانب انتقاء معلمين أكفاء والشروع في تحضيرهم إلى التدريس في السنة الثانية أساسي أثناء الموسم القادم 81 / 82م، فتحضير المعلمين الجدد المتربصين إلى الترسيم. كان مرافقي في تطبيق هذه الرزنامة الطموحة الأستاذ الصديق تواتي محمد الذي كان مستشاراً تربوياً قديراً تولى مهامّ التفتيش بدوره فيما بعد إلى أن تقاعد، وكان من أقدرهم وأكفئهم. نجح نجاحاً كبيراً معي في مساعدتي في عمليات التكوين، سيّما مع المعلمين الجدد، وقد حلّ محلّه لمّا انتقل إلى التفتيش الأستاذ محمد علي سعادة . شفاه الله . الذي كان ذا مستوى عالٍ ثقافة عامة، وخبرة تربوية، وصدقاً وإخلاصاً في العمل، وانضباطاً، إضافة إلى كوكبة من المديرين القداماء ذوي الخبرة والكفاءة، وكذا المعلمين والمعلمات الذين جميعهم انسجموا معي، وتفاعلوا مع رزنامة التكوين، وبرامج المدرسة الأساسية التي شرع في تطبيقها تدريجياً سنة بعد سنة. مناهج المدرسة الأساسية وبرامجها استهدفت منذ البداية سلك المفتشين تحديداً أكثر من المواد التعليمية الأخرى، إذ وضعت الوزارة لكل موسمٍ دراسيٍّ برنامج سنة من السنوات الدراسية المزمع تطبيق الإصلاح عليها، كانت العمليات التكوينية

السنوية في مدينة باتنة حضرها مفتشو مقاطعات: أم البواقي، خنشلة، باتنة، بسكرة، وباللغتين العربية والفرنسية، درّسنا أساتذة رياضيات بدورهم تكوّنوا واستوعبوا البرامج الجديدة في الجزائر العاصمة. كنّا بعد العودة إلى مقاطعاتنا ننظم أيامًا تكوينية للمعلمين الذين انتقيناهم كي يدرّسوا تلاميذ سنة دراسية في الموسم القادم: السنة الثانية ابتدائي، السنة الثالثة، السنة الرابعة، حتى السنة السادسة؛ أي سنوات الطورين الأول، والثاني.

صدرت أمرية المدرسة الأساسية والمراسيم الملحقة بها في 16 أفريل 1976م، وكان من المفروض بداية تطبيقها في الموسم الدراسي 76 / 77 م، إلا أن الطابور الخامس، طابور فرنسا أعاق ذلك، ونجح في تأخير بداية التنفيذ أربع سنوات، علمًا أنه ما استسلم، وقد نجح في إلغاء المدرسة الأساسية بدعوى أنها أخرجت إلى المجتمع الجزائري "الإرهابيين"، وعوّضت من الرئيس الجديد المنتخب، الدّاعم لفرنسا، وثقافتها، ولغتها بعد 1999م بإصلاحات ابن زاغو التي استمدّت روحها من المنظومة التربوية الفرنسية. المدرسة الأساسية عُدّت بحقّ مدرسة جزائرية أولى خالية من الموروث الاستعماري، هي جديدة بما تضمنه مشروعها من برامج مستحدثة، ومناهج تربوية حديثة، ونظام مدرسي يتماشى والأهداف التربوية المنشودة للأمة الجزائرية؛ هي نقلة نوعية ذات قطيعة مع الموروث الاستعماري، جعلت التربية والتعليم في صورة غير التي كان عليها. إذا اعتبرنا أن المدرسة في النهاية، ما هي إلا أداة من أدوات تصريف السياسة التربوية، وتنفيذ فلسفة المجتمع، وعلمنا أن كل نظام تعليمي وتربوي، وفي كل المجتمعات عبّر التاريخ هو مرآة لحيطه، على مستوى التوجهات الكبرى، والاختيارات الأساسية التي يترجمها، ويعبر عنها في شكل غايات، وأهداف

تشمل عقيدته، ومرتكزاته الثابتة، ندرك أن رصد، وتحليل العلاقة بين المدرسة والمحيط كإشكالية، لا يمكن أن تستقيم إلا ضمن إشكالية عامة هي علاقة النسق التربوي بالمحيط.

في ظلّ النقلة التربوية النوعية التي شهدتها الجزائر خلال تلك المرحلة، ومع دخول مناهج المدرسة الأساسية حيز التنفيذ، بفقراتها التي تخاطب التلميذ بلسان عربي، ومفاهيم، وقيم وطنية، وطرح الحلول المناسبة لبعض من المشكلات المجتمعية، ما جعل من إحداث التطور التربوي التعليمي هدفاً بعيداً وطنياً سامياً. ما تجدر الإشارة إليه أن كل البرامج، والكتب المدرسية من السنة الأولى ابتدائي إلى السنة التاسعة من التعليم الأساسي أعدها جزائريون، ووُضعتْ على شكل كتيبات في كل المواد التعليمية، مع صياغة جديدة لمذكرات المعلم الوزارية، وأُرفقتْ لكم المذكرات بكراسات التطبيقات بحلّة مزدانة برسومات، وصور، وأشكال في مواد التربية الفنية (الرسم واشغال اليدوية)، كما الرياضات، ودراسة الوسط (العلوم). في بداية الثمانينيات عند الشروع في التنصيب التدريجي للمدرسة الأساسية بدأ تطبيق هذه البرامج تدريجياً، وما عرفت تغييراً، أو تبديلاً، أو تراجعاً باستثناء التخفيف... وبعض التعديلات الجزئية التي مسّت برامج المواد الاجتماعية سنة 1989م، وتعميم مادة التاريخ على جميع الشعب، كما تم تعريب المضامين، والحرص على جعلها توافق التوجهات الوطنية، وتتماشى و آفاق التنمية المتسارعة. أهمُّ المواد المعتمدة في المنهاج الوطني الجديد من المدرسة الأساسية في مراحلها الثلاثة: الطور الأول (ثلاث سنوات)، الطور الثاني (ثلاث سنوات)، الطور الثالث (ثلاث سنوات: مرحلة التعليم المتوسط) ؛ هي: التربية الإسلامية، والاجتماعية، واللغة العربية، والرياضيات، والعلوم؛ بالإضافة إلى

المواد التأسيسية، وهي التكنولوجيا، والتاريخ، والجغرافية، والموسيقى، وفنون التصميم إلى جانب التربية البدنية، واللغات الأجنبية المعاصرة، وُضعت بمعايير لتنمية عمليات التفكير ومهاراته، وتوفر مصادر المعرفة والتكنولوجيا وفرص استخدامها في المواقف المختلفة وتعد مادتي اللغة العربية والتربية الإسلامية من المواد الأساسية.

**الرياضيات . .** **حادثة في الأساليب، والموضوعات:** إن الأكثر حداثة مادة " الرياضيات وفق المنهاج الجديد"، جديد في موضوعاته، وفي أساليب تقديمه، ووسائله، إذ لا يخلو فرع من فروع الرياضيات من استخدام مفهوم المجموعات، فهي الأداة الأولى في التعبير عن محتويات، وبنى هذا الفرع. وما تجدر الإشارة إليه أيضًا هي الإشكالية اللغوية ظلت مطروحة، هذا يرى تدريس الفرنسية ابتداء من السنة الثانية ابتدائي، والآخر يريد الإنجليزية كلغة ثانية، وتدرس ابتداء من الطور الثاني، أي السنة الرابعة. وشرع في تدريسها تجريبيا في بعض المدارس، لكن وزير التربية المتحمس لتطبيق الإنقلبية أُحيط به في مؤامرة البكالوريا المعروفة. لكن مجتمع الفرنكفوليين تغلب لتبقى اللغة الفرنسية اللغة الأجنبية الأولى في النظام التعليمي الجزائري.

إن الهدف الأسمى من منهاج التربية الإسلامية والاجتماعية في الأطوار الثلاثة للتعليم الأساسي هو تنمية قدرات المتدربين ليصبحوا مواطنين مسؤولين، وفاعلين في المجتمع، يتمتعون بتقدير الذات، واحترام الآخرين، وإدراك واضح لقضايا المحيط. اعتمد التدريس في المنهج الجديد التعليم بالاهداف، وعلى الطريقة الحوارية في معالجة النشاط التعليمي، وإيصال المعارف إلى التلاميذ بأيسر السبل، وأقل الوقت والجهد. هو الأسلوب الذي منح للمعلم مكانة اجتماعية

خاصة، وفعل وظيفته، ودعم رسالته. ولا شك أن الرقيب الحقيقي على ما يقوم به المعلم ونقاء سيرته وطهارة سريره هو ضمير يقظ ونفس لؤامة فالأمانة والأخلاق العلمية مسؤولية كبرى وهو يدرك أن أي تقاعس في أدائها هو لون من ألوان الخيانة وتدمير البيئة التعليمية.

**وظيفة متشعبة**؛ كانت وظيفتي متشعبة الاتجاهات، والأدوار، وقد أدبتها وما بخلتُ، والله شاهدٌ. كلّفني ذلك الإرهاق البدني، والمالي حتى أن السيارة التي تحصلتُ عليها من وزارة التربية بموجب ضمان قرض سنة 1983م كرفاقي المفتشين، خدمتُ بها التربية والتعليم أكثر ممّا خدمتُ بها أسرتي. ممّا أتذكره أن مدرسة الذكور بقمار التي كنتُ معلّمًا بها، لمّا تحوّلتُ من تقرت إلى الوادي كانت ضمن المدارس التي أشرفتُ عليها. بعض المعلمين زملائي ما هضموا البتّة أن يكون زميلٌ لهم مفتشًا مشرفًا عليهم، شرعوا في تصيّد العثرات، في البحث عن الأخطاء وتضخيمها، النميّة، عملا بقاعدة " ما تنبأ نبيّ في قومه"، " مُغنيّ الحي لا يُطرب". غير أيّ استطعتُ أن أفرض شخصيتي بفضل الخبرة الميدانية التي اكتسبتها في الجزائر العاصمة أثناء تكويني، ثم أثناء عملي بتقرت؛ إضافةً إلى الكتب الجديدة التي تحصلتُ عليها من المغرب، نجحتُ أن أقدم الجديد غير الذي عرفه المديرين والمعلّمون، أتيتُ بطرق وأساليب في التدريس، ومعارف في التربية وعلم نفس الطفل ما اطّلعوا عليها، كما كنت لا أعتمد، ولا أنظر إلى كتب وزارة التربية الوطنية التي بين أيديهم، كنتُ أشرك المديرين الأكفاء، والمعلمين في عمليات التكوين والترسيم بعد أن أوجههم؛ وبذلك نجحتُ في مهامّي من خلال العمل الجماعي، والحوار مع الجميع، كما إعطاء كلّ ذي حقّ حقه دون تسامح في ضياع حقّ التلاميذ. ما تسببتُ يومًا في عزل معلّم أو معلّمة

قط، إنما وقوفي الصارم أمام التهاون، أو الغيابات المتكررة، أو التقصير ما تهاونت فيه، حتى صرتُ أعرف بـ "المفتش الواعر" عند الكُسلاء المهتاوين، واكتسبتُ احترام الجديين حتى بعد تفاعدي.

منهجي كان في ذلك مضمون الآية القرآنية الكريمة: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) { النساء 58 }

في سنة 1981م بعد مساعٍ حثيثة متي مع مدير التربية السيد جودي الدوّادي ببسكرة تغير مقرّي الإداري من بلدة الرّباح إلى بلدة قمار أين أقيم، على أن تبقى منطقة الرّباح والبياضة وقرى النخلة الشرقية، الغربية، الخبنة، العقلة، العقيلة تابعة إليّ تربويا. ممّا خلّصني من التنقل شبه اليومي من قمار إلى الرّباح. بعد سنتين وقعت مشاكل للزميل مفتش منطقة الدبيلة في الجهة الشمالية الشرقية من الوادي، جمّد مدير التربية نشاطه، وأسند تلك المقاطعة التفتيشية إليّ لمدة سنتين. مقاطعة تفتيشية شاسعة: مدارس الطريفاي، حساني عبد الكريم، الزقم، السويهلة، سيدي عون، الحمادين، الدبيلة، المقرن، حاسي خليفة، الدرمني؛ ساعدي وسهّل الأمر عليّ حينذاك الأستاذ الفاضل بادي الأخضر المستشار التربوي، والسيد خزّان الناصر كاتب المفتشية الذي كان كاتباً معي في تقرت. تلك الشساعة المتزامية الأطراف من قمار نحو المقيرة تجاه بسكرة، ومن الوادي إلى حاسي خليفة تجاه تونس وتبسّة، ومن قمار تجاه جنوب ربيع سُوّف مروراً بمدينة الوادي دفعت بي إلى ترسيم 96 معلماً ومعلمة في سنة دراسية واحدة. كما أنّها سبّبت لي صداماً مع مدير التربية الولائي في بسكرة ذات يوم في اجتماعٍ مع إدارات التربية حول تقييم الدخول المدرسي، ومتابعة إنجاز البناءات

المدرسية في الولاية؛ إذ لمَّا وصلنا إلى محور البناءات بدأ نائب المدير المكلف بها السيد ابن سالم بمفتش قمار بشير خلف، قبل إعطائي الكلمة أشار إلى أن الجداول الشهرية المرسله من مقاطعة قمار متذبذبة غير ثابتة، نفس الجدول لبناءات في مدرسة ما في الشهر الماضي كانت نسبتها كذا، وفي جدول هذا الشهر هبطت النسبة، وبتهكم سافلٍ تساءل، كيف هذه البناءات بُيِّتَ ثم أُعيد هدمها، عقَّب مدير التربية بعده قائلاً، ونظر إليّ، «اللي ما هوش قادر يحط المفاتيح.» فما كان مني إلا أن أجبته بأيّ لا أملك مروحية تمكّني من زيارة كلّ المدارس، ومتابعة إنجاز البناءات المدرسية في ربوع وادي سُوف، ثم إنَّ قرار تعييني ما به مادّة قانونية تُلزمي بمتابعة البناءات المدرسية، أمّا المفاتيح فإني افتككتُها بمُوجب قرارٍ وزاريٍّ بعد عام تكوين مكثف، ومرتبة تخرّج مشرّفة. بُهت المدير، وجَم الجميع، خيم السكون لدقائق على القاعة، ثم طلب من نائبه إعطاء الكلمة لمفتشٍ آخر.

**إيجاءاتٌ شريّرةٌ:** في سنة 1982م أعادت الشركة الوطنية للنشر والتوزيع طبع مجموعتي القصصية "أخاديد على شريط الزمن"، وصلت مدير التربية أخبارها، ونشاطي الثقافي أحياناً، في اجتماع للمفتشين كنت حاضراً، أثناء تقييمه لعملهم التكويني والإداري أشار تلميحاً إلى أن المفتش عليه أن يؤدي وظيفته كاملة، وألا يُشغل نفسه بنشاطات أخرى لا علاقة لها بمجال التربية والتعليم والتكوين مثلما يقوم به بعض المفتشين من كتابة القصص على كُتبان الرّمال في منطقة سُوف، قصدني شخصياً، وكما فهم كلّ الحاضرين. بعد الاجتماع مباشرة طلبتُ منه لقاء في مكتبه، أفهمته أن القصص التي تكلم عنها هي مجموعة قديمة صدرت سنة 1977م عن وزارة الثقافة قبل أن أكون مفتشاً، وقد أُعيد طبعها، وأنّ الذين

أبلغوه أصحاب فتنة، وكذب. طلبتُ منه إحضار نائبه المكلف بالتكوين أن يقدم له إحصاء بنشاطي خلال الثلاثي الأخير من ندوات تربوية، وملتقيات تكوينية للمعلمين، وتقارير تفتيش، و رئاسة لجان ترسيم. وأفهمته أن ما أنجزته أكثر مما أنجزه ثلاثة مفتشين يعملون في مدينة بسكرة. للأمانة أن مدير التربية ذاك جودي الدوادي منذ ذاك التاريخ أضحى يحترمني، ويقدر مكانتي أنا والصديق الأستاذ بوبطة بوبكر.

.. **عضو اللجنة الوطنية المتساوية الأعضاء:** في سنة 1991م انضمتُ و طنيا في اللجنة الوطنية المتساوية الأعضاء لأسلاك التفتيش، والمقتصدتين، ومديري الثانويات والمتوسطات. ؛ من مهام اللجنة إجراء حركة أولئك الموظفين، ترقيةهم، ثم تتحول اللجنة إلى هيئة تأديب، أي تسليط عقوبات على من ارتكبوا مخالفات في التسيير المالي كالمقتصدتين، مخالفات شرف، أكثروا من الغيابات، تسببوا في أضرار مرافق عامة، عجزوا في تسيير مؤسساتهم. في أول اجتماع ترأسه حينذاك السيد قيتة الأمين العام لوزارة التربية، بعد التعارف في اليوم الأول أجرينا حركة الموظفين والترقيات، صباح اليوم الموالي تحوّلت اللجنة إلى مجلس تأديب، عُرضت علينا عدّة قضايا تأديبية ؛ فوجئنا برئيس الجلسة المفترض فيه أصلاً أستاذًا للفن التشكيلي أن يتّصف بالحميمية، والرحمة، وسموّ الذوق ظهر شيطانًا شرسًا بعيدا عن الرحمة الإنسانية؛ إذ من المفترض قانونًا أن يتم الاستماع إلى المعني، ومن حقه الاستعانة بمحام؛ كما كنّا نحن المنتخبين نجهل مجريات هكذا جلسات؛ وحتى ممثلو الإدارة (الوزارة) المديرون المركزيون تفاجؤوا ببنجعية ذاك المسؤول الذي استطاع أن يفرض سلطته، وقد تمّ تسريح ستة موظفين نهائيًا من سلك التعليم ما بين أساتذة ومديرين في تلك الجلسة وحدها دون ممارسة حقّ التصويت. أتذكرُ أنّ

أحد أساتذة التعليم الثانوي مرّ أماننا في قضية سوء تفاهم بينه، وبين مديرة ثانوية بالعاصمة هي زوجة لمسؤول كبير، امتدّ سوء التفاهم لَمّا كان الجميع أساتذة وأستاذات، وطلبة، وطالبات حول سارية العلم يوم آخر الأسبوع؛ حيث أهانت المديرة الأستاذ أمام الجميع؛ ما تحمّل فصفعها؛ أصرّ رئيس الجلسة تسريحه نهائياً رغم اقتراحنا بتبديله إلى ثانوية أخرى في ولاية بومرداس، أو البليدة. كانت ضربة قويّة لنا في الصميم نحن الذين انتخبنا موظفو التفتيش، المصالح الاقتصادية، ومديرو الثانويات، والمتوسطات أن ندافع عن حقوقهم، وأن نكون بجانبهم إلّا في حالتين: الاختلاس المالي، قضايا الشرف. عقدنا العزم أن لا يتكرّر مثل ذلك الظلم في الاجتماعات القادمة، وقد انضمّ إلينا بعض ممثلي الإدارة (المديرين المركزيين)، وما رأينا لذلك المسؤول حضوراً بعد ذلك الاجتماع.

**الغشّ قديمٌ . . . قدم الإنسان !**؛ من الأمور التي آلمتني في وظيفتي التفتيشية حالات الغشّ في البناءات المدرسية، وتواطؤ مكاتب الدراسات مع المقاولين الغشّاشين، وحتى بعض رؤساء البلديات بأن كان الغشّ في نوعية حديد الأعمدة، عوض **14** يكون **12**، أن يكون التراب، أو الحصى أكثر من النسبة المنصوص عليها في الدراسة، تصادمتُ أثناء مراقبتي لإنجاز البناءات المدرسية عديد المرّات مع المقاولين، كما امتنعتُ في كثير من المرّات استلام الحجرات، والسكنات المدرسية، كثيراً ما اكتشفتُ السكنات بدون شبكة تصريف المياه، اكتشفتُ الغشّ في نوعية الأسلاك الكهربائية، بل اكتشفتُ " بارات " أعمدة الحجرات الدراسية بدل أن تكون في الأعمدة تسعة، فإذا هي ستّة، وهكذا.

من الغرائب التي مرّت بي أننا ذات مرّة استلمنا مطعمًا مدرسيًا في منطقة ريفية راهن عليه التلاميذ وأولياؤهم الكثير من الأمل وقد أنجز سقفه بموادّ بناء

محلّية" حبس، حجارة"، ما أن عدتُ إلى مكنتي حتى هاتفني المستشار الولائي للمطاعم المدرسية السيد بوقطاية، بأن سقّف المطعم الذي استلمناه منذ ساعتين سقط كلياً؛ إذ تبين لنا لاحقاً بعد الخبرة أن مادة الجبس أضاف لها المقاول الكثير من التراب المحلّي الغير الصالح للبناء. أيضاً من السلوكات المتعمّدة التي عثرتُ عليها عند بعض مديري المدارس استغلالهم للمطاعم المدرسية، وكأنها ملكٌ لهم، عقدوا الصفقات مع ممولين لتزويد المطاعم بخضر وفواكه أقلّ جودة، على أن تكون الفوترة لمواد جيّدة والفارق استفاد منه المدير بجمية الممّون، بعض المديرين حرموا التلاميذ من مادة اللحم وتعويضها بالجن، أو بعلب السردين، بعضهم يأخذ لمنزله يوميا وجبات، وخاصة يوم طبخ الدجاج؛ بل وجدت آخرين منذ فتح المطعم بمدرسته انقطع عن التسوّق، واعتمد على أخذ معيشة أسرته من المطعم المدرسي دون خوفٍ من الله، ودون مراعاة لحقوق التلاميذ الفقراء، حقّ الإطعام الذي أعطاه المجتمع الجزائري لأبنائه المحتاجين. هي حالات "غيضٌ من فيضٍ"، وجدتُ نفسي تجاهها مخيراً بين غضّ الطرف (شاهد ما شافش حاجة)، وبين تبرة ذمّتي بأن أبلغتُ مديرية التربية بتقارير مثبتة عن سوء التسيير، والاختلاس؛ بل اضطرتت في حالات وإن كانت قليلة غلق المطعم طالما أنّ ذلك المدير على رأس المدرسة.

**باقات احترام وتقدير:** علاقتي مع كل مديري التربية الذين عملت معهم جميعاً اتسمت بالحميمية والعلاقة الجيّدة والاحترام، والتقدير الّلامحدود طوال مساري المهني، كلهم كانوا نعم أصدقائي. نلتُ منهم أعلى العلامات، وأفضل الملاحظات. معهم مثّلتُ المفتشين في مطالبهم المهنية المادية وهي كثيرة منها تعويض مصاريف النقل التي تحمّلنا عبئها الثقيل من جيوبنا، وعلى حساب خبز

أبنائنا، التعويض جزافي كأن يُعوّض المفتش عن تنقلاته طوال السنة الدراسية إلى مدارس مقاطعته النائية والقريبة، وبسيارته الشخصية بمبلغ مضحك زهيد: 7000. د. ج، أو أكثر أحياناً بقليل. أيضا كثيرا ما كان المفتش يتسوّل ورق الكتابة لتسيير وظيفته الإدارية من البلدية، أو من مدير متوسطة صديق. كنتُ أنعتُ بـ " عميد المفتشين"، كلُّ مديري التربية دون استثناء قدّموا أغلب المطالب التي قدّمتها باسم المفتشين.

أول مدير تربية (مفتش الأكاديمية)، رَحْب بي، التقيت به وعملتُ معه المرحوم الأستاذ أحمد بن حبيلس في ورقلة، ثم الأستاذ فرحات نجاحي في بسكرة الذي أضحي مفتشا عامًا فيما بعد ورسمني في لجنة ترأسها رفقة صديق الأستاذ المرحوم دحّ عبد الرحمن، والأستاذ الفاضل أستاذي الأول التكوين التفتيشي المرحوم منصور جبالله، ثم مدير التربية الأول بالوادي الذي كوّننا معه المديرية الأستاذ البهي حسّاني محمد، فمدير التربية المرحوم قسّوم عُمر، ثم مدير التربية الأستاذ المبدع الشاعر محمد بن رقطان، فمدير التربية الأستاذ الحّيّ مصطفى بن روّان، ثم مدير التربية الأستاذ الفاضل التجاني العروسي، فالمرحوم البهي الطيب الأستاذ الطاهر خليل.

اللهم ارحم، واغفر لمن غادرونا إلى دار البقاء، وجازهم أحسن الجزاء على ما قدّموا للأجيال، وللأمة الجزائرية، وارزق من هم أحياء الصحة والعافية، وجازهم دنيا وآخرة على ما قدّموا من خدماتٍ جلييلة لأبناء وبنات الجزائر ولوطنهم. من المفتشين الذين عملتُ معهم وأحمل لهم في جوارحي كل آيات التقدير والاحترام:

دَحّه عبد الرحمن، الأستاذ لكبير منصورى جبالله، المرحوم كينة الجىلانى، نوار محمد، معاذ إدريس، عطية مسعود، تواتى محمد، سعادة محمد على، طارق شارف، شايح بن سالم، بوحامد محمد الطيب، بوزنادة زين العابدين، بوطه بوبكر، منصورى محمد الصالح.

رحلة تربوية مباركة.. أضاءت عتمات؛ هي رحلتى فى حقل التربية والتعليم ابتدأت بمعلم ممرّن فى مدرسة جبلية أعالي بلدية عصفور بولاية الطارف أواخر شهر سبتمبر 1964م، وانتهت بمفتش مرسم بمدينة قمار يوم فاتح أكتوبر 2001م، بعد عطاء تربوي تعليمي تكويني، متواصل مدّة 37 سنة.

تلتها رحلة أخرى ما قلّت عن الأولى حيث احتضنت فى حنان: الجمال والفنون، والإبداع الأدبي من سرّد، وشعر، ومسرح، والفكر بكل مكوّناته.. رحلة أخرى مباركة.

## 14. غوايةُ السُّلطةِ الرَّابِعةِ

استهوتني الكتابة في الصحافة المكتوبة في وقتٍ مبكّرٍ، أي منذ سنة 1971م، منذ ما يقرب من الخمسة عقود، لمّا كنتُ أعمل مدرّساً في جامعة، وكنتُ أزور بلدي قمار، ومدينة الوادي لاحظت نقصاً كبيراً في وسائل النقل التي تربط ما بين منطقة وادي سُوف، ووادي ريغ، ومدينة بسكرة باعتبارها بؤابة الشمال، كذا لا توجد وسائل نقل المسافرين من ربوع سُوف نحو الجزائر العاصمة، والعكس. ممّا لاحظته حينذاك أن حواضر منطقة سوف كمدينتي الوادي وقمار بهما صناعة راقية للزربية السُوفية التي اشتهرت بها حتى خارج الجزائر، وكان السوّاح الأوروبيون الذين كانوا يقدون إلى المنطقة بأعدادٍ كبيرة يشترونها. لاحظتُ حينذاك أن الجيل الجديد عزف عن تعلّم صناعتها، ومنّ يمارسون صناعتها حينذاك تقدّم بهم العُمُرُ، وبرحيلهم تموت تلك الصناعة، وهو ما حصل فعلاً فيما بعد، ممّا لاحظته أيضاً حينذاك تفشّي البطالة بين الشباب، وتسربّ روح الاتكال على الدولة، وبدء ظاهرة العزوف عن العمل اليدوي، ورؤية المستقبل إلّا من خلال الوظيف الحكومي الذي كان منحصرًا في التربية وحدها، والتربية لا تسع الكل. ظواهر بدت لي أن أكتب عنها في صحيفة "المجاهد الأسبوعي" الصحيفة الوحيدة التي كانت تصل منطقتنا أسبوعياً، علماً

أما لا تُباع؛ إنما كنتُ أحصل عليها من قسمة جبهة التحرير الوطني، باعتبارها لسانه، والناطقة باسمه.

-البداية مع صحيفة" المجاهد الأسبوعي": كتب الأديب الشاعر عبد الله جدّي (ابن الأصيل) أصيل مدينة المسيلة ما يلي:

«حين عدتُ إلى أرشيفي بحكم معاصرتي لبشير خلف في مجال الكتابة، وجدتُ أوّل تجربة له في هذا المجال، كانت في نهاية أوت 1970م، ونُشرت بالتحديد في الثلاثين من شهر أوت (أغسطس) 1970م الموافق 27 جمادي الثانية 1390 هـ. في العدد: 523 من مجلة المجاهد الأسبوعي، اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني، وعلى الصفحة: 31 من المجلة.

كانت الصفحة 30 و31 من المجلة مخصصة عادة (للبريد) وفيها يستخدم النقاش، وتُطرح المشاكل الاجتماعية والسياسية والثقافية... وجاء العدد السالف الذكر (523) بأول موضوع للأستاذ بشير يُنشرُ في المجلة تحت عنوان (مشكلة المواصلات في الواحات).. الموضوع يُقرأ من عنوانه. كُتب العنوان بالحرف الكبير، وشغل الموضوع نصف الصفحة الكبيرة تقريبا.. وقد تطرق فيه الكاتب إلى نشاط المواصلات في الجنوب الذي كان يحتكره مركز (تقرت) الذي يربط مناطق ولاية الواحات، وقد خصص له فرعا جهويا في مدينة الوادي يتولى ربط الوادي ببسكرة وتقرت، والقرى المجاورة؛ حيث خصص لهذا الغرض عدة حافلات حديثة.. ولعل أهم ما تجدر الإشارة إليه في هذا الموضوع الاجتماعي هو أن الأستاذ بشير راح يسرده في أسلوب شيق وطريف حيث يعرج على استحسان المواطنين لهذا المشروع الذي أراحهم من الحر، والانتظار، قبل أن يصف لك ما حدث في تلك السنة 1970م من تعطل الحافلات التي لم تبق منها

إلا واحدة تربط الوادي بتوقرت، وأخرى تربط الوادي ببعض القرى مثل (قمار)، وهي حافلة من العهد الاستعماري لم تُعفها الشركة رغم زجاجها المظلم، ومقاعدتها الحديدية، وحمولتها التي تتعدى أحيانا مائة شخص أو أكثر..

هنا استغل أصحاب السيارات حاجة المواطنين ليفرضوا إرادتهم في رفع السعر، وفي الحمولة التي تزيد أحيانا عن الخمسة عشر فردا في السيارة الواحدة.. هذا ملخص الموضوع الوصفي الطريف الذي يدل على بداية الكاتب الموفقة في الأسلوب والوصف والطرافة والطرح الذي يدعو إلى قراءته كاملا. «  
مما أتذكره جيدا أنه بعد نشر ذلك المقال بمدة شهر، أو نيف بقليل، خصّصت الشركة الوطنية لنقل المسافرين S. N. T. V، وهي شركة فتيّة حينذاك حافلةً جديدةً بخطّ ليليّ تربط مدينة الوادي بالجزائر العاصمة.

كانت الصحافة بالنسبة لي ممثلة في إذاعة الجزائر، إذاعة كل الجزائريين الذين صهرتهم لمدة عقود في باقة ورْدٍ واحدةٍ موحدّين، كانت الإذاعة مصدر أخبار ذات مصداقية، منبع فكر راقٍ، منهل التثقيف، الإبداع الراقى، والفن الممتع؛ عكس واقعنا الحالي الذي تفتّت فيه الجزائريون إلى 48 إذاعة ولائية، وإذاعات موضوعاتية تحت شعار "الإعلام الجوّاري" الذي من أهدافه مخاطبة المرأة الماكثة في بيتها، والفلاح في حقله، والتاجر في متجره، والسائق في حركته اليومية، وسفرياته بلغة بسيطة يفهمها الكل، حتى وإن كانت اللغة عامية ولم لا؟ حتى اللهجة المحلية.

كما كانت مجلّة "المجاهد الأسبوعي"، رمز الوطن في كل مكوناته، المعبرة عن آمال الجزائريين، كما كانت الإعلام الهادف، المرّي، الصادق في عرض الأخبار المحلية، الجهوية، الوطنية، العالمية.

ما اكتفيتُ بذلك، فكنت أنتشي ببرامج B. B. C، ممثلة في إذاعة" هنا لندن" التي كانت ذات صوتٍ واسع في العالم العربي، ولها ملايين المستمعين، إضافة إلى مجلتها الثقافية الشهرية الموسومة بـ " هنا لندن" التي كانت تصلني عن طريق البريد. كما إذاعة تونس التي لحدّ الآن أتذكّر؛ بل أعمل بتلك اللمسة التربوية ذات الذوق الراقي عندما تدقّ الساعة العاشرة ليلاً، تسمع همساً حنوناً: "العاشرة احترام الجار".

هذا الاهتمام بالإعلام دغدغ لديّ خِفية نزعة الالتحاق بالصحافة، لكن كيف؟ وبأية مؤهلات؟ كان النموذج لديّ الأستاذ الإعلامي الكبير، والمؤرخ الحضيف لأهمّ تاريخ الجزائر المعاصر، ومحاور الشخصيات الجزائرية، صانعة هذا التاريخ الأستاذ محمد عباس الذي لمّا كنتُ معلّماً في بداية الطريق بمدرسة علالة عيسى بمحاذاة مطار عنابة، كان معلّماً كحالي في بداية الطريق بمدرسة مجاورة لمدرستي. ترك التدريس، والتحق بالصحافة، وقطع فيها أشواطاً كبيرة، وعمل في عديد المؤسسات الإعلامية إلى أن أسّس صحيفة " السلام اليومية" بعد إقرار التعددية السياسية والإعلامية بعد أحداث 05 أكتوبر 1988م.

الإعلام في تقديري.. السلطة الثانية: منذ ذاك العهد رسخ في ذهني، ولا أزال أن "الإعلام سلاحٌ خطيرٌ".، لكنه سلاح الأقوياء، أقوياء السياسة، أقوياء المال، أقوياء النفوذ؛ قد تنخرم هذه القاعدة مؤقتاً في فترات منفلة فيكون هذا الإعلام إلى جانب الضعفاء المقهورين، يكون سلاحهم إلى حين. سرعان ما يستردّه الأقوياء. يُقال عن الإعلام "السلطة الرابعة"، بحكم معاشتي للأحداث الوطنية، الجهوية، العالمية، للصراعات العالمية، الإقليمية منذ عقود ستّة، تبيّنتُ أن الإعلام هو السلطة الثانية، وليست الرابعة.

.. لقبوها بـ "السلطة الرابعة؟": يُراد بالسلطة الرابعة، (الإعلام)، وما يؤديه من دور الرقيب، والناقد لمؤسسات المجتمع والدولة، بهدف التقويم والتسديد والبناء. وإنما وصفت بالرابعة لأنها تأتي بعد السلطات الثلاث الرئيسة، فقد قسم الفيلسوف الفرنسي "مونتيسكيو\*" السلطات إلى ثلاث سلطات، وهي: السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية، والسلطة القضائية، إلى أن جاء الفيلسوف الإنجليزي "إدموند بروك\*" وأعلن الاعتراف بنفوذ الصحافة، وسمّاها السلطة الرابعة حيث قال:

«ثلاث سلطات تجتمع هنا تحت سقف البرلمان، ولكن في قاعة المراسلين تجلس السلطة الرابعة وهي أهمّ منكم جميعاً».

استُخدم مصطلح السلطة الرابعة بكثرة منذ أول ظهور له في منتصف القرن التاسع عشر، انسجماً مع الطفرة التي رافقت الصحافة العالمية آنذاك، ليستقر أخيراً على معناه الذي يشير بالذات إلى الصحافة وبالعموم إلى وسائل الاتصال الجماهيري، كالإذاعة، والتلفاز.

كما يستخدم هذا المصطلح في سياق إبراز الدور المؤثر لوسائل الإعلام تجاه المجتمع، ليس في تعميم المعرفة والتوعية والتنوير فحسب؛ بل في تشكيل الرأي، وتوجيهه، والإفصاح عن المعلومات، وخلق القضايا، وتمثيل الحكومة لدى

---

• - شارل لوي دي سيكوندا المعروف باسم مونتيسكيو؛، فيلسوف فرنسي صاحب نظرية فصل السلطات الذي تعتمده غالبية الأنظمة حالياً. ولد مونتسكيو في جنوب غرب فرنسا بالقرب من مدينة بوردو عام 1689 م، حيث تعلّم الحقوق وأصبح عضو برلمان عام 1714م.

\* - إدموند بروك مفكر سياسي إيرلندي. وُلد في: 12 يناير 1729م. تُوّفّي في 9 يوليو 1797

الشعب، وتمثيل الشعب لدى الحكومة، وتمثيل الأمم لدى بعضها البعض. وتتقدم السلطة الرابعة على السلطات الثلاث لسبب واضح وهو أن السلطة الرابعة تمثل الشعب، وتمارس دورها باستقلال تام.

إذاً من حقّ السلطة الرابعة أن تنافس السلطة الثانية، وهي الحكومة بأجهزتها التنفيذية في متابعة التحقيق في قضايا تهمّ الرأي العام، وهذا الحق لا يمكن أن يسقط إلا بقرار من السلطة الثالثة، أي السلطة القضائية، وهو ما يكشف عن حكمة السلطة التشريعية، وهي السلطة الأولى المنتخبة من الشعب. الإعلام في عصرنا هذا يُعتبر أقوى سلاح، لديه القدرة على جعل الأبرياء مذنبين وجعل المذنب بريئاً، وهذه هي القوة لأنه يسيطر على عقول الجماهير. كما أنّ التطور التكنولوجي لوسائل الاتصال، وأساليب التواصل جعل من الإعلام نافذة مفتوحة للجميع يمكن من خلالها أي إنسان أن يوجّه الآخرين بأي أفكار، وتغيير توجهاتهم في كل وقت، فهو وسيلة تخاطب الرأي العام؛ بل قد يكون سبباً كبيراً في رسم الأحداث بشكل جذري وتغيير ثقافة مجتمعية وفكرية.

**إعلامٌ جديدٌ جذب بسحره الجميع:** وعندما أصبح استخدام الإنترنت أكثر انتشاراً، صار الوصول إلى الإعلام متاحاً للجمهور بطرق لا يمكن أن يتصورها القراء والمشاهدون للأخبار في العقود الماضية، فقد أصبح مزيجاً مثالياً من التكنولوجيا، والموارد البشرية ممّا يمكّن المستخدمين على الإنترنت من نشر وجهات نظرهم من خلال التدوينات، والتعليقات، ووسائل الإعلام الاجتماعية، وزيادة القدرة على نشر وجهات نظرهم والمعلومات بشكل كبير.

**جمعية ثقافية رائدة:** في بداية الثمانينات من القرن الماضي كانت الجمعية الثقافية للشبيبة بلدية قمار جمعية نشطة، كنت عضواً بها رفقة كوكبة من الأصدقاء النشطين ذوي طموح عالٍ في إحداث نهضة ثقافية بالمدينة، منهم: المرحوم إدريس التهامي المعلم المسرحي، شنة بوبكر المعلم الصحفي، مراسل صحيفة النصر في السبعينات والثمانينات، بلباح بشير الأستاذ، والفنان التشكيلي شبه الوحيد في ربوع سُوْف في ذلك العهد، مسعود سرهود، وأسماء أخرى. شاركت الجمعية سنويا في مهرجان المسرح بمستغانم، نالت عدّة جوائز، كما نالت شهرة بفضل فرقتهما المسرحية الرائدة تلك.

ارتأت الجمعية أن تقيم في كل عطلة صيفية مهرجاناً ثقافياً تستدعي إليه فرقا مسرحية تقدّم عروضها في الهواء الطلق بالبلدة، أطلق عليه "المهرجان الثقافي بقمار" نُظّم المهرجان الأول، كانت التجربة ناجحة، تواصل المهرجان، ووجد الدّعم المادي والمعنوي والحضور الكبير في لياليه من السكّان، ثمّ من رئيس البلدية المرحوم "المغتال" عبد الرحمن بن عيشة الذي صار يستقدم للمهرجان كُتّاباً، وشعراء، وإعلاميين معروفين في الساحة الثقافية الجزائرية. تحوّل المهرجان الثقافي بقمار إلى عرسٍ ثقافي سنويّ. كنتُ إضافة إلى عضويتي في هيئة تنظيمه، وتسييره مُنشطاً لياليه.

نتيجة نجاحنا في المهرجان الثقافي السنوي، كما نجح الفرقة المسرحية للجمعية المتتالي في مستغانم، قرّرنا أن تكون للجمعية مجلة ثقافية باسمها، دورية تدوّن نشاطات الجمعية مثلما تتضمّن مواضيع ثقافية آنية، أو فكرية ثقافية عامة، وبما أنّ أعضاء الجمعية كان لهم طموح كبير في أن تكون بلدة "قمار" وهي بلدة العلماء منذ القديم، أن يكون اسم المجلة "الطموح".

كانت وسائل الكتابة والطبع محدودة وتقليدية؛ إنما كانت الإرادة قويّة وحماسية، آلة راقنة للكتابة، الكتابة على ورق "الستانسيل" لكل صفحة، آلة سحب عادية (رونيو)، وليس طابعة كما هو الحال اليوم، ما كانت الصور الرقمية الملوّنة؛ كان الفنّان التشكيلي بلباح بشير بأنامله الذهبية يبدع خطوط عناوين المقالات، وبريشته يرسم الأشكال الفنية، وكذا الرسوم المتوافقة مع الموضوع.

**1 - مجلة الطموح:** مجلة دورية. إصدار: الجمعية الثقافية للشبيبة بقمار. المدير: ادريس التهامي رئيس الجمعية. رئيس التحرير: بشير خلف. على سبيل المثال، إذا تصفّحنا العدد السابع: **1983**، لوجدنا: كلمة العدد لرئيس التحرير، عادة ما تتطرق إلى قضية آنية قد تكون فكرية، ثقافية، اجتماعية، بيئية.

أ. إسلاميات: حدود الحرية للمرحوم زغودة التجاني. رسالة المسجد للحبيب السايح. الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. رجال صنعهم القرآن. طلب العلم. إنما المؤمنون إخوة.

ب - في الثقافة العامة: الاختلاف بين المرأة والرجل. لماذا نتزوج؟ الدرافيل حيوانات ذكية. مشكلة العرب.

ج. رياضة وتسلية: ملاحظات حول الدورة الرياضية. الكلمات المتقاطعة. بريد المجلة.

نجحنا في رهاننا، كسبت المجلة الكثير من القراء، تهاطلت علينا المقالات للنشر في المجلة. الطموح تحقّق. قرّرنا أن تكون "منبراً ثقافياً"، فضاء أرحب للفكر، والثقافة، والخروج بها من محليّة قمار إلى رقعة أوسع، رقعة وادي سوف، ولم لا أن تكون مجلّة وطنية. كان القرار أن تحمل "المنبر الثقافي"

2- **مجلة المنبر الثقافي:** مجلة دورية، تصدرها الجمعية الثقافية للشبيبة بقممار.

صدر العدد الأول في جانفي 1984 المدير: المرحوم إدريس التهامي. رئيس

التحرير: بشير خلف

أ - كلمة العدد لرئيس التحرير. الإيمان. حرية المرأة. الشرك. دعوة الرسول.

أهمية المساجد. نظرة على علم النفس. نعيب زماننا والعيب فينا. قصيدة خليفة

بن حسن القماري. حقائق مهملة. التحديق من خارج الرقعة. شروط السياقة.

حلّ الكلمات المتقاطعة. من نشاطات الجمعية.

ب . العدد الرابع: نوفمبر 1984. كلمة العدد. لرئيس التحرير- نشاط الحزب.

(إقحام الحزب..؟ في صفحتي 272، 273 يجد القارئ الجواب)

ج قضايا إسلامية: مسلمون وكفى. الإيمان والتقوى.

د - في الثقافة العامة: سفينة الشيطان. استغلال الراحة. عادات وتقاليد. الثائر

الإسلامي جمال الدين الأفغاني.

هـ - قضايا الساعة: الهاتف. السكن لفائدة من؟

و - من المكتبة: قرأتُ لك. عناوين تفيدك.

ز - استراحة: استراحة في رياض الشعر العربي. طرائف وحكم.

ح - في العلم والحياة: جائزة مقترحة في علم الحياة.

ط - المنبر الصغير. إشراف الفنان بشير بلباح

ي - بريد القراء. 9. أقوال خالدة. 10 نشاطات الجمعية.

**وعدت الوزيرة بدعم المجلة:** اكتسبت مجلة المنبر الثقافي صيتًا كبيرًا، كثر

قراؤها، نقلناها إلى مكتبة ابن باديس بالوادي، بثمن دينار واحدٍ جزائري،

وجدت رواجًا كبيراً. أتذكر أنه لما زارت المنطقة حينذاك السيدة ليلي الطيب وزيرة التعليم الابتدائي والثانوي، وفي صبيحة يوم زيارتها لبلدية قمار، وخلال وجودها والوفد الرسمي المرافق لها في مكتب رئيس البلدية المرحوم ابن عيشة عبد الرحمن أهديتها بعضاً من أعداد المجلة، تصفحتها حيناً، وتعمقت في مضامينها، أبدت إعجابها، وأعلنت أنها ستدعمها مادياً حتى تكون أحسن إخراج فني، ومطبعي، كما ستعمل نتيجة هذا الدعم على توزيع المجلة في كل ثانويات الوطن. دوري في المجلة استقبال المواضيع المرسلة، تصنيفها، اختيار ما يتناسب مع أبواب المجلة، التصحيح اللغوي، القواعدي، تقويم العبارات التي تحتاج إعادة التقويم والصياغة، إعداد كلمة العدد. متابعة رفن المقالات من طرف المرحوم السائحي محمد الطاهر خاصة، والحاج شنة بوبكر وبعض المتطوعين، ثم متابعة عملية السحب، ترتيب الصفحات المطبوعة وفق الفهرس، والتغليف..

فريق محدود الأشخاص؛ إنما فريق نشط منسجم. كسبنا الزهان، نجحنا في إصدار مجلة ثقافية الأولى في المنطقة، قبل أن يُصدر بسنوات بشير بالهادي مجلته الثقافية "البيرق" التي كنتُ عضواً في تحريرها؛ حيث خصص لي صاحبها الصفحة الأخيرة من المجلة. وفي أحد أعداد المجلة في الصفحة الأخيرة.

أتذكر جيداً أنه لما نجحنا في إصدار المجلة وتوالت أعدادها، ورواجها كمتنفس ثقافي فكري؛ حينذاك تصل مجلة "المجاهد الأسبوعي" أسبوعياً إلى قسمة جبهة التحرير الوطني، وكانت تُسلم مجاناً إلى المناضلين فقط، لا تُباع لغير المناضلين مما سمح لمجلة " المنبر الثقافي " أن تكون أكثر تداولاً بين القراء. تحرك رئيس القسمة باعتباره حسب النظام السياسي الجزائري حينذاك، يرأس مجلس التنسيق البلدي الذي ضمّ أيضاً رئيس البلدية، رئيس القطاع العسكري، كما

الحال على مستوى الولاية، فمحافظ الحزب يرأس مجلس التنسيق الولائي الذي ضمّ أيضًا القائد العسكري، ووالي الولاية.

**أهين قسمة حزب؛ (ج. ت. و) .. ساومنا:** اتصل بنا رئيس القسمة، طلب منا أن نسلمه كل عددٍ جديدٍ من المجلة قبل خروجه إلى العلن ليطلع عليه مسبقًا، وله الحقّ في الاعتراض على هذا الموضوع أو ذلك، أو الموافقة. ثارت ثائرتي، اعترضتُ بدوري، رأيتُ أنه تعسّفٌ، وأن هذا القرار حجرٌ على نشر المعرفة والتثقيف اللذين نصّ عليهما الميثاق الوطني. ما خضعتُ لقراره، وما أرسلتُ له أيّ عددٍ من المجلة؛ بحكم أنه من أسرة التربية، كان حكيماً، تفاديا لتصدّع ربّما قد يقع... طلب منّي بدلًا من الاطلاع المسبق أن ندرج بالمجلة بابًا قارئًا في كلّ عدد يكون في بداية المجلة بعد كلمة رئيس التحرير، يتضمّن نشاطات قسمة جبهة التحرير بين العدد والعدد. فكان له ما أراد.

**3 - مجلة "البيرق":** مجلة ثقافية دورية أصدرها الكاتب الإعلامي بشير بالهادي، بحكم خبرته في الإعلام، وعلاقته بالصحافة المكتوبة الوطنية والعالمية كمراسل باللغتين العربية والفرنسية، اكتسب خبرة كبيرة في التحرير الصحفي، كما الإعلام الثقافي، استكتب العديد من الكُتّاب والمبدعين. كانت المجلة نوعية في مواضيعها، شكلها، إخراجها، طباعتها، وبحكم أنّ صاحبها كان شخصية معروفة في الساحة الإعلامية لقيت المجلة الترحاب، والرّواج، والإقبال على الكتابة فيها. كنتُ من كُتّابها، خصّص لي صاحبها الصفحة الأخيرة التي كانت ترد في المجلة بـ"الورقة الأخيرة". في ورقة من أحد أعداد المجلة، كان مقالي بعنوان، (الشاعر الموهوب)، ممّا جاء فيه:

«يرى بعض النقاد وأهل الفكر أن المخاض الإبداعي لدى الكاتب أهون منه لدى الشاعر؛ فإذا كان الكاتب قارئاً مستزيداً دائماً، فإن قراءته تساعدته وتمكنه من أن يؤلف قصة أو رواية، أو مقالة أدبية؛ فإن الشاعر غير ذلك حيث ينظر بعين القلب والعاطفة، والحس المرهف للظاهرة.»، وفي عدد آخر من المجلة حملت ورقتي عنوان، (حياة خصبة تركت بصماتها في عالم الفكر)، ومما جاء فيه: « (الحياة عبء ثقيل على من أصابه الخذلان.)»،

بهذه العبارة التي تنطوي على تجربة إنسانية تكرر نفسها في كل زمانٍ ومكانٍ، استهلّ الكاتب العربي الكبير فيلسوف العصر الدكتور زكي نجيب محمود كتابه القيم " قصة نفس"، الصادر في طبعة جديدة منقّحة سنة 1982م، يُعتبر هذا الكتاب مرحلة هامة في حياة كاتبنا، ذلكم أنه ضمّنهُ بعضاً من سيرته الذاتية التي استعرض نُتقاً منها استعراضاً غير شبيهٍ بما نعرفه في كُتب السيرة الذاتية لغيره؛ حيث جاءت هذه النُتف من سيرته الذاتية في شكل رواية قصة نفسٍ بشرية، يُنقّب عنها من الباطن، لا من الظاهر، فمحور الاهتمام مُركّز على الخلجات الداخلية، قبل أن يكون على الأحداث الخارجية.».

في أحد أعداد المجلة كانت ورقتي بعنوان: (أزمة عقول.. أم ماذا؟)، هذه فقرة من ذاك المقال:

«في سنة ألف وتسعمائة وخمسة وثمانين دق ناقوس الخطرٍ أحدُ المفكرين العرب لما شعر بكارثتين تهددان العقل العربيّ: المسلسلات التلفزيونية، ومباريات كرة القدم، فالأولى خطورتها ليست فقط في اقتطاع أموال ضخمة من ميزانيات القطاع العام، والقطاع الخاص، فضلاً عن الوقت الطويل والتمين من عمُر الأمة العربية، وعمُر الإنسان العربيّ المسكين المغلوب على أمره في مشاهدتها، وإنما

الخطورة الأكثر أن هذه المسلسلات تُقدِّمُ في أكثر الحالات غير النماذج البشرية المريضة سلوكيا، وأخلاقيا.»

4 - فضاءات جديدة للنشر: في سنوات 1973، 1974م، 1975، وما بعد نشرت لي صحيفة النصر، الشعب، المجاهد الأسبوعي، مجلة آمال، مجلة الثقافة أعمالا إبداعية من قصص ومقالات سأتحَدِّث عنها في بابٍ آخر (بداياتي مع الإبداع الأدبي).

5 - مراسل ثقافي: في 31 مارس سنة 1987م، كلّفتني المرحوم محمد العربي غراس الذي كنتُ عضواً معه حينذاك في اللجنة المديرة لاتحاد الكُتّاب، والمترجمين، والصحفيين الجزائريين، الذي كان مدير جريدة "المساء" التابعة للقطاع العام، لأنّ الصحافة الخاصة ظهرت في الجزائر إلّا بعد ظهور التعدّدية سنة 1989م. كلّفتني رسمياً بأن أكون مراسل جريدة المساء من الوادي مُكلِّفاً بإنجاز تحقيقات، وتغطيات صحفية. ظروف عملي كمفتش للتربية والتعليم ما سمحت لي بكل ما نصّ عليه التكليف. اكتفيت بالتغطية الثقافية، إجراء حوارات مع مبدعين وكُتّاب، كما إرسال مقالات فكرية حبرها قلّمي.

مما أتذكره أُنِي عرّفتُ بشعراء من المنطقة ما كان يسمع بهم أحدٌ من خارج منطقة سُوف، بإجراء حوارات عن حياتهم، دراستهم، بدايات الإبداع لديهم الدوافع، الخوافر، إبداعهم، نشاطهم، تواجدهم في الساحة الثقافية، طموحاتهم الآنية، والمستقبلية؛ منهم الشاعر الكبير الآن سعيد المشردي، الشاعر بويكر مراد، علي العبيدي الشاعر الفنان العازف الملحن، الموسيقار الكبير إبراهيم بليمة، وغيرهم ممّن ضيّعتهم الذاكرة.

إضافة إلى ذلك أرسلت مقالات عديدة تعلّقت بقراءتي لكُتُب ذات أهمية فكرية، أو مقالات لمواضيع فكرية شغلتنني، منها على سبيل المثال، قراءتي لكتاب: " أزمة التعليم المعاصر " للدكتور راغب محمد النجار. صدر سنة 1980م، تحدث فيه عن أزمة التعليم المعاصر قبل أربعين سنة، وكأنه تحدّث عن أزمة التعليم في أيامنا هذه.

من الكتب التي أرسلتُ قراءتي عنها للصحيفة، كتاب "ثقافة الأطفال" للدكتور العراقي هادي نعمان الهيتي، المتخصّص في أدب الأطفال، نُشرت القراءة يوم الثلاثاء 21 اجوان 1988 ممّا جاء في بداية قراءتي: يقول الكاتب الألماني المعاصر يرتولد بريخت:

«لو أنّ الأطفال ظلّوا أطفالاً لكان باستطاعة المرء دائماً أن يحكي لهم خرافات؛ ولكن الأطفال سيكبرون، ويصبحون رجالاً.»

وتبعاً لهذه النظرة الواعية لا بدّ من التعامل معهم بدقّة متناهية، بغية الأخذ بأيديهم إلى دائرة الضوء التي سيواجهون من خلالها العالم الكبير المتلاطم. أرسلتُ أيضاً قراءة عن كتاب: " لغة كلّ أمة روحٌ ثقافتها" للمرحوم الدكتور محمد بن عبد الكريم الجزائري.

نُشرت في الصحيفة في شهر أكتوبر 1990م. أيضاً قراءة لكتاب " القاضي الجرجاني.. الأديب الناقد " للدكتور محمد السمرة. كما قراءة أخرى لكتاب " أصواتٌ وخطواتٌ.. مقالات في القصة العربية المعاصرة من الخليج إلى المغرب العربي " لعبد الرحمن مجيد الربيعي. من المواضيع التي كتبتُها شخصياً، ونُشرتُ بصحيفة المساء بتاريخ: 20 جويلية 1987م، " الطفل بين التخلّف العقلي، والتخلّف الدراسي"، ممّا جاء فيه:

«مشاكل التعلّم عند الأطفال عديدة منها ما يتمثّل في عدم قدرة الطفل على اكتساب آليات التعليم الأساسية كالقراءة، والكتابة بكيفية جيّدة تسمح له فيما بعد بدخول أبواب المعرفة من أبوابها الواسعة؛ أو عدم قدرته على القيام بالعمليات الرياضية المختلفة المناسبة لسنّه، ولصفّه التعليمي؛ ومنها ما ينجم عن عدم استطاعته التركيز، والمتابعة مثل غيره.. هي كلها عوامل تقلّل من حصيلته المعرفية، وتجلب له نظرات خاصّة من قبل المعلمين، واصفّينه عن خطأٍ بأنه "متخلّف عقلياً".»

**6. صحيفة المجاهد الأسبوعي:** خصّصت صحيفة المجاهد الأسبوعي في سنة **1998م** صفحة في كل عدد لمجال التربية، وقد أسندتها للأستاذة المريية، الباحثة مفتشة التربية والتعليم حينذاك السيّدة فاطمة حرّاث، طلبت مني وأنا والأستاذ نوار محمد مفتش التربية والتعليم أن نكتب في الصفحة التي كانت مقسّمة إلى أبواب، اخترتُ: " في الصميم " و" من الفكر التربوي ".

كانت أول مشاركة لي في الصفحة في العدد المخصص لأسبوع من **16** إلى **23** نوفمبر **1998م**، حيث كتبتُ في "من الصميم" عن الفرص المتكافئة بين كل الأفراد في فلسفات التربية العالمية، وفي " من الفكر التربوي" كتبت عن التربية عند المفكر الكبير الإمام حجّة الإسلام أبو حامد الغزالي الذي شدّد على تربية الصبيّ تربية دينية حُلُمية مع معرفة دقيقة لنفسية الصبيان، ومراعاة مداركهم العقلية، وضرورة معاملتهم بالرأفة، واللين، والسّماح لهم باللّعب بعد عناء الدروس. كما كتبت في الأعداد الموالية عن آراء ابن سينا في التربية ومعاملة الأطفال التي يجب أن تراعي ميولهم، وشهواتهم، وتحاشي ما يعقّد عليهم الحياة،

ويعكّر صفاء أمزجتهم. التدرّج في التعليم واللفظ مع الصغار في الفكر التربوي الخلدوني. التربية وطبيعة الفرد لدى فلاسفة التربية الغربيين.

أيّهما أشدّ تأثيراً على المتعلم الفطرة أم المحيط؟ إشكالية الإصلاحات التربوية في المجتمعات المتخلّفة. في باب "من الصميم" كتبت عن:

مهنة التدريس وصعوبتها، التعليم التحضيري الذي صار إجبارياً في عديد المجتمعات؛ بينما في بلادنا عكس ذلك، أهمية اللغات الأجنبية، وضرورة التوجّه إلى اللغة الإنكليزية، اختلافات في التوجيه التربوي، نظرة أعمق إلى إشكالية التسرّب المدرسي، معضلة الامتحانات الدائمة، الثورة العلمية ومشاكل المعرفة، المحاور والمناظرة في التعليم.

**7 - الإعلام المسموع:** في سنة 1996م ظهرت إذاعة الوادي الجهوية، استقبلها السكان بفرح كبير، كما فرح بها المثقفون المحليون، إذ رأوا أنّها فضاء حديث في الإعلام المحلي، والوطني، والتثقيفي، انطلق بها طاقمٌ شبابيٌّ محليٌّ متحمّسٌ، كما انضمّ المثقفون تطوُّعاً للمشاركة في الإذاعة كمتعاونين ببرامج ثقافية، كنتُ أحدهم ببرنامجين:

- برنامج الموعد التربوي: تناولت فيه مدة سنتين قضايا التربية العامة المعاصرة، علم النفس التربوي في الجزء الأول من الحصّة، وفي الجزء الثاني قضايا تربوية موجهة إلى أسرة التربية، وفي الجزء الأخير إرشادات إلى الأسر تخصّصاً تربوية الأبناء. كانت الحصّة مساء يوم الإثنين بداية من الساعة الثانية.

- النادي الثقافي: مساء يوم الخميس، بداية من الساعة الثانية. حصّة ذات ساعة، استضفتُ فيها العديد من الشخصيات الفكرية، الثقافية، المبدعة في شتى الفنون

في إطار حوار ثقافي عرّفت فيه بالشخصية، وإنجازاتها، وبداية دخولها عالم الإبداع، وما حقّته، ورؤاها للمشهد الثقافي المحلي والوطني.

العديد من المثقفين قدّموا برامج ثقافية أفادت السامعين ليس في منطقة وادي سُوف فحسب؛ بل في منطقة الطيبات بولاية ورقلة، وسكان الجنوب التونسي القريين، أساتذة على غرار الأستاذ منّاني الأمين، والشاعر مراد بوبكر، والشاعر بشير ونيسي، وغيرهم. قدّمنا تلك الحصص دون مكافآت مالية، أي تطوُّعًا.

أوقفت إدارة الإذاعة تلك البرامج كان هدفنا منها رفع المستوى الفكري، واللغوي، والأدبي، وتربية الذائقة الفنية لدى المستمعين. أوقفناها لأن ما أُطلق عليه بالإعلام الجوّاري الذي ظهر في كل الإذاعات المحليّة يتطلّب النزول إلى مستوى المستمع العادي المتوسّط، وأقل. " الإعلام الجوّاري " الذي من أهدافه مخاطبة المواطن المحليّ بلغة مبسّطة في مستوى المرأة الماكثة بالبيت، والتاجر في متجره، والفلاح في مزرعته، والسائق في مركبته، هذه التركيبة الأكثر في المجتمع، لا بدّ أن تكون الإذاعة الجهوية أحسن رفيقٍ دائمٍ لهم؛ أمّا النخبة وهي الأقلية عليها أن تعيش في أبراجها العالية، بحثًا عن ثقافتها وفكرها الملائم لها بنفسها.

**8 - الإعلام الرقمي:** قبل تقاعدي في 2001م بسنوات، زوّدت مفتشيتنا للتربية والتعليم مديريةُ التربية بالوادي بحاسوبٍ قديمٍ به بدأتُ فيه خطواتي الأولى في الكتابة الحديثة، بفضل مساعدة المرحوم الصديق العايش السعيد تمكّنت في مدّة وجيزة من كتابة نصوصي الإبداعية، ومقالاتي الفكرية بنفسني.

ما أن ظهرت في الساحة الشبكة العنكبوتية، ولو متعثّرة وضعيفة حتى كنتُ من روادها المتفاعلين معها. ثم من خلال تطوُّرها عبر السنوات استطعتُ

أن أجد مكاناً لي في فضاءاتها المتعدّدة. يعمل الإعلام الرقمي على نقل الصوت، والصورة والحرف رقمياً أو إلكترونياً، بدلاً من الطباعة بالحبر أو الصورة، بما يسمى النظام المتشابه التقليدي. الإعلام الجديد هو العملية الاتصالية الناتجة من اندماج ثلاثة عناصر:

**1- الكمبيوتر 2- الشبكات 3- الوسائط المتعددة.** الإعلام الرقمي والصحافة الإلكترونية، نتاج لتجربة الإنسان الطويلة مع العمل الإعلامي، وحصوله على تجربة ضخمة مكنته من نقل الحقيقة، حيث بدأ الإنسان في التركيز أكثر على الحصول على المعلومة من خلال "الانترنت"، بسبب التغييرات التي حدثت في المجتمع، وارتباط الكثير بـ "الشبكة العنكبوتية"، الأمر الذي فتح آفاقاً كبيرة لانتشار الأخبار سواء محلية أو عالمية عبر المواقع الإلكترونية، أو عبر مواقع التواصل الاجتماعي "الفايس بوك" و"تويتر" وغيرها.

ظهرت وسائل الإعلام الجديدة، أو الإعلام الرقمي كمصطلح واسع النطاق في الجزء الأخير من القرن العشرين ليشمل دمج وسائل الإعلام التقليدية مثل الأفلام والصور والموسيقى والكلمة المنطوقة والمطبوعة، مع القدرة التفاعلية للكمبيوتر وتكنولوجيا الاتصالات، وتطبيقات الثورة العلمية التي شهدتها مجال الاتصال والإعلام، حيث ساهمت الثورة التكنولوجية في مجال الاتصال في التغلب على الحيز الجغرافي والحدود السياسية، والتي أحدثت **New media** تغييراً بنويًا في نوعية الكم والكيف في وسائل الإعلام. والمقصود بوسائل الإعلام

الجديدة ببساطة هي وسائل الإعلام الرقمية وذلك لتفريقها عن Interactive والتفاعلية (Internet) والشبكية (Digital)<sup>1</sup>.

وهنا يجب أن ينظر لـ"الإعلام الرقمي" على أنه امتداد، وتطويرٌ لـ"الإعلام العام التقليدي"، على اعتبار أنهما يصبان في مصلحة القارئ، من خلال توفير المعلومة الصحيحة، وهو ما يُبحث عنه في النهاية. إنّ الإعلام الرقمي متشعبٌ ومتنوع، ومتداخل؛ إنما ما هو متعارفٌ عليه أكثر لدى سگان المعمورة، وتطبيقاته يمارسها الناس هو ما يعرفُ بـ "مواقع التواصل الاجتماعي"، أو "الشبكات الاجتماعية" التي بدأت بدأت تطبيقاتها في أوائل هذا القرن لكن في نطاق محدود، لنتشر وتتوسّع بداية من العشرية الثانية من هذا القرن.

منها "المدونات" التي ظهرت أولاً وأقبل عليها الناس قبل مواقع التواصل الاجتماعي السريعة كالفيسبوك، واليوتوب، والتويت، وغيرها وهي متعدّدة، سأكتفي بالحديث عن التي ذكرتها أعلاه.

**1 - المدونات:** هي يوميات لشخصٍ ما على الشبكة يتم ادراجها بواسطة برامج بسيطة تسمح بطبع نصّ على الحاسوب، وارساله فور الاتصال بالشبكة ليظهر على صفحة الموقع المعني للشخص. المدونة تمزج بين المعلومات والآراء، وأول مدونة من هذا الصنف ترجع إلى 7 أكتوبر 1994 وهي منسوبة إلى دايف وينر، مبرمج أحد البرامج الالكترونية الأكثر شيوعاً ومطوره، تحت اسم منيلا.

---

1 - د فينان عبد الله الغامدي في (2012): التوافق والتناظر بين الإعلام التقليدي والإعلام الإلكتروني، ورقة بحثية مقدمة إلى ندوة الإعلام والأمن الإلكتروني، جامعة الأمير نايف العربية للعلوم الأمنية.

المدونة تطبيق من تطبيقات الإنترنت، يعمل من خلال نظام إدارة المحتوى، وفي أبسط صوره عبارة عن صفحة ويب على شبكة الإنترنت تظهر عليها تدوينات (مدخلات: نصوص، صور، ...) مؤرخة ومرتبّة ترتيباً زمنياً، تصاعدياً تصاعدياً. كما يتضمّن النظام آلية لأرشفة المدخلات القديمة، ويكون لكل مدخلة منها مسار دائم لا يتغيّر منذ لحظة نشرها يمكن القارئ من الرجوع إلى تدوينة معيّنة في وقت لاحق عندما لا تعود متاحة في الصفحة الأولى للمدونة، كما يضمن ثبات الروابط ويجوّل دون تحللها.<sup>1</sup>

إن مدونات الإنترنت تعتبر واحداً من أهم تطبيقات الإعلام الجديد هو البلوغ Blog أو ويب لوج Weblog ما أطلق عليه عربياً "المدونة" وهي عبارة عن موقع على الإنترنت يُستخدم كصفحة يومية إلكترونية فردية تعبر عن صاحبها، وتركز على موضوع معيّن مثل السياسة، أو الأخبار المحليّة، ويمكن أن تكون عبارة عن مذكرات يومية، وهي تنشر بالنصوص، والصور والفيديوات، والصوتيات، وتحمل وصلات لمدونات أخرى، مواقع إنترنت، أو وسائط أخرى متعلقة بالمقالة.

**2 - المنتديات:** هي عبارة عن برامج خاصة تعمل على الموقع الإعلامي، أو أي مواقع أخرى ذات طابع خاص، أو عام على شبكة الإنترنت مثل المواقع المتخصصة، وتسمح بعرض الأفكار والآراء في القضايا أو الموضوعات المطروحة للمناقشة على الموقع، واطاحة الفرصة للمستخدمين أو المشاركين في الرد عليها ومناقشتها فورياً، سواء كان ذلك مع أو ضد الآراء أو الأفكار المطروحة، دون

---

1 - الطريق إلى الإعلام الرقمي الجديد " شبكة للوكة. www. alukah.

net/publications\_competitions

قيود على المشاركين باستثناء القيود التي يضعها مسئولو المنتدى من خلال نظام الضبط والتحكم المقام على البرنامج.

هي واحدة من تطبيقات المشاركة والتفاعل والإعلام البديل التي جاءت بها الشبكة بما يحقق للجميع اسماع أصواتهم، وهي في الوقت نفسه مجموعة من البرامج المختلفة تعمل على تطبيق هذا النوع من التواجد الحي للتجمعات على الانترنت. هي نشاط يعود إلى حوالي عام 1995 العام الذي بدأت فيه المنتديات في الظهور، وتمثل مرحلة انتقالية أو تطويرية من النشرات الالكترونية، ومجموعات الأخبار التي سادت في الثمانينيات وبداية التسعينيات، لتخلق نوعاً من المجتمعات الافتراضية التي تدور غالباً حول موضوع معين أو بلد أو مجموعة من الموضوعات.<sup>1</sup>

**3 - الفيسبوك:** بدأ انتشاره في نهاية عام 2007م، موقع يُستخدم للتواصل الاجتماعي، ( Facebook )، ويتميز بسرعة نقل الخبر مُدعماً بالصورة الحية المعبرة، وسرعة مواكبة الأحداث على مدار الساعة، ونقلها مباشرة من مكان حدوثها. هذه الشبكة مكّنت الناس من التعبير عن طموحاتهم، ومطالباتهم في حياة حرة من خلال مشاركتهم في تغذية هذه الشبكات بالأخبار، والمعلومات، والمساهمة بشكل فعال في صناعة، وإدارة المضامين الإعلامية، وجعلتهم أكثر تفاعلاً ومشاركة في مختلف القضايا.

---

1 - أ. نسرین حسونة. الإعلام الجديد.. المفهوم والوسائل والخصائص والوظائف.

4 - **يوتوب**: أحد أشهر المواقع الإلكترونية على شبكة الإنترنت، وعنوانه [www. youtube. com](http://www.youtube.com) تقوم فكرة الموقع على إمكانية إرفاق أي ملفات تتكون من مقاطع الفيديو على شبكة الإنترنت دون أي تكلفة مالية، فبمجرد أن يقوم المستخدم بالتسجيل في الموقع يتمكن من إرفاق أي عدد من هذه الملفات ليراها ملايين الأشخاص حول العالم.

كما يتمكن المشاهدون من إدارة حوار جماعي حول مقطع الفيديو من خلال إضافة التعليقات المصاحبة، فضلاً عن تقييم ملف الفيديو من خلال إعطائه قيمة نسبية مكونة من خمس درجات لتعبر عن مدى أهمية ملف الفيديو من وجهة نظر مستخدم الموقع.

5 - **تويتر**: إحدى شبكات التواصل الاجتماعي، التي انتشرت في السنوات الأخيرة، كانت بدايات ميلاد هذه الخدمة المصغرة (تويتر) أوائل عام (2006)،<sup>1</sup> وأخذ (تويتر) اسمه من مصطلح (تويت) الذي يعني (التغريد)، وأخذ من العصفورة رمزاً له، وهو خدمة مصغرة تسمح للمغردين إرسال رسائل نصية قصيرة لا تتعدى (140) حرفاً للرسالة الواحدة، ويجوز للمرء أن يسميها نصاً موجزاً مكثفاً لتفاصيل كثيرة، ويمكن لمن لديه حساب في موقع تويتر أن يتبادل مع أصدقائه تلك التغريدات (التويتات)، من خلال ظهورها على صفحاتهم الشخصية، أو في حالة دخولهم على صفحة المستخدم صاحب الرسالة، وتتيح

---

1 - ما هي المواقع الاجتماعية؟ <http://mawdoo3.com>

شبكة تويتر خدمة التدوين المصغرة هذه إمكانية الردود والتحديثات عبر البريد الإلكتروني، كذلك أهم الأحداث من خلال خدمة "الرسائل النصية" SMS. استهوتني المدونات والمنتديات بعد 2006م، نشرت في العديد من المنتديات، تابعت العديد من المدونات الشخصية والاجتماعية. في شهر أوت 2008م. أنشأت مدوّني الخاصة في موقع "مكتوب" السعودي، ولما اندمج هذا الموقع بعد سنوات مع موقع "ياهو" أعطى مهلة ثلاثة أشهر للمدوّنين قبل غلق مدوّناتهم نقلها إلى مواقع أخرى، فنقلتُ مدوّني إلى موقع "قول" المعروف.

**سُوف. أوراق ثقافية (فضائي الشخصي)؛** مدونة ثقافية، لا تزال فضائي الشخصي المُحبب إليّ منذ تلك السنة إلى يوم الناس هذا، أدخلتُ عليها العديد من التغييرات، والتعديلات كي تكون معبرة عن ذاتي من ناحية، ومعبرة عن المشهد الثقافي الجزائري، وكذا عن الحراك الثقافي في ولاية الوادي. أسميتها "سُوف. أوراق ثقافية".

في أعلى الصفحة: (سُوف. أوراق ثقافية. مدونة ثقافية تهتمّ بالمشهد الثقافي في ولاية الوادي من ملتقيات فكرية منوّعة، وندوات أدبية، وجلسات فكرية، وإصدارات مختلفة، والتعريف بالقامات الفكرية المحليّة، والوطنية. مدونة ترصد الحركة الثقافية الإبداعية، وتنوّه بهذا الحراك، وتثمن كل ما يقوم به القطاع الثقافي بالولاية: مديرية الثقافة، دار الثقافة، الجمعيات الثقافية الفاعلة.)

جعلتُ لها تصنيفات تُدرج ضمنها المواضيع المنشورة التي أحرّها بنفسني، كما أُنقِمْ بإدارة المدونة شخصيا، أتلقي التعليقات، أقرأها إن كانت تتطلّب الردّ، أردّ. تصنيفات تسهّل عليّ شخصيا الرجوع إلى التدوينات سريعا، كما تساعد غيري على ذلك بالقراءة، أو الاقتباس، أو أخذ الموضوع كاملا، سمحتُ

لجميع من الاستفادة. كما أُنِجرتُ بها روابط لمواقع ثقافية عربية، ومجلات ثقافية مهمة.

**1 - التصنيفات:** أخبار ثقافية . آراء ومواقف . إسلاميات . إصدارات صاحب المدونة (بشير خلف)، إصدارات رابطة الفكر والإبداع بولاية الوادي إصدارات مديرية الثقافة بالوادي . إصدارات دار الثقافة بالوادي . إصدارات المكتبة الرئيسية للمطالعة بولاية الوادي . إصدارات أخرى . مقالات صاحب المدونة (بشير خلف)، مقالات . إعلام وإعلاميون . ثقافة الطفل وتربيته . جماليات وفنون . حوارات ثقافية . شعرٌ . حوارات فكرية . روايات . شخصيات وأعلام . قراءة في كتاب . قصص . معالم وحواضر .

**2 - مواقع ثقافية ومجلات:** ديوان العرب .. موقع ثقافي أدبي . مجلة ثقافية فكرية إبداعية . مجلة أقلام مجلة فكرية ثقافية . مجلة تهتم بالبحوث النفسية والعلاج النفسي . مجلة المرصد مجلة الأدب والفكر . مجلة الآداب والعلوم الإنسانية السعودية . مجلة الآداب البيروتية - التشكيل . مجلة تهتم بالفنون التشكيلية . مركز النور موقع ثقافي فكري . موقع معابر موقع فكري . المنتقف العربي مجلة ثقافية - مجلة الكرمل .. مجلة فكرية بحثية - مجلة فوانيس القصصية .. مجلة تهتم بالقصة . المجلة الثقافية الإعلامية " المتحرر " . المنار .. مجلة ثقافية إلكترونية - النور .. مركز إعلامي ثقافي مستقل - موقع الرواية الجزائرية . أنفاس . نت .. مجلة ثقافية فكرية مغربية . ثقافات مجلة لبنانية ثقافية فكرية أدبية . أيّ ثقافة .. مجلة ثقافية فكرية أدبية . محكمة النقد موقع ثقافي شخصي .

**الفضاء الأزرق.. الفيسبوك:** بعد خبرة معتبرة في النشر في مواقع بالإنترنت، وتسيير مدوّني الشخصية لما ينيف عن الخمس سنوات فتحت صفحتي الفيسبوكية في **02 جانفي 2013** (حسب تاريخ منشوراتي في الإعدادات).

كانت باسم: khelefbachir، ثم غيرتها في السنة الماضية إلى "بشير خلف" في البداية ربطتها مع مدوّني، إذ كنتُ بعد نشر الموضوع بالمدونة أدرجه بصفحتي الفيسبوكية، ثم عدلتُ عن ذلك، حيث كل واحدة مستقلة عن الأخرى.

أول مشاركة لي في الفيسبوك، كانت يوم **04 فيفري 2013** م، بعنوان " الإنسان الصالح": «الإسلام يريد من الإنسان أن يكون صالحا في نطقه، ومهدّبا في كلامه، لا فحش، ولا لغو، ولا عبث؛ بل نُطقُ صائب، مهذب حتى مع خصومه. فالكلمة الطيبة لها أثر كبير، وعظيم بعكس الكلمة السيئة التي يستمر أثرها لزمانٍ طويل، وخاصة تلقيب الشخص بلقب قد يلازمه طيلة حياته، حتى لو تاب ذلك الشخص، وعاد إلى رشده...

الكلمة الطيبة بلسم الشفاء.. هي في متناول الجميع». وثاني مشاركة كانت بعنوان "الشعر والحوار" يوم **16 فيفري 2013م:** «إن الشعر والحوار في أرفع تجلياتهما هما من نبع واحد، فالشعر العظيم هو انطلاقة للروح من قيودها ومن تضاريس الواقع الخائقة إلى آفاق لا نهائية، حيث يمتزج الحلم بواقع جديد أكثر إشراقا، وشفافية، كما ينطلق منهج الحوار بالناس من الخنادق التي حفروها، أو حُفرت لهم، والكهوف التي حُشروا فيها إلى الفضاء الإنساني الأرحب العام، حيث السلام والأمن، والاحترام للجميع.»

**مواقع ثقافية.. جذبتني:** منذ ما قبل صفحتي الفيسبوكية نشرتُ في مواقع:

- ديوان العرب: أول مقال لي في هذا الموقع بتاريخ 20 جويلية 2006م،  
موضوعه " الكتابة.. متعة المعاناة في البوح والإمتاع. ". لا أزال أنشر به.
- الحوار المتمدن: مقالي الأول بهذا الموقع كان بعنوان " مجتمعٌ مدينيٌّ هَشٌّ غيرُ مؤثِّرٍ. " بتاريخ 19 اجوان 2006م. لا أزال أنشر به.
- مجلة أصوات الشمال الإلكترونية: التي يشرف عليها الشاعر الموهوب رابح بلطرش. مقالي الأول بها كان موضوعه " ثقافة الطفل ومنجزات العصر " بتاريخ 29 جويلية 2006م. لا أزال أنشر بها.
- كما نشرتُ في مواقع: الأدب العربي، ضفاف الإبداع. في صفحتي الفيسبوكية بالكاد أنشر شبه يومي، بمدوّنتي أنشر أسبوعياً، بالمواقع الأخرى خاصة في أصوات الشمال أنشر دورياً، كما أنشر بـ" تويتر"، وفتحتُ أخيراً صفحة لي في " انستغرام" أنشر بها بالكاد يومياً.

## 15. كُتُبُ أَرَسَتْ مَسَارِي الْمَعْرِفِي وَالْإِبْدَاعِي

عَصِيٌّ عَلَى الْمَرْءِ الَّذِي تَمَاهَى مَعَ الْفِعْلِ الثَّقَافِي مُتَلَقِيًّا، ثُمَّ مَبْدَعًا وَمُنْتَجًا مَعًا مَدَّةَ نِصْفِ قَرْنٍ أَنْ يَحَدِّدَ بَدَقَّةِ الْكُتُبِ الَّتِي تَغْدَى مِنْهَا مَعْرِفِيًّا، وَتَأْتُرُ بِمَا حَفَلَتْ بِهِ، ذَلِكَ أَنَّ الْكُتُبَ كَالْفَاكِهِةِ النَّضْرَةَ الْجَمِيلَةَ اللَّذِيذَةَ الَّتِي بِقَدْرِ مَا تَتَنَوَّعُ حَسَبَ الْمَوَاسِمِ، وَالْفُصُولِ تَتَنَوَّعُ فِي نَكْهَتِهَا، وَلَوْحِهَا، وَطَعْمِهَا.. هَذَا التَّنَوُّعُ لَا يَبِينُ أَنْ يَتَرَسَّخَ فِي الذَّاكِرَةِ، كَمَا مِنْ خِلَالِهِ يَتَغَدَّى الْبَدَنُ، وَتَصَلُّبُ الصَّحَّةِ.. الْكُتُبُ هِيَ كَذَلِكَ.

الْكَتُّبُ غِذَاءُ الرُّوحِ.. الصَّدِيقُ الْأَنْبِيَسُ؛ لِلْكَتُبِ ذِكْرِيَاتُهَا الْجَمِيلَةَ مَعَ كُلِّ قَارِئٍ، وَلَا تَتَوَقَّفُ تَلْكَمُ الذِّكْرِيَّاتِ مَعَ الْكِتَابِ نَفْسَهُ، وَإِنَّمَا تَصِلُ حُدُودَ الذِّكْرِيَّاتِ إِلَى أَعْبَدَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ ارْتِبَاطُهَا بِالْأَحْدَاثِ الزَّمْنِيَّةِ.. بِالْحَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ.. بِالْمَشَاعِرِ.. بِالْمَرْحَلَةِ الْعَمْرِيَّةِ.. بِالْأَوْقَاتِ الثَّمِينَةِ الَّتِي أَمْضَيْتُ مَعَ الْكِتَابِ، رُبَّمَا مَعَ مُشَارِكِينَ آخَرِينَ فِي الْقِرَاءَةِ. إِلَّا أَنَّ فِي كُلِّ الْحَالَاتِ هُنَاكَ كُتُبٌ يَكُونُ لَهَا وَقْعٌ كَبِيرٌ عَلَى عَقْلِ الْقَارِئِ، وَتَتْرَكَ بِصِمَاتِهَا فِي الذَّهْنِ، وَقَدْ تُحْدِثُ تَغْيِيرًا فِي شَخْصِيَّتِهِ... وَلَعَلَّنِي بِحُكْمِ الظُّرُوفِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي ارْتَبَطَتْ بِتَنْشِئَتِي زَمَنِ الْاِحْتِلَالِ الْفَرَنْسِيِّ لِلْجَزَائِرِ، أَنَّنِي لَمْ أُنْتَمِ لِأَيِّ مَوْسَسَةٍ تَعْلِيمِيَّةٍ؛ فَقَدْ كَانَ " الْكُتَابُ " الْمَوْسَسَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي احْتَضَنْتَنِي، وَارْتَوَيْتُ مِنْ يَنَابِعِهَا الطَّاهِرَةَ. مَا أَنْ أَهَيْتُ سَنَةَ الْإِثْنَيْ عَشَرَ سَنَةً مِنْ عَمْرِي حَتَّى حَفِظْتُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كَامِلًا، وَصَلَّيْتُ بِهِ التَّرَاوِيحَ فِي ذَلِكَ الْعَمْرِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ بِالْجَامِعِ الْكَبِيرِ " جَامِعِ الطُّلُبَةِ بِقَمَار "

وتحت إشراف معلّمي المرحوم تلحيق سي الطاهر بالسّامام العشرات من المصلين..

الكتاب الأول الذي أثار فيّ، وترك بصماته في عقلي، ووجداني إلى اليوم هو الكتاب السماوي الربّاني، القرآن الكريم الذي منه رُضعتُ اللغة العربية نقيّة، واكتشفت أسلوبها العذب، ولا أحسبُ أني أفضلُ كتابًا آخر بشريا عنه.

**عناوين راقية تمّاهت معها:** وما أن انتسبتُ إلى سلك التربية والتعليم في منتصف الستينيات حتى بدأت علاقتي بالكتاب قوية، ولا أزال أذكر أن الكثير من العناوين التي اطّلت عليها وقرأتها بمُتعة، وأنا الجوعان للقراءة وتحصيل المعرفة، من هذه الكتب: عيون البصائر الشيخ البشير الإبراهيمي، مقدمة ابن خلدون، حديث الأربعاء بأجزائه الثلاثة لطفه حسين، كل ما كتبه جبران خليل جبران، البؤساء لفكتور هيجو، روايات ألبرتو مورافيا، مسرحيات شكسبير، روايات نجيب محفوظ، قصص يوسف السباعي، روائع المنفلوطي: العبرات، النظرات، ماجدولين، روايات بوليسية عالمية مُترجمة... لتتوالى القراءات فيما بعد للأدب الجزائري القديم، والمعاصر، وللفكر الجزائري المعاصر: مالك بن نبي، عبد الله شريط، سعد الله، أبو العيد دودو...

**الصديق الفنان التشكيلي بشير بلباح:** من الكُتّاب الذين أثاروا فيّ كثيرا خلال بداياتي الكاتبُ المهجري جبران خليل جبران؛ في نهاية الستينات وجدتُ لدى صديق العمر بشير بلباح أصيل بلدي، الفنان التشكيلي، الخطّاطُ الذي كان يهيم بالجمال في كلّ تجلياته، ولا يزال، وجدتُ أغلب كُتُب الكاتب الفنان التشكيلي، الشاعر الفيلسوف اللبناني، المهجري جبران منها: العواصف، النبي،

الأرواح المتمردة، الأجنحة المتكسرة، دمعة وابتسامة، عرائس المروج، البدائع والطرائف. كان هذا الصديق متأثراً بجبران الكاتب الرومانسي، الرسام الفيلسوف، الشاعر الأملعي، ارتأى الصديق أيّهما أن نقرأ بتمعّن كتابات هذا الفيلسوف، وليكن الكتاب الأول "العواصف"، الذي تضمّن واحداً وثلاثين نصّاً..

**صرخات جبران الفنّان الإنسانيّ، لا تزال تدويّ:** أتساءل وقد مرّ على هذه القراءات ما ينيف على الخمس وأربعين سنة لم اخترنا هذا الكتاب قبل غيره من كتب جبران، وقرأنا نصوصه بمتعة، وحميمية، ومن خلالها أحببنا جبران، وعشقنا كل نصوصه الإبداعية شعراً ونثراً؟ لأنّ هذه النصوص تحدّثت عن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ونحن كجزائريين تجرّعنا الظلم مدى قرون، ولا تزال نفوسنا إلى اليوم تتنّ من ظلم الاستعمار، وجروحنا لم تلتئم؟ أم لجمالية الأسلوب الجبراني، أم لصرخة هذا الكاتب الطلائعي في وجه الطغاة لفكّ القيود عن إخوانهم من البشرية، والكلّ بنو آدم؟

ففي نصّ العبودية يستصرخ جبران الضمائر المميّنة في العالم العربي، ومنذ 1914م، أي قبل قرّنين ونيف تحديداً، كي تنفض عن نفسها ذلّ العبودية التي أثقلت البشرية بكلّكلها منذ آلاف السنين، وجعلت أيامهم معتمّة بالذلّ والهوان، ولياليهم مغمورة بالدماء والدموع، وياليتنه علم حينذاك أنّ الهوان والذلّ، والدماء والدموع ستستمر في هذه البقعة من المعمورة، وأن مواكب الأمم الأخرى إلى الصروح سيتضاعف سيرها، ومواكبنا تتصارع، وتتنافس على الفئات، يصرخ جبران: «إنما الناس عبيدُ الحياة، وهي العبودية التي تجعل أيامهم مكثفة

بالذلّ والهوان، ولياليهم مغمورة بالدمّ والدموع. ها قد مرّ سبعُ آلاف سنة على ولادتي الأولى، وللاّن لم أر غيرَ العبيد المستسلمين، والسّجناء المكبّلين»<sup>1</sup>  
ومن نصّ " يا بني أمي ":

«ماذا تريدون مني يا بني أمي؟ أتريدون أن أبني لكم من المواعيد الفارغة قصورا مزخرفة بالكلام، وهياكل مسقوفة بالأحلام؟ أم تريدون أن أهدّم ما بناه الكاذبون والجبّناء، وأنقض ما رفعه المراءون والخبثاء؟»<sup>2</sup>

كتاب "دمعة وابتسامة" كتبه جبران بالعربية، عبارة عن مجموعة من المقالات والقصص الوعظية والرمزية، وبعض القصائد النثرية، كتبها جبران لجريدة "المهاجر" ما بين 1903 و1908، وجمّعت ونُشرت لأوّل مرّة في كتاب واحد عام 1914م. بأسلوبه السهل، ولغته المتحرّرة، والإيقاع الموسيقي الذي لا يغيب عن نصّ من نصوصه. يدور الكتاب حول موضوعات أربعة: المجتمع، والطبيعة، الحب، الوجود، بيّن فيه جبران فساد المجتمع، وما فيه من ظلم واستغلال وطمع وفقر، ويرى أن الطبيعة تمثل الخير والطهر والكمال.

«أنا لا أبذلّ أفراح قلبي بأحزان الناس، ولا أرضى أن تنقلب الدموع التي تسندها الكآبة من جوارحي، وتصير ضحكًا. أتمنّى أن تبقى حياتي ضحكًا وابتسامةً. دمعة تطهّر قلبي، وتفهمني أسرار الحياة وغوامضها، وابتسامة تدنيني

---

1 - أ. جبران خليل جبران. العواصف. ص 12 دار العرب للبيستاني. القاهرة.

2 - المرجع السابق. ص: 37

من أبناء جلدتي، وتكون رمز تمجيدي . الآلهة . دمعة أشارك بها منسحقي القلب،  
وابتسامة تكون عنوان فرحي بوجودي.»<sup>1</sup>

**كُتِبَ أُعْجِبْتُ بِهَا . . أَكْبَرْتُ مُؤَلِّفِيهَا:** هي طائفة من الكتب التي طالعتها،  
فأكبرتها وأعجبت بها أيما إعجاب وتركت في النفس آثاراً، ولا أزال أهل ممّا  
يجود به الفكر البشري محلياً وعربياً، وإنسانياً.. ومن الكُتّاب المبدعين الروائيين  
الغربيين الذين قرأتُ لهم مع صديقي بلباح بشير الروائي الإيطالي ألبيرتو مورافيا  
(1907 . 1990م)، الذي تميّزت أعماله الأدبية بالبراعة والصدق والواقعية،  
حيث اهتمّ ذلك الكاتبُ الروائي بمناقشة الكثير من المشاكل الاجتماعية التي  
كانت موجودة في إيطاليا، هاجم من خلال رواياته الفساد الأخلاقي الذي كان  
متفشياً في بلاده إيطاليا، كتب في الكثير من المجالات والتي لازال أثرها قائماً  
حتى وقتنا هذا. حظيت أعماله بالكثير من الاهتمام من جانب جمهور القراء،  
كما تمتع أيضاً بشهرة واسعة بسبب غزارة إنتاجه الأدبي، والمتمثل في كتابة  
العديد من الروايات والكثير من الشعر، إذ تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات  
الأجنبية المختلفة، ولذلك ذاع صيته بسبب ما قدمه من أعمال واقعية، كما تمّ  
تحويل معظم الروايات التي قام بكتابتها إلى أفلام سينمائية.

أغلبُ رواياته قرأتها مع صديقي: السأم، الاحتقار، امرأة من روما،  
الانتباه، صوتُ البحر، أنا وهو، الخطيئة الأولى، مراهقون ولكن، عذاب الحب،  
الهوان، اللامبالون، الخدعة. ومن الذين قرأتُ لهم، وأُعجبتُ بإبداعهم القصصي  
والروائي الكاتب الأمريكي أرنستو همنقواي (1899 - 1961م) في روايته:

---

1 - أ. جبران خليل جبران. دمعة وابتسامة. دار العرب للبيستاني. القاهرة.

الشيخ والبحر، وداعاً للسلاح، لمن تُقرع الأجراس، وليمةً متنقلةً. ما كان أسلوب همنغواي عفويا، بل كان نتيجة ممارسة طويلة للكتابة الصحافية، كتب تقارير عن أحداث عاصرها، ومقالات قام بصقلها مستمدة من تراكمات ما علق بذهنه من قراءاته المكثفة للرواد من الأدباء ودراسة أسلوبهم، بعد ذلك كان يعيد كتابة ما خطّطه عدّة مرّات حتى يُقتنع أنه كتب حقاً عملاً جيداً. أدب هيمنغواي عكس تجاربه الشخصية في الحربين العالميتين الأولى، والثانية والحرب الأهلية الإسبانية. تميز أسلوبه بالبساطة، والجمل القصيرة. ترك بصمته على الأدب الأمريكي الذي صار هيمنغواي واحداً من أهمّ أعمدته. شخصيات هيمنغواي دائماً أفراد أبطال تحمّلوا المصاعب دونما شكوى، أو ألم، عكست تلكم الشخصيات طبيعة همنغواي الشخصية. وهو القائل عن أسلوبه وطريقته في الكتابة، كما جاء في إحدى المقالات التي نُشرت له في إحدى المجالات الأمريكية:

«أهيبى أغلب أعمالي في ذهني، ولا أبداً أبداً في الكتابة قبل أن تكون أفكارى منظمة. وكثيراً ما أقوم بتلاوة نصوص من الحوار بالطريقة التي ستكون عليه عند كتابتها، إني أو من بأن الأذن هي أحسن مراقب وحكم، ولا أكتب أي جملة على الورق قبل أن أتيقن بأن الطريقة التي تم التعبير عنها ستكون مفهومة وواضحة تمام الوضوح للجميع.»

**فيكتور . . خلد التاريخ أعماله، لكن ؟؛ من الكُتّاب الذين قرأتُ لهم في وقتٍ مبكّر الأديب الشاعر الروائي الفرنسي فيكتور هوجو (1802 . 1885م)، قرأتُ روايته الشهيرة "البؤساء" المبرمجة في امتحان شهادة ترقيتي إلى رتبة مدرّس، كما قرأتُ أعماله الأدبية الأخرى فيما بعد: أحذب نوتر دام، رجلٌ نبيلٌ، عمال**

البحر، وآخر يوم في حياة رجل محكوم عليه بالإعدام. قد ساهم هوجو في تجديد الشعر والمسرح، أعجب هذا التجديدُ معاصريه، وما عجب بعض المحدثين الآخرين. لقد جعلت اختيارات هوجو الأخلاقية والسياسية أثناء النصف الثاني من حياته، وأعماله الفريدة من نوعها من هوجو شخصية رمزية كرمتها الجمهورية الفرنسية الثالثة بعد الوفاة في 22 مايو 1885 بجنازة شعبية التي اصطحبت تحويل جثمانه إلى مقبرة العظماء بباريس في 31 مايو 1885م. تُعدُّ رواية البؤساء من أشهر أعمال فيكتور هوجو، قصة تتناول جوانب إنسانية بحثة تحدث فيها هوجو عن الحب، والحرب والطفولة المفقودة، والسجن الذي أضاع حياة بطل القصة "جان فالجان" لسبب تافه، بحثه عن لقمة العيش، كما تحدث في الرواية عن نابليون بونابرت، والشباب البونابرتي الديمقراطي.

إدانتى ليفيكتور هيجو: إلا أني كجزائري أسجّل إدانتى لمواقف هذا الكاتب الفرنسي الذي دعم احتلال الجزائر. فيكتور هيجو المحسوب في التاريخ الأدبي على الأدباء التقدميين في عصره فقد دعم الاحتلال الفرنسي للجزائر، وأطلق أحقادَه على الأمير عبد القادر رمز المقاومة الجزائرية، وذمّ نابليون الثالث الذي أطلق سراح الأمير ليلتحق بتركيا أولاً، وليستقرّ أخيراً في سوريا حتى آخر حياته. قال فيكتور هيجو عن الأمير عبد القادر ما يناقض حقيقة الأمير عبد القادر التاريخية ونضاله: "... وهو الرجل، ثمّ الصحراء (عبد القادر) / هو السلطان الذي وُلد تحت النخيل / رفيق الآساد الحمر / الحاج الشرس ذو العينين الهادئتين / الأمير المتأمل الضاري اللطيف / هو الشخص العبوس الفتاك / الطيف الشاحب

ذو البرنس الأبيض الذي ينقض وقد تعطش للتذبيح ثم يهوي ساجدا في  
الظلام"<sup>1</sup>.

**سحر الشرق .. غذاء العقل والروح:** تأكيداً أنني عندما أتوجه شرقاً فإن سحر  
الشرق، وألق ما طُبع، ونُشر فيه كان له تأثيرٌ قويٌّ على مساري الفكري  
الإبداعي، كما ولوجي فضاء الكتابة الإبداعية. عندما ألتفتُ إلى مكتبي تغمزني  
الكثير من العناوين التي كانت رافداً كبيراً لي يوم أن كانت تصل إلى الجزائر بعد  
أيام قليلة من صدورها ليس في دُول الخليج النائمة حينذاك في خدرها. كانت  
تلك الدرر الثمينة تأتي من حواضر بغداد، الكويت، دمشق، بيروت، القاهرة،  
طرابلس الغرب، تونس الخضراء. دُررٌ عبقت بالحبة وصدّق العروبة، كل تلك  
الدرر كان مُرحّباً بها في بلدي الجزائر، كُنّا ننتظرها بفارغ الصبر، تلقفناها بشوقٍ،  
ولهفةٍ، عكس حالنا التبعيس منذ أن استأسد بيادق فرنسا في هذا البلد، فمُنعت  
المطبوعات العربية من مجلّات، وصحفٍ، بينما مطبوعات " فافا" تُطبع بالأمس،  
تتموقع اليوم بالأكشاك والمكتبات.

**الكتب الشهرية لداري: الهلال، اقرأ:** تتلمذتُ كغيري من جيلي على سلسلة  
مطبوعات الهلال الشهرية من كتابٍ، ومجلّة، ورواية: القصة القصيرة نظرياً  
وتطبيقياً ليوسف الشاروني، سند باد في سيارة للدكتور حسين فوزي، شللي  
الشاعر لأحمد الصاوي محمد، البيت الإسلامي كما ينبغي أن يكون، أيامه  
الأخيرة، قصة ملك باع نفسه للشيطان، نوابغ الشباب لأحمد قاسم جودة، مع

---

1 - أزراج عُمر. فيكتور هيجو هاجم الأمير عبد القادر. صحيفة العرب اللندنية. الأحد: 15 / 09 / 2013

الله في السماء للدكتور أحمد زكي، جمال الدين الأفغاني للشيخ محمد عبده، أدب القفز بالمظلات لمعين بسيسو، أشعارٌ وشعراء من المهجر لمحمد عبد الغني حسن، سبعة أدباء من إفريقيا لخير الدمور، خليل مطران، شاعر الأقطار العربية لفوزي عطوي، رحلة حنان لفاضل السباعي، عصا الحكيم في الدنيا والآخرة لتوفيق الحكيم. كما تتلمذتُ على سلسلة "اقرأ" إصدار دار المعارف المصرية الشهرية: التنبؤ بالغيب قديماً وحديثاً لأحمد الشنتاوي، لافوازيه لعبد الحميد يونس، شاعر الغزل لعباس محمود العقاد، الغذاء الكامل أساس الصحة، مذكرات طيبة للدكتورة نوال السعداوي، نشيد الكروان للطاهر الطناحي، نماذج من الرواية العالمية لمحمد الحديدي، سيكولوجية المرأة للدكتور صبري جرجس، مع طه حسين لسامي الكيالي، حياتنا بعد الخمسين لسلامة موسى، الإسلام والمذاهب الحديثة لفتحي رضوان، الإنسان الأوروبي في الجدد والهزل لعبد الستار الطويل، رحلة إلى آسيا للدكتور شريف حتاتة، دراسات في الآداب الأجنبية للدكتور عيسى الناعوري، شخصيات لمحمود عوض، الإسلام ومشكلات الفكر، لفتحي رضوان، خطباء صنعوا التاريخ لأنور أحمد، الإسلام والإنسان المعاصر لفتحي رضوان، عصفورٌ من الشرق لتوفيق الحكيم، القيم الدينية والمجتمع لمحمد كامل حتة، القيادة والحرب عند العرب للسيد فرج، جولزوردي عدو الطغاة لرشدي السيسي، المعقول واللامعقول للدكتور أحمد فؤاد الأهواني، كلماتٌ إلى العقل للدكتور السيد أبو النجا، خبز الأقوياء لإبراهيم المصري، وغيرها.

**صداقاتٌ تجذرت مع عظماء الفكر:** إن كانت تلك السلاسل الشهرية اعتبرتها، وأعتبرها من أنفس المصادر المعرفية؛ فإنها حفرتني على توسيع دائرة البحث عن العيش مع كتاب آخرين تصدروا الفضاء الثقافي العربي.

مع طه حسين: في كُتبه الكثيرة التي كان أولها: حديث الأربعاء بأجزائه الثلاثة، المعدّبون في الأرض اللذان كانا مقرّرين في امتحانات ترقيتي إلى مدرّس في أواخر الستينيات كما سلف ذكره، لأقرأ له بعضاً من كُتبه التي تنيف عن الثلاثين كتاباً: في الشعر الجاهلي، في الأدب الجاهلي، مع أبي العلاء المعرّي في سجنه، دعاء الكروان، جنّة الشوك، الفتنة الكبرى، الحبّ الضائع، الأيام، مع المتنبي، على هامش السيرة.

**العقاد . . الكاتب الموسوعي:** كما لفتت نظري في تلك السنوات شخصية عبّاس محمود العقاد الذي أوّل ما قرأت له كتابه الموسوعي " ساعاتٌ بين الكُتب "، الكتاب الذي كان مقرّراً في امتحان ترقيتي إلى مدرّس؛ العقاد في كتاب ساعاتٍ بين الكتب يُحرر بالقارئ في مختلف أنواع بحور المعرفة، إذ يُعتبر الكتاب موسوعة شاملة بها فصول عن الفلسفة، وعلم الاجتماع، الفن، الأدب، العلوم؛ ونصائح للقارئ بأسماء كتب ومؤلفيها. هذا الكتاب من أكثر الكتب الثقافية الشاملة لمُعظم مجالات الثقافة. العقاد قضى سنوات وسنوات بين الكتب يقرأ ويطلع، ثم يقدم لنا عصارة هذه الثروة الفكرية في كتابٍ رغم عدد صفحاته الـ 800 إلا أنه صغير بالنسبة لما يحتويه، هذا الكتاب من خيرة الكتب. قال العقاد:

«يقول لك المرشدون: اقرأ ما ينفعك، ولكني أقول: بل انتفع بما تقرأ...»

الحقّ أن هذا الكتاب يحقق الغرضين 109 مقال بالإضافة إلى المقدمة شكّلت الأحجار الكريمة التي بُني منها الكتاب. كُتبت ما بين 26 نوفمبر 1926م إلى 02 سبتمبر 1929م، وهناك مقالات أخرى غير مؤرخة. الكتاب ليس عبارة عن

مراجعات عن كتب قرأها المؤلف؛ بل هو: ساعات بين الكتب. أيضاً من كُتِب العقاد التي تعمقتُ فيها عبقرياته: عبقرية محمد، عبقرية الإمام علي، عبقرية الصديق، عبقرية خالد، عبقرية عمر. إبراهيم أبو الأنبياء، داعي السماء بلال بن رباح، ذو النورين عثمان بن عفان، سارة (رواية)، دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، روح العظيم سعد زغلول زعيم الثورة، أبو العلاء المعري، حياة قلم، وغيرها من الكتب؛ علماً أن كتب عباس محمود العقاد بلغت 54

**الكاتب التقدير.. مصطفى لطفى المنفلوطي:** استهوتني في تلك الفترة كما أسلفتُ كُتِب مصطفى لطفى المنفلوطي الأديب المصري كان ولا يزال من الكُتّاب المهمين في مجالي الأدب والكتابة الأدبية؛ حيث امتلك أسلوباً أدبياً مميّزاً، وقُدرةً على الكتابة اللغويّة الرائعة والجميلة، ويظهر ذلك بطريقته في كتابة كُتبه ومقالاته، كما اهتمّ بكتابة الشعر. المنفلوطي علامة من علامات الأدب العربي، فمهما تعاقبت السنون، والقرون فسيظل المنفلوطي من أهم العلامات الرائدة في عالم الأدب، والذي ازدهر من خلاله أدب النهضة. من كُتبه التي اهتمتُ بها، وقرأتها بإعجابٍ، واندهاش لأسلوب كتابتها، وسلاسته، وانسيابية اللغة، كُتِب توشح مكنتي حتى الآن:

**1 -** كتاب النظرات هو سلسلة من المقالات الاجتماعية التي قام بكتابتها المنفلوطي، ونُشرت في مجلة المؤيد، وقد قام بجمعها في كتاب يتكون من ثلاثة أجزاء، ومن أهم ما تحتوي عليه هذه المقالات هي القصص الصغيرة، والمقالات التي كتبت بأسلوب جذاب، وموضوعات ممتعة جداً، وقد كانت هذه المقالات

من أروع ما أبدعه المنفلوطي نظرا لجمال أسلوبها، والتي لاقت إعجابا هائلا من كل القراء والنقاد إلى يومنا هذا.

**2** - العبرات من أهم الكتب التي ألفها المنفلوطي، إذ أنها عبارة عن مجموعة من القصص الهادفة التربوية، التي تحمل في طياتها مجموعة من الأهداف الموضوعية التي حاول المنفلوطي توصيلها للقراء، وأبرزها قضايا اجتماعية موضوعية، وقضايا تربوية اجتماعية كقصة المسيو كابرين وابنته ايلين والتي ترجمت عن قصة فرنسية. **3** . مختارات المنفلوطي واحدٌ من أروع ما كتبه المنفلوطي الذي اختار له أسلوبًا مُميزًا حيث اعتمد في نجاح هذا الكتاب على جمال الأسلوب، ورونق المعنى، والعاطفة الجياشة التي غلبت عليه، في الوقت الذي ظهر مجموعة من الأدباء امتازوا في كتاباتهم بزخرف اللفظ؛ لكن لغة هذا الكتاب امتازت باللغة التلقائية الغير المتكلفة، لذلك نال هذا الكتاب الإعجاب سواء من القراء أو النقاد.

**4** . كتاب ماجدولين تحت ظلال الزيزفون، هي رواية من الروايات الساخنة التي تميزت في تلك الفترة، وقد كانت من أهم الروايات التي ترجمها المنفلوطي، هي في الأصل رواية فرنسية للكاتب الفرنسي ألفونس كار، وقد عربها المنفلوطي ولم يقيم بترجمتها الترجمة الحرفية، موضوعها خطابات ساخنة للشباب، حيث نالت إعجاب كل من قرأها سيما الشباب اليافع، فقد أبكت الكثير منهم لما بها من صور، وأحاسيس مفعمة بالحياة.

**5** - كتاب الشاعر، من أهم الروايات التي ألفها المنفلوطي والذي يجمع فيها مجموعة من القضايا المهمة للمجتمعات في فترة من الفترات، وفي الأصل فإن هذه الرواية مأخوذة عن الكاتب آدمون روستان وقد ترجمها المنفلوطي وبث فيها

الروح باللغة العربية، فالرواية تجسد لمجموعة من الشخصيات الشجاعة التي تميزت بالوفاء والتضحية لذلك فإن هذه الرواية تأخذ القارئ إلى عالم خاص جدا هو العالم الأثيري الرائع والغير موجود في دنيا الأدب الحقيقي.

**6** - الشاعر من أهم الروايات التي ألفها المنفلوطي، والذي يجمع فيها مجموعة من القضايا المهمة للمجتمعات في فترة من الفترات، وفي الأصل فإن هذه الرواية مأخوذة عن الكاتب آدمون رويستان، وقد ترجمها المنفلوطي وبث فيها الروح باللغة العربية، فالرواية تجسد لمجموعة من الشخصيات الشجاعة التي تميزت بالوفاء، والتضحية لذلك فإن هذه الرواية تأخذ القارئ إلى عالم خاص جدا هو العالم الأثيري الرائع، والغير موجود في دنيا الأدب الحقيقي.

**7** - كتاب الفضيلة، رواية من أروع مؤلفات المنفلوطي، وقد ترجمها عن رواية للمبدع برناردين دي سان بيار، وهي من أجمل الروايات الجميلة جدا؛ لأنّ بداخلها الكثير من الحكم، والصفات التي لم تعد موجودة في مجتمعاتنا الحالية، كما تحمل الكثير من الصفات كالحب، والغيرة، والتضحية، والشرف وغيرها من الصفات التي ذكرها المنفلوطي بأسلوب خاص جدا.

**8** - كتاب في سبيل التاج: رواية من أروع الروايات التي تركها لنا المنفلوطي، والتي عبر فيها عن مأساة حقيقية يعيش فيها أيُّ شاب، تعارضُ عاطفتين لديه هو حبّ الأسرة، وحب الوطن، وقد استخدم الكاتب أسلوبا ممتعا جدا في روايته اتّسمت بالسهل الممتنع؛ كما اتّسمت أفكار الرواية بالتسلسل، والتماسك؛ كما ترصد الرواية أخلاق الشخصيات، أقوالهم، حركاتهم بلا غموض.

**نجيب محمود . . الفيلسوف العقلاني: زكي نجيب محمود:** من الكُتّاب الذين أثروا في من خلال سماع، ورؤية حواراته الرائعة، وكُتبه كلها التي تُزيّن مكتبي، التي ما أفتأ أن أعود إلى بعضها بين الحين والآخر. المرحوم زكي نجيب محمود (1905-1993م) المفكر، الفيلسوف المصري، الذي لُقّب بأديب الفلاسفة لاشتغاله بالأدب، والفلسفة في نفس الوقت، ورائد التيار العلمي في النهضة العربية في القرن العشرين. كُتبه: تجديد الفكر العربي، الكوميديا الأرضية، جابر بن حيان، حياة الفكر في العالم الجديد، رؤية إسلامية، عربي بين ثقافتين، في حياتنا العقلية، في مفترق الطرق، قشور ولباب، قصة عقل، قصة نفس، قصة الفلسفة الحديثة، قيم من التراث، مجتمع جديد أو الكارثة، محاورات أفلاطون. "ترجمة"، من زاوية فلسفية، موقف من الميتافيزيقيا، نافذة على فلسفة العصر، قصة الفلسفة اليونانية، الشرق الفنّان. بعد أن زار أوروبا، وأمريكا وانبهر بالفكر الغربي، عاد إلى أصله ودعا إلى فلسفة جديدة برؤية عربية تبدأ من الجذور، ولا تكتفي بها، ونادى بتجديد الفكر العربي، والاستفادة من تراثه، وقال:

«إنّ تركّ التراث كله هو انتحار حضاري؛ لأنّ التراث به لغتنا، وآدابنا، وقيمنا، وجهود علمائنا، وأدبائنا، وفلاسفتنا».

تمتّى . رحمه الله . ألا نعيش عالية على غيرنا، وإنما نشارك في هذا العالم بالأخذ والهضم، والتمثيل؛ ثم إعادة إفراز ما أخذناه مثلما فعل المسلمون حينما أخذوا العلم والفلسفة الإغريقية وهضموها ثم أفرزوها، وزادوا عليهما زيادات مهمة. رأى أن السرّ وراء تخلف العالم الإسلامي المعاصر في أن المسلمين يكتفون بحفظ القرآن الكريم، وترديده دون العمل بما يشير إليه من وجوب العلم بالكون وظواهره، ودعا إلى الاعتزاز بالأسلاف، وأن الأمر لا يقتصر على فقهاء الدين،

بل يجب أن نضيف إليهم الأسماء اللامعة لعلماء الرياضة، والطب، والكيمياء، والفلك والمؤرخين، والرحالة، والشعراء، والفلاسفة.

فهؤلاء جميعاً قد وجهوا جهودهم نحو الكون يقرؤون ظواهره، ويستخرجون قوانينه، ثم أصابنا الجمود منذ القرن الخامس عشر الميلادي.

**مفكرونا وكتّابنا.. تهاينا معهم فكراً، هوية وطنية:** مثل جيلي تأثرنا، واستفدنا من كُتّابٍ، ومفكرين جزائريين، ومن بين هؤلاء الدكتور عبد الله شريط (1921 - 2010م)، أحد المؤسسين للخطاب التثويري، والعقلايين في الجزائر، وأحد مؤسسي جامعة الجزائر المستقلة، وفوق هذا وذاك هو من الإعلاميين الكبار الذين كوّنتهم الثورة الجزائرية بثقلها الوطني، والإقليمي، والدولي.

**عبد الله شريط.. فيلسوف الجزائر في التاريخ المعاصر:** عبد الله شريط من كبار المفكرين المعاصرين، ومن أبرز رواد التفكير الفلسفي في الجزائر والوطن العربي، هو أحد أعمدة الثقافة العربية الجزائرية، ومن رواد الفكر النهضوي العربي، تميّز بفكره الشامل، ونضاله المستمر، نجد له حضوراً بارزاً في عالم الفلسفة العربية المعاصرة.

كانت حياته شعلة وضاعة لا تخبو، وجدوة متوقدة لا تنطفئ، إذ ملأ الدنيا وشغل الناس ردهاً من الدهر، فقد مات عن تسعة وثمانين عاماً قضى منها أكثر من ستين عاماً مُتسكاً في محارِب العلم، والفكر، والمعرفة، ومن الصعوبة بمكان تصنيفه أو إدراجه في زاوية معينة، كان متعدد الاهتمامات، متنوع الاختصاصات، شاعرٌ رومانسي رقيق، وأديب عُرف بأسلوبه المبسط، والسهل الممتنع، يتميز أسلوبه في الكتابة بالدقة، ووضع الكلمات في مواضعها، بعيداً عن الإطناب المُمل، والاختصار المُخل، إضافة إلى أنه ناقد أنجز عدة دراسات نقدية،

كما أنه مترجم بارع، أتقن اللغة الفرنسية بامتياز، إلا أنه لا يهاجر إليها فكراً ولساناً.

ظل طوال حياته من أبرز المدافعين عن اللغة العربية في الجزائر، وفي سبيلها خاض الكثير من المعارك الفكرية العاتية ضد دعاة الفرنسة والتغريب، كما قدم أفكاراً ورؤى معمقة في سبيل النهوض بها، وترقيتها في الجزائر والوطن العربي، عشق الدكتور شريط العلامة ابن خلدون، فتبنى المنهجية الخلدونية في رصده للظواهر الاجتماعية، وعلى ضوءها درس عدداً من موثيق الثورة الجزائرية، مثل: ميثاق الصومام، والميثاق الوطني، وميثاق طرابلس.<sup>1</sup>

وصفه أدق وصف صديقه الأستاذ الدكتور محمد الشريف عباس؛ وزير المجاهدين الجزائريين السابق بقوله:

«عبد الله شريط رجل متعدد الأبعاد، متنوع الثقافات، مُتبحر في العلوم، جمع بين المشارب المعرفية وبين حداثة الفكر، لقد حباه المولى عز وجل قدرة على التحصيل المعرفي وعلى الاستقراء والتحليل، رجلٌ اختار النضال الفكري والمعرفي منذ شبابه، فقد كان كاتباً صحافياً في جريدة الصباح التونسية، دافع عن القضية الجزائرية بقلمه، فمُجاهداً فذاً ومُناضلاً مُخلصاً، وأستاذاً بجامعة الجزائر بعد الاستقلال. كفاه فخراً أن أنجز موسوعة كاملة عن الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية في عدة أجزاء، فهو فيلسوف، ومؤرخ، وصحفي، وباحث لامع، لا تراه إلا جليس العلماء، ووسط كوكبة من الطلبة، أو صفوة الذكر في الملتقيات

---

1 - د. محمد سيف الإسلام بوفلاقة. عبد الله شريط المفكر الرائد والفيلسوف المناضل. موقع عبد الحميد بن باديس. <http://binbadis.net/archives/2266>

والندوات، وباختصار هو واحد من أبرز فرسان القلم الجزائريين الذين تجشّموا مشاق الكتابة، والتدوين، وإبراز الجوانب الحضارية لهذه الأمة<sup>1</sup> .

ساهم بعد الاستقلال بمجهود كبير في نشر الثقافة الفلسفية، والتربوية في علم النفس الاجتماعي، وعلم الاجتماع التربوي، اهتم عبد الله شريط كثيرا بالفكر الخلدوني، وركز الحديث على ظاهرة التشتت وعلاقتها بالأخلاق في الفكر العربي المعاصر. استمد ابن خلدون المفهوم العربي للدولة من الواقع التاريخي، ومن هنا ركز شريط أفكار كتاباته على: الأخلاق، والعصبية عند ابن خلدون، والعقيدة الإسلامية، والتشتت في تاريخ الأمة العربية.

أتذكّر حصصه الإذاعية والتلفزيونية التي حرصتُ على متابعتها، والتي داوم على تقديمها إذ لقيتُ نجاحاً كبيراً، وأعجب بها المثقفون الجزائريون أيما إعجاب. مثل الكثيرين اهتمتُ بكتبه: الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، معركة المفاهيم، من واقع الثقافة الجزائرية، من أجل سعادة الإنسان، وهو ترجمة عن الفرنسية لكتاب الفيلسوف الإنجليزي «برتراند راسل» الموسوم بـ: «كيف أفهم العالم»، مجموعة من الحوارات التي دارت بين الفيلسوف «راسل»، وأحد قرائه، نصوص مختارة من فلسفة ابن خلدون، الرّماد.. مجموعة شعرية، مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي، تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب، حوار إيديولوجي حول المسألة الصحراوية والقضية الفلسطينية، الإيديولوجية والتنمية،

---

<sup>1</sup> - يُنظر كلمة وزير المجاهدين الجزائريين: محمد شريف عباس التي ألقاها في اليوم التكريمي للدكتور عبد الله شريط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، مجلة الكتاب، عدد: 02، 2005 م، ص: 38.

المشكلة الأيديولوجية في الجزائر، المنابع الفلسفية للفكر الاشتراكي في الجزائر، مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الأيديولوجي في الجزائر. **عبد المجيد مزيان .. المفكر الفيلسوف:** من الكُتّاب العمالقة الذين تأثرت بهم، وقرأتُ كتبهم، وتابعت حواراتهم في الحصص الإذاعية والتلفزيونية المفكر الفيلسوف عبد المجيد مزيان (1926 . 2001م)، الذي كان حضوره في الساحة الثقافية والسياسية في جزائر الاستقلال طلائعياً.

كما كان منذ شبابه اليافع مناضلاً شرساً، انضمّ مبكراً إلى صفوف الثورة التحريرية، وأيضاً الصوت الأول الذي صدح في إذاعة "الجزائر الحرة المكافحة" باسم صلاح الدين. كان المرحوم عبد المجيد فيلسوفاً، ومنظراً وعالم اجتماع. ترك الراحل عدة مؤلفات منها: دراسة فلسفية واجتماعية عن النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون، مسألة الإشكاليات الاقتصادية والسياسية والثقافية في الإسلام. عمل الشيخ مزيان في الإعلام من خلال الحصص التي كان ينشطها والمتعلقة دوماً بالفلسفة والفكر الإسلامي، منها حصة إذاعية بثت في السبعينيات بالاشتراك مع الراحل شريط، و"معرفة الإسلام" من سنة 1994 حتى 1998م، وحصة "الجلس" التلفزيونية سنة 1997.

المرحوم عبد المجيد كان السباق منذ سنوات الستينيات للالتزام بترقية الحوار الإسلامي المسيحي جنباً إلى جنب مع علماء الإسلام، ومع المفكرين المسيحيين. علماً أنه وُي وزارة الثقافة والسياحة الجزائرية، فريئساً للمجلس الإسلامي الأعلى.

المجال هنا لا يسمح لي بأن أتحدّث عن المزيد من الكُتّاب الجزائريين، فقط سأحدّث في موضعٍ آخر عن المبدعين أدبيا وفنيا، كما أن هناك كُتّاباً

يشكّلون أعمدة الثقافة الجزائرية المعاصرة، قرأتُ أعمالهم، وتابعتُ حواراتهم؛ كما ربطتني معهم صداقات عن قُرْبٍ امتدّت لعقود حتى رحيلهم، التقيتهم عن قُرْبٍ في العاصمة، كما التقيتهم في وادي سُوف؛ بل في قمار- رحمهم الله . كالدكاترة: أبو القاسم سعد الله، أبو العيد دودو، يحيى بوعزيز.

**الدوريات الثقافية:** ظهرت الحاجة إلى الدوريات كونها وسيلة اتصال عالمي بين الباحثين والعلماء، وذلك بنشر المقالات، والبحوث الأدبية والعلمية. الدوريات هي أداة لنشر المعرفة، والإنتاجات الحديثة من المعارف، وخاصة الدوريات العلمية المتخصصة التي صارت أكثر انتشاراً من الكتاب، في هذا الصدد أشار أحدُ المتخصصين إلى أن أكثر من 95% من الإشارات المصدرية التي يقتبسها العلماء، هي دوريات علمية، مطبوعات صادرة عن جمعيات علمية..

كما أن الأمر لا يختلف كثيراً فيما يتعلق بالدوريات الثقافية (المجلات)، التي قد تكون نصف سنوية، أو فصلية، أو شهرية، أو أسبوعية. ليس عجباً إعلاني أني مثلما تتلمذتُ على كُتّاب فطاحل مشارق، ومغارب؛ فإني تتلمذتُ ولا أزال على المجلات العربية التي كانت أولها مجلة العرب" العربي الكويتية" جميعاً أينما تواجدوا، ولا تزال، التي سأعود إليها لاحقاً. أتذكّر جيداً أن عديد المجلات الثقافية كانت تصل الجزائر من العالم العربي في عقود الستينات، السبعينات، الثمانينات؛ كنت أترقب وصولها كغيري من مثقفي وكُتّاب، ومبدعي ذلك الزمن الجميل:

**1 - من العراق:** مجلة الأقلام، مجلة الطبيعة. 2 - من سوريا: مجلة الموقف الأدبي التي لا تزال تصدر عن اتحاد كُتّاب سوريا. 3 - من الكويت: مجلة العربي، مجلة عالم المعرفة، مجلة عالم الفكر (فصلية). 4 - من لبنان: مجلة الآداب، مجلة الأديب،

مجلة الصياد، مجلة المستقبل. 5 - من مصر: مجلة الهلال، كتاب الهلال، روايات الهلال، كتاب " إقرأ الشهري"، مجلة إبداعات.

6 - من ليبيا: مجلة الثقافة العربية. 7 - من تونس: مجلة الفكر، مجلة الحياة الثقافية. 8 - من الجزائر: مجلة آمال، مجلة الثقافة، مجلة ألوان. هذه المجلات الثقافية التي تتلمذت عليها، ولديّ منها أرشيف كبيرٌ أعتزّ به..

مجلات أغلبها لا يزال يصدر منضافة إليها مجلات ثقافية خليجية بلجلها الجميلة مستفيدة من التقنيات التكنولوجية المعاصرة؛ تألقت وسادت هذه المجلات الخليجية بداية من أوائل القرن الواحد والعشرين. توقفت من تلكم الأولى: مجلة آمال الجزائرية، ومجلة الثقافة الجزائرية، كما مجلة "الثقافة العربية" الليبية.

مجلة " العربي" .. مدرسة النفس الطويل: مجلة " العربي" الكويتية حيث عايشتها منذ سنة 1966م لما كانت تصل مدينة عنّابة، في أول كل شهرٍ حينذاك اكتشفتها، وانبهرتُ بها، ولا أزال. كان مديرها الذي أسّسها، وأصدرها الدكتور العالم المصري أحمد زكي، صاحب المجلد الضخم الموسوعي "في سبيل موسوعة علمية"، لا يزال يأخذ مكانه في مكتبي الشخصية.

أول عدد صدر من مجلة العربي كان في شهر ديسمبر 1958م، عايشتُ كل رؤساء تحريرها، وكتّابها منذ سنة 1966م حتى عدد هذا الشهر، رؤساء التحرير: د. أحمد زكي (مصر)، أحمد بهاء الدين (مصر)، د. محمد غانم الرميحي (الكويت)، د. سليمان إبراهيم العسكري (الكويت)، د. عادل سالم العبد الجادر (الكويت)، ومع صحافيين الذين ساهموا في تأسيسها، مثل: أوسكار متري وسليم زبال. وكتّابها الأوائل، مثل: طه حسين، عباس محمود العقاد، نجيب

محفوظ، نزار قباني، عبد الهادي النازي، إحسان عباس، يوسف إدريس، صلاح عبد الصبور، فاروق شوشة الذي بقي وفيما لمساحته بالمجلة " لغتنا الجميلة" حتى وفاته سنة 2016م، والدكتور جابر عصفور الذي منذ ذاك العهد وهو من كتّابها الكبار حتى الآن.

**الفرنكفوليون أغلقوا علينا باب الشرق ثقافيا:** لما تمكّن التيار الفرنكفولي، وأغلق الباب عن المجالات العربية، ومنع دخولها إلى الجزائر منذ التعددية التي كانت كريمة على كل اتجاه إلاّ المجالات العربية، أضحت هذه المجالات بما فيها مجلة " العربي" تأتي من تونس الشقيقة عبر القنوات غير الرسمية، تصلنا شهريا كمجلة العربي، مجلة عالم الفكر، مجلة عالم المعرفة (الكويت)، المجلة العربية السعودية وكتابها الهدية، مجلة الفيصل (السعودية)، مجلة " نزوى" العمانية الفصلية، مجلة دبي الثقافية، وكتابها الهدية (أوقفوها أخيرا عن الصدور)، مجلة الشارقة الثقافية، مجلة الرافد، وكتابها الهدية (الإمارات)، مجلة الحياة الثقافية (تونس)...

حتى العراق الشقيق وهو في محنه التي لا تحصى، ويوميّاته الدامية تُصدر وزارة الثقافة به مجلة (تشكيل)، ومجلة (فنون)، وصحيفة (الاتجاه الثقافي)، إضافة إلى مجلات للأطفال. وسوريا الجريحة بمجالاتها العريقة التي لم تتوقف، ويصدرها اتحاد الكُتّاب السوريون: الموقف الأدبي، الأسبوع الأدبي، مجلة التراث، مجلة الآداب العالمية؛ كما أن وزارة الثقافة في هذا البلد تصدر مجلّتها الثقافية الشهرية (المعرفة)، ومجلة (الخيال العلمي)، ومجلة (أسامة).

"كتاب" مجلة العربي قيمة مضافة: بالعودة إلى مجلة العربي ومنذ عهد تحرير  
المرحوم أحمد بهاء الدين أضافت مطبوعات شهرية، وكتابها الفصلي، الموسوم بـ"  
كتاب العربي" الذي أحوز على 42 كتاباً منه، علماً أنّ ما صدر منه حتى أيامنا  
هذه أكثر من 110 كتابٍ في شتى مناحي المعرفة. كتاب "العربي" كتابٌ فصليٌّ  
واصل صدوره بدءاً بالعدد الأول الذي صدر في جانفي 1984م، موضوعه "  
الحرية"، آخر عدد عندي هو العدد 96 الصادر في 15 أفريل 2014م، موضوعه "  
الكانجارو، وقصصٌ أخرى: 30 قصة من روائع القصص العالمية.  
لا بأس أن أذكر بعض عناوين كتب السلسلة: العلم، العلم في حياة  
الإنسان، العروبة والإسلام وأوروبا، طبائع البشر، حوارٌ لا مواجهة، أضواء على  
لغتنا السمحة، السلوك الإنساني.. الحقيقة والخيال، ...

## 16. الإبحار مع الحرف.. بداية الحكاية

" إنني استعرض جميع ما كُتِب، فلا تميل نفسي إلا إلى ما كتبه

الإنسان بقطرات دمه . أكتب بدمك فتعلم حينئذ أن الدم

روح، ليس بالسهل أن يفهم الإنسان دمه غريب . "

( نيلسه.. الفيلسوف الألماني )

الكاتب إنسان يمارس إنسانيته، وكيونته ضمن الجماعة الإنسانية،

يتفاعل مع ما حوله، ومن حوله فينفعل بتقلبات الأحداث، وأصداء الوقائع،

فيتأثر بها، وتؤثر فيه.. قد يكون مسارها في الاتجاه الذي يرتضيه، فيلتقي مع

تطلعاته، ونظرته إلى الحياة، أو يكون في الاتجاه المضاد تمامًا بعيدا عما ارتضاه،

وعما اصطفاه من قيم واتجاهات. إن الكتابة عند أي كاتب هي نوعٌ من إثبات

الذات، وصورةٌ لكيونته كمفكر، وفضاء للترويح، لما يترسخ هذا الفعل الجميل

يولد نوعًا من الإدمان؛ الكتابة عندي رسالة مستمرة، لا أحسبها تتوقف عند

مرحلة عمرية لديّ، فيها أتنفس، ومن خلالها أتواصل مع الغير، وبها أتغذى، بها

أتعيش مع الإنسان دون عوائق زمكانية. الكتابة هبةٌ من الله ميّز بها الإنسان عن

سائر المخلوقات، وهي عملية دقيقة تخضع لموازن تجعل منها همًا إنسانيا، ترتفع

بالإنسان كاتبًا وقارئًا ودارسًا وتضيف تجارب أخرى إلى تجاربه.

**رحلتي مع الكتابة:** البداية كانت في أواخر سنة 1970م تفاعلتُ مع مجلة

المجاهد الأسبوعية، وخاصة مع "بريد القراء" ساهمت بمواضيع تخصّ منطقة وادي

سُوفُ: مشكلة المواصلات في الواحات، الصناعات التقليدية دور رجل الدين، شباب ضائع وسلطة محلية نائمة، رأيي في الشعر، افتقارنا الى المكتبات، وغيرها، نتيجة قراءتي لهذه المجلة من الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة، وتوقفًا طويلاً مع القسم الثقافي بما: شعر، قصص قصيرة، أخبار ثقافية؛ جذبني الأدب من قصص قصيرة، وشعر.

مع السرد القصصي .. بداية الحكاية: أول قصة قصيرة كتبها كانت في سنة 1972، بعد أن حيرت عدة مواضيع اجتماعية أرسلتها إلى صحيفة " المجاهد الأسبوعي " التي كانت يومئذ هي وصحيفة " الشعب " تملآن الساحة المعربية، وأيضاً صحيفة: النصر" بدرجة أقل، والتي عُربت سنة 1972.

كانت صحيفة "المجاهد الأسبوعي" تنشر لي هذه المواضيع الاجتماعية، وبدأت من خلالها أيضاً أتعرّف على القصة القصيرة المعاصرة، وأتبع مسارها الموضوعاتي، والاتجاهاتي، والفني مما حرك في نفسي نزعة الكتابة الإبداعية، وبالتحديد القصصية، ووهج ثورة التحرير المباركة لا يزال حينذاك في أوجه، فساعدتني الذاكرة التي أعادتني إلى تلك الأحداث. فجأة وجدتني أكتب أول قصة مستوحاة من هذه الأحداث، قصة بعنوان " الأبي " قصة واقعية أحداثها وقعت في سجن " لامبيس"، بطلها استُدعي من قبل الإدارة الفرنسية بالسجن، وعُرضت عليه مزايا، وعطايا، مقابل أن يكون مُخبراً داخل السجن بين إخوانه، يبلغ الإدارة الفرنسية عن رفاقه في كل ما يقومون به من كبيرة، أو صغيرة، أو حديث عن الثورة؛ وبإباء ونخوة الجزائري رفض، فعُوقب بوضعه في زنزانة

منفردة... هذه القصة الأولى لتتوالى بعدها القصص، وتفتق القريحة، وأدخل هذا العالم الإبداعي الجميل.

**خطواتي الأولى في فضاءات إعلامية أخرى:** كانت في الساحة أيضًا صحيفة الشباب الأسبوعية أرسلت إليها قصة بعنوان: "التحدي". صدرت في العدد **48** بتاريخ: **1973/03/01**، في باب نادي الشباب الأدبي، تلتها قصة: "العودة" في نفس النادي بالعدد **109** سنة **1974**، ثم قصة "سيول جارفة" في العدد: **130** بتاريخ: **1974/02/26**. يومية النصر الجديدة المعرّبة نشرت لي بتاريخ **1974/01/12** قصة بعنوان: "الجرح الغائر"، وبتاريخ **1975/03/06** نشرت لي قصة أخرى بعنوان "الذكرى"، وتواصل النشر بالصحيفة.

**مجلة آمال.. إضاءة الإشراق:** في تلك الأثناء كانت تطلّ علينا مجلة "آمال" الشهرية التي أصدرتها وزارة الثقافة، مجلة أدب الشباب... كانت تأتينا تباعًا، وتصدر بانتظام، وسعر مقبول يساوي دينارًا ونصفًا للعدد الواحد..

سعرٌ مثبتٌ في واجهة المجلة. كنتُ أتلهف إليها بشوقٍ وحنينٍ، حيث كنت أقرأ محتوياتها من الألف إلى الياء، وغالبًا ما أعود إلى قسم القصة القصيرة المنشورة بها، فأعيد قراءة كل قصة مرّة أو مرتين، وكوّنتُ أصدقاء حميمين يبدعون في هذا الجنس الأدبي دون أن أعرفهم بأشخاصهم، ودون أن أقابلهم، ثم عرفتُهم عن قُربٍ والتقيتُ أغلبهم فيما بعد، تكوّن منّا من يُطلق عليهم بـ "جيل السبعينيات" فيما بعد.

تأثراً بما كنتُ أطلعه في صحيفة الشعب، وصحيفة المجاهد الأسبوعي، ومجلة آمال بخاصة دفعني إلى المغامرة.. نعم أسميها مغامرة، لِمَ لا أدلي بدلوي مثل هؤلاء الذين تنشر لهم مجلة "آمال" حيث هناك من تنشر لهم في كل عدد، وهناك من تنشر لهم أحياناً.. ضفْ إلى ذلك أن المجلة وهي تُعرِّف بنفسها تؤكد في الصفحة الثالثة من كل عدد بما يلي:

«آمال.. مجلة أدبية ثقافية تهتم بأدب الناشئين. تصدر مرّة كل شهرين عن وزارة الثقافة والإعلام.»، أضحت فيما بعد تصدر شهرياً.

الشكل الجديد للمجلة كان الحافز: ما دفعني إلى طرُق باجها ما طراً على المجلة من تغيير في الشكل والحجم، والمحتوى.. إذ صدر العدد التاسع عشر في حلّة جديدة مغايرة تماماً للشكل السابق..

جاء الشكل الجديد بتغييرات هامة؛ فالغلاف لم يعد ذاك الغلاف الجامد الجاف الخالي من البصمة الجمالية، إذ تمّ اللجوء إلى الرسّامين التشكيليين للكشف عن مواهبهم، وإبداعاتهم وخاصة منهم الفنان المبدع الطاهر أومان..

الفن مهما كانت صورته ووجوهه وسيلة من وسائل التعبير، وأداة فعّالة للتثقيف والتوعية، ولمسة روحية تهذب النفس، وتغرس أريجية التذوّق الراقى. محتوى المجلة تغيّر في نوعية المواضيع المنشورة، ومستواها من دراسات ونصوص شعرية، إلى نصوص سردية، ودراسات لكل عدد سابق، والتطرق إلى بريد المبدعين المرسلين والحوار معهم كتابياً فيم أرسلوه إلى المجلة. إن القائمين على المجلة، سيّما رئيس تحريرها الأستاذ الفاضل عبد الحميد السّقّاي؛ بعد هذا التغيير أحسّوا بالرضا بدليل الإقبال على المجلة مقروئية، وتواصلًا، تهاطلت المواضيع

التي تعددت وتنوعت من الأدباء الشباب. كنتُ واحداً من هؤلاء، وكنت متخوفاً

علّ ما أرسله لا ينال الرضا فلا يُنشر، أو حتى لا يحظى حتى بالردّ أو التوجيه.. أو في أحسن الأحوال يكون الردّ في ذلك الجدول الذي تعلوه عبارة " أعمال نعتذر عن عدم نشرها" وذلك في باب حوارٍ مع أصدقاء مجلة آمال" في آخر المجلة. **يا لها من فرحة.. !!** كم كانت فرحتي كبيرة جداً.. بل كانت مفاجأة لي وأنا أتطلع إلى اسمي بجانب أسماء مثل: خلاص الجيلالي، عمار بلحسن، أمين الزاوي، د. خير الله عصّار، أحمد منور، عبد الحفيظ بوالطين، السائح الحبيب، مولود

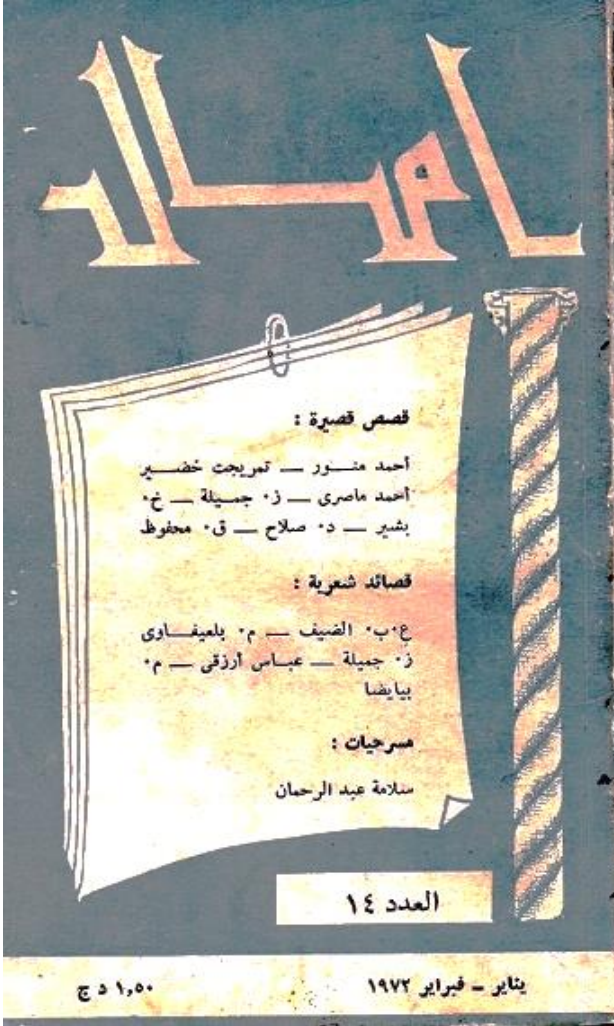
## النفس الأبيّة

خلف بشير

ليلة من ليالي الشتاء الباردة .. وهو في حجرته يبذل جميع مجهوداته لابعاد الهواجس والافكار التي كانت تشغله .. استعداد للنوم ليستريح من تعب هذا اليوم ، ولكن بدون جدوى ! ولم يجد وسيلة ليرفّه بها عن نفسه بدلا من النوم ، اللهم الا ان يتوجه الى المطبخ لاعداد قهوة ساخنة تطرد عنه النوم مرة واحدة هذه الليلة .. في هذه الآونة كانت رياح يناير تزار وتصفّر عبر المسارب الواقعة بين الباب والجدار فتتحرك في نفسه مشاعر قاسية يحاول أن يتجاهلها دائما ولكنها تطفئ عليه . أعد القهوة وسكرها وعاد الى مكتبه الذي هو عبارة عن صندوق تاي وخلقه كرسى عتيق ، وألقى بنفسه فوقه وأخذ يرثف ما يحتويه الفئجان مقلدا بطعمها وبراحتها المنعشة ، ولأنام هذه النشوة لم يجد بدا من اشعال سيجارة أخذ يمتصها بنهم ، ناقتا دخانها من فيه بقوة ليرتطم بسقف الغرفة المتشقق كحياته . من خلال امتزاج رائحة القهوة مع نكهة السجارة يشعر بشريط من الحواطر والوقائع ، تمر أمام عينيه، ولم يصح من استسلامه لها الا بعدما أحس بعقب السيجارة يحرقه في أصبعه ، كانت تصطرع في داخله افكار تورية تنسم بطابع الجد والحلق ، تبغى بناء الجديد على القديم البالي وانما بصفة تدريجية لا تتسبح طريق السرعة ، وكلما

عاشور، بشير سعدوني، مصطفى فاسي، جروة علاوة وهي، حميدة العياشي، وغيرهم... وكانت أول قصة نُشرت لي في المجلة في عدد فيفري 1972 بعنوان: "

النفس الأبية"، ونشرت لي أيضا في العدد الواحد والعشرين بتاريخ اجوان - أوت 1974 عملين في عدد واحد.. قصة قصيرة في باب القصة بعنوان "القدر الساخر"، وقصيدة شعرية في باب الشعر عنوانها: " صرخة جرحٍ " وتتالى نشرُ

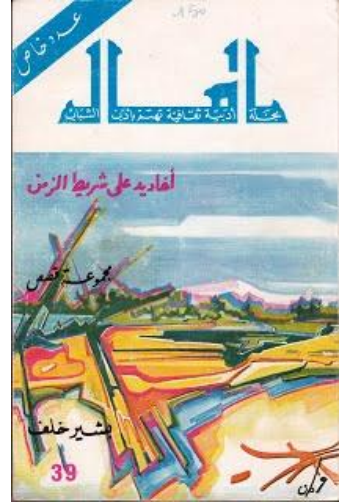


القصص القصيرة لي  
 بالمجلة في أغلب  
 أعدادها المتوالية: 25،  
 26، 27، 28، 30،  
 33، 43، 44.. وما  
 رُفضت لي أي قصة.  
 تولّى رئاسة تحرير مجلة"  
 آمال" حينذاك الأستاذ  
 المجاهد عبد الحميد  
 السقاي، الذي تولّى  
 فيما بعد رئاسة تحرير  
 مجلة" أول نوفمبر"،  
 وكان وزير الثقافة  
 والإعلام أيام ذاك  
 الدكتور أحمد طالب  
 الإبراهيمي الذي كان  
 المشرف على مجلة "

آمال" والراعي لها.

مجموعتي القصصية الأولى .. أيقونة الروح: في فاتح جانفي 1977م اتصل بي السيد بشير قاضي الموظف بديوان الوزير يعلمني بأن الوزارة قرّرت جمع كل القصص التي صدرت لي بمجلة آمال، وعمّا إن كنت موافقاً على أن تصدر لي في عدد خاص من المجلة، فأبديتُ موافقتي في الحال، حيث صدرت في العدد 39 بتاريخ ماي . اجوان 1977م مجموعة قصصية تحمل عنوان " أخايد على شريط الزمن" .. عدد به 19 قصة، وخمسة قصص قصيرة جداً.

المفارقة أي لم أستلم هذا العدد الخاص من وزارة الثقافة مباشرة، أو عن طريق البريد، إنما ابتعثته من مكتبة ابن باديس بمدينة الوادي كانت في كل شهر تصلها المجلات الثقافية العربية من تونس (الفكر، الحياة الثقافية)، مصر (الهلال، إقرأ)، لبنان (الآداب، الأديب)، العراق (الأقلام، الطليعة الأدبية)، ليبيا (الثقافة العربية)، السعودية (الفيصل)، قطر (الدوحة)، وكذا مجلة " الثقافة"



و "الأصالة"، ومجلة " آمال" من الجزائر العاصمة. دخلتُ المكتبة كعادتي كي أقتني ما ألفتُ اقتناه من تلكم المجلات العربية، فاجأني صاحب المكتبة بمجلة "آمال" أمدها إليّ، وهنّأني، وما صدّقتُ أن يصدر عدد خاص لي وحدي، ولا يشاركني فيه أحدٌ.. غادرت المكتبة لأجد نفسي دون وعيٍ مني أجلس على

رصيف الشارع غير آبه بحركة المرور، ولا بالمارين، ولعلّ ما أبحرني ذلكم الإخراج الجيد، وذلكم التصميم الرائع للفنان التشكيلي الموهوب الطاهر أومان.. لوحة تشكيلية معبرة عن عتبه المجموعة وقصصها.. إبداع جمالي راقٍ في تقنية الألوان وتوظيفها. وكأنني غير مصدّق أن يصدر لي هذا العمل الإبداعي، بمجرد عودتي إلى المنزل قرأت القصص المنشورة بالجملة تباعاً، وقارنتها مع النسخ الأصلية الموجودة عندي، فكان التطابق التام..

**حينذاك .. أول عمل مطبوع معجزة:** أن يصدر لك عمل أدبي في ذاك العهد، ومن طرف هيئة رسمية تتولّى الإشراف على الثقافة في الدولة الجزائرية، وتتعهد مؤسسات أخرى للطبع والنشر في البلد، يعني أنك وضعت رجلك في مسار الإبداع والكتابة. ما استلمت من وزارة الثقافة ولا نسخة واحدة من المجلة، وما تلقيت تعويضاً مادياً، حيث ما فكّرت فيه البتة.. بصدق هذه أجديات ما خطرت على جيلي من الكتاب والمبدعين حينذاك؛ كما أنّ ثقافة الإهداء إلى الأصدقاء، أو البيع بالإهداء غير معروفة، كانت الحركة الأدبية نشطة، والكتاب متوفراً، وكذا المجلة الأدبية، ونسبة المقروئية مرتفعة. ما أنّ يظهر على الساحة عمل أدبيّ، أو فكريّ حتى يتهافت عليه القراء، وينفذ بسرعة.. الكاتب حينها ليس في حاجة للتعريف بنفسه، أو بعمله من خلال الإهداء إلى الأصدقاء، أو بالبيع بالإهداء.

**الإصدار الأوّل جواز المرور:** العدد الخاص لمجلة آمال الذي صدر لي لا يزال أغلب مثقفي ومبدعي تلك المرحلة يحتفظون به، إذ كلّما التقيت بأحدهم ذكرني

به؛ إضافة إلى أنه كان جواز مرور لي في فضاء الكتابة السردية، وتوالي الإصدارات، بحيث نفس العدد طُبِعَ كتابٌ " مجموعة قصصية " صدرت عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنة 1982 التي ترأس إدارتها حينذاك الكاتب المبدع خلاص الجيلاني، ثم صدرت لي المجموعة القصصية الثانية الموسومة بـ "القرص الأحمر" سنة 1986 وغيرها فيما بعد من الإصدارات لتوشح مساري الفكري والإبداعي السردية، ففي إطار نشرٍ مشترك، وباقتراح من الصديق المرحوم الطاهر وطّار صدرت لي عن الجمعية الثقافية الوطنية " الجاحظية " سنة 1999م مجموعتان قصصيتان: "الدّفء المفقود"، "الشموخ". ثم في سنة 2007م صدرت لي المجموعة الخامسة " ضلالٌ بلا أجساد"، عن وزارة الثقافة في إطار الجزائر عاصمة للثقافة العربية. منذ 2007م بعد أن استهوتني الكتابة في مجالات أخرى غير القصة القصيرة؛ في سنة 2017م، عدتُ إلى القصة القصيرة؛ تحديداً القصة القصيرة جداً، العصية الكتابة، إذ أصدرتُ مجموعتين قصصيتين على حسابي الخاص: "ترانيم في حضرة القبح"، " لا قليل من الفرح"، عدد المجموعات القصصية التي صدرت لي سبعة.

المرحوم الناقد محمد مصايف؛ على ذكر العدد الواحد والعشرين من مجلة " آمال " الذي كما أسلفتُ صدرت لي فيه قصة قصيرة، وقصيدة شعرية، كما صدر لي بالعدد 26 الصادر في مارس 1975م، وفي باب الدراسات موضوع بعنوان: " ظاهرة الغموض في الشعر الحديث.. كان المرحوم الدكتور محمد مصايف أستاذ النقد يومها بجامعة الجزائر نشطاً في كتاباته وأعماله النقدية، ورصده المستمر لكل ما صدر من إبداعات، ودراسات أدبية.. ما تقبل، وما

استصاغ أن يكتب شاباً في بداية الطريق أجناساً أدبية ثلاثاً: القصة القصيرة، الشعر، الدراسة الأدبية، أعلن رأيه في العمود الأسبوعي المخصّص له بيومية الشعب. من حسن حظّي أن يومية الشعب ما كانت تصلنا إلى الجنوب، وبالتالي ما اطلعتُ على ما كتب إلاّ بما أخبرني به بعض الأصدقاء، وأنا أدلف قصر الأمم رفقة الصديق الشاعر محمد بن رقطان كمدعوّين رفقة كتاب ومبدعي ومثقفي الجزائر لحضور مؤتمر الأدباء العرب العاشر، ومهرجان الشعر الثاني عشر صائفة 1975م.

الدكتور محمد مصائف حينذاك. ما كان يعرفني، وما كنتُ أعرفه، وما سبق أن التقينا، بمجرد أن دلّني عليه الأصدقاء في قصر الأمم حتى تقدّمتُ منه، وحييتُه، وقدمتُ له نفسي فاحتضنني، وحيّاني بحماس، وأعلمني أنه كان يرغب في لقائي حتى يشجعني، ويرشدني في مساري الأدبي بصفته ناقداً ومبدعاً يريد من الأدباء الشباب أن يتخصص كل واحد منهم في جنسٍ أدبيٍّ واحدٍ أثبت جدارته فيه، فيتفرّد فيه.. أكّد عليّ يومها أن أخصّص في القصة، وأترك غيرها سيّما الشعر، لأنني أقدرُ على الكتابة في السرد. لمّا حاججته بالأدباء التونسيين الشباب ونحن نطلع على أعمالهم المنشورة، والمنوعة في مجلة "الفكر" التي كان يديرها الأستاذ الأملعي المرحوم محمد مزالي، ويرأس تحريرها الأستاذ المبدع بشير بن سلامة، أجابني محمد مصايف رحمه الله: أنا لا أرفض التنوع، ولكنني أوكد على التخصص سيّما في البداية.

**الظاهر وطار.. كان قاسيا معي:** في مجلة الرؤيا، العدد الخامس (84) التي

أصدرها اتحاد الكتاب الجزائريين، قال المرحوم الطاهر وطار:

«1- لقد حاول خلف بشير أن ينسج، لكنه استعمل مادة لا تليق بالنسيج، وحاول أن يكون نسيجه حياتيا. لكن عمد إلى حياة متدنية، وممزقة، وكأنها حياة أناس ميكانيكيين. ص 100

**2 - لغة بشير خلف أحيانا كثيرة غير دقيقة المعنى، وأحيانا مزعجة. ص 102**

**3- أسلوب خلف أيضا غير مدروس، وهناك تعابير أخرى مشكوك في عربيتها مثل: (مكثتُ بها غير يومين)، ولخلف أيضا ما شاء ربك من النقاط بين كلمة وأخرى، وفي كل سطر تقريبا. ص 102.**»

**لماذا القصة؟:** اخترتُ القصة بالدرجة الأولى ولما تمكنتُ منها آثرتُ يومها ولوج " عتبة الشعر" ونشرت لي مجلة " آمال " ثلاث قصائد، لكن بتأثيرٍ من الدكتور الراحل محمد مصايف أستاذ النقد بجامعة الجزائر، وبقناعةٍ منّي طَلقتُ الشعر إلى غير رجعة، إذُ أُنِي أقرب إلى القصة منّي إلى الشعر... حَقًا نشرتُ الكثير من القصص في مجلة " آمال " التي كانت الفضاء الثقافي الأدي الوحيد يومها داخلها للمثقف بالحرف العربي، وهي التي أخذت بيد جيل ما بعد الاستقلال الذي صار عمدة الثقافة الجزائرية المعاصرة، إلا أن بُعدي عن العاصمة، حرمني من الحضور الدائم في الحركية الثقافية، وزخم الندوات والملتقيات بها.

**تجربتي القصصية كانت ضمن كوكبة نشطة:** تشكّلت تجربتي ضمن تجارب العديد من كتاب القصة في تلك المرحلة، وهي أسماء بعضها توقف عن الكتابة، وبعضها الآخر واصل وأعطى للثقافة الجزائرية الكثير، وهي أسماء فرضت نفسها في الساحة الثقافية العربية والعالمية. إن مرحلة السبعينيات هي من أهم المراحل الثقافية والفكرية في تاريخ بلادنا، مرحلة مضيئة طُرحت على ساحتها الكثير من القضايا الفكرية والاجتماعية والأدبية والفنية المعاصرة، وكانت الصحافة الأدبية في تلك المرحلة المشرقة مهتمة بتسليط الأضواء على قضايا المسرح، والسينما، وكل الوسائل التعبيرية العصرية من سردٍ، وشعرٍ، وفنٍ تشكيلي، ورسد، ومتابعة كل ما يصدر من كُتُب ومطبوعات؛ كما كانت المجالات العربية من الكويت، مصر، لبنان، العراق، سوريا، ليبيا، تونس تصل الجزائر شهريا، ووفود الكُتّاب العرب والمبدعين تصل باستمرار، وتشارك في الندوات والملتقيات الفكرية.

**اتحاد الكُتّاب الجزائريين كان محضن المبدعين:** اتحاد الكتاب الجزائريين بالرغم من أنه كان تحت برنوس الحزب الواحد إلا أنه كان نشطاً، وكان يجمع كل أطراف المثقفين الجزائريين.. نشاطاته بالعاصمة، وكذا نشاطات فروعها في أغلب الولايات، وتفاعله مع ما يجري بالوطن وخارجه أكسبه مصداقية لدى المثقفين، ولدى أفراد المجتمع، ممّا جعل المنضمين إليه يطلّعون أكثر على المشهد الثقافي فازدادوا خبرة، وساعدهم ذلك على الكتابة والإبداع.

**مُدين أنا لمجلة "آمال":** مجلة "آمال" مُدينٌ لها في مساري الأدبي، والفكري.. البوّابة التي دلفتُ منها إلى مجلة "الثقافة" التابعة حينذاك لوزارة الثقافة الجزائرية،

التي نشرت لي في العدد 68 بتاريخ: مارس - أبريل 1982م أول قصة بعنوان " الشيخ والظل" وتتألى لي النشر فيها، حتى أن إدارة تحريرها اعتمدتني كاتباً أتقاضى مقابلاً مالياً مقابل كل قصة نُشرت لي بالمجلة. ومن مجلة آمال أيضاً فُتح لي باب الشركة الوطنية للنشر والتوزيع التي اتصل بي مديرها يومذاك الأستاذ الفاضل، وصديق الدرب الكاتب المبدع خلاص الجليلي الذي طلب مني الموافقة على أن تُصدر الشركة مجموعة أخاديد على شريط الزمن ضمن إصداراتها، وصدرت المجموعة سنة 1982م وأصدرت لي بعدها المجموعة الثانية " القرص الأحمر" عن الشركة في سنة 1986م. يومية "المساء" التي كان يديرها في الثمانينيات المرحوم محمد العربي غراس فتحت لي ذراعيتها ونشرت لي بل اعتمدتني مراسلاً لها ثقافياً في منطقة الجنوب الشرقي، كما أن مجلة " الأديب اللبنانية" التي كان يديرها ويرأس تحريرها المرحوم ألبير أديب نشرت لي العديد من القصص وما أحجمت عن نشر أيّ قصة أرسلتها إليها.

**القصة القصيرة فنٌ عصيٌّ** : أخذت القصة القصيرة من القصيدة شعريتها، وموسيقاها، وتكثيفها وقوتها وأخذت من الرواية الحدث والشخصيات، ومن المسرح الحوار والصراع السريع الخاطف. القصة فنٌ اللحظات المفصلية في الحياة فلا تتناول الحدث من خلال مساحته الواسعة وزمانه المطلق؛ بل تختطف اللحظة كومضة، أو كسهم ينطلق سريعاً إلى هدفه وبكل قوة. القصة هي إبداع استثنائي، فيها يكون القاص في مواجهة مباشرة مع الآخرين مع اللغة المكثفة،

والجمل الفعلية القصيرة، والمسك بالحدث، وتحريك الشخص، سيما الشخصية الرئيسية.

أعتبر القصة القصيرة حالة من المتعة، ورغم مروري بكل حالات الكتابة وأجناسها الأدبية من شعر ورواية ومسرح كقارئ وناقد لعدة أعمال إبداعية، وكتابات أخرى في شكل دراسات في مجالات الجمال والفنون، والكتابة للطفل، وقضايا التربية وغيرها، فإن شوقي للإبداع القصصي لا يزال قويا، للقصة القصيرة عندي مكانة خاصة. ذلك أنها فن جميل وصعب وممتع في آن. فن يشتغل على الإنساني ويدخل الذات فيهبها هزاً ويجكي عن المكابدات التي يمرّ بها الإنسان؛ وما أكثر مكابدات الإنسان الجزائري !! من تجربتي الذاتية أرى أن أهم مكونات القصة تكمن في منحيين:

– الأول: المسار أو المنحى التاريخي، أي خطاب فكري قيمى إنساني، وهو الحدث، الخبر، الفكرة القصصية، المضمون القصصي، المادة الخام

– الثاني: القدرة الفنية، قدرة الكاتب على الصياغة اللغوية الإدهاشية، أي التي تحترق أحاسيس القارئ، وتدعجه عاطفيا مع الفكرة القصصية، وتثير دهشته من البداية حتى النهاية، وهي تتعلق أيضا بالتكنيك القصصي الذي يتبعه الكاتب.. واضح هنا أن لغة القصة تختلف بأسلوب صياغتها عن لغة الخبر أو التحقيق، أو المقال أو البحث.. صحيح أننا نستعمل نفس الألفاظ، ولكن وضعها في السياق وترتيبها هو ما يخلق الفرق. وهذا ليس كل شيء، بل لا بد من أن يطور الكاتب لغته دراميا..

ذلك أن اللغة مترابطة بالحدث ومتفاعلة معه، وتنبض بنبضه. عندما أكتب قصة أوظف قدراتي في صياغة لغة درامية تندمج مع بناء القصة، وتصاغ أحداثها ونبضها المتفاعل والمندمج مع الحدث نفسه، وهذا يتعلق بالحس اللغوي للكاتب، وفهم أولي للحراك الاجتماعي، والثقافي، والاقتصادي للمجتمع، وكذا فهم شخصية أبطاله، والدور الذي من المفترض أن يرسمه لهم بدون مبالغة تجعل البطل غير حقيقي ومتخيل لا منطوق في كينونته. وأنا أؤمن بأن الفكرة تفرض أسلوبها ولغتها ومفرداتها، والكاتب عليه أن يعرف كيف يفكك الحدث، ويعيد بناءه من جديد، ليُبقي المفاجأة الدرامية للسطر الأخير.

**سمات المنجز القصصي لدي:** نتيجة الحراك الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي الذي أشاهده، وأعايشه يوميا كفرد من المجتمع، وكذا قيم هذا المجتمع، ثم منجزات العقل البشري في كل مناحي المعرفة الإنسانية، وكل ما من شأنه أن ينمّي وعيي، ويساعدني على فهم شتى المظاهر المجتمعية التي نعيشها. إلا أن الواقع بزخمه وحرارته، وتناقضاته، وتحولاته، ونبض الحياة فيه هو المعين الذي أهلّ منه. الواقع في تصوري لا يلتزم بحدّ. قد يكون محليا أو عربيا أو إنسانيا. كل ما يحدث في هذا الكون يعنيني بوصفي إنسانا أولا وأخيرا، ذلك أنّ لي توقفاً إلى الشمولية، ورغبة في السعي نحو الحقيقة الكاملة.

**الكتابة في مجالات أخرى..:** استهوتني في هذه المرحلة، وبتأثير تسييري للجمعية الثقافية، رابطة الفكر والإبداع التي أسّسناه بمجرد تقاعدي من سلك التربية في أكتوبر 2001، وتنظيمنا ملتقيات فكرية سنويا استهوتني مواضيع أخرى غير

القصة. فمن القضايا الفكرية الأدبية التي شغلني إشكالية "الكتابة للطفل" لما رأيته من إهمالٍ، لتثقيف الطفل، إن في المؤسسة التعليمية، أو في غيرها من مؤسسات المجتمع، تثقيف الطفل يأتي من عدة روافد: أدب الطفل بما يتضمّنه من قصّة، شعرٍ، مسرحية، أنشودة، فنون تشكيلية، مجلة، حصص المطالعة.

استخفاف المعلمين بهذه الحصص، كما استخفاف البعض من كُتاب قصص الأطفال الذين لم يعرفوهم، ولم يقتربوا منهم، ويجهلون علم نفس الطفل، ومراحل نموّه، وخصائص كل مرحلة؛ عوامل دفعت بي إلى تأليف كتاب في هذا الشأن، عنوانه بـ" الكتابة للطفل بين العلم والفنّ" صدر سنة 2007م ضمن إصدارات الجزائر عاصمة للثقافة العربية.

أيضاً ما عايشته، وأعيشه إلى يومنا هذا صور القُبْح والرداءة في كلّ مناحي حياتنا، ومحاربتنا للجمال عن عمدٍ، وغير عمدٍ، كتبتُ عن الجمال الذي جسّده الله سبحانه وتعالى في الكون، وفي كلّ مخلوقاته، بدءاً بالإنسان "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" (4 التين). ألّفتُ في موضوع الجمال كتابين: 1 . الجمال فينا وحوّلنا. 2 . الجمال رؤيةً أخرى للحياة. صدرتا سنة 2007م ضمن إصدارات الجزائر عاصمة للثقافة العربية عن وزارة الثقافة. تواصلت كتاباتي، وإصداراتي غير القصصية، فكانت حتى سنة 2018م: 1 . في الجمال والفنون، أربعة كُتب. 2 . في الفكر والإبداع الأدبي والنقد . مقالات، خمسة كُتب. 3 - دراسات في أدب الطفل، المجتمع المدني، حوار الحضارات والثقافات، ثلاثة كُتب. 4 - حوارات في الفكر والثقافة والأدب مع وسائل الإعلام، كتابٌ واحد. 5 .

في القصة القصيرة، والقصيرة جدًا، سبع مجموعات قصصية. 6 - إشراف على كُتُبٍ أخرى، أربعة كُتُب: كتابان: "حياتي" للشيخ المرحوم الطاهر تليلي، المُتتَظَّفات المنظومة من مؤلَّفاتي المعلومة للشيخ المرحوم الطاهر تليلي. - شعر-، كتاب "إضاءات" للمرحوم شرادة الجيلاني، كتاب "نواشيع" حوارات ثقافية للإعلامية جميلة طلباوي.

منابر أخرى للكتابة: إضافة إلى إصدارات الكُتُب كانت لي فضاءات أخرى أتَنَفَس فيها كتابةً فكريَّةً من خلال المقال الأدبي النقدي في عديد المنابر الثقافية، في مجلة المجاهد الأسبوعي، يوميات الحوار، الحياة، الشعب.

1 - **المجاهد الأسبوعي**: المبدعون فكرًا وأدبًا، والمعاناة الأبدية (10 سبتمبر 2001)، أدبُ الطفل، والكتابة فيه فنٌّ وعلمٌ (10 سبتمبر 2003)، معنى الحداثة في الإبداع الأدبي (21 جانفي 2002)، (الحداثة والأصالة) (28 جانفي 2002)، الإبداع الحقّ (31 ديسمبر 2001)، إشكالية الحداثة في القصيدة العربية (04 فيفري 2002)، لا إبداع بدون حرّية. (08 سبتمبر 2003)، الطفولة ومعوّقات الإبداع (09 أوت 2004)، المجتمع المدني بدعةٌ دخيلة، أم ضرورة مجتمعية. (01 ماي 2006).

2 - **صحيفة النساء**: بين التخلّف العقلي، والتخلّف الدراسي (10 جويلية 1987). 3 - **صحيفة النبا الأسبوعية**: ترشيد التعليم التقني والتكوين المهني. (02 أبريل 1991) 4 - **صحيفة الجديد**: عيد العلم من التخليد لذكرى رائد النهضة إلى توزيع الشهادات (21 أبريل 2008)

- 3 - **يومية الحوار: المسرح الإفريقي بين الأصالة والمعاصرة (22 جويلية 2009)**، الفنّ.. الوجه الآخر للجمال (11 نوفمبر 2009)، كتابٌ واحدٌ لكل 80 عربياً يقابله 40 كتاباً لكل إسرائيليّ. (18 نوفمبر 2009).
- 6 - **ديوان الحياة: ملفٌ أدبي أشرف عليه الإعلامي القاص، الروائي الخيّر شوّار** بيومية الحياة، واستكتب فيه أغلب أدباء الجزائر، وقد استكتبني بدوري، ومن بين المواضيع التي شاركتُ بها في الديوان:
- الرواية نصّ إبداعي تاريخي مشاكس (19 ماي 2015)، السينما الجزائرية عليلاً (28 جانفي 2015)، عندما يسرق الكاتب نفسه (06 جانفي 2015)، بدائل معاصرة تُطّيح بالمتقف التقليدي من عليائه (14 أفريل 2015)،

## 17- في إشراقات المشهد الثقافي

الثقافة سلوك، وبغير هذا السلوك لا يمكن أن نطلق صفة المثقف على أي إنسان، لَمَّا ينتفي السلوك، فالشخص مخزن للمعارف ليس إلا. فما الفارق بين العلم، والثقافة.. إن العلم معرفة، في حين أن الثقافة سلوك أكثر منها معرفة، فهي علمٌ وعملٌ، ففكر وسلوك في وقت واحد.. الثقافة صانعة للحياة، صانعة للفكر وصانعة للإبداع.

**اختلافاً في تعريف المثقف:** من هو المثقف؟ نقارب الإجابة من خلال أربعة أقوال منسوبة لمثقفين كبارٍ أثاروا الموضوع من زوايا متكاملة، الأول لمحمد حسنين هيكل، والثاني لزكي نجيب محمود، والثالث لقدرى حافظ طوقان، والرابع لإدوارد سعيد. يقول الأول:

«إن المثقف هو الإنسان الذي يستطيع أن يُكوّن لنفسه رؤية وموقفاً من الإنسان بالدرجة الأولى، ومن المجتمع بالدرجة الثانية، ومن الطبيعة والكون بالدرجة الثالثة، وأنه يستطيع أن يعبر عن هذه الرؤية، وهذا الموقف برموز الكلمات، والألوان، والأصوات».

ويقول الثاني:

«الثقافة حالةٌ توجهُ الإنسانَ في اتجاه سيره، وفي ردود أفعاله، وليست الثقافة محصولاً من معارف، ومعلومات في حدّ ذاتها، بل هي الزهرة التي تُنبثها تلك

المعلومات والمعارف». ويقول الثالث: «يخطئ من يظن أن المثقف هو من يحمل شهادة من إحدى الجامعات، أو من قطع شوطاً في ميادين العلم والفن. ويخطئ من يظن أيضاً أن المثقف هو من حاز على لقبٍ علميٍّ من إحدى الهيئات، أو الجمعيات العلمية، إذ ليس ضرورياً أن يكون المثقف من هؤلاء. ولكنه قد يكون منهم، كما أنه قد يكون من غيرهم الذين لا يتمتعون برتب الجامعات، ولا برفع الدرجات... والمثقف هو صاحب الضمير اليقظ الذي لا يرضى بهوانٍ يُراد به، ولا بظلم ينصبُّ على بلاده. وصاحب الضمير الفاهم لحقيقة ما يجري حوله يدرك أن كرامته من كرامة وطنه، ومجده في خدمة أمته وعزه في النهوض بها في معارج القوة والعظمة».

هذه الأقوال المقتبسة والمنسوبة إلى أصحابها كافية في تعريف من هو المثقف، في علاقته بالعلم والمعرفة، وفي علاقة معارفه بسلوكه الشخصي ووظيفته في المجتمع. لكن الأهم أن المثقف بطبيعته يكون مزعجاً لكثير من الأطراف التي تسعى إلى توظيفه، أو إسكاته، أو تهميشه، وقد يكون مزعجاً للمجتمع نفسه حين يعبر عما يخالف المتعارف عليه، وهنا تكمن معاناة المثقف.

في هذا الصدد يقول ادوارد سعيد:

«إن المثقف بحسب مفهومي للكلمة، لا هو عنصرٌ تهديءٍ، ولا هو خالق إجماعٍ، إنما إنسانٌ يراهن بكيئوته كلها على حسٍّ نقدي، على الإحساس بأنه على غير استعداد للقبول بالصيغ السهلة، أو الأفكار المبتذلة الجاهزة، أو التأكيدات المتملقة والدائمة المجاملة لما يريد الأقوياء، والتقليديون قوله أو فعله. ويجب ألا يكون عدم الاستعداد هذا، مجرد رفضٍ مستترٍ هامدٍ؛ بل أن يكون رغبة

تلقائية نشطة في الإفصاح عن ذلك علناً. <sup>1</sup> إن المرور عبر سؤال «من هو المثقف؟» ضروري، لمقاربة الجواب حول سؤال «أين المثقف؟» ذلك أن أدياء الثقافة ينتشرون في كل مكان ويحضرون في كل قضية. وبالطبع فكلمة «أين» لا تحيل على الجغرافيا بل على قضايا المجتمع ونقاشها العمومي، وعلى الندرة القاتلة في عملة «المثقف الحقيقي».

.. أن تبدو "مثقفا"؛ إليك ما قاله الأمريكي، ديفيد بروكس عالم الحاسوب، ومهندس البرمجيات في مقاله بصحيفة نيويورك تايمز ساخرا:

«الأمر لم يعد يتعلق بما تقرأ وبما تعرف، ولا بمقدار قدرتك على فهم ما تقرأه، وتستهلكه من مواد ثقافية؛ بل يتعلق الأمر بأن تجد لنفسك مكانا في فضاءات الضجيج الثقافي، ولا تقلق إن لم يكن لديك شيء تقوله، فلا أحد سيسمع على أية حال، لقد أصبحت مهمة أن تبدو مثقفا أسهل من أي وقت مضى، فلم يعد ضروريا الآن حمل كل تلك الكتب الضخمة؛ لقد تغيرت قواعد اللعبة، يمكنك الآن أن تكون عضواً فاعلاً في النخبة الثقافية دون أن تضطرّ لقراءة شكسبير، أو دوستوفسكي، أو نيتشه، ويمكنك أن تناقش، وتجادل في كل شيء، يستطيع حاسبك الشخصي، أو هاتفك النقال أن يلتقطه من الإنترنت، يمكنك مثلا أن تكتب مقالات في شؤون العصر، وأن يكون لك رأي في كل القضايا.. فقط تذكر، كل ما عليك هو أن تتبع قواعد الموضة الثقافية». السيد ديفيد بروكس

---

1 - مغرس محرّك بحثي إخباري. [www.maghress.com/attajdid](http://www.maghress.com/attajdid)

مُحَقِّقٌ فيما يقوله، وهو الخبير بامتياز والغزير الكتابة في قضايا العصر، ويدرك ما يقول، وأنا أقول:

«إنّ الثقافة تنوعٌ معرفيٌّ، خبرةٌ، إطلاّعٌ واسعٌ مستمرٌّ، سلوكٌ أخلاقيٌ قيّمِي.»  
في الستينات، والسبعينات، والثمانينات من القرن الماضي لا مكان لـ " أنْ تبدو مثقّفًا"؛ بل " أن تكون مثقّفًا"، وإلا لا مكان لك في المشهد الثقافي الفعلي، لا " التهريج الثقافي" حسب قول ديفيد بروكس. أن يكون لك مكانٌ في المشهد الثقافي الجزائري أوائل السبعينات من القرن الماضي في الحواضر الثلاث الجزائرية التي كانت تحتكر المشهد الثقافي الجزائري دون غيرها:

الجزائر، وهران، قسنطينة، عليك أن تكون متواجداً في إحداها. وأنا القابع في الجنوب الشرقي الصحراوي الجزائري في منطقة إن كانت محظوظة بالكتاب التراثي، فإنها تخلو من المؤسسة الثقافية، كما لا تصلها الصحف اليومية، النافذة الإعلامية الوحيدة التي تربطها بالبلد الأم، الجزائر، أو الخارج هي الإذاعة الوطنية، إذاعة كل الجزائريين، وليس كالآن لكلّ ولاية إذاعة. كيف لي أن أظهر في المشهد الثقافي الجزائري، وحالي هذه؟ في تلك المرحلة ما كان هناك تهريجٌ ثقافيٌّ. كانت هناك ثقافة، وكان هناك مثقّفٌ.

إبداعك الأدبيُّ، كتاباتك تسبقك إلى الناس، مستوى إبداعك، قيمة كتاباتك تفتح لك الطريق قبل أن يعرفوك شخصياً، هذا ما حصل معي حيث إنتاجي القصصي في مجلة "آمال"، وفي بعض الصحف كما أسلفت: المجاهد الأسبوعي، الشباب، النصر، الشعب، ثم مجلة " الثقافة " فيما بعد؛ وضعتني تلكم الكتابات في المشهد الثقافي " قاصّاً".

**المثقف .. قيم، سلوك، تفاعل؛** يظن البعض وربما نسبة عالية ممّن ينتمي الى الأنشطة الثقافية ويعمل بها، أن المثقف هو الشاعر، وكاتب القصة والرواية، وأن الأنشطة الثقافية هي تلك الأمسيات، والأصبوحات، والمهرجانات، والندوات الأدبية التي يتم فيها قراءة الشعر، أو القصة، أو الأجناس الأدبية الأخرى، في تصورهم هذا هو المثقف، وما عداه لا ينتمي الى الصفة الثقافية وجوهر الثقافة. بيد أن هذا التصور، أو هذا الرّعم مجافٍ للحقيقة، ويمكن أن نستدلّ على ذلك من جملة التعريفات التي تؤكد بأن الثقافة هي مجموعة القيم المؤثرة على نحوٍ جيد في السلوك المجتمعي، وقد تأخذ الثقافة مساراً معاكساً عندما تكون القيم التي يستند إليها التفكير، والسلوك المجتمعي رديئة، أو تخلو من الجوهر الانساني.

وفقاً لهذا التعريف للثقافة، فإن كل انسان يتعامل مع محيطه وفق رؤية جيدة، قائمة على منظومة قيم انسانية راقية، فإنه يعدّ من المثقفين، وليس الأدباء حصراً هم المثقفون وحدهم، فرمما نجد انساناً لا علاقة له بالشعر، والاجناس الأدبية الأخرى؛ لكنه يحمل قيماً راقية، وفي ضوئها يضبط أفكاره وسلوكه ويكون نموذجاً راقياً للمجتمع كله، مثل هذا الانسان هو نموذج راقٍ للمثقف المؤثر والقادر على التغيير.

**المثقف قيمٌ قبل أن يكون انتماءً:** شخصية المثقف يمكن أن تبنى بالقيم، وليس بالانتماء الى طبقة محددة من الادباء، إنها شخصية تُبنى وتشكل رويداً، وفقاً لجهود المثقف نفسه بعد دخوله معترك الوعي، مضافاً الى ذلك الظروف المحيطة

به كالعائلة، المدرسة، الشارع، دائرة العمل، ويدخل في هذا الجانب ايضا عامل الوراثة وما يضيفه على هذه الشخصية باتجاهين متعاكسين، الجيد والردئي، ولكن على العموم تبقى شخصية المثقف محكومة بقدرته على التأثير، والتغيير في المجتمع، وليس وفقا لانتمائه الى الشعراء أو كتاب الأدب، فالمثقف ينبثق من طبيعة السلوك تبعا للقيم التي يؤمن بها، ويتحرك في ضوئها خلال علاقاته مع الآخرين ونشاطاته المختلفة.

**تواجدي كان ضمن كوكبة نشطة، ومرحلة هامة؛** تشكلت تجربتي ضمن تجارب العديد من كتاب القصة في تلك المرحلة وهي أسماء بعضها توقف عن الكتابة، وبعضها الآخر واصل وأعطى للثقافة الجزائرية الكثير، وهي أسماء فرضت نفسها في الساحة الثقافية العربية والعالمية. إن مرحلة السبعينيات، وما بعدها من أهم المراحل الثقافية والفكرية في تاريخ بلادنا، وهي مرحلة مضيئة طُرحت على ساحتها الكثير من القضايا الفكرية والاجتماعية والأدبية والفنية المعاصرة.

كانت الصحافة الأدبية في تلك المرحلة المشرقة مهمة بتسليط الأضواء على قضايا المسرح والسينما وكل الوسائل التعبيرية العصرية من سرد وشعر وفن تشكيلي، وعلى كل ما يصدر؛ كما كانت المجالات العربية من مصر، ولبنان، والعراق، وتونس تصل الجزائر شهريا، ووفود الكُتّاب العرب والمبدعين تصل باستمرار، وتشارك في الندوات والملتقيات الفكرية.

اتحاد الكتاب الجزائريين بالرغم من أنه كان تحت برنوص الحزب الواحد إلا أنه كان نشطاً، وكان يجمع كل أطراف المثقفين الجزائريين.. نشاطاته بالعاصمة، وكذا نشاطات فروعه في أغلب الولايات، وتفاعله مع ما يجري بالوطن وخارجه

أكسبه مصداقية لدى المثقفين، ولدى أفراد المجتمع، مما جعل المنضمين إليه يطلعون أكثر على المشهد الثقافي فازدادوا خبرة، وساعدهم ذلك على الكتابة والإبداع.

**لا أوّمن بمصطلح جيل السبعينيات:** بعد التعددية السياسية، والإعلامية ظهرت أصواتٌ شابةٌ في الساحة الأدبية الجزائرية تجاهرُ بـ "قتل الأب"، أي إنهاء وجود ما أُطلق عليه "جيل السبعينات"، لكن تبين أن ذلك الجيل، وحتى الذي بعده لم يملكو رؤية واضحة، ولا مواقف حيال قضايا الجزائر المعاصرة، ولا هموم العالم العربي؛ بينما جيل السبعينات أثبت أنه أرسخ، وأنه أوّعى، وأسماء منه أثبتت مكانتها العالمية.

**النصّ الإنساني الأجدد.. هو الباقي:** لا أوّمن البتّة بهذا المصطلح إلا في إطار المجادلة العمرية بين الكتاب والمبدعين، ثم إنني بحكم بُعدي عن العاصمة لم أشعر يوماً أنني أنتمي إلى هذا المجادلة.. يقيني الراسخ أن المبدع ابن بيئته، ومعايشه محيطه، كما أنه متفاعلٌ وطنياً وعالمياً يستمدّ من هذا الرُخْم مضامين نصوصه. إن روائبي السبعينيات إذا ما سلّمتُ شخصياً بهذا المصطلح لا يزالون حاضرين إنتاجاً فكرياً، وإبداعاً أدبياً في الوقت نفسه الذي دخلت فيه الساحة الروائية أسماءً جديدة تحاول بداية من ظهور المأساة الوطنية في بداية التسعينات طرُق مواضيع جديدة، وبأساليب مغايرة في الكتابة تمثل الجيل الجديد من روائبي التسعينيات، وروائبي هذه السنوات من الألفية الجديدة، هو تداخل جيلي عمري لا أكثر.

الكتابة.. متغيرةً فنياً وموضوعاتياً: في تقديري الكتابة الأدبية أكثر تعرضاً من غيرها من الفنون الأخرى إلى التحول، والتطور بفعل التجريب، وبفعل تطوّر الحياة، واختلاف الأحداث اليومية المحيطية والعالمية، والقراءات الشخصية المختلفة؛ ومن هنا تنشأ رغبة كل جيل جديد في إحداث الفارق الفني، وفي السعي إلى التجاوز عمّن سبقوه.

بكل أسف إن هذا المصطلح موجود إلا في الجزائر، إذا سلّمنا به فهذا الجيل منه من تُوفّي، ومنه من توقف عن الكتابة نتيجة العجز وكبر السن، ولكن العديد لا يزالون أحياء ويكتبون ويدعون، وتماهوا مع الأدب المعاصر في ثيماته الحدائثية دون أن يُقحموا أنفسهم فيما أطلق عليه الأدب الاستعجالي الذي وثق للمأساة الوطنية واندثر، أو في النصوص السردية الإيروتيكية التي صارت الثيمة الرئيسة في النصوص السردية للسنوات الأخيرة..

أقلام من ذلك الجيل كان منطلقها الأول مجلة "آمال" والصحافة المكتوبة كصحيفة الشعب، والنصر، والجمهورية، والمجاهد الأسبوعي، ومجلة الثقافة؛ لكن البعض منها اليوم انطلق من المحلية إلى العالمية بامتياز، من طرف أسماء لم تقو: واسيني الأعرج، أمين الزاوي، الحبيب السايح، محمد ساري، بقطاش مرزاق، محمد زيتلي، زنير جميلة، زهور ونيسي، مخلوف عامر، عبد الله حمّادي، محمد مفلّاح، خيدوسي رابح، بشير بويجيرة، عبد المالك مرتاض... وغيرهم.

**عضو اتحاد الكتاب:** ممّا لفت نظر هيئة اتحاد الكتاب الجزائريين القيادية حينذاك، سيّما العضو الفاعل النشط الأستاذ محمد عبد القادر السائحي. أمدّ

الله في عُمره، ورزقه الصحة والعافية أن قبل عضويتي في الاتحاد بصفتي " عُضْوًا  
عاملاً" بداية من يوم 12 نوفمبر 1975م، واستنادا إلى تلك العضوية شاركتُ في  
نشاطات عديدة للاتحاد سواء في مقرّه بالعاصمة، أو في قسنطينة كلما سُنحت  
لي الفرصة وقد زرتُ المدينتين، من ذلك أيضًا أُنِي شاركتُ في مؤتمر اتحاد الكُتّاب  
العرب، وملتقى الشعر بقصر الصنوبر في جويلية 1975م،

حيث تعرّفتُ على أغلب الكُتّاب الجزائريين، كما بعض الكُتّاب العرب:  
عرب قوميين، ماركسيين، ملحدين، إسلاميين، كما تقربّتُ أكثر من الجميع،  
وعرفتُ الكثير عنهم في جلسات الكولسة، والسمر الليلي.

عضو اللجنة الوطنية المديرية: علاقتي بالاتحاد تمتت في السنوات الموالية، إذ

12 NOV. 1975

اتحاد الكتاب الجزائريين  
88 شارع دي دويس - مراد  
الجزائر  
تلفون : 64.32.74  
64.34.22

الأخ : خلف بنيسور  
تحية أختيصة .

بعد دراسة لجنة التعليم والتأهيل الذي ألتصم به اليتم  
يترس الانضمام إلى اتحاد الكتاب الجزائريين .

يسرنا أن نعلمكم بأن اللجنة المذكورة - بعد أن تولست  
من دراسة جميع الطلبات - قد تولت انضمامكم إلى الاتحاد  
كعضو .

و قد وافقت اللجنة الإدارية لاتحاد الكتاب على ذلك على أن تحت  
سألة تولتكم بطاقة لائحة المؤتمر الذي سيقام في ديسمبر الجاري القادم .

نتمنى فانرجاء أن تعازوا بحفاية الاستشارة الصحابة لجهة الرسالة  
وأن ترسلوا بنا في أقرب الآجال إلى مقر اتحاد الكتاب الجزائريين 88 شارع  
دي دويس مراد الجزائر . ص .

1- صورتمين شخصيتين .  
2- ومن مولاة بقيمة 30 دينار جزائري .  
3- فوجيوها للكتاب الجاري لاتحاد رقم : 592860 .  
وستبحث لكم بدورنا بحفاية الشخصية .

نرجوا أن تعادل بروتكم في أجل أنحاء اتع ديسمبر من السنة الجارية .  
وحياتوا تحياصة الطالسة .



ضُمَّتْ إلى الهيئة الوطنية المديرية في منتصف عقد الثمانينات لما ضمّ الحزبُ الحاكمُ الوحيدُ إلى الاتحاد المترجمين، والصحفيين، تحت اسم "اتحاد الكتاب، والصحفيين، والتراجمة الجزائريين؛ أضحيتُ أحضر الاجتماعات الدورية في فندق "السفير" بالعاصمة أين أقمنا، في تلك الجلسات تعرّفتُ على الكثير من الكتّاب، والإعلاميين على سبيل المثال: الصحفي سعد بوعقبة، المرحوم دعّاس الربيع، المرحوم غزّاس محمد العربي، جرّوة علاوة وهي، أمين الزاوي، زوجته ربيعة جلطي، شكيل عبد الحميد، محمد الأخضر عبد القادر السائحي، وغيرهم.

رأس الاتحاد الدكتور العربي الزبيري؛ ممّا أتذكّره أنه في إحدى جلسات الهيئة المديرية كنتُ غير بعيد من رئيس الاتحاد، تلقّى مكالمة هاتفية، أعلم أن وفدًا سوريا من اتحاد الكتّاب السوريين وصل تَوًّا إلى مطار الجزائر، وعليه الحضور حالًا لاستقباله باعتباره رئيس اتحاد الكتّاب الجزائريين، نهض من مكانه، التفت يمينا ويسارًا، وأشار إليّ بتّ رأس الجلسة إلى حين رجوعه، فوجئتُ بطلبه كما فوجئ الحضور؛ وللإشارة فإنّ أغلب العاصميين في ذاك التاريخ ولا يزالون بكلّ أسفٍ ينظرون "نظرة دونية" لكل من لا يقيم بالعاصمة، وكأنّ الجزائر بشساعتها، وتراميتها، وتاريخها العريق، وعبقريتها تلخّصت في العاصمة وحدها؛ في تلك الجلسة اعتذرتُ للعربي الزبيري، وكأنه ما كان ينتظر مني ذلك؛ ما لبث أن قال لي:

– ألسنت جزائريا، والجزائري لا يتأخّر أمام الواجب؟ ألسنت كاتباً ولك العضوية مثل هؤلاء جميعاً؟

وأكد كلامه المرحوم محمد العربي غراس مدير صحيفة المساء الذي كان جالساً بجاني، والذي من تلك الجلسة اعتمدني مراسلاً ثقافياً بمنطقة وادي سُوْف، ووادي رِبْع. ترأست الجلسة إلى حين رجوعه. أتذكر أنه وبجميمية قال لي: ألم يتمردوا عليك؟

**فرع للاتحاد بمدينة الوادي تحت مظلة الحزب الواحد:** في ذاك العهد أنشأ الاتحاد فرعاً له بمدينة الوادي تحت إشراف اتحادية الحزب، عُيِّنَتْ رئيساً له، كان للفرع عديد النشاطات المناسبة توافقت مع المناسبات الوطنية والدينية، وعيد المدينة، عيد الألف قبة وقبة، حيث كان يُستدعى الكُتّاب، والإعلاميون الجزائريون، وكذا المشاركة المقيمون في العاصمة، كما كان للفرع علاقات متينة بالكُتّاب والمبدعين التونسيين في الحواضر التونسية القريبة من ربوع سُوْف، كمدينة توزر، قفصة، صفاقس، القيروان.

**اتحاد الكُتّاب .. انفجر وتشرذم:** أتذكر أن آخر مؤتمر لاتحاد الكُتّاب والصحفيين، والتراجمة كان بعد التعددية انعقد بزواله، حضره أغلب الكُتّاب الفطاحلة على غرار الطاهر وطّار، أبو القاسم سعد الله، أبو العيد دودو، وغيرهم، المؤتمر الذي انفجر من خلاله الاتحاد، وذهب شذر مذر؛ منذ تلك الفترة ما قامت، ولم تقم له قائمة. أتذكر أن المرحوم الطاهر وطّار في مداخلته أكثَرَ من كلمة " الفيس "، وأنذر الجميع بالمرحلة القادمة، كنتُ أجهل مضمون تلك الكلمة، بعد أن التقيتُ به في جلسة الاستراحة استوضحته فيها: قال لي: الجبهة الإسلامية للإنقاذ التي أطلت برأسها غولاً شرساً في بلادنا.

فرع جديد بالوادي بعد التعددية فُبرك . . ما ساد، ثم باد: في التسعينات  
تكوّن فرعٌ للاتحاد في الوادي، وفُبرك مكتبٌ تسييره في مكتب أول مدير للثقافة  
بالولاية السيد عباسية عبد العزيز الذي بحسن نية أراد أن يفعل المشهد الثقافي  
بالولاية الفتية، وضُمَّتْ إلى المكتب دون استشارتي فرفضتُ، وبقي المكتب  
أعرج، إلى أن جاء إلى الوادي الأستاذ ميهوبي عز الدين رئيس الاتحاد حينذاك  
مرتين متباعدتين بهدف إعطاء الرسمية والفعالية للفرع، وما نجح لأن رئيس الفرع  
تمسك بالبقاء، والحاضرون في القاعة طالبوا بالترشح الحرّ، والاقتراع الشفاف.

الفرع في كل حالات ظهوره، وتغيّر الأشخاص ما نال الرضا، ولم ينله لأن  
هيئته المديرة لا تعترف بثقافة الاختلاف، وتعدّد المنابر الثقافية؛ بل همّها بلع  
الجميع دون رضاهم، وهذا ما لم يحصل، ولن يحصل.

. . عضو مؤسس للجاحظية؛ هذا ما استخلصته حينذاك سواء في العاصمة، أو  
في غيرها، ايضاً ما استخلصته من مسار الجمعية الثقافية الوطنية الجاحظية التي  
أسّسها المرحوم الطاهر وطّار سنة 1990م، ومن شعارها "لا إكراه في الرأي"  
الذي التزمت به، وعملت به، الجمعية التي انضمت إليها وكنت من مؤسسيها،  
وقد سلّمني المرحوم البطاقة الأولى للاشتراك، بطاقة منجزة بإتقان بالحاسوب،  
علمًا أن الجميع كانوا يجهلون، ومن سمعوا به يعرفونه صورة.

كان الطاهر وطّار سبّاقًا في امتلاكه وتوظيفه، كنتُ عضوًا فاعلاً في  
الجاحظية، كلّما زرتُ العاصمة كنتُ أمرّ بالجاحظية ألتقي رئيسها، وحضرتُ عدّة  
ندوات بها، ومرّة قدّمتُ مداخلة في ندواتها الأربعة.

كما كنتُ عضوًا في مجلسها الوطني، أتذكرُ أني كلما أزورها، وألتقي المرحوم إلا وسلّمني نسخًا من الكتب الصادرة عنها، كما أنّ المرحوم كان يرسل إليّ بواسطة البريد مجلّة القصة، ومجلّة التبيين.

في سنة 1999م، عرض عليّ الطاهر وطّار أن يطبع لي أعمالًا سردية إن كانت جاهزة في إطار نشرٍ مشتركٍ، قدّمتُ له مجموعة قصصية، بعد اطلاعه عليها اقترح أن تكون مجموعتين، وافقتُ، وصدرتا في نفس السنة: مجموعة "الشموخ"، ومجموعة "الدّفء المفقود".

في تلك المرحلة التي ولجتُ فيها المشهد الثقافي الجزائري، لا زلتُ أتذكرُ ذلك الزمن الجميل الذي كانت فيه العاصمة الجزائرية منبرًا مفتوحًا للجميع، كانت المجلات الثقافية "آمال" و"الثقافة" و"ألوان" و"الأصالة"، ويوميات الشعب، الجمهورية، النصر بها صفحات ثقافية، وملقّات أسبوعية للإصدارات، والحوارات الثقافية، وتغطية المنتقيات، والندوات، والمسرحيات، إضافة إلى المجلّات الثقافية العربية التي كانت تصل في حينها، وتتوشّح بها الأكشاك والمكتبات. إضافة إلى الندوات الأدبية الأسبوعية والفكرية في قاعة المحاضرات بالنفق الجامعي، وقاعة المقار، ومقرّ اتحاد الكُتّاب.

مقهى اللوتس؛ منبر ثقافي آخر كان الواحة الفكرية للقدام إلى العاصمة هو مقهى "اللوتس" بشارع ديدوش مراد، أين يتلاقى الكُتّاب والمبدعون من كلّ الأطياف الفكرية، والإبداعية، والأيدولوجية جزائريين، تونسيين، مغربيين، مشارق من سوريا، العراق، سوريا، فلسطين، مصر.

كان مقهى أدبيًا تساوى مع المقاهي الأدبية التي عُرفتُ بها حواضر الشرق العربي، مثل حواضر الغرب الأوروبي. منذ الصباح الباكر إلى آخر ساعة من الليل، في جلسات أخوية حميمة تُطرح قضايا الثقافة العربية بكلّ زخمها، وراهنها، كما تطرح قضايا الراهن العربي، ومكابدات إنسانه، كان الاختلاف الفكري، والرؤى المختلفة سيّدة الموقف؛ إنما دون جدلٍ حادٍ، ولا إلغاءً للآخر مهما كان الاختلاف الإيديولوجي.

أغلب الطبقة المثقفة الجزائرية كانت تلك منابرها التي تكوّنت فيها، ومهما كانت الأوصاف التي أُطلقت عليها؛ فإنها أسّست للثقافة الجزائرية المعاصرة، العديد من أسماء تلك المرحلة هي التي بقيت في الصدارة كمرجع للثقافة الجزائرية حتى بعد رحيل البعض منها عن عالمنا: أبو العيد دودو، أبو القاسم سعدالله، عبد الله شريط، محمد مصايف، الطاهر وطّار، عبد الحميد بن هدوقة، عبد المجيد مزيان، يحي بوعزيز، مولود قاسم، عبد الرحمن شيبان، وغيرهم كثير؛ ومن الذين لا يزالون على قيد الحياة كثيرون، منهم: واسيني الأعرج، أمين الزاوي، جروة علاوة وهي، عبد الحميد شكيل، بقطاش مرزاق، محمد مفلح، بلحيا الطاهر، خيدوسي رابح، حيدار حيدار، هؤلاء وغيرهم جيل السبعينات، لا يزال في الساحة الثقافية واقفًا ينتج، وما تخلّى عن رسالته الثقافية المشبعة بالروح الوطنية الجزائرية.

### الرّابطة الولائية للفكر والإبداع

شعار الجاحظية" لا إكراه في الرأي" الذي تشبّعتُ

به عملتُ به في أكتوبر 2001م، لَمّا أسّسنا بالوادي



الرّابطة الولائية للفكر والإبداع

الجمعية الثقافية الوطنية الولائية" الرابطة الولائية للفكر والإبداع، رفقة الأصدقاء الأستاذ العربي بريك الإعلامي المثقف المتميز مدير يومية التحرير، الأستاذ فالح صالح الإعلامي المتميز، والأستاذ الجامعي، والأستاذ رجل التربية أحمد ديدي.

لما أنشأنا الجمعية أسميناها "رابطة الفكر والإبداع"، جمعية للفكر تربط بين النخبة المثقفة المبدعة في كل مناحي الإبداع والفكر، وليست جمعية للإبداع الأدبي فحسب، جمعية فتحناها لكل النخب المثقفة، كما المنتجة للإبداع والثقافة، لا تشترط أن يكون الانتماء إليها وحدها؛ فالعضو لا حرج أن يكون في نوادٍ أخرى، أو جمعيات، شرط الانتماء للرابطة أن يحضر العضو للنشاطات التي تنظمها الرابطة من ندوات، ومنتديات شهرية، وملتقيات سنوية، واحتفائيات بمناسبة. نجحت الرابطة في أهدافها الأربعة:

**1-** تنظيم ندوات وملتقيات فكرية عبر تراب ولاية الوادي، والمشاركة في النشاطات الثقافية داخل الولاية وخارجها من خلال عناصرها. **2-** إصدار نشریات ثقافية تعنى بالفكر والإبداع، ومنها كتابها السنوي. **3-** ترقية التراث المحلي للمنطقة. **4-** الأخذ بيد المبدعين في طبع إنتاجهم الفكري والأدبي.

نجحت الرابطة في تنظيم **09** ملتقيات فكرية، وإصدار كتاب لكل ملتقى، كم نظمت ندوات أدبية أسبوعية لسنوات "منتدى الإثنين"، وغيرته إلى "المنتدى الثقافي الشهري"، أصدرت الرابطة **30** كتابًا لكتاب، ومبدعي الولاية، منها **12** رواية.

نظمت مسابقة وطنية للرواية القصيرة بداية من **2011** إلى سنة **2018**م، أعطت للسرد الجزائري والعربي **12** روائيا، وروائية منهم من تحصل على جوائز

وطنية وعربية، كلهم خرجوا من جبة الرابطة. كان لي الشرف أي واصلت رئاسة الرابطة، وما تخلّيت، وما تماونتُ ودفعتُ الكثير من جيبي، وصحّتي، ووقتي.

نخبةً حملت مشروعاً ثقافياً أسست الرابطة: بالرغم أن أغلب المؤسسين، أو الذين جُدّد بهم المكتب المسير كلّ خمس سنوات هم أسماء في قائمة المكتب، تخلّوا عن الرابطة، بعضهم الآخر يظهرون متكسّمين، متקרّفين أمام التلفزة، أو في المطعم خلال الوجبات لما ننظم ملتقى، أو نشاطاً، أو أمسية.

مما أتذكره أننا لما أسسنا الرابطة ذات ليلة قمراء، في منطقة فلاحية ريفية جنوب مدينة قمار، كنتُ حينها متعباً، وخارجاً لتوي من الوظيفة، تقاعدتُ في أول أكتوبر 2001م، وأسسنا الرابطة يوم 03 أكتوبر 2001م، اشترطتُ على أصدقائي المؤسسين أن أكون عضواً عادياً، أصرّوا أن أكون رئيساً شرفياً، بمرور الشهر الأولى وجدتُ نفسي الرئيس الفعليّ، وقد انفضّوا من حولي، فعوّضني الله بهم مجموعة طيبة من الشباب المثقف، المبدع الفعّال في المشهد الثقافي محلياً، ووطنياً؛ بل حتى عربياً:

بشير غريب، مصطفى صوالح، أحمد مكاوي، تامة التجاني مدير المكتبة الرئيسية للمطالعة العمومية، رضا الدراجي صاحب مطبعة الرمال، وأخوه عبد الغني، محمد حامدي مدير دار الثقافة سابقاً، جمال الدين عبادي مديرها الحالي، وغيرهم.

عصي<sup>28</sup> أن تُسير جمعية ثقافية: ليس سهلاً أن تُسير جمعية ثقافية وضعت لنفسها برنامجاً طموحاً، بفضل إصراري على تحقيق البرنامج السنوي، وعلاقتي

الجيدة مع الجميع، خاصة مع القطاع الثقافي بالولاية: مديرية للثقافة، داراً للثقافة، مكتبة المطالعة العمومية تمكّنت من أن تكون الرابطة ذات شأنٍ وطنيٍّ وليس محلياً فقط.

لأجل ذلك كانت كل ندواتها، وملتقياتها، ومسابقاتها ذات مصداقية، وحضور الطبقة المثقفة، كما الكُتّاب والمبدعون ما تخلّفوا عن أعراسها الثقافية، من شيم رابطة الفكر والإبداع أنها تحتفي بكل كتاب جديد يصدر لها وتوزّعه مجاناً على الحضور، وما باعت يوماً نسخة واحدة من كُتُبها. قال أحدهم يوماً: الرابطة خدمت رئيسها، وأبرزته، وعرّفت به؛ .

كان الجواب ليس من رئيسها، إنما ممن له دراية بالمشهد الثقافي الجزائري ؛ بأن رئيسها هو الذي خدم الرابطة، وأوجد لها مكانة؛ لو كانت بيد غيره لَمَا كان لها هذا الألق. أُنهيْتُ رئاستي لهذه الجمعية الثقافية الرائدة بانتهاء عُهدة قيادتها الرابعة بتاريخ: 24 مارس 2019م، بعد 18 سنة.

**فضاءات أخرى للثقافة:** تواجدي بالمشهد الثقافي سمح لي أن أشارك في ملتقى الفكر الإسلامي بعنّابة، وكان الموسوعي المرحوم مولود قاسم مدير الشؤون الدينية يصول ويجول، كان لتلك الملتقيات وزنها الثقيل، ملتقيات دولية يُدعى إليها العلماء ومفكرو الإسلام من كل القارات، ومن كلّ الجنسيات، والألوان.

أتذكّر في ذلك الملتقى العنّابي أن فقدت الساعة الفكرية العربية قامة من قاماتها الكبيرة المفكر الكبير، المؤرخ التونسي عثمان الكعّك بسكتةٍ قلبيةٍ بعد إلقاء محاضرته التي دافع فيها عن وجود الأتراك وحمائيتهم للجزائر وتونس من

الإسبانيين، والبرتغاليين، والفرنسيين في القرنين السابع عشر، والثامن عشرة قبل الغزو الفرنسي للجزائر 1830م، والحماية لتونس سنة 1881م.

في سنة 1987م، أقامت رئاسة الجمهورية في عهد المرحوم الشاذلي بن جديد احتفاء كبيراً يوم الأحد أول نوفمبر على الساعة السابعة مساءً بقصر الثقافة بمناسبة الذكرى الثالثة والثلاثين لاندلاع الثورة التحريرية، وُجّهت الدعوة لكلّ الكُتّاب، والمثقفين والفنانين، كانت احتفائية كبيرة حضرها كل الوزراء، وهيئات السلك الدبلوماسي. كل كاتب، أو مبدع، أو فنّان يحضر رفقة زوجته، والدعوة وُجّهت للجميع باسم الرئيس وحرمة وُجّهت إليّ الدعوة رفقة الفنانين عبد الله منّاعي، محمد محبوب.

الإقامة كانت بفندق "الأوراسي" بالعاصمة. قبل مراسيم الاحتفائية كان هناك عشاء فاخرٌ تاريخي، لأن ما كان على المائدة أغلبه ما كان موجوداً في السوق، الكثير من اللحوم، أنواع كل الأسماك، كل أنواع الفواكه؛ ومنها الموز الذي لا أثر له في السوق الجزائرية في تلك الفترة؛ كان أبناء الجزائر الصغار، والمراهقون يعرفونه من صور الكتاب المدرسي.

في تلكم الاحتفائية الجميلة قيلت الكثير من الكلمات المنوّهة بالثورة التحريرية المباركة، أتذكّر أن المرحوم الشاعر الكبير عبد القادر السائحي ألقى قصيدة عصماء في الاحتفائية، الكلّ وقوفٌ تابع وأنصت باهتمام، أتذكّر أنّ أحدهم كان يجانبي، وكان كبير السنّ همس لصاحبه المُحاذي له:

«نفس القصيدة التي قالها في حضرة الجنرال دوقول سنة 1958م، لما زار الجزائر».

شخصيا لحدّ الآن ما صدّقتُ وما كذّبتُ، صاحب المقولة يتحمّل وزرها إن افتراها على الشاعر المرحوم. حسب علمي، وحسب ما جاء في الموسوعة الحرّة فإنّ الشاعر السائحي الكبير المرحوم التحق بالإذاعة الوطنية أيام الاستعمار بعد 1952م، حيث استقرّ بالقسم العربي بالإذاعة الجزائرية حتى ما بعد الاستقلال الوطني.

**اندماجي في المشهد الثقافي.. فتح أمامي الأبواب:** اندماجي في الحركة الثقافية منذ سنة 1972م، ثم مساهمتي أكثر منذ سنة تقاعدي في أكتوبر 2001م حتى يوم الناس هذا ساعدني على المشاركة، والتفاعل أكثر، إن في التأليف، أو رئاسة الرابطة، أو المشاركة في المنتقيات الفكرية المحلية، والوطنية، وحتى العربية بالمغرب، كما الأماسي الثقافية، والجلسات الإبداعية:

منتدى الإثنين بدار الثقافة، الموعد الثقافي الشهري. حصتا: الموعد التربوي، النادي الثقافي بإذاعة الوادي. وإن المحاضرات العديدة التي شاركت بها في هذا المنبر أو ذلك، ومن بينها:

– الجمالية المكانية في السرد القصصي لدى الكاتبة الأدبية الرّحالة إيزابيل إبراهيم (عين الصفراء 2015)، – القصة القصيرة الممتعة والعصيّة (معرض الكتاب الدولي بالجزائر أكتوبر 2017) – من الكتابة الصحفية إلى الإبداع الأدبي (معرض الكتاب الدّولي بالقاهرة فيفري 2018)، . راهن الرواية المغاربية (مكناس أفريل 2018)، وغيرها في دار الثقافة بالوادي، والجلفة، وسطيف، وأدرار، وتلمسان على مدي ما ينيف على العقدين، من خلال:

- 1- القصة القصيرة الممتعة.. الممتعة. -2 الكتابة الصحفية، الكتابة الأدبية  
علاقة تكامل. 3 فنّ النَّقش.. بصمة من بصمات الهوية. 4 تأملات الذات  
وثيمة الوطن في نصوص الشاعر الدكتور أحمد مفدي. 5 كاتب المذكرات غير  
حيادي في روايته لتاريخ عصره. 6 من قديم.. مدينة قمار منارة للعلم والتنوير. .  
7 يوم الشهيد الثامن عشر فيفري.. 8 مظاهرات 11 ديسمبر 1960. 9 .  
وسائط معاصرة تتحدّى أدب الطفل -10 التذوق اللغوي والفني.. تربية ورعاية  
11 عندما تكون الرياضة ثقافاً وأخلاقاً.. 12 رهن ثقافة الطفل في الجزائر. 13 .  
البعد الفلسفي للثورة الجزائرية. 14 النشيد الوطني الجزائري.. الهوية والرّمز. .  
15 العلم الوطني الجزائري.. هويّة، أمجاد، تواصل. 16 المواطنة أهي انتماء.. أم  
ممارسة؟ . 17 الكتابة النسوية في الجزائر.. تحدّ لقيود، وتطلّع إلى إثبات الذات  
18. البحث عن النصّ الأدبي الجزائري في الكتاب المدرسي...

## 18. أسماء ثقافية في الذاكرة

### 1. المرحوم الدكتور أبو القاسم سعد الله

إن علاقتي بالدكتور بلقاسم سعد الله بدأت في منتصف الثمانينات، وكنت حينذاك حديث العهد بالتفتيش التربوي أعمل بولاية الوادي الفتية يومذاك، وبدأت الكتابة والإبداع الأدبي في مجال القصة القصيرة تحديدا منذ سنة 1972م في مجلة "آمال" التي كانت تصدرها وزارة الثقافة، وتُنشر فيها للأدباء الشباب ثم في مجلة "الثقافة" التي كانت تنشر فيها القامات الثقافية الجزائرية الكبيرة ومنهم الدكتور أبو القاسم سعد الله؛ بعد أن عُرفت في الساحة الثقافية من خلال النشر في مجلة "آمال" والصحف العربية كيومية "الشعب"، و"النصر" و"مجلة الوحدة" ضمّتي مجلة "الثقافة" إلى الكُتّاب الذين تنشر أعمالهم دراسات، أو قصصا، أو شعرا..

بدا من خلال بروز اسمي في الساحة أدّى بالدكتور بلقاسم سعد الله إلى التعرف عليّ والاتصال بي لَمّا كان يقدم بين الفينة والأخرى إلى مدينة قمار ليزور والدته التي كانت تحبّه كثيرا، لا أقول أكثر من إخوته، ولكن مكانته عندها مميّزة. الدكتور الراحل كان حريصا على الوقت، واستغلاله في البحث والدراسة، كان وفيّا لأجندته الشخصية التي لا فراغ فيها..

لا انضمام لأية جماعة مهما كانت، ولا مجالسة مع أحدٍ في أيّ مكان، ولا وقوفاً في الطريق من أجل تجزئة الوقت.. كل دقيقة وكل ثانية تُوظف عنده في محراب العلم، فكانت لقاءاتي به قليلة لأن أحسن جلساته في كل زيارته لمسقط الرأس مدينة قمار كان يقضيها بجانب والدته التي كان متعلقاً بها كثيراً بقدر ما هي متعلقة به، وفي المرتبة الثانية كانت جلساته التي تستنفد ما تبقى من ساعات النهار مع الشيخ العلامة العالم الفقيه، اللغوي، الشاعر محمد الطاهر تليلي شيخه، وأستاذه.

**المجموعة القصصية "سعة خضراء" أول إهداء:** لما عرف أنني مهتمٌّ بكتابة القصة القصيرة أهداني مجموعته القصصية "سعة خضراء" التي صدرت سنة **1986** والتي بعد قراءاتي لها عدّة مرّات لا زلتُ أحتفظ بها في مكتبي الخاصة، وتوالت لقاءاتي به بين الفينة والأخرى؛ وخاصة أثناء بداية المحنة السياسية والأمنية التي عصفت بالوطن، حيث تزايدت زيارته لمسقط الرأس طلباً للهدوء، وسعيًا وراء السكنينة، ووالدته كانت رحلت إلى الدار الباقية، فصارت أيامه يقضيها بجانب المرحوم الشيخ تليلي، وبينه الشخصي الذي أنجز الشطر الكبير منه.. فيه يستقبل زوّاره القلائل:

أساتذة وطلبة، وأغلبهم إنّ لم أقلّ كلهم من خارج مدينة قمار. للأمانة التاريخية ووفاء لأهل الخير، واعترافاً بالجميل، لا زلتُ أذكر مرحلة السبعينات، والثمانينات كان عدد الجامعات الجزائرية محدودًا، وأبناء الجنوب، ومنهم الطلبة الناجحون في شهادة البكالوريا، ومنهم طلبة منطقة سُوْف، وأبناء مدينة قمار

تحديدا يوجهون إلى جامعات: باتنة، قسنطينة، والأغلب إلى الجزائر العاصمة، ويلاقون صعوبات جمّة في الخيارات العلمية، وفي الإقامة، وكان سعد الله يعرف هذا مثلما كان العالم الفيزيائي ابن مدينة قمار الدكتور بوجلخة أطل الله في عمره، والمقيم حاليا في الولايات المتحدة بعد إقامته لسنوات في ماليزيا بجامعةها بعد أن تنكّر له وطنه، ولفظه.. كان الرجلان لمّا يأتیان البلدة في العطلة الصيفية وألتقي بهما يطلبان مّيّ البحث عن الطلبة الناجحين في شهادة البكالوريا، والذين وجدوا صعوبات في التسجيل الجامعي، أو خيارات الشعبة، أو المادة، أو الإقامة للاتصال بهما، وأذكر أن العديد من أولئكم الطلبة حُلّت قضاياهم المستعصية.

**سنوات الجمر، والخيارات المتاحة:** الدكتور سعد الله من الرجال العظماء الذين كانوا أوفياء لهذه الأمة، وما تخلّوا عن وفائهم، ومبادئهم طوال حياتهم، وبطبيعة الحال دفعوا الثمن غاليا؛ ففي بداية التسعينات، ورأس الفتنة أطلّ ببشاعته على الوطن، وحينها تكالبت العُصب الداخلية والخارجية على هذه الأمة وهويّتها، والإجراء الأول كان تجميد قانون اللغة العربية من طرف المجلس الانتقالي، وهو القانون الذي صادق عليه المجلس الشعبي الوطني قبل الأزمة السياسية، والأمنية، وتكالبت قوى الشرّ، وخرج تلاميذ الثانويات إلى الشارع رافعين اللافتات، صارخين: "التاريخ إلى المزبلة" ..

في ذاك الوقت العصيب الذي صمت فيه الكثير من المفكرين، والمثقفين، ورجال الإعلام، وغادر العديد إلى دول الخليج لضرب عصفورين بحجر واحد:

الفرار من الجحيم، والنيل من كعكة البترودولار، ضفّ إلى ذلك رحيل العديد من الكتاب ورجال الأعمال، والأثرياء ممّن رضعوا حليب الفرنكفونية إلى الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط.

**ثانوية ديكارت . . والفاتورة الغالية:** الدكتور سعد الله وهو الموسوعة المعرفية الذي يتقن العديد من اللغات، ومنها الفرنسية، والفارسية، والألمانية، والأنجليزية التي درسها في عُقر دارها أمريكا وكتب، وألف بها، ومكانه موجود في كل الجامعات الغربية والعربية، بدلاً من أن يتجه غرباً، أو شرقاً مثلما فعل غيره آثر البقاء، والعيش بين أفراد الشعب العادي، والاستماتة في محراب العلم بجامعة الجزائر . .

في تلك الفترة العصيبة كتب مقاله الخطير عن ثانوية " ديكارت " بأعالي العاصمة، والذي هزّ عرش الذين ربطتهم، وتربطهم بفرنسا علاقة الأبناء بأهمّ الحنون، والذين احتضنت هذه الثانوية أبناءهم، ونهلوا فيها ما تضمّنته برامج وزارة التربية الفرنسية، بما حملته من قيم الأمة الفرنسية، وهويتها . . مقالة سعد الله هزّت هؤلاء، وأزعجت السلطات الفرنسية، وأقلقت حينها السفير الفرنسي بالجزائر، مقالة كشفت حقيقة ما كان يجري في تلك الثانوية، وخطرها على الأمة الجزائرية في حاضرها، ومستقبلها، وفضح سعد الله الذين سمحوا لها بالوجود والممارسة.

نتيجة هذا المقال دفع سعد الله فاتورة غالية أثّرت عليه نفسياً، وأصيب بإحباطٍ كبير امتدّ لأكثر من سنتين ونيف توقّف خلالهما عن كل نشاط ثقافي،

وحضور في المشهد الثقافي الجزائري، ما عدا التدريس بالجامعة.. هذه الفاتورة تمثلت في اختطاف حقيبتها التي كانت تحتزن أثمان أبحاثه في تاريخ الجزائر الثقافي، والتي تمثلت في الأجزاء الستة من هذا التاريخ، إضافة إلى أبحاث أخرى ودراسات؛ وذلك في مطار " هيثرو " بلندن العاصمة البريطانية، لما كان متوجهاً رفقة ابنه أحمد إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وحسب علمي حتى تاريخ هذا اليوم الذي أخط فيه هذه السطور لم يُعرف من هو تحديدًا اسمًا، أو هيئة وراء هذه المكيدة؛ غير أن من يعرف سعد الله ومواقفه وآراءه، وجهاده، واستماتته في القضايا الوطنية، وكتاباته وخاصة التاريخية منها، استخلص أن أعداءه كثيرون، ومن هؤلاء من لهم علاقة بثانوية: " ديكارت " .

ما تنبأ نبيُّ في قومه: ربّما يقول قائلٌ إن الراحل سعد الله إن كان له أعداءٌ كثيرٌ نتيجة مواقفه تلك، فإنه بالمقابل وجد في مسقط رأسه، وبين عشيرته القبول والرضا، والوفاء، والاعتراف بمكانته، والإقرار بما وصل إليه فكرًا، وعلماً، وتأثيراً في الفكر الإنساني؛ والواقع عكس ذلك تمامًا، وفق المقولة المعروفة: (ما تنبأ نبيُّ في قومه).

ما يُعرف عنه رحمه الله أنه في زيارته لمسقط رأسه إن لم يكن مع الشيخ تليلي فإنه في بيت العائلة أين والدته، أو صوب منزله الشخصي مارًا على جانب الطريق الرئيس بالمدينة في لباسه الشعبي كسائر السكان جبّة بيضاء صيفًا، وقشابية شتاء، ويده دائمًا قفّة (وليس حقيبة جلدية ثمينة) قفّة عادية بها وثائق قديمة تاريخية، ووثائق، وأوراق، كتب، كراريس، أقلام كي يشتغل عليها في مقال

جديد، في دراسة، في محور لكتاب جديد؛ كان يمرّ أستاذنا مواطنًا عاديًا كسائر الناس العاديين في يومياتهم. هذا الرجل العالم، الموسوعة قلّ من كان يجيئه، أو يعطيه أهمية وكأنه إنسان غريب عن المدينة؛ وربما من يبادرونه بالتحية إمّا أحد له علاقة بالثقافة، والكتابة، وهم قلّة. أو أحد عرفه لا على أنه من كبار رجالات الثقافة والفكر، إنما على أنه من عائلة سعد الله وابن فلان. سعد الله كان يأتي إلى مسقط رأسه ثم يعود إلى العاصمة الجزائرية، أو كان يقدم من المملكة الأردنية التي قضى ما ينيف عن السنوات الست بجامعاتها، يأتي ويعود، والكثيرون لا يسمعون به، وإن سمعوا به لا يختلف عندهم عن الإنسان العادي العائد من سفيرة؛ هو لعمرى أكثر من نكران، واستمرّ هذا النكران حتى بعد وفاته لمّا بلدته قمار ما شاركت كمؤسسات، وكمجتمع مدني، وسكان في إحياء أربعينته يوم 25 جانفي 2014 ما عدا حضور أفراد قلائل ما زاد عددهم على الخمسة عشر فردا ربطتهم به إمّا علاقات شخصية، أو علاقات فكرية لولا ابنه الدكتور أحمد الشاب الهادي الرزين الوفي لوالده، والذي كان نجم الأربعينية في الجلسة العامة بقاعة المحاضرات بدار الثقافة الجديدة بالوادي حيث أثر بكلماته المثمّنة لمسيرة أبيه الفكرية.

في الجلسة الثانية بالمكتبة الرئيسية للمطالعة العمومية ببلدية حساني عبد الكريم. كما أن لابن عمّه، والقريب منه المرحوم الأستاذ عبد الرحيم دورًا في التهيئة للأربعينية من خلال جلساته مع اللجنة التحضيرية بتبصيرها بالعديد من المحطّات الفكرية، ورحلات الراحل، والصعاب التي واجهته في دراسته إن في تونس، أو مصر.. ثم إن المداخلة الراقية جدًّا التي قدمها الأستاذ عبد الرحيم

بالمكتبة الرئيسية للمطالعة العمومية أمام حضور ضاقت به قاعة المحاضرات من النخبة الفكرية والثقافية، والتي أفصح فيها عن العديد من المحطّات الفكرية للدكتور الراحل، ونقاط الظل التي يجهلها أصدقائه.

**ما أمر ثقافة النسيان..**: أرجو أن لا أكون محطّناً، أنه مرّ كما مرّ غيره من علماء الجزائر، وعلماء من مدينة قمار تحديداً: الشيخ العلامة محمد الطاهر تليلي، الشيخ العلامة عبد القادر الياجوري، العالم المجاهد عمار بن لزعر، خيران بن ساعد.. لا أحد يذكرهم، أو يجيي لهم ذكرى، وسعد الله كهؤلاء، ولا أرى في أفق مسقط رأسه هيئة، أو جماعة، أو حتى أسرته تسعى لتذكره، ما عدا الأستاذ تامّة التجاني مدير المكتبة الرئيسية للمطالعة العمومية بمعية رابطة الفكر والإبداع، وبعض الشباب مثقفي المدينة كالأستاذ الجامعي ماني محمد، والشاب النشط خدّة شعيب، والباحث في تاريخ المدينة العقّون التجاني، والنشط المثقّف الجمعوي لمخّط إبراهيم، حيث سنّ التجاني تامّة سنّة حميدة منذ سنتين، تتمثّل في ندوة سنوية تتزامن مع وفاة المرحوم سعد الله، يحضرها زملاؤه الأساتذة من جامعة الجزائر، وأساتذة جامعة حمّ لخضر بالوادي، والعدد الكبير من المثقفين، والكتّاب والكثير من سكّان المدينة.

تحجّج العديد من سكان مدينة قمار يومها الذين غابوا عمداً عن الأربعينية بأن العبرة بجزائره المهيبه التي حضرها أغلب سكان المدينة، وضاقت بهم المقبرة، وأنّ الأربعينية أصلاً هي "بدعة".. ونقول: امتلاء المقبرة يومها كان من أولئك الذين وفدوا من كل ولايات الوطن: أصدقاء الراحل، وزملاؤه، وطلّابه، ومحبّوه من الجنوب الجزائري الكبير، والجنوب القريب لمسقط رأسه،

ومن ربوع وادي سوف وريغ.. ومن أغلب ولايات الشمال، وبخاصة من العاصمة، إذ توافد أصدقائه وزملاؤه أساتذة الجامعات، وكذا طلبته..  
أربعينيته تكفل بها من يُقدِّرون مكانته، وكفاءته، وقيمه العلمية والأكاديمية: القطاع الثقافي بالوادي من مديرية للثقافة، ودار الثقافة، والمكتبة الرئيسة للمطالعة العمومية، والجمعية الثقافية محمد الأمين العمودي، وجمعيات ثقافية فاعلة، وشخصيات ثقافية وفكرية..

ما قاموا به أثبت على أن سعد الله ليس ابن قمار فحسب؛ بل هو أولاً ابن الجزائر البارّ، كما أنه ابن ربوع سوف التي أنجبت علماء كُثراً؛ كما أن سعد الله رجل فكر بامتياز وتفتخر به الإنسانية، وإذا تخلّت قمار عنه ميتاً، وتجاهلته حيّاً فإنه " شمعة لن تنطفئ " ونورها يشعّ وسيبقى كما يشعّ علماء الإنسانية الذين أضأوا، ولا يزالون دروب البشرية.

وأنا أدون التجاهل الذي لاقاه سعد الله فيني أذكر حادثة وقعت في منتصف الثمانينات، وفي إحدى زيارته لمدينة قمار، كانت لدينا حينها جمعية ثقافية نشطة بالمدينة يرأسها المرحوم إدريس التهامي، وكنتُ عضواً بها؛ دعوت الدكتور سعد الله إلى إلقاء محاضرة بالمركز الثقافي، فاستجاب حينها بفرح، وجاء في الوقت المحدد، وهو الرجل العالم المنضبط والذي عاش في الغرب، ودرس، ودرّس، وتشرب عن قناعة قيمة الوقت، لمّا وصل كان في ذهنه أن القاعة مكتظة عن آخرها فما وجد غير إياي وشخصين آخرين، ودفعاً للحرص تعلّلتُ بأن الجميع في صلاة العصر، وسيحضرون للتوّ.

انتظرنا أن يأتي الجمهور الذي كنت أعتقد وقد قمنا بالإشهار الكافي أن يكون في الموعد؛ وخاب ظنّي، انتظرنا وانتظرنا، وبالكاد مرّت حوالي ساعة، وعددنا توقّف عند ستة أشخاص فما كان منّي إلا أن توجّهت إلى نادي المعلم الذي كان مكتظًا بجمهور المعلمين الذين كان بعضهم يحتسي الشاي، وبعضهم الآخر منكبًا في لعبة الدومينو، والورق، والبعض الآخر في حديث القيل والقال، وما يتعلق بالترقية، والمخلفات، واستعملت سلطتي الإدارية كمفتش للتربية والتعليم، وعاتبتهم برفقٍ عن عدم حضورهم لمحاضرة فخر الجزائر، وعلمها الحفاق في عالم الفكر والثقافة، الرجل الذي يعترف بكفاءته وعلمه القاصي والداني شرقًا وغربًا، وجررهم جميعًا ورائي، فامتألت بهم قاعة المركز الثقافي يومها، فكانت محاضرة قيّمة، وبدا السرور على وجه أستاذنا الذي كان يجهل أن الحاضرين جُروا إلى القاعة جرًا.

**عدم امتلاك السكن الشخصي:** الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي منذ أن عاد من أمريكا 1965م وهو أستاذ بجامعة الجزائر مدرسا، ومشرفا على مئات الرسائل الجامعية: ليسانس، ماجستير، دكتوراه، وكأستاذ زائر إلى العديد من الجامعات العربية والدولية. هذه المراتب العلمية، وهذا المشوار الحافل بالتأليف والكتابة لم يشفع له من الحصول على سكن يليق بمكانته، ولم يمكنه ماديا من بناء منزل خاص به، فكان سكنه في عمارة بن عكنون لم تتسع لمكتبته الحافلة، فأثر الهجرة الاختيارية إلى الأردن أستاذا في جامعاتها ما يقارب السبع سنوات من سنة 1996 إلى 2002 حيث تمكّن من توفير المال الذي استطاع أن يشيد به منزلا في

بني مراد بالعاصمة، واعترافاً بجميل المملكة الأردنية، ووفاء لفضلها عليه أطلق على منزله هذا: " دار الأردن "

ولهُ حتى النخاع بربوع سوف وبحركتها الثقافية: كان يحبّ منطقة سوف حُبّاً قويا، وكان شغوفاً بمعرفة أخبارها، وتتبع حركتها الثقافية. كان رحمه الله على اتصال مستمرّ بي من أجل أن أرسل إليه كل إصدار جديد يصدر عن القطاع الثقافي، أو عن غيره وأكثر اعتزازا وتلهفاً عن كل كتاب تصدره الجمعية الثقافية" الرابطة الولائية للفكر والإبداع" التي أراسها، إذ كان يطلع على ما يتضمّنه الكتاب من محاضرات، ومداخلات كانت قد قُدمت من أساتذة متخصصين في الندوات السنوية للرابطة.

لا أنسى أنه طلب مني أن أرسل إليه تعريفا بالرابطة، وجمعيات ثقافية أخرى فاعلة بولاية الوادي، وبوثائق تأسيسها، ونشاطاتها، وعلمت فيما بعد أنه قدّم محاضرة في الأردن حول الجمعيات الثقافية النشطة بولاية الوادي، وما تقوم به، وما تدوّنه، وما تساهم به في خدمة الثقافة، وما تسعى إليه جاهدة في الدفاع عن اللغة العربية، وترسيخ هويّة الأمة الجزائرية، وأن ما تقوم به هذه الجمعيات يفوق ما تقوم به بعض الوزارات، وكان دليبه على ذلك إصدارات الرابطة التي أخذها معه إلى الأردن، وأظهرها أمام الحاضرين.

كما كان معجبا بالمجلة الثقافية " القباب " التي كانت تصدرها دار الثقافة بالوادي، ورأس تحريرها الأستاذ تامة التجاني الشخصية الثقافية المتميّزة المعروفة، والمدير الحالي للمكتبة الرئيسية للمطالعة العمومية بولاية الوادي، وكنْتُ أرسلت

إليه بعض أعدادها، ولما اطلع عليها الح على أن أرسل إليه بقية أعدادها السابقة.

**تأليفه إليّ موشحة بالإهداء بخطّ يده:** كان رحمه الله يرسل إليّ عن طريق ابن عمّه الأستاذ عبد الرحيم، أو ابن هذا الأخير محمد كل كتاب يصدر له في حينه، مع كتابة الإهداء بخطّ يده؛ وخاصة في السنوات الأخيرة، من ذلك تاريخ العدواني (مجلد) طبعة بيروت.

**1 -** من الكتب التي حقّقها وأشرف على إصدارها، وأرسلها إليّ مع الإهداء بخطّ يده: كتاب "مسائل قرآنية"، وكتاب إتحاف القارئ بحياة الشيخ خليفة بن حسن الأقماري، ديوان الدموع السوداء (مجلد)، وكتاب قواعد وكليات في الثابت والمخدوف في القرآن الكريم، وهي كلها للمرحوم الشيخ محمد الطاهر تليلي القماري السوفي.

**2 -** من الكتب التي ألفها، وأرسل إليّ منها مع الإهداء: رسائل في التراث والثقافة، كتاب باحث مغمور، نور الدين عبد القادر الأستاذ والكاتب والمترجم، كتاب خارج السرب (مجلد)، الجزء العاشر من تاريخ الجزائر الثقافي (مجلد)، وآخر ما وصلني من ابنه الدكتور أحمد كتاب حبر على ورق (مجلد).

**3 -** كل الكتب التي وصلتني منه كان الإهداء بها بخطّ يده مثل: (مع تحياتي.. إلى الأستاذ الأديب بشير خلف، متعه الله بالصحة، والعلم الجريء. المؤلف: سعد الله في 07 / 12 / 2010 الجزائر)، أو (إلى الأستاذ الأديب المبدع بشير خلف، مع تحياتي.)، (هدية إلى الأستاذ بشير خلف مع تقديري لجهوده الإبداعية.. سعد الله. قمار في 30 مارس 2011).

إصدارات مديرية الثقافة ودار الثقافة بين يديه: كان حريصاً رحمه الله على الاطلاع على الحركة الثقافية بالوادي، كما كان حريصاً على الحصول على كل الإصدارات، وكنتُ أرسل إليه كل ما يصدر وخاصة إصدارات مديرية الثقافة السنوية منذ بداية صدورهما بفضل مبادرات، وجهود الأستاذ الدكتور حسن مرموري مدير الثقافة بالوادي سابقاً الذي سعى خلال السنة 2013 أن يكون الدكتور سعد الله ضيف الشرف في شهر جويلية من السنة المذكورة أعلاه في حفل الإعلان عن الإصدارات الجديدة، والاحتفاء بكتابها، ومبدعيها.. اعتذر سعد الله لظروفه الصحية، فأرسل رسالة قرئت في الاحتفائية ثمن فيها جهود المديرية في طبع الكتب، وتشجيع المؤلفين، والتحفيز على المقروئية.

ارتباطه بربوع سوف تتمثل في إهداء العديد من مؤلفاته، وفي صدارتها تاريخ الجزائر الثقافي بأجزائه العشرة إلى مكتبة بلدية قمار للمطالعة العمومية، كما أنه في السنتين 2013، 2014م أرسل إليّ عدة مرّات كي أتصل بدار الثقافة بالوادي لإعلام مديرها الأستاذ محمد حامدي بأنه قرّر أن يُهدي الدار كل ما تحت يده من رسائل أشرف عليها طوال مساره الأكاديمي، وهي عشرات الرسائل لما بعد التدرّج، تشكّل كنزاً ثميناً للباحثين والطلبة، وقد استجاب الأستاذ حامدي، وخصص لذلك شاحنة جلبت ذلك الكنز العلمي الأكاديمي الذي أثريت به مكتبة دار الثقافة التي تحمل اسم الدكتور أبو القاسم سعد الله منذ عقود ثلاثة ونيف

عالمٌ موسوعي أمضى حياته في محراب العلم: عالم رفض الأضواء وشعاره "نكران الذات"، ومن الألقاب التي ظلّت لصيقة بالدكتور أبو القاسم سعد الله،

لقب "شيخ المؤرخين الجزائريين"، وبالفعل استحقَّ هذا اللقب بلا منازع. ولأجل تلك المهمة الجليلة التي تفرغ لها بإخلاص، رفض كل المناصب السياسية، والمسؤوليات الرسمية التي تصرفه عن همّه النبيل، فقدم للجزائر بمفرده وجهده الشخصي ما عجزت كافة المؤسسات العلمية عن إنجازه طيلة عقود. ويكفيه شرفاً وفخراً أنه جمع بعد سنوات طويلة من البحث والتمحيص "تاريخ الجزائر الثقافي" في عشرة مجلدات. وهو الحقل المعرفي السحيق الذي لم يطره سواه، لأن سعد الله خشي أن يجهل العالم إسهام الجزائر الثقافي في مجرى الحضارة الإنسانية عندما يُقرن تاريخها فقط بالبطولات الحربية، والثورات العسكرية عبر القرون. إضافة إلى ذلك فإن الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله ترك أراثاً علمياً متنوعاً، بل مدرسة شاملة في مناحي الفكر المختلفة. عاش المرحوم شامخاً، عزيز النفس، مدافعاً عن القيم والثوابت الوطنية، وقد كان له حضور كبير على الساحتين العربية والدولية، اشتهر فيها بمواقفه العلمية والفكرية المعتدلة، رحمه الله، وأسكنه فسيح جنانه.

## 2 - المرحوم الطاهر بن عائشة

علاقتي بالمرحوم الطاهر بن عائشة بدأت منذ مفتتح الثمانينيات من القرن الماضي لما كان يأتي إلى المهرجان الثقافي الذي كان يقام في مدينة قمار من تنظيم الجمعية الثقافية للشبيبة ببلدية قمار، التي كان يرأسها المرحوم إدريس التهامي، والتي كنتُ عضواً فيها، حيث كان المرحوم الطاهر بن عائشة يأتي رفقة العديد من الشعراء، والكتاب، والإعلاميين، وكان يتولّى الاتصال بهم، ودعوتهم

باعتباره رجل إعلام معروف، ومثقف راديكالي، ومُحاجج عنيد، وصاحب رؤى واضحة في السياسة، والفكر، والثقافة؛ والتنسيق مع ابن عمه عبد الرحمن الذي كان رئيس بلدية قمار حينذاك، والذي اغتيل غدراً في بداية التسعينيات، لاستصافتهم، والاحتفاء بهم.

كان المرحوم الطاهر بن عائشة يساهم في المهرجان الثقافي بقمار بتقديم مداخلات فكرية تاريخية ضمن الجلسات الأدبية التي تتخلل فعاليات المهرجان باعتباره مفكراً، وإعلامياً، وصديقاً للقادمين معه من العاصمة، وأيضاً ابن مدينة قمار، وكنت ألتقي به في مرّات متباعدة بالعاصمة، ثم ازدادت العلاقة أكثر بعد انتهاء الأزمة السياسية والأمنية بالجزائر، إذ كنت أحضر مداخلاته بدار الثقافة القديمة، وأعود به معي في سيارتي إلى مسقط رأسه بغمرة، وفي رفقته لي كنا لا ننفكّ نتطرّق إلى أغلب القضايا المطروحة في الجزائر، والتي لا تزال هي نفسها.

**المكتبات القديمة الخاصة بقمار عرضتّ عنه:** ممّا أذكره أنه ذات سنة من سنوات الثمانينات، لمّا كان يجوب العالم الإسلامي رفقة فريقه التلفزيوني، سيّما الجمهوريات الإسلامية، لإنجاز حصص تلفزيونية هن الحضارة الإسلامية في تلك البلدان؛ رغب رفقة فريقه التلفزيوني أن يقوم بتحقيقات مصوّرة عن المكتبات الخاصة العائلية بمدينة قمار، فاتصل بي وطلب مني الاتصال بأسرة تملك مكتبة عامرة، ثرية بالكتب والمخطوطات، كي يقوم بأول تحقيق لمكتبة العلامة ابن القيم الذي هاجر قبل الثورة إلى السعودية، وهي مكتبة ثرية، امتنع أفراد الأسرة أبناء عمومته، أصيب عمي الطاهر بخيبة، ولم يعد الكرة. مرّت السنوات تلو السنوات على المكتبة، وضاعت أغلب كتبها بفعل عوامل الطبيعة.

مما أتذكره في سنوات التسعينات أن الطاهر بن عائشة كان ينشر سلسلة مقالات فكرية تاريخية في الصحيفة الأسبوعية "المُحَقَّق" لصاحبها الإعلامي هابت حناشي، ذكر المرحوم في إحداها، وهو يتحدث عن أفول الحضارة الإسلامية بالأندلس، أنّ آخر فرقة دافعت عن الأندلس كانت تُسمّى فرقة "الغمامرة" التي أصلها من قرية "غمرة" مسقط رأس المرحوم، الواقعة شمال "قمار". تفاجأتُ بمثل هكذا مقال بعيدٍ عن الحقيقة التاريخية، بمعِية من مثقفي المنطقة، حيث غمرة هي أصلاً منطقة فلاحية، وما كانت في مرحلة من التاريخ حاضرةً من الحواضر حتى أوائل السبعينات من القرن الماضي عبارة عن "دشرة" لمنازل بسيطة، منجزة من الجبس الحلي، والحجارة المحلية البكر البسيطة.

ما عرفته عن المرحوم أنه موسوعة معارف في كل مناحي الفكر، كان يتكلم من الذاكرة، ما رأيته مرّة ينظر إلى ورقة، أو كتاب، وما رأيته يدوّن على ورقة، كان مجادلاً قويا ذا رأيٍ معروفٍ في كل شيء، متفردًا خارج السّرْب؛ إنما في السنوات الأخيرة ضعُف بصره، وحتى ذاكرته خانته في مدّه بما يريد كما كان سابقًا؛ علمًا أن سنوات المحنة السياسية والأمنية التي عصفت بالجزائر استُهدف فيها المرحوم، وعاش سنوات بعيدا عن أسرته في مقرّات آمنةٍ مع غيره من الإعلاميين والكتّاب.

### 3- المرحوم مع الطاهر وطار

في منتصف الثمانينات نظّم اتحاد الكتاب الجزائريين بقسنطينة، وبالضبط في المركز الثقافي بوسط المدينة، والإقامة بـ فندق "سيرتا" ملتقى للرواية العربية

حضرته أسماء كبيرة معروفة في الإبداع الروائي العربي، كالطاهر وطار، والمرحوم عبد الحميد بن هدوقة، وواسيني الأعرج، والأمين الزاوي، وصنع الله إبراهيم، ويوسف القعيد من مصر، وروائيين من سوريا والعراق، وليبيا وتونس، ولبنان .

لا تحضرنى كل الأسماء، إضافة إلى الأدباء الجزائريين من الجيلين حينذاك، وكنتُ من المدعويين في هذا الملتقى الذي كان مميّزا، ومما زاده ألقا أن يكون في مدينة التاريخ، والعلم، والثورة.. المدينة العريقة، عروس الشرق الجزائري مدينة قسنطينة.

حينذاك كان في مخيلتي كاتبان عربيان لهما شكلان متشابهان، ولهما مكانة متميزة في الثقافة العربية، وحضورهما في هذه الثقافة لا تشوبه أية شائبة، شخصا أحدهما قريبٌ من قلبي، وثانيهما له صورة غير مُحبّبة عندي حينذاك؛ بل مزعجة علمًا أي ما التقيتُ بأي واحد منهما شخصا حتى تاريخ ذاك الملتقى: أولهما توفيق الحكيم، وثانيهما الطاهر وطار يشتركان في غطاء الرأس الذي هو عبارة عن " البيري ذي اللون الأسود".

**ساعتي الشمس في حركتها:** أنا القادم من الصحراء، وابن الفيافي والبراري الذي تطّبع بدورة الطبيعة في لياليها، ونهاراتها، وزُرقة سمائها، ولمعان نجومها ليلا، طبّعتني على توقيت يوميّ وفق حركية شمسها، وانتشار أشعتها.. عقارب الساعة في المرتبة الثانية عندي.. في صباح يوم بداية الملتقى نهضتُ باكرا في فندق سيرتا، كعادتي في ربوع إقامتي، وما أن حلّت الساعة السادسة صباحا حتى دلفتُ إلى قاعة الطعام بالمطعم، وفي ذهني أن المُلتقين امتلأت بهم القاعة، وهم منكبّون على التهام فطور الصباح..

الطاهر وطّار.. أم توفيق الحكيم؟: كانت مفاجأتي حينها أن القاعة فارغة إلا من شخص واحد يجلس وحيدا في الزاوية القصية اليمنى من القاعة، وبمجرد أن لمحتُه، وتراءى لي غطاء رأسه الأسود أدركت لتوّي أنه الطاهر وطّار، تقدمتُ نحوه بحميمية ابن الصحراء، وبمجرد أن اقتربتُ منه محييا، حتى نهض واحتضنني وكأننا نعرف بعضنا البعض منذ أمدٍ.. في تلك اللحظات وهو يسمع تحيتي، ومساءلتي عن الأحوال، أبي أن يعود إلى الكرسي، وهو يتفرّسني جيّدا، ثم ما لبث أن قال بالحرف الواحد.. أذكر ذلك جيّدا :-

- ألسنت أنت بشير خلف ابن مدينة قمار؟

- ومن أنبأك بهذا، نحن ما التقينا قبل؟.

- من تحيتك لي استشففتُ اللهجة "القمارية"؟

- وما علاقتك باللهجة "القمارية"؟

- علاقة الرضيع بحليب أمه.. أول أستاذ أَرْضَعَنِي وأنا الأمازيغي الفُح، شهّد اللغة العربية وعلومها في مسقط رأسي "الشيخ حَيّ" ابن مدينة قمار، في مدرسة جمعية العلماء ببلدة مداوروش أين نشأتُ وترعرعتُ.

**بطاقة الاشتراك الأولى من نصيبي:** بدأت علاقتنا متينة منذ ذلك اللقاء، حتّى أن أوّل بطاقة اشتراك في "الجاحظية" الفتية رغم أني لستُ عضوا مؤسسًا، وما حضرت الجمعية العامة الأولى، كانت البطاقة الأولى لي، أرسلها إليّ مع أحد الأصدقاء. بطاقة إلكترونية معدّة من طرفه شخصيا بدقّة، وفتيات عالية بواسطة الحاسوب الذي كان الطاهر وطّار من أوائل من امتلكوه، وشغلوا عليه بمهارة عالية في أوائل التسعينات..

تكررت لقاءاتنا في مقرّ الجاحظية كلّما زرتُ العاصمة بحكم عضويتي آنذاك في اللجنة المديرة لاتحاد الكتّاب الجزائريين، أو من خلال قدومي في إطار مهاميّ في الإشراف التربوي.. كان يستقبلني بحفاوة استقبال الصديق لصديقه، نستعرض في الغالب المشهد الثقافي بالجنوب، وبخاصة في ولاية الوادي، وما أن أهتمّ بتوديعه والمغادرة حتّى يطلب من إحدى كتاباته أن تسلمني آخر ما أصدرته الجاحظية من عناوين جديدة. كما أنه كان يرسل إليّ عن طريق البريد تباعاً كلّ المجلات الدورية كمجلة التبيين، ومجلة القصيدة، ومجلة القصة.. كما أنني لم أتوان، أو أخلف في دفع اشتراكاتي السنوية للجاحظية، والتي عادة ما تكون أضعاف قيمة الاشتراك السنوية المحددة من طرف الجمعية، وللأمانة التاريخية كان "سي الطاهر وطار" ينتظرها كي يسدّ بها فجوة مفتوحة كفاتورة الهاتف، أو الكهرباء.

.. **النشر المشترك**: في سنة 1999م عرض عليّ في إطار النشر المشترك الذي اعتمدته الجاحظية أن أتقدم بأيّ عملٍ لي وهو موافق عليه مسبقاً، فقدمتُ له مجموعة قصصية بعد اطلاعه عليها، تراءى له أن حجمها كبير، فاقترح أن تُقسّم إلى مجموعتين قصصيتين، فكان له ما اقترح، وصدرتا في نفس السنة، المجموعة الأولى بعنوان "الشموخ" والثانية بعنوان "الدفء المفقود".

**حضر تكريمي بمدينة الوادي**: لا أنسى فضله حينما دعوته في أوائل مارس 2001 كي يحضر حفل تكريمي رفقة الدكتور أحمد حمدي، استوضح منّي عن مصدر الدعوة، إن كانت من السلطة، فإنه يرفض القدوم، وإن كانت من بشير خلف شخصياً مرحباً، تكفّلتُ بتذكرة الطائرة واستقبلته في المطار ونقلته بسيارتي الخاصّة إلى فندق "اللوس" بمدينة الوادي، فلبّي الدعوة بفرح كبير إلى جانب

شخصيات أخرى ثقافية وطنية مدعوة، وقال كلمة مؤثرة في الاحتفائية عتي. أقامت دار الثقافة التي كان مديرها الأستاذ المثقف، البهي علي بوصبيح صاحب مبادرة التكريم مأدبة عشاء بالفندق حضرها المدعوون، ووجوه ثقافية كبيرة؛ كما حضرها الأستاذ مشري عز الدين والي الولاية حينذاك.

في تلك المأدبة أُلحِتْ إلى الطاهر وطَّار أن يجلس إلى جانب الوالي، وهو المثقف الذي لا يريد الاقتراب من السلطة، ورموزها؛ أصررتُ أن يجلس، جلس مكرهًا، احتفى به الوالي، وحدّثه عن رواياته واحدة بعد الأخرى وشخصها، وزمكاتها، وقيمتها الفنية؛ سيّما رواية "اللاز" التي جرت أحداثها بمدينة قسنطينة، والوالي أصيل مدينة قسنطينة، تفاجأ الطاهر وطَّار، وبصراحته المعهودة، خاطب الوالي:

. ما خطر في بالي البتّة أن المسؤولين يقرؤون، أو يطالعون خاصة الروايات، أنت اليوم زعزعت قناعتي، هذه بشرى خيرٍ للثقافة.

.. حوارٌ إذاعيٌّ ليلىُّ مع الإعلامي الشاعر اسماعيل غربي: أجرى معه الشاعر الإعلامي إسماعيل غربي حوارًا ثقافيًا مركّزًا لمُدّة ساعة في تلك الليلة، كما استقبله رجل الأعمال بشير جديدي في مقرّ شركته "الورود"، واحتفى به احتفاء كبيرًا، وطاف به في أجنحة مؤسسته، وفي اليوم الثالث من زيارته الذي غادر فيه المنطقة مساءً، تجوّلت به في بلدات الديبيلة، حسّاني عبد الكريم، الزقم ثم مدينة قمار أين طلب مني أن أريه المدينة القديمة.

وطَّار مُدِينٌ لِقَمَار: فاجأني المرحوم وطَّار، بأن يرى صديقًا قديمًا له من قمار درس معه في جامع الزيتونة بتونس السنة الدراسية 1954 / 1955م، ضحك حينها رحمه الله وقال:

«مدينة قمار فضلها عليّ كثيرٌ ما نسيته، ولن أنساه ما دمتُ حيًّا، الشيخ حتّي أرضعني شهد اللغة العربية، وحبّها، والدفاع عنها، وأنا الأمازيغي، والصادق سلطنة ابن مدينة قمار زميلي في الدراسة بجامع الزيتونة بتونس، رفيقي في غرفة الإقامة هو من زرع في حبّ المطالعة بأن زوّديني بعشرات الروايات العربية، والعالمية المترجمة، هو من شجّعني على مراسلة الصحف التونسية والكتابة فيها، هو أيضًا من دفع بي إلى أن أصير سكّيرًا معه.»

كان المرحوم الصادق سلطنة حينذاك مُصابًا بمرضٍ عقليّ استمرّ معه سنوات، ومات به، بحثنا عنه في مكان كان يتواجد به طوال العام، فما عثرنا عليه، بعد أن غادر الطاهر وطَّار مدينة قمار صوب العاصمة على متن الرحلة الجوية، عدتُ إلى المدينة رأيتُ الصادق سلطنة اقتربتُ منه، وأعلمته بمجيئي الطاهر وطَّار، وقف، ونظر إليّ، وكأن لا مرض به، بلهفة:

«الطاهر وطَّار جاء إلى هنا وبحث عني.. يا الله، الطاهر صديقي أين هو؟ لماذا لم تأت به إليّ.. لماذا.. لماذا..»، سرعان ما عاد إلى عالمه الخاص الجنوني، رحمهما الله، وغفر لهما.

## 19. كتاباتي في أعين الآخرين

أ. القصصية

1 - مجموعة "الشموخ" بشير خلف وصدمة السرد \* بقلم: الأديب منصف بوزفور.

يعسر أحيانا متابعة الظاهرة القصصية في الجزائر، باعتبارها تتعلّق بأنماط أدبية وفولكلورية مختلفة كالرواية والأقصوصة والحكاية الشعبية والملاحمة والحكاية الأسطورية، دون أن نقع في زلّة عدم الإلمام التاريخي بها. فالظاهرة لها وجهان: الظاهرة القصصية باللغة العربية، ونفس الظاهرة المكتوبة باللغة الفرنسية. وإذا كانت هناك تقاليد لهذا الأدب بوجهيه، إلا أن اللغة السردية كثيرا ما تفصل بين هذين الوجهين. وعرفت السردية العربية في السنوات الأخيرة نوعا من التذبذب، وانه لا شك ذلك التذبذب الذي عرفه الكتاب والتكاليف المادية الضرورية لنشره، والجمود الذي عرفه سوق الكتاب، كل هذا كان له أثره في قضية النشر في الجزائر. لكن الجمعية الثقافية - الجاحظية - وضمن منشورات التبيين، قدمت مساهمة فعالة في النشر رغم ضعف مبيعات الكتاب في بلادنا لأسباب وجيهة. وقد نشرت الجاحظية ضمن سلسلة الإبداع الفني مجموعة قصصية ل

---

\* - نشر في صحيفة - الخير الأسبوعي - في شهر أبريل 1999 للأديب منصف بوزفور

"بشير خلف" حملت عنوان الأقصوصة الأولى من المجموعة "الشموخ". وتضمّ - الشموخ - مجموعة قصصية مؤلفة من ثماني أقاصيص وهي: الشموخ، الحلم والأسرار، لصوص من نوع آخر، الحلم في العيون الصغيرة، اليأس، السقوط في الوحل، ليلة في فندق عاصمي، عزف على أوتار مقطوعة. وتفوح من المجموعة رائحة جذّابة لواقعية مختزلة في الألواح والمشاهد التي تتألف منها الأقاصيص. وإذا كان هدفنا في هذه الورقة لا يتجاوز مواصفات لون من التقديم، مع علمنا بما طرحه "تودوروف" حين رأى بأن النقد ليس ملحقا سطحيا للأدب، وإنما هو قرينه الضروري. وكم أملنا لأن لا نعدم أن يكون هذا القرنين قرينا فعليا، وأنه يجب على عرضنا لهذا الأثر الأدبي أن ينشغل بمواصفات كتابة الأقصوصة كأقصوصة والسّمات السردية للأسلوب. ونعلم أن العرب قد عرفوا الرواية عن طريق الغرب، وأنهم بالفعل قد أبدعوا في الطراز من الأدب مع نجيب محفوظ، وأنهم عرفوا النقد الروائي عن نفس الطريق. كما عرفوا الأقصوصة بغير شكلها الحالي مع المقامة عند الهمذاني والحريري، منا عرفوها مع أدب الجاحظ في كتاب "البخلاء".

لو عدنا إلى أقصوصة: "الشموخ" عند بشير خلف، نلاحظ أنها تتكون من أربعة ألواح عن شخص مسنّ هو الجدّ الذي تحطّى السنوات السبعين، والذي تتحدث عنه الجدة لأحفادها.. فهو الخلود.. وهو الشجرة الخالدة.. أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فيتغذى منها الطير والإنسان من كلا الشعبين الشقيقتين الجزائر وتونس، ويستحضر بشير خلف

صورة الشجرة المقدسة التي ذكرها القرآن الكريم، كما هي نفسها الزيتون  
اللاشرقية واللاغربية التي يكاد زيتها يخطف الأبصار.

وقد أجاد " خلف " بهذا الاستحضار كعلامة من علامات لوحته عن  
الخلود؛ أما اللوحة الثانية للأقصوصة فهو حوار مع الجد وجماعة معينة.. إنها  
الإدارة البيروقراطية وذلك في إطار العمل المريح، حيث يُقدم للشيخ الذي طالما  
ارتعدت الأرض تحت قدميه بضربات فأسه، حراسة باب مسؤول للإدارة.  
ويسألهم ممن يجرس الباب ومن هؤلاء المتطفلون؟ وإذا كانت هؤلاء مآرب فلماذا  
يُغلق باب المسؤول أمام وجوههم؟ وما وظيفة المسؤول إذن؟

ويتمدّ هذا الحوار " فبشير خلف " لم يجعل له حدًا فهم قالوا والجد قال..  
وقالوا.. وقال.... في اللوحة الثالثة تقدم صورة الجد الذي تعادل صحته صحة  
الجمال.. ولما كان أبو شهيد ومسبّل قدّموا له بطاقة السبق في السفر بالجمان  
والتموّن. وطالما أن خدمة الأوطان والإخلاص لها سلوك فطري لدى النفوس  
الحرّة لدى هذا الشيخ، فإنه لا يحتاج إلى مثل هذه البطاقة. ولم تكن اللوحة  
الرابعة إلا دلالة على أن النخلة الباسقة لم تنزل شاهقة، وإنما تشق جحافل  
الظلام. أما الأقصوصة الثانية وتحمل عنوان " الحلم والأسوار " فهي مكونة من  
ستّ لقطات وهي مراجعة لحنين المغترب بباريس الذي يمثل جسدها بضاعة  
رخيصة... ويندفع صالح وعمار في حوار، فصالح يطلب من عمار أن يثبت إبرة  
المذياع في محطة الجزائر البيضاء، وعمار يشير إلى صالح بكونه يتذكر البلاد ليلا  
وينساها نهارا.. ثم يتواصل الحوار.. وتتواصل اللقطات..

ويدوم بدوام الحوار حنين يبرز في صورة حلم خاص. أما في أقصوصة " لصوص من نوع آخر" فيتحدث عن اللصوص الذين يتسترون وراء مبادئ وثوابت هذا الوطن، في حين يتحدث في أقصوصة " الحلم في العيون الصغيرة " فهو لا يتوانى يكرر حوار الأستاذ مع تلاميذه حتى يبلغ الحلم وهو يتحول إلى حقيقة.. أي تيار الوعي لدى الأجيال.. الطوفان الجارف العنيف الذي لا يرحم من يقف في طريقه. ولم تكن باقي قصص المجموعة: اليأس، السقوط الحر، ليلة في فندق عاصمي... إلا مواكبة لأحداث ووقائع حيّة، قدمها القاص ليرسم من خلالها ما انشغل به ذهنه.

القارئ المتابع لا يجيب ظنه في أسلوب " بشير خلف " وفي القيمة السردية وفي الكيفية التي بنى بها الأحداث والوقائع والصور. فهو ولا شك وكمثل ما قاله " الطاهر وطار " فيه: أحد الذين بنوا بصمت وبتواضع صرح الأدب الجزائري الحديث، إذ انزوى في - قمار - بولاية الوادي، يلقن الأجيال الصاعدة الحلم ويثري المكتبة الوطنية. والحقيقة أن هذه الصفحة لا تتبع النص السردى خطوة بخطوة، ولا المحتوى الدلالي لنصوصه القصصية. ولما كانت العلاقات في النظام الزمني لتتابع الأحداث في الرواية ليس نفسه في الأقصوصة القصيرة ؛ رأينا أن نقدم هذا العمل الأدبي دون التعمق في النص، ولا في مواصفات الأسلوب السردى عند " خلف " .

أما في الأقصوصة الأخيرة من المجموعة " عزف على أوتار مقطوعة " فقد عرضها ضمن لوحات أربع، في اللوحة الأولى يصور معاناة البطل.. المهندس

المعماري الذي يستفيق من نومه متأخراً، ونظرات التشفي الماكرة ترميه بها زوجته. ثم أن أسئلتها له كلما عاد إلى البيت بعد عناء يوم شاق.. معلومة.. إنها عن القهوة والزيت والحليب.. و.. و.

إنه الزوج والمهندس المعماري الذي تنتظر منه الزوجة ان ينضم إلى طوابير الناس ليتحصل على نصيب مثلهم. ثم إن عسر الحال والحاجة إلى الغذاء قد أرهقت الزوجة وجعلت نظراتها ماكرة. ولم تكن اللوحة الثانية والثالثة إلا عرضاً لأسباب هذه المعاناة. أما اللوحة الرابعة فهي صورة عن الكيفية التي يحقق بها الأشرار أطماعهم. هذه مجموعة قصصية، ليس هيّنا دفعها بمواصفات هذا العرض، والحق أننا نقدمها للقارئ وكم نتظر أن يجد الكِتاب في الجزائر قراء يعضدونه.

2 - عن مجموعة "القرص الأحمر"\* «... القاص بشير خلف، يُصدر مجموعته القصصية الجديدة التي تعبّر عن نُضجٍ فنيّ بعد مجموعته الأولى "أخاديد عل شريط الزمن". ويبدو من القصص الجديدة أنه خرج من إطار الإنشائية والموضوعات الجاهزة، فهو في "القرص الأحمر" يؤكّد إمكاناته القصصية ومقدرته على استيعاب الواقع الاجتماعي المتغيّر. إذاً في هذه المجموعة التي تحتوي على 12 قصة قصيرة، وخمس قصص قصيرة جدّاً؛ يجرب "خلف" الأشكال القصصية الجديدة، ويتجاوز الكتابة التقليدية الإنشائية.»

---

\* - المجاهد الأسبوعي حال صدور المجموعة في سنة 1986

3. عن مجموعة " الشموخ " \* بقلم: الكاتب، الأديب: يحيوي الطاهر.

«صدرت مجموعة قصصية للقاص بشير خلف تحت عنوان " الشموخ " وقد اشتملت على القصص القصيرة التالية: الشموخ، الحلم، الأسوار، لصوص من نوع آخر، الحلم في العيون الصغيرة، اليأس، السقوط في الوحل، ليلة في فندق عاصمي، عزفٌ على أوتار مقطوعة. وهي تقع في 64 صفحة وقد تميّزت هذه المجموعة القصصية بلُغتها الرفيعة.. لغة الصفاء والدقة والتصوير الدقيق، فقد استطاع بشير خلف أن يُوائم بين لغة المدرسة العربية ذات التركيب البنائي القوي ولمعان الصورة الراقية، مما يُؤكّد قدرة الكاتب على غورٍ أعمقٍ وعلى تألّقٍ يُرشّحه إلى عالم الرواية.. فالقاص من طوعَ لغته ورُحِبَ خياله وتعمّقت حاسته الفكرية.. دخل عالم الرواية.. غير متطفّلٍ وهو ما ننتظره من كاتب " الشموخ».

4 - عن " الشموخ " أيضا \* : " الشموخ " مجموعة قصصية للأديب بشير خلف، من منشورات الجاحظية ومن سلسلة الإبداع التي صدرت لهذا الموسم. تضم مجموعة من الأقاصيص القصيرة منها: الشموخ، الحلم، الأسوار، لصوص من نوع آخر، الحلم في العيون الصغيرة، اليأس، السقوط في الوحل، ليلة في فندق عاصمي، عزفٌ على أوتار مقطوعة. وتمتاز كتابة بشير خلف بالجودة وحسن السبك والتحكّم في أسلوب القصة القصيرة وجمالها. ولقد ذكر الطاهر وطّار عنه بأنه أحدُ الذين بنوا بصمّتٍ وبتواضعٍ صرّحَ الأدب الجزائري الحديث.

---

\* - الطاهر يحيوي في " المجاهد الأسبوعي " عدد آخر ماي 1999

\* - صحيفة " العالم السياسي " العدد: 810 بتاريخ 04 أفريل 1999

وقد انضمّ إلى الجاحظية عند تأسيسها. وتتميّ أن تحظى " الشموخ " بحظّها من القراءة والانتشار.

عن مجموعة " الدفء المفقود " \* بقلم: الدكتور الباحث الإعلامي: رشيد خضير. في آخر مجموعة قصصية له، بشير خلف ينتفض على الواقع الرديء.. كان من آخر منشورات الجاحظية المجموعة القصصية للمرّي والأديب والقاص بشير خلف الذي قال رئيس الجمعية . عنه الطاهر وطار - في حفل تكريم هذا المبدع المتواضع بمسقط رأسه الوادي، هذا المبدع الغني بإسهاماته الوفيرة التي أثرت الثقافة الوطنية الأصيلة وكذلك في إثراء المكتبة الجزائرية التي أصبحت رفوفها خالية، بل وخاوية من تلك الأعمال الراقية.

الأستاذ بشير خلف، حيث قال فيه وطار إنه " بابا نويل الجاحظية " فقلما نجد مثقفا يتبرّع بالمال لأجل استمرار الحياة الثقافية والإبداع الأدبي، وخلف هو أحد هؤلاء القلّة. وقد عنون خلف هذه المجموعة ب: " الدفء المفقود " قاصدا بذلك الواقع الجزائري الذي تنخر جسده آفات الانتهازية والظلم والفقر وغياب التضامن الاجتماعي، فكلّ القصص التي حوّثها المجموعة هي مرآة عاكسة لهذا الواقع الرديء ولم يكتف بشير خلف بطرّق موضوعات بتلك الحساسية والأهمية فقط، بل أعطى حلولاً و منافذ وسبلاً للخروج منها والقضاء عليها ولو بمجرد التقليل منها وكبح تفشّيها؛ حيث استعمل لغة بسيطة سلسلة وعبارات مفهومة لا يشوبها غموضٌ، مُوظِّفا كلمات مُوحية ذات دلالة قوية، كما ضمّن خلف

---

\* - صحيفة " كل الدنيا الأسبوعية " رشيد خضير - إعلامي - مارس 1999

اقاصيصه أعرافا جزائرية تكاد تندثر اليوم كاحترام الآباء وعدم عصيان أوامرهم. كما طرق خلف موضوعات تاريخية كالثورة الجزائرية من خلال قصتي " الرسام، دروب الفردوس". وحقيقة فقد أبدع المرّي بشير خلف في تصوير الواقع الجزائري، وجسد بعض الآفات والقضايا تجسيدا حقيقيا وأبرز كذلك تفرّدا في الكتابة الأدبية، له فيها باعٌ كبيرٌ فقد كتب في مجلّات متخصصة منها ك: مجلة الثقافة، الرؤيا، آمال، الأديب البيروتية لصاحبها المرحوم: ألبير أديب.. كما له العديد من الأعمال الأدبية والفكرية.

مجموعة "الدفء المفقود" لبشير خلف \* بقلم: الكاتب الناقد بلمشري مصطفى.. بشير خلف من الأصوات القصصية في الساحة الأدبية الجزائرية، بدأ يفرض حضوره بين قصاصينا في السبعينات، وهو قصّاص يعتني كثيرا بلغته ويحرص على تطورها على الدوام. موضوعاته مستقاة من حركة الواقع اليومي، وهو غالبا ما يميل في قصصه إلى التركيز على إحدى جزئيات هذا الواقع لاستفائها وإنارتها من جوانبها المتعددة.

وتحليل عناصر التجربة الفنية والمعاناة التي يتكون منها مضمون أعماله وأبعاده بغية تحديد هويتها والكشف عن نوعيتها من حيث أنها تعبير عن اهتمامات إنسانية وتجسيد لموقف خاص يقفه الكاتب من قضايا الناس والحياة أمّا عن أصالة التجربة القصصية، فلا حاجة لي إلى الأسباب لأبين أنها من أصدق ما يُعرف عادة في الفن القصصي، وهي ظاهرة بجلاء لكل من يقرأ

---

\* - الناقد والكاتب مصطفى بلمشري في صحيفة " الأحرار " العدد 1659. الأربعاء 13 أوت 2003

قصص بشير خلف، ولكل من أتبع له أن يعاشر صاحبها معايشة لصيقة عميقة كما أتبع لي. ولعلّي أعرف مادة خاصة للقصة أصفى وأنقى من مادة القصة عنده، حتى ليتمكني القول بكل اطمئنان، أن جوهر القصة عند الكاتب هو من أندر ما عرفت وأعرف إلى الآن. إلا أن الانطباع العام الذي تركته عندي قراءة هذه القصص من الناحية الأسلوبية هو أن الأستاذ خلف بشير بالرغم من علائم التوفيق العديدة التي لازمت قلمه في هذا الاتجاه القصصي الحديث ووضعه في مكانة مرموقة بين قصاصينا المعارضين، لم يُوفق إلا إلى توضيح معالم الصورة التي أرادها لشخصياته، وكذا عناصر التأثير الفني ووسائلها الجمالية التي تتضمنها المجموعة القصصية تحت عنوان { الدفاء المفقود } بحيث عاجلت مختلف القضايا الاجتماعية والوطنية والإنسانية، وتصور الواقع وبعث الروح فيه ثم تقديمه بشكل فني؛ إذ يفاعل الكاتب بشير خلف كل المعطيات ليخلق رؤيته الخاصة التي يحتزها ويؤلف عبرها وجهة نظره في المشهد والنوع والفضاء الإبداعي. ولزيد من الإيضاح أقول إن هذه المجموعة القصصية لـ " بشير خلف " من حيث المضمون والمحتوى مجموعة وقائع وأحداث ذات أبعاد ومدلولات، يحاول الكاتب بواسطة الشك الفني أن يركز فيها على موقفه الفكري من الحياة والتاريخ على أساس أن هذا الموقف هو المغزى النهائي أو البعد الخفي الكامن وراء الشكل والمرتبط به ارتباط الصورة بمعانيها وارتباط الرمز بمدلوله. أمّا أبرز ما يطالنا به الشكل الفني لهذه التجربة القصصية، فيمكن القول إجمالاً بأن قلم الأديب يجري على العموم في اتجاه أسلوب حديث يقوم أساساً على اعتماد الصورة جسماً للفكرة وبعدها أمامياً لها، بحيث قد بلغ الكاتب مستوى مرموقاً من سياق التعبير الجمالي المعافى.

وقد لا يكون اتساع أفق الرؤية القصصية وحده هو الثقل الجديد في قصص " بشير خلف"، بل يُضاف إليه شيء آخر هو وضوح الرؤية وثورتها إلى حدٍ ظاهر يبشر باستمرار تصاعدها وتأصلها.<sup>1</sup>

1 - قصص وأسماء مجموعة " شموخ " لبشير خلف. بقلم: الكاتب، الناقد: الدكتور مخلوف عامر. <sup>2</sup> "الشموخ"، عنوان مجموعة قصصية ل: "بشير خلف" صدرت عن التبيين/ الجاحظية عام 1999. وهي تحتوي على القصص التالية:  
الشموخ الحلم والأسوار- لصوص من نوع آخر- الحلم في العيون الصغيرة اليأس السقوط في الوحل ليلة في فندق عاصمي عزف على أوتار مقطوعة. يتضح من خلال هذه العناوين التي اختارها القاص، أنها تتراوح بين المداورة والتصريح. ولعل التصريح أن يكون هو الغالب ليس على العناوين وحسب، وإنما على طريقة عرض الأحداث واللغة أيضاً. فالبناء القصصي أقرب إلى الطريقة التقليدية المعهودة. إذ هو يؤسس على الرؤية من خلف حيث الكاتب هو العالم بالأحداث ومسير الشخصيات وإن هو نقل السرد من الكاتب لتتوب عنه شخصية أخرى في بعض القصص. كما أنه يلجأ أحياناً - إلى الحوار الثنائي أو يناوب بين ضمير الغائب والمخاطب فيجعل هذا الأخير هو السائد. وقد يرتد بطل القصة بذاكرته عشرين سنة إلى الوراء لينقل إلينا صورة رئيس المصلحة وقد كان من قبل يستغله ووالدته في مزرعته.

---

1. المجاهد الأسبوعي العدد 2501 من 7 - 14 / 2008/07

2 - موقع " مسارب" بتاريخ 27 يونيو، 2014

فأما اليوم وقد أتقن هذا المسؤول لعبة إهدار المال ونخبه فيقول بنبرة ديماغوجية مفضوحة: (البلاد في ورشة شاملة، علينا تسهيل الإجراءات لإنجاز المشاريع لفائدة الوطن، التعطيل بيروقراطية يا ولدي، عليك أن تفهم هذا جيداً) ، عزف على أوتار مقطوعة، ص: 60. لكن ذلك كله، سواء أكان تناوباً بين الضمائر أم حواراً أم ارتداداً أم تقسيم القصة إلى لقطات ومشاهد ولوحات، لا يغير من أن القاص يظل هو المتحكّم في زمام الأمور. لكن لم الميل إلى هذا الأسلوب لدى "بشير خلف"؟

إن قارئ القصص سيكتشف بلا عناء أن الكاتب مسكون بالهاجس الوطني/الاجتماعي. لا يرى في الكتابة مجالاً للمتعة والترف أو أن الكاتب يُطلُّ على غيره من برج عاجي. فهو حين يستعيد الماضي في صورة جدِّ لا يتراخي في العمل وكان وحرب التحرير في أوجها (لما يهوي على الأرض بفأسه، ترتعد الأرض تحت قدميه) الشموخ ص5

- بشير خلف شموخ الماضي وكبرياء المجاهد<sup>1</sup> بقلم: الشاعر، الناقد الدكتور عيسى ماروك. للعنوان أهمية كبيرة في المقاربات السيميائية، ولكونه أساسياً على الباحث أن يحسن قراءته وتأويله، ومن ثمّ التعامل معه بكثير من التعمق و البحث. وعليه فالعنوان أشبه ما يكون بواجهة إشهارية براقّة تشد الأنظار، وبخاصة حينما يكون مغرباً، إذ يصنع دعاية كبيرة لذلك الإنتاج.

---

1 - د. عيسى ماروك. شموخ الماضي وكبرياء المجاهد. منشورات موقع هوامش 13 اجوان 2015

إن كلمة "الشموخ" هكذا مجردة توحى بالعلو والارتفاع والعظمة من جهة وبالتكبر والبعد من جهة أخرى، فقد ذكر ابن منظور في الجذر " ش م خ " في لسان العرب معاني الارتفاع والعلو والتكبر، وجاء في القاموس المحيط: نِيَّةٌ شَمُوحٌ: بَعِيدَةٌ وَمَفَازَةٌ شَمُوحٌ: بَعِيدَةٌ.

وإن كان لكلمة "الشموخ" كل هذه المعاني والدلالات، فإن "الحذف" في الجملة الاسمية منحها معان جانبية، ولم يقصرها على دلالة وحيدة . وإن كان التعريف تحديداً ،، وإذا احتكنا إلى النص الحكائي (محل الشاهد)، نجد كلمة " الشموخ " ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببيئة الكاتب كونها جاءت صفة للنخلة في موضعين، الأولى نكرة في بداية القصة (... وما زال يقف نخلة تعانق السماء في شموخ) وورودها نكرة يفتح باب التأويل واسعا كون التكرير يعني التعدد وعدم التعيين، وتطفو مجدداً الكلمة في آخر القصة (كانت نخلة باسقة في سن السبعين شامخة تشق ما تبقى من جحافل الظلام...) ولا سم الفاعل دلالة ذات شقين شق يفيد الحدوث، وشق آخر يفيد الثبوت، وفي الجملتين الوصف نفسه زوجين في السبعين من عمريهما لكن السنين لم تنل منهما، ولا من مكانتهما في نفوس الأبناء والأحفاد وما اهتزت عزة النفس عندهما. وكأن الكاتب يحاول أن يمارس علينا شيئاً من التمويه، حتى لا نفكك رموزه بسهولة، وليضفي كذلك بعداً غرائبياً على مضامين بعض كلماته، إذ كيف يبقى الجد شامخاً والحياة تعانده حتى في الحصول على وظيفة تحفظ ماء وجهه، ومن أين له بالتكبر ونصيبه في الحياة أن يقف حارساً على باب مسؤول بيروقراطي؟

فيألى أى مدى كان "الشموخ" كعنوان وفىا للنص الحكائى؟ وهل تصدق  
علله مقولة: "الظاهر عنوان الباطن"؟...

ب سىمىائىة العناوین الءاآلىة (الفرعیه): تضمنت القصة أربعة عناوین فرعیة  
توزعت على آمس صفآات.

آمل الآزء الأول عنوان "آلود"، وهو العنوان الفرعى الأول المفتح  
للنص القصصى، وىواصل الكآب فىه الآذف الذى ىدفعنا للآآ فى آناىا  
النص لآك شىفرة العنوان الذى ىآمل آلالة عمیقة على البقاء والءوام والسكون  
والرضا، إء أن الآلود ىآسه الشهید الذى آدم روجه قربانا لىبقى الوطن شامآا  
شموخ آباله اللى آوته - ألىست الآوالء من أسماء الآبال؟؟- وهو الرضا الذى  
ىعمر قلب الشىآ أى الشهید على فلآة كیده الذى آُرس (شآرة آالآة) ولأن  
للشآر فوائد آمة فهو لم ىطمع فى آیر ءوام الآكر ولكن المفاهیم آبءلت والزمان  
آیر الزمان أصبحت فىه الشهآة "آوصیه" آفتح بها الأبواب الموصءة وهو  
العنوان الذى آآاره الكآب للوحة الآنىة، ولأنه (فى آآلك أىام الشورة  
الآآریریه... ما سلم الآء فى العمل...) لم آكن الآوصیه إلا لعمل (مرىآ لا  
ىآعءى آراسة باب المسؤول الأول بالآءارة) وأى رآآة آآآهن كرامآه وهو الذى  
(كان نآلة قوية آرآفع هامآها فى كبرىاء إلى عنان السماء)، كىف ىغلق الباب فى  
وجه أصحاب الآآآات، وهل اسآشهد ابنه لأآل أن آعود الآقوق لأصحابها  
فىقف هو منآصبا ىصءهم عنها؟؟ سؤل آرآه الكآب معلقا. وفى ذلك إىآاء  
ببءایة الآنآقال من مرآلة إلى آآرى آبءو أكثر وضوحا.

أما اللوحة الثالثة، فتحمل عنوان "رائحة الماضي"، والدلالة الایحائية لهذا العنوان تنفتح على المآثر والأعجاد التي سطرها ثورة التحرير من جهة، وعلى جرائم الاستعمار وفضائعه من جهة أخرى، فالشيخ الذي وقف كالطود الشامخ أثناء الثورة (سلاحه عزة وكبرياء، زاده همة وإباء) رغم ما ابتلي به أثناء ثورة التحرير، ظل شامخا كخنخة في الفلاة لم ينحني لأجل بطاقة تموين ولم يتذلل لأجل بطاقة سفر مجاني أو علاج. ويختتمها بلوحة رابعة حملت عنوان "نور الفجر" وفي تأكيده لمعنى الضياء الطي تضمنته المفردتين إصرار على مقاومة جحافل الظلام الذي يمثله المستعمر واستبشار بالصبح الذي أشرق بتضحيات جسام صبح طال انتظاره من "الجميع بلهفة وشوق تربة معطاء".

لا يخفى الخيط الدقيق الذي يربط بين المشاهد الأربعة فالخلود الذي وهبته الشهادة للابن أشعر الجد بالكبرياء وعلو المكانة مما جعله يرضى بعيشته ويقنع بها زاهدا في مزايا هي من حقوقه كونه أبا لشهيد رافضا كل توصية، متشبثا بالماضي ومآثره، مستذكرا تلك الأيام الجميلة التي كانت الأرض فيها رهن إشارته تفتح له خزائنها كلما طرقها فأسه، ولأن الشموخ ابتعاد جاءت اللوحة الأخيرة لتصور فجيعة في رقيقة دربه التي غيبها الموت وأبعدها.

إن الكاتب قد اختار عنوان قصته بعناية فائقة، جعلت منه مدخلا أوليا للولوج إلى النص وسبر أغواره لا من خلال أفق التوقع الذي يفتحه فحسب، وإنما جعله يرافق المتلقي والقارئ كنص موازي يتقاطع مع المتن الحكائي ليفكك بعض شفراته التي قد تستعصي عليه أثناء تدرجه مع عتباته عمقا، وهو ما منح العنوان قوة من خلال لغته المشكلة له، التي تعبر بصدق وبعمق وبوضوح عن

رؤية الكاتب لصراع الحياة وتقلب صروف الدهر وطغيان المادة، كل ذلك يجسده شموخ الجند بما حمل من دلالات حافة، ولأن «الأرواح الطاهرة تنير لهم الدرب» لذلك ما كان لـ «المسؤول الباب في وجوههم» لأن «خدمة الأوطان والإخلاص لها سلوك فطري لدى النفوس الحرة» التي «تمشي بخطى ثابتة في اتجاه الشمس»، تلك هي رمزية الشموخ في خلود الشهداء والاعتزاز بالنفوس والانتصار للحق دون وصاية لأحد على أحد واعتزاز بالماضي المجيد الذي جسده الثورة ليينغ فجر الاستقلال على الجزائر.

### ب - الغير القصصية

- الأديب "بشير خلف": الجمال.. من رؤية جمالية<sup>1</sup> !! بقلم: الفنان، الشاعر،

الكاتب المرحوم عمر بوشموخة: \*

«تظل فكرة الجمال هاجسا يؤرق الكاتب والمبدع والفنان، على أساس أن الفنان هو الكائن الأكثر قدرة واستيعابا للجمال، بل إنه يتعدى هذا المعنى إلى أنه لا يكفي بتذوق الجمال وفهم أسراره الكامنة في هذا الكون، وفي كل نقطة تقع عليها العين المعنوية الثالثة للفنان. سواء أكان الفنان مبدعا في الشعر، أم في فنون الإبداع الأخرى فإن الجمال يظل حاضرا في فكره، وفي ريشته الأدبية، وفي رناته على أوتار العود، وفي كل خفقة من خفقات قلبه.

---

1 - أ. عمر بوشموخة. الجمال من رؤية جمالية. صحيفة المجاهد الأسبوعي. ص 22 العدد 2496 من 02 إلى

09 اجوان

\* - أ. عمر بوشموخة. الحوار المتمدن-العدد: 2330 - 02 / 07 / 2008

أقول هذا وأنا في غمرة اطلاعي على فلسفة الفن والجمال من خلال صفحات كتابين جديدين صدرا للأديب الجزائري " بشير خلف " ضمن إصدارات "الجزائر عاصمة للثقافة العربية" يتناول الكتاب الأول موضوع الجمال باعتباره رؤى أخرى للحياة، ويتناول الثاني وجود الجمال فينا.. ومن حولنا، وفي كل نقطة تقع عليها أعيننا. ومنذ البداية يحاول الكتابان استدراج القارئ، وكل متذوق للجمال إلى الانخراط في منظومة الكاتب الفكرية والفلسفية للانفتاح على عبقرية الجمال بكل أبعاده، وبكل اللغات الناطقة به. وهل الفن والجمال إلا لغة تسمو على كل اللغات، بل لأنه (الجمال) مصدر كل الوحي والإلهام والعبقرية!!..

لا شك أن امتلاء نفس الكاتب والأديب " بشير خلف " بمعاني الجمال والفن هو الذي أفضى به إلى تبليغ القارئ رؤيته الجمالية للفن والجمال، فجاءت آراء الكاتب لتفصح عما تحبته روحه الشفافة المرهفة من وجد وصبابة إزاء كل ما هو جميل وعبقري.. ومعبرا بأصدق التعابير من أن الجمال هو كل شيء في هذه الحياة، فهو مبعوث في النص القرآني، ويرمز لبلاغة الإعجاز فيه، ومبعوث في المتن الشعري العربي، وفي صفحات المبدعين من الأدباء، وفي جمالية الكلمة.. مشيرا إلى أن الجمال والقبح لا يجتمعان " إثنان لا يجتمعان: القبح والجمال، فإذا ظهر الجمال اختفى القبح، وإذا ظهر القبح اختفى الجمال فهما نقيضان، والنقيضان لا يجتمعان، ولا يلتقيان، والإنسان من بين المخلوقات جميعا هو الذي لديه المقدرة على معرفة الجميل من القبيح، والتميز بينهما."

غير أن الكاتب " بشير خلف " ومنذ البداية يريد أن يأخذ بلباب القارئ إلى فكرته التي مفادها أن مواطن الجمال لا يمكن حصرها عند زاوية بعينها أو

عند نقطة يمكن تحديدها، بل إن المساحة التي يتواجد بها الجمال لا حدود جغرافية لها، وإن الفنان والمبدع بوجه خاص هو الأقدر على تجاوز النظرة الضيقة أو المغلقة التي تغلف بعض المفاهيم إزاء الفن والجمال، ولعلّ هذا ما حدا بالفنان والفيلسوف العبقري "جبران خليل جبران" أن يُعْمن النظر في وضع فهم متبلور للجمال من دون الوصول إلى غرضه سوى القول: «من يُعْطيني عينا ترى الجمال، ويأخذ خزائني؟» وفي ذلك اعترافٌ بصعوبة تحديد مفهوم واحد لموضوع الجمال.. ولكن " بشير خلف" يحاول تقريب الصورة إلى القارئ من خلال بعض تلميحاته وإشاراتِهِ إلى المواطن المتنوعة التي ينبثق منها إشعاع الجمال، ويتخذ منها مصدرا له، ومن ذلك يشير الكاتب إلى أن البيئة باعتبارها فضاء الحياة الرَّحْب يمكن أن تكون مصدرا هاما لإحساس الإنسان بالجمال، ومن ثمّ فإنّ المحافظة على البيئة واجبٌ ومسؤولية مشتركة. بما يفهم من ذلك أن المؤلف من خلال كتابيه لا يذهب مذهب فلاسفة الفن والجمال الذين لا يعنيه من الجمال المنسكب على أديم الأرض، أو المنتشر في الفضاء أكثر من التغيّ بدلالاته، والتعبير عن إيجاءاته والتوحد في معانيه، ولكنه يسعى إلى أن ينزل بالقيم السامية التي يرمز إليها الجمال من السماء إلى الأرض لتكون مصابيح هادية إلى نور الحقّ والمثل العليا.. وهو الأمر الذي يستدعي من الكاتب الاستعانة بما أُوتي من براهين يقينية لإقناع الناس بأهمية وقيمة هذا الجمال المنبتق من أعماقنا ومن حولنا.

## 1- بشير خلف عطاء فكري متواصل\* . بقلم الأديبة فضيلة معيرش

«شغفه بالأدب ضارب في القدم.. أحلامه سامقة.. نضاله متواصل.. إصراره على خلق التميز فتح في وجهه عوالم التفرد؛ فهو عصامي التكوين، لم ينتسب إلى أي معهد... إرادته وطموحه جعلاه منه تلميذا في بداية مشواره يتفوق على أقرانه.. انتهى إلى سلك التربية والتعليم كمعلم سنة 1964م ثم مكون بعدها... كاتب شقّ مجاري الدمع العصي بثقة ومثابرة. نبهه الإبداعي يخرج من بين صخور عمره المثخن بالحرارة، والقسوة وخاصة أثناء مشاركته في الثورة التحريرية وسنه لم يتجاوز التاسعة عشر.. الثورة التي سجن لأجلها.

كان متقدما ومجبا للعلم والتحصيل، تلقى القسط الوافر منه على يدي علماء أجلاء في سجن " لامبيس " بباتنة كسجين سياسي... قبض على المعاني، وقد خبر مضامينها ودلالاتها، وسبر الناس والأماكن والأزمنة، وإن كان الأدب الموجه للعقل يحمل رسالة ويحقق كذلك التوازن بين الفرد والبيئة. الكاتب بشير خلف نشأ ببيئة صحراوية بولاية الوادي وبالتحديد بقمار، ويظل مفتخرا بالصحراء وهو القائل فيها:

«الصحراء ذلك السحر الأسطوري الكامن في المخيال الجمعي للإنسانية عامة، وفي الذاكرة العربية بشكل خاص، حيث تبرز الصحراء في الوعي، والمُخيلة مَجْمَعًا للنقائض، منسجمة مع طبيعتها المتقلّبة، فهي لا تسكن حينًا حتى تثور،

---

\* - الأستاذة: فضيلة معيرش . أصوات الشمال. 11 / 10 / 2014

ولا ترضى لحظة حتى تغضب، تفرح فيتحوّل الكون إلى مسرح شعري رائع،  
وتغضب، فيكون في غضبها الهلاك والشقاء.»

... وإن كان بدأ في ملازمة الإبداع السردي منذ سنة 1972م. يقول عن  
السرد وارتباطه بالصحراء: «إن للصحراء سردّها، وسرد العرب في جذوره سردّ  
صحراوي إجمالاً، إذا كان يخيّل إلينا أن الشعر هو فنّ الصحراء الأثير، أو  
الوحيد فإن ذلك الوهم سببه ثبات الشعر أكثر من النثر، والمرويات السردية؛  
أن الشفاهية هي مفتاح الصحراء وعنوانها، وهي مفتاح السرد الصحراوي حتى  
بصيغة المعاصرة المتأثرة بالكتابة والكتابية.. إنها الكتابة بلغة الرمل.»

بشير خلف كاتب غزير في كفه وعطائه... تغريك غزارته تجوب مدنه  
الإبداعية دون أن تستطيع الإلمام بها. تعنيك قوة حجته، تماهيه المتقن في التنقل  
السليم بين الماضي، ومجاراته للحاضر، وتأمله في المستقبل.. حتى عتباته . عناوين  
مقالاته تبدو غاية في الانتقاء. نستشفّ ذلك من خلال ارتباط عناوينه  
بالنصوص باعتبار العنوان أيضاً مرتبط بعدة وظائف احتوائية وتناصية والمرجعية  
والتأثيرية والجمالية وغيرها...

الكتابة عند بشير خلف هي رسالة مستمرة، ولا تتوقف عند مرحلة  
عمرية، فهي تضمن التواصل مع الغير وكذا التعايش مع الإنسان. لغته بسيطة  
معبرة عن غايته الأدبية.. بعيداً عن لغة التداخل والغموض والإيغال في المتاهات.  
ففي قصصه نجد الرسم الواضح للهدف والمطاردة الجادة للفكرة والمعنى  
ومضامين تلك القصص فإنها تتوزع بين الذات والموضوع؛ حيث يعالج من خلال  
محزونه الروحي الفكري والخيالي... وغالبا ما يعني بقضايا المجتمع والناس التي

كرس لها وقته وجهده. وطارد فيها آليات أبعاد الحكمة والقيم، وعكس مظاهر الحياة وسلوك الناس.

**3 - قراءة في كتاب " مؤانسات ثقافية \*"** بقلم: المرحوم الناقد شرّاده الجيلاني: «يستوقفنا الكاتب والمبدع بشير خلف عند وقفات فكرية ثقافية متميزة عن إبداعاته السابقة، وذلك من خلال كتابه الأخير الذي اختار له عنوان: " مؤانسات ثقافية "، وعبر هذا المصنّف الفكري الجديد يبهر بنا الكاتب نحو الهوية وعلاقتها بالتاريخ واللغة، والموروث الشعبي معرجا عن العلاقة بين الأسرة، والمدرسة في عملية التنشئة الاجتماعية، كما يطرح الكاتب سؤال الإبداع الأدبي ويلتقي مع أعلام، وشخصيات ثقافية جزائرية (محلية) مبرزا رؤيته لحيطة العام من خلال حواراته - ككاتب . مع الصحافة المكتوبة. ذلكم هو ملخص ما قدم به الكاتب مصنفه الجديد.

بشير خلف الذي عهدناه أدبيا وقاصا مبدعا؛ بل وممن تطوّر على أيديهم الفن القصصي الجزائري في مراحل الأولى، فهو من الجيل المثابر لفترة السبعينات من القرن الماضي. قدم بشير خلف للمكتبة السردية في الجزائر خمس مجموعات قصصية (سبع مجموعات: زائد مجموعتان في أواخر 2017)، كان لها تأثيرها على الساحة الإبداعية، و بها عُرف كاتبنا.

إلا أن القارئ والمتابع لإبداعه عموما يلاحظ أن الكاتب - ومنذ مطلع القرن الحالي- قد توجّه نحو الدراسات الفكرية، والبحوث الثقافية ذات الطابع

---

\* - أ. شرّاده الجيلاني. أصوات الشمال. 07 / 01 / 2014

العلمي التأملي والثقافي؛ منها خمس دراسات تتمحور حول العلم والأدب والفنون والجمال، وثلاث وقفات تأملية حاور فيها الكاتب الفكر والثقافة، وهي الكتب الأخيرة التي تحمل العناوين التالية: "وقفات فكرية"، "مرايا"، و"مؤانسات ثقافية" \* كتاب "مؤانسات ثقافية" للمبدع والمفكر بشير خلف هو أكثر من مؤانسات، فحتى وإن عكست التسمية الحسن الأدبي للكاتب، فهي في حقيقتها نقرات فكرية، وثقافية موقظة لمخيل المثقف، فارزة لتشابك خيوط الفكر المحلي والعربي، ومصححة لمواقف فكرية وقضايا ثقافية مختلفة. أفكار ومفاهيم خاض فيها الكاتب بكل جرأة وجدية، نافضا الغبار على العديد من التصورات والرؤى في الغرب الأوروبي أو في الشرق العربي، ليحط الرحال دائما عند الفرد والمجتمع الجزائري، محملا لثقافته وهويته ببعديهما العربي المتوسطي والإفريقي. مركزا على السلوك التربوي، والشعور الإنساني الراقى في تجلياته الحضارية أملا وطموحا لمعانقة كل ما هو سام بناء، وراق، تنموي، يأخذ بنا نحو الأفضل من حلم الأجيال نحو التسلق السليم لسلم الحضارة.

#### 4 - بشير خلف .. شيخ الأدباء<sup>1</sup> بقلم: الأديبة القاصة نسيمة بن عبد الله.

كانت البداية (ملتقى القصة في تلمسان) مع شيخ الأدباء الجزائريين الأديب الكبير والإنسان الطيب والمجاهد الفذ القادم من مدينة القباب (الوادي)، الكاتب بشير خلف الذي تحدث بتواضع الكبار عن تجربته الغنية، انطلاقا من

---

\* - أصوات الشمال. 2014 / 01 / 07

1 القاصة الأستاذة نسيمة بن عبد الله.. يومية المساء. 16 أوت 2017

الغرفة 8701 بسجن لامبيز الذي كان يحوي 1900 سجين كان الاستعمار الفرنسي قد زجّ بهم فيه منهم من سبى النور ومنهم من سيقبر هناك، وقد كان للسجن على ما فيه من ألم فرصة له ليتعلم قواعد اللغة العربية والفرنسية بعد أن حفظ القرآن الكريم وعمره لا يتجاوز ستة عشر عاماً.

كانت أول قصة له بعنوان «الأبي» تحكي نضال الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي والتضحية بالنفس والنفيس من أجل الحرية، كتب في مجلة آمال والشعب ثم النصر بعد أن عربت سنة 1972، ورغم أنه جعل حياته للتعليم أستاذاً ثم مفتشاً، إلا أنه لم يفارق القلم فظل يكتب ويكتب فكانت له مجموعات قصصية كثيرة منها «القرص الأحمر» عن المؤسسة الوطنية للكتاب، «الشموع والدفء المفقود» عن الجاحظية، وله المجموعة غير الكاملة عن دار الثقافة بالوادي.

## 5 - بشير خلف... الشاب الأبدى<sup>1</sup> بقلم: الطيب محمد قماري

إن الرجل عاش معلماً، لكن هذا التكوين العصامي ظل يطارده، أن أقرأ وأكتب وأنشر، فتعليم الصغار لا يطفى ظمأك، وروحك العطشى ستشقيك، ولكنه الشقاء الذي يريحها في النهاية، لا تستجب إلا لصوت صرير القلم، ينسج عزف الخلود مع حفيف الأوراق.. سئل الأديب الراحل عباس محمود العقاد، رحمه الله، يوماً عن سر حيويته حتى سنّ الشيخوخة، واحتفاظه بروح الشباب

---

1 - الدكتور محمد قماري. أصوات الشمال: 16 جمادى الثاني 1432 هـ الموافق لـ: 19 / 05 / 2011

الدائم، فأجاب: "لقد كنت شيخا في شبابي، فلا غرو أن أكون شابا في شيخوختي"، ولعل تعلييل العقاد هذا، يصدق في حق صديقي الأستاذ بشير خلف، فكل من يعرفه وهو في يتخطى العقد السابع من عمره، متعه الله بالصحة وأنساً في أجله، إلا وقد أدرك فيه هذه الروح المتوفرة للحركة والإبداع، يواسي على مضماره شيوخه ويسابق شبابه.. عرفت الرجل اسما منذ سنوات، يوم كان مع ثلة من أصدقائه يصدر مجلة محلية من مدينة قمار (وادي سوف)، ثم رصدت هذا الاسم في مواقع ثقافية أخرى، ولكن لم ألتق الرجل على الرغم من أننا أبناء منطقة واحدة.. وفي شهر ديسمبر من سنة 2007، أكرمني الله، عز وجل، بأداء فريضة الحج، ولما كنت في مخيمات منى في أيام التشريق، سمعت أن الحاج بشير خلف موجود بإحدى الخيام، فسعيت إلى زيارته، وسألت عنه من أعرف، فأشار إلى رجل جالس بين الناس، أبيض البشرة تكسوها هالة من سمرة، أبيض الشعر، معتدل القامة يميل إلى النحافة، فناديته وسلمت عليه، فإذا أنا بصدد رجل خفيض الصوت، يكثر النظر إلى الأرض حياءً..

لقد أظهر السرور بمقدمي، وكان يعرف اسمي، ويتابع بعض ما أكتب، وتواعدنا على التواصل إذا ما رجعنا إلى الجزائر، فكان سباقا، لأن روحه الذكية وفكره الشاب، يدفعانه لمد جبال الوصل مع "شلة" القلم وما يسطرون، ومن يومها توثقت معرفتي بالرجل، وإن كنت أقر أنني مقصر في حقه، كما أنا مقصر في حق كثير من أصدقائي، فتوزع اهتماماتي حال دون الوفاء بالواجبات تجاههم، وإن أدرك كثير منهم قلة حيلتي في ذلك..

أنا ما بدأت هذا الكلمات لأحدثكم عن نفسي، لكن رحم الله عثمان بن بحر الجاحظ، فقد سنّ لنا سنة الاستطراد، فمن شاء فليعدرنني، ومن لم يقدر على العذر فلا يظنن بي سوءاً، فأنا أرصف هذه الكلمات، لا خوفاً ولا رجاء، إنما هي دفقة مشاعر فاضت من أعماقي، وأحببت أن أشرككم فيها. كلمات في حق رجل أحببت فيه سمته ونضاله في سبيل الكلمة، وأكبرت فيه صدقه ومعاشرته الحلوة، فتراه يجري مع أترب أحفاده، ليوصل الكلمة النقية الشريفة، ويفتح لها أسباب الذبوع والانتشار.. لقد كان شيخاً في شبابه.. فلا غرو أن يكون شاباً في شيخوخته.. وهل من يجلس إلى حلقات طلب العلم في المساجد في بداية عمره، ويحفظ القرآن الكريم مع نهاية العقد الأول من حياته إلا شيخ قد رجح عقله، واكتملت حكمته، فيترجم ما حفظ من آيات تدعوه إلى (العزة) إلى حركة في دنيا الناس، وهي تضح بأغلال الاستعمار، يسمع صلصلتها تحز في معاصم بني قومه، ويكون أسير هذه القبضة وعمره لم يجاوز العشرين ربيعاً.. إنه الشيخ الشاب، فلا غرو أن يكون الشاب الشيخ بعد ذلك، وحكمت عليه السلطات الفرنسية بـ 15 سنة، ليدخل مدرسة نبي الله يوسف، عليه السلام، بعد أن راودته حسناء الاستعمار عن نفسه، فاستعصم وقال: "رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه"، وفي هذه المدرسة تفتحت أفاقه، ليأخذ بحظ وافر من التعليم والتكوين على يدي أساتذة من رفقاء سجن (لامبيس)، وكفاك باسمه باعنا على الوجل والرعب، لكن الأمر إذا ضاق اتسع، ففي صحبة تلاميذ ابن باديس خير مؤنس. إن الرجل عاش معلماً، لكن هذا التكوين العصامي ظل يطارده، أن أقرأ وأكتب وأنشر، فتعليم الصغار لا يطفئ ظمأك، وروحك العطشى ستشقيك، ولكنه الشقاء الذي

يرمجها في النهاية، لا تستجب إلا لصوت صرير القلم، ينسج عزف الخلود مع  
حفيف الأوراق..

سوف لن ينحن ظهرك ما دمت تكتب..

سيمدك ريح الحبر، بروح من الله.. اكتب..

سيلمع بريق النور من عينيك.. اكتب..

اقرأ باسم ربك.. واكتب بروح من خالقك..

سيعجب الناس من شبابك الدائم، فدهم عن الطريق، والشفرة بين

أناملك، لكن العيون الرمدا لا تراها..

6 - الكاتب بشير خلف يكشف أسرار الطفولة<sup>1</sup> .. // بقلم: الكاتبة الإعلامية

الروائية زهرة ديك.

شغف بعالم الطفولة وسكنه سؤال البراءة فخاض غمارها كرجل تربية،

خبر هذه الشريحة طيلة 37 سنة، خرج منها مشبعا بمزيد من الأسئلة، يعج

بانشغالات ترتبط على الخصوص بإشكالية الكتابة للطفل وكيفية مخاطبته تربويا

وأديبا وعلميا وفنيا، فاختر الكاتب بشير خلف أن يهديها كتابا صدر مؤخرا

ضمن منشورات الجزائر عاصمة الثقافة العربية يتسم بعمق الطرح ودقة الرؤية

وذكاء المعالجة لمجمل مكونات عالم الطفولة، الذي طالما عركه كمرّب وعائشه

كمفكر للأجيال، وتفاعل معه في أعمال قصصية هادفة، أثرى بها المكتبة

الجزائرية والعربية ليأتي كتابه حول الكتابة للطفل بين العلم والفن شاهدا آخر

---

1 - الكاتبة الروائية زهرة ديك. أصوات الشمال - 28 رجب 1429 هـ الموافق لـ: 31/07/2008

على مدى إبحاره ومعرفته بما يزخر به عالم الطفولة من أدوات خاصة، وما يحتويه قاموسهم من مفردات، لازال الكثير يجهل عنها الكثير وإن حسب عكس ذلك. انتهج خلف في هذه الدراسة العلمية التي نزلت في طبعة أنيقة تقديراً لأهمية المحتوى طريقة علمية حديثة اعتمد فيها أولاً على خبرته الطويلة في المجال، وعلى ما استشفه من احتكاكه المباشر ومعايشته للأطفال.. لم يكن ليقنع بمهمته التربوية التعليمية، فراح يقيس انفعالاتهم ويزن حضورهم وقدراتهم، ويحس حاجاتهم، مستخدماً في ذلك مداركه كمرّبٍ ورهافته كمبدع.. وما أكثر الأشياء التي بهرته حد الدهشة في هذا الكيان الصغير بعمره الكبير بعالمه وخصائصه ومواقفه واتجاهاته.. فكيف لا يكتب خلف عن أبداعهم في قدراتهم الخاصة ونتائجهم الفنية والمادية وأذواقهم وأشياءهم الحبية.. كيف لا يخصص ما يقارب **300** صفحة في كتابه هذا ليحدثنا بأسلوب ممتع سلس ولغة ناصعة جميلة جمال البراءة والفطرة عن تلك التعاملات الخاصة في سلوكيات الصغار، وتلك الخصائص الثقافية التي ينفردون بها مثلما للكبار وللمراهقين ثقافة خاصة وطرق خاصة في السلوك والملبس والتواصل والقيم والمعايير والآمال وغير ذلك من تفاصيل عيشنا.

من أجل ذلك وأكثر من ذلك يدعونا الأديب خلف في بداية فصول الكتاب الستة، لأن نعرف الطفولة هذا العالم الرحب الممتع، وقبل ذلك علينا بمعرفة مصادر الثقافة الطفولية ووسائلها ووسائطها، وأن نطلع على مراحل النمو المختلفة التي يمر بها ويساعدنا على حصر نوع الثقيف ودرجته لان أي جهل لهذا التحديد في نظر الكاتب يعد انحرافاً عن مسلك البحث العلمي الذي يقودنا

للفهم الصحيح للدورة الحياتية للطفل.. وهنا تدوي صرخة عالية آتية من هناك، من حنجرة لازالت تحتفظ بمصداقيتها رغم غياب صاحبها الفيلسوف الفرنسي روسو الذي يؤكد أن ثمة مناحي كثيرة في الفكر الإنساني وفي الحياة البشرية لا تزال مجهولة في عالم الطفولة.. هذه الطفولة التي يدخل في نطاقها كل كائن بشري لم يتعد السادسة عشرة من عمره، أي لم يصل إلى سن البلوغ..

وهذه هي مرحلة اللعب والغناء والحركة والضحك ومشاهدة برامج الأطفال التلفزيونية وغير ذلك.. ويُرجع الكاتب سبب تقسيمه مرحلة الطفولة إلى أطوار متعاقبة كما جاء في الفصل الثاني من الكتاب إلى عدم تجانسهم فهم يختلفون باختلاف أطوار نموهم على أن بناء الإنسان الثقافي يبدأ منذ الطفولة. وما يثير الانتباه في الكتاب المذكور أنه يكشف لنا أشياء كنا نعرفها ولا نعرفها، نسمعها ولا ندركها.. يقول: إن للأطفال لغتهم ولهم مفرداتهم الخاصة بعالمهم ولهم حصيلة لغوية لا يعرفها غيرهم، ولهم قيم ومعايير وقوانين خاصة يستخدمونها عند اللعب واللهو وجميع أشكال التواصل والتجمع، وباختصار لهم أسلوب حياة خاص بهم. من يطالع كتاب خلف لا بد أن يشده ذاك الوجد الذي تنضح به كلماته وهو يحكي عن راهن ثقافة الطفل في الجزائر، والذي لا يختلف عن واقع الطفل في العالم العربي، مشيراً أن الطفولة في بلادنا محرومة من الوهج الثقافي، رغم التقدم التكنولوجي والثورة الرقمية، فهو لا يجد مجالات تثقيفية بين يديه ما عدا بعض الكتب والمجلات الأجنبية.. مكتبة الطفل في العالم العربي هزيلة، ولا تجد الدعم الكافي لان تصبح في مستوى احتياجات طفل الألفية الثالثة.

على أن الكتابة للأطفال في نظر الأديب خلف ليست أي كتابة، إنها عملية دقيقة وحساسة وعلى جانب كبير من الخطورة، وذلك باعتراف كبار الكتاب وهذه عادة السمان تقرر بعدم موهبتها في الكتابة للأطفال.. أن تكتب للطفل عليك أن تمتلك دهشته وتحس إحساسه وتنظر بعينيه وتتقن لغته.. وما أقل مثل هؤلاء الكتاب عندنا يقول خلف، ومن يعي حقا معنى الكتابة للطفل يهابها لخصوصيتها الصعبة وشروطها العديدة ويخطئ، بل ويجرم كل من يتناول ويتطفل على فن الكتابة للأطفال، ويمس هذا المجال الذي يتطلب نوعا من القدسية والقداسة الإبداعية.. ومع ذلك ثمة من أبدعوا في هذا المجال واستشهد بهم الكاتب منهم الكاتبة البرازيلية آنا ماجادوا التي ترى أن الكتابة للطفل تستند إلى زخم معرفي واسع، كونه عشق القراءة منذ الطفولة المبكرة موضحة أن كل من يكتب فإنه كان في الطفولة يعشق القراءة. وفي الأخير لا يغادرنا بشير خلف دون أن ينبهنا إلى أهمية وخطورة مراحل الطفولة وأثرها في بناء مستقبل أي جماعة بشرية.. والطفولة هي المراحل العمرية الحاسمة في تكوين الشخصية الراشدة من عقيدة وأخلاق وسلوك وهوية ثقافية وميولات وتنمية للمهارات ولنا أن نستنتج خطورة الإهمال والتفريط في هذه الأساسيات الإنسانية.

## 20. الرحلات.. مُتعة الفرجة وغواية الاكتشاف

### الرحلاتُ تواصلُ .. تثاقُفُ

لعبت، وتلعب الرحلات دوراً بارزاً في ثقافة التواصل بين الشعوب وبعضها البعض، وإذا كانت اللغة تمثل أبرز قنوات التواصل مع الآخر، فإن الرحلات تلعب ذلك الدور الكبير أيضاً في التعرف على الآخر ومشاركته أفكاره وأطروحاته، كما تفرض الثقافة المنتجة للتواصل، والتواصل المنتج للثقافة الإنسانية المتنورة تحديات كبرى تجعل من دراسة ثقافة التواصل أمراً ضرورياً يُسهم في تمكين الأفراد والجماعات والشعوب من اكتسابها، لأن اكتسابها هو الضامن الوحيد للوصول إلى الحالة المأمولة من التفاعل والتجانس والتعارف في ظل تعدد الثقافات..

.. مَبَعَثُ الدَّهْشَةِ وَالْفَرْجَةِ؛ كلُّ مُمارِسةٍ حَيَاتِيَّةٍ لَا رَيْبَ تَتَوَلَدُ عَنْهَا خَبْرَةٌ، أَوْ خَبْرَاتٌ مَهْمَا صَغُرَتْ، هِيَ رَوَافِدٌ لِتَغْذِيَةِ الْكِتَابَةِ عِنْدَ الْكَاتِبِ، أَوْ الْمَفْكَرِ، أَوْ الْمُبْدِعِ.. الْأَسْفَارُ وَالرَّحَلَاتُ مِنْ أَمَمٍ تَلْكَمُ الرِّوَاغِدَ . تَشَقُّ تَرْبَةَ الدَّهْنِ، وَتَقْلِبُهَا.. الرَّحَلَاتُ وَالْأَسْفَارُ تَنْزَعُ الْكَاتِبَ، الْمُبْدِعَ الْمُقِيمَ مِنْ رَتَابَتِهِ، وَمَنْطِيَّةَ حَيَاتِهِ، وَاتِّكَائِهِ عَلَى ثَوَابَتِهِ، وَرَبَّمَا عَمَائِهِ عَنْ جَمَالِيَّاتٍ أَمَكْنَةَ أُخْرَى، وَثَرَاءَ مَوَاقِعَ غَيْرِ مَوْقِعِهِ.. الرَّحَلَاتُ، وَالْأَسْفَارُ مَبَعَثُ التَّأَمُّلِ وَالدَّهْشَةِ، وَالرَّغْبَةِ فِي مُتَعَةِ الْاِكْتِشَافِ؛ مِمَّا يُوَدِّي بِالضَّرُورَةِ إِلَى تَوْسُّعِ الْأَفْقِ الْمَعْرِفِيِّ، وَتَعَدُّدِ الرُّؤْيَى، وَاتِّسَاعِ حَدِيقَةِ الْوَعْيِ،

ومرونة الفهم.. وكلها ملزمات لا يمكن للكاتب الجاد، الواعي برسالته أن يكون في غنى عنها.

فما بالك بأن لقاء الآخرين مكانيا، حضاريا، حياتيا، مجتمعيها هي بمنزلة معرضٍ واسعٍ لمئات الأفكار التي لا تفتأ تتوالدُ عبر رحلة السّفر.

الترويح عن النفس، والتخفّف من الأعباء التي تفرضها الحياة على الإنسان من أهم مستلزمات الحياة. ليس الترفيه هو الهدف الوحيد من وراء الرحلات، فالرحلات إجمالاً أنواع عديدة، ولها العديد من الغايات، هي نشاط واسع جداً، وضروري في الآن ذاته لكل شخص، وقد اشتهرت العديد من الشخصيات العربية، والإسلامية، والعالمية عبر عهود التاريخ بهذا النشاط، حتى صار يُطلق عليها لقب الرحالة من كثرة تجوالها في أصقاع الأرض المختلفة.

.. **الثيمة الغائبة**: ثقافة السياحة والترفيه كانت الثيمة الغائبة لدى المجتمع الجزائري بعد الاستقلال، بالرغم من أنّ الجزائريين معروفون منذ القديم بالأسفار إلى الكثير من بقاع العالم، وما فتّ من عزمهم في ذاك غير القوانين الفرنسية أيام الاستعمار لما أغلق الحدود من جميع الاتجاهات.

بعد الاستقلال عاد الجزائريون إلى السفر ليس سفر سياحة وترفيه؛ إنما سفر تجاريّ كما جرى لسنوات طويلة مع الجارتين تونس والمغرب، أو مع فرنسا في إطار تنقل العمال الجزائريين، أو مع البقاع المقدّسة في إطار أداء فريضة الحجّ؛ كلّ تلك الرحلات كانت تنتهي بجلب بضائع للعائلة، وبعضها الآخر للبيع.

في تلك المرحلة التي احتكرت فيها الدولة الجزائرية كل منافذ التجارة والتموين، ووضعت لها مؤسسات على غرار الأروقة، سوق الفلاح، والتعاونيات

الاستهلاكية في كل قطاع، كانت العديد من المواد الاستهلاكية محدودة وغير كافية، والمواطن الجزائري لما يتحصّل على بضاعة تُحتمّ له بضاعة أخرى كاسدة؛ حينها انتعشت حركة إدخال؛ بل تهريب السلع الاستهلاكية من موادّ غذائية، وألبسة، وأجهزة إلكترونية من ليبيا، تونس، المغرب. كان المواطن الجزائري يدخل إلى هذه الدول، ويكتفي بالقرى، أو المدن الحدودية من أجل جلب ما يحتاجه كالزيت، والمقرونة، والكروية، والمشروبات الغازية، والفواكه، وغير السيارات.

**سنوات الغبن والضحك علينا من أشقائنا الشرقيين؛ أتذكر جيدا أنّ الأشقاء التونسيين كانوا ينظرون إلينا بعين الشفقة، بل كانوا يضحكون، ويتهكّمون. قليل في تلك السنوات العجاف من توجّهوا إلى تونس من أجل السياحة، أو الاكتشاف، وبصدّق كنتُ مثل غيري رأيتُ تونس بلدًا فيه كلّ الخيرات.**

ما سبق لي السفر خارج بلدي حتى سنة **1980م**، داخل الجزائر تعرّفْتُ على مناطق وأنا عسكري، أو أنا معلّم: عنابة، قسنطينة، سكيكدة، قالمة، سطيف، العلمة، الجزائر العاصمة التي كنتُ أزورها كل سنة رفقة زوجتي وكنا نقيم عند خالتها في شقة في عمارة فوق مقهى " الطوطنفيل"، أو لدى عمها خلال صيفين في أعالي بوزريعة، أو في عنابة التي صيّفنا فيها عدّة سنوات رفقة أسرتي حتى بعد مغادرتي لها كمعلم سنة **1967م**، كما أشرتُ سابقًا، وما عدا هذه المناطق كنتُ أجهل بلدي، بعد تقاعدي تمكّنتُ من زيارة أغلب ولايات الوطن، إنّ في كنف الأسابيع الثقافية ما بين الولايات التي نظمتها وزارة الثقافة بداية من **2007م**، تسيّحتُ ثقافيا في عشر ولايات، وزرت ولايات أخرى على حسابي الخاص، لم أتمكّن من زيارة ولايات ثلاث: إليزي، تمنراست، تندوف.

اكتشفتُ الجزائر: تاريخًا، هُويّة، أمجادًا، عظمتًا، إنسانًا، بطولَةً، ثقافة، موارد، مكتسبات، ماضيًا، حاضرًا، مستقبلًا مشرقًا. الفيلسوف اللبناني الدكتور علي حربُ الذي زار الجزائر خمس مرّات، انبهر بها، وأجدني على لسانه، أعتزُّ ببلدي، وأفتخر بانتمائي إليه:

«... رحلتي إلى الجزائر\* . هذه رحلتي الخامسة إلى الجزائر. في المرّات السابقة اقتصرت الزيارة على غربها. فتعرّفتُ إلى العاصمة، وتجوّلتُ في وهران، ثم ذهبتُ إلى مستغانم، وإلى تلمسان في أقصى الغرب، كما كانت لي زيارة لمدينة سعيدة على تخوم الصحراء. بالطبع كانت الغاية من الزيارة ثقافية.

\* \* \*

في هذه الزيارة التي استغرقت أكثر من ثلاثة أسابيع، أتيح لي أن أتعرف إلى غير حاضرة من حواضر الجزائر، هذا البلد الذي يعدُّ بمثابة قارة من حيث اتساعه الهائل، ومن حيث تنوعه وغناه الطبيعي والجغرافي أو البشري والاجتماعي. وإذا كانت الجزائر هي عاصمة البلد، فإن كل مدينة تشكّل عاصمة في ولايتها ومنطقتها، شرقًا وغربًا، أو شمالًا وجنوبًا.

كل مدينة لها طابعها ونكهتها، ولها مزاياها وشخصيتها. وكل مدينة لها عراققتها وعمقها التاريخي. كل مدينة تنفرد بمناظرها الطبيعية الآسرة ومعالمها الاثرية الرائعة. فغالما (قالمة) مشهورة بمدرجها الروماني الذي لا يزال يحتفظ بهيئته

---

\* - د. علي حرب. جريدة النهار اللبنانية 31 تشرين الأول 2015

الأولى، لكنها مشهورة أيضا وخصوصاً بنوافيرها الطبيعية، حيث المياه تغلي وتنفور من باطن الأرض، لتغذي الحمّات المنشأة قربها.

أما سطيف فقد جذبتني فيها سهولها ومروجها وغاباتها، الأمر الذي جعلني أتخسر على لبنان الاخضر، الذي يعمل أهل الجشع والتكالب والفساد على تصحيّره بجزّ مساحاته الخضراء.

أما بجاية التي تقع على شاطئ البحر، والتي بُنيت على كتف جبل شاهق، فتشكل موقعاً سياحياً قلّ نظيره إذا أحسن استغلاله.

فيما يخص بسكرة المشهورة بتمورها، هي مدينة لها عمقها التراثي كما تشهد زاوية آل عثمان بمدريستها ومسجدها ومكتبتها الجامعة للمصنّفات من كل علم وفن. وهي إلى ذلك كانت محل جذب للأدباء والكتاب إبان الاستعمار الفرنسي.

هذا شأن المدن الجزائرية الأخرى، لكل واحدة أعلامها ورموزها الذين ولدوا فيها أو مرّوا بها، أو احتتموا بين أهلها، قديماً وحديثاً، من القديس أغسطينوس إلى الفيلسوف جاك دريدا، ومن الفيلسوف ابن باجة إلى العلامة ابن خلدون، ومن الروائي سرفنتس إلى ألبر كامو. ومن الأمير عبد القادر إلى ابن باديس.

بالطبع، لا مدينة تشبه الأخرى، تماماً كما لا فرد يشبه سواه، ولو تشابهت الأسماء. هذا دليل ساطع، لا يُلْتَقَت إليه أحياناً، على غنى الهوية. صحيح أن الاسم (الجزائر)، هو واحد كما في كل بلد. ولكن بالواحد تجتمع الأشياء وبه تتفرق كما قال ابن عربي. تلك هي لعبة الفرق والجمع، أو معادلة

التعدد والوحدة: مَنْ يتقنها يحسن إدارة علاقته مع الآخر، فرداً أو مجموعة، على سبيل الصداقة والمؤانسة، أو الشراكة والمبادلة. ومَنْ لا يتقنها يخلق مشكلة لنفسه ويجزّب علاقته مع شركائه أو نظرائه.

**قسنطينة مدينة؛** لكن لقسنطينة شأن آخر. فهذه المدينة تنفرد عن سواها، وخصوصاً من حيث موقعها وتضاريسها، إذ هي بُنيت منذ القدم على كتلتين صخريتين شاهقتين، تفصل بينهما أودية سحيقة.

من هنا اشتهرت بجسورها المعلقة، القديمة والحديثة، الحجرية والاسمنتية، الثابتة أو المتحركة، وكان آخر هذه الجسور قد أُعلي بناؤه، في العام الفائت (دُشّن 2014)، ليكون الأطول والأعلى بينها. لذا باتت من أبرز المعالم الأثرية والعمرائية في المدينة.

في الحديث مع الجزائريين كنت أتساءل عن السبب الذي جعل قسنطينة تبنى منذ القدم في هذا الموقع وعلى هذا العلوّ الشاهق والخطر. بالطبع يحضر العامل الأمني. فهو الذي دفع أباطرة الصين إلى بناء سورها العظيم. لعلّ السبب نفسه هو الذي وقف وراء بناء قسنطينة على شاكلة البروج المشيدة. ولكن مع اختراع الطائرات والصواريخ، ما عاد ينفع سور أو برج. الأنفع اليوم هو اتقان لغة المداولة.

\* \* \*

كلما أتيت الى الجزائر أكتشف، أكثر فأكثر، أنها تملك ثروات هائلة، هناك الساحل الممتد من الغرب إلى الشرق بشطآنه الجميلة، كما أتيج لي مشاهدتها، من قبل، في مستغانم ووهران، وكما رأيتها بأمّ العين في بجاية، وفي

مدينة جيجل بشكل خاص. وهناك المنطقة الخضراء بسهولة الفسيحة ومروجها الأخاذة. وهناك المناطق الجبلية العالية بقممها وغاباتها. ولا أنسى الصحراء بنفطها ومناجمها ونخيلها وواحاتها...

لكل منطقة من هذه المناطق جمالها وسحرها وغناها. من هنا أرى أن الجزائر بكنوزها ومواردها تكفي من الحاجات لأضعاف سكانها، إذا ما استثمرت هذه الموارد بتشغيل العقول وإطلاق الطاقات الحية. هذا محتاج إلى اعتماد استراتيجية جديدة في النهوض والإصلاح والإثراء... انتهى كلام علي حرب.

خارج الجزائر، أكرمني الله وله الشاء والحمد بزيارة ثمانية بلدان: بلدان أوروبيان: فرنسا، اليونان. بلدان مسلمان غير عربيين: تركيا، ماليزيا. أربع بلدان عربية: تونس، المغرب، مصر، السعودية.

## 1- تونس الخضراء.. 1980.. 2015

في الموسم الدراسي 79 / 80م، وأنا مفتش للتربية بمدينة تقرت، ما قدرت الوالدة رحمها الله على البقاء معي، وكذا الزوجة، فأعدتهما إلى مدينة قمار في العطلة الشتوية، بقيت وحدي.

في عطلة الربيع لسنة 1980م، شوقني العديد من المعلمين الذين زاروا تونس، وتزودوا منها بالكثير مما هم في حاجة إليه، كان الدخول إلى تونس بجواز السفر فقط مثلما هو الحال اليوم. كنت أملك أول سيارة اشتريتها بيجو 405، استغللتها في وظيفتي التفتيشية التربوية، ومسؤولتي الأسرية.

أول خروج لي من الوطن؛ دون إعلام أسرتي، وأصدقائي توجهتُ على متنها لوحدي في عطلة الربيع، استعنتُ بخريطة "ميشلان" إلى أن وصلتُ تونس العاصمة مروراً بمدن: توزر، قفصة، سيدي بوزيد، القيروان، كان هدي في الدخول إلى تونس العاصمة أولاً نهاراً، فوصولاً إلى حيّ الزهور بالمدينة، أين تقيم قريبة جزائرية لوالدي، كانت تزورنا سنويا، وتقيم عندنا بين يوم أو يومين، كانت توزع أيام إقامتها بين الأقارب، في زيارتها تلك أحت على زيارتي لها.

وصلتُ تونس العاصمة، كنتُ قليل الخبرة في السياقة، وجدتُ نفسي في مدينة كبيرة تعجّ حركة، لا أحد رافقي، لا مساعد لي يحلّ محلي في قيادة السيارة، كنتُ أتقدّم ببطء، وليس في ذهني غير "حيّ الزهور"، أبواق السيارات ورائي تصمّ الآذان، أسمع التعاليق الساخرة: (جزائري حمار)، (واش اداه يجي للعاصمة وهو ما يعرفش يسوق)، (يا خي بهيم)، (.....).

تقدّمتُ ببطء، توقّفت على اليمين كم مرّة، سألت المواطنين، سألت أعوان الحرس؛ إلى أن وجدتُ نفسي في شارع الحبيب بورقيبة الشهير، أسير وراء رتلٍ من السيارات كما هو حال السير في المدن الكبرى، لكن دون وجهة حدّتها أمامي، فجأة في مفترق طرق وسط الشارع قرّرت أن أواصل في الاتجاه المستقيم صوب "باب بحر"، وهو اتجاه معاكس، أسرعت تجاهي شرطة لإيقافي، قبل أن تتكلم، خاطبتهَا:

- مساء الخير أختي أنا جزائري أزور تونس لأول مرّة، أنا "مُغرّم" بأهلها الطيبين، فرحان في هذه الساعة بوجودي بينكم، "حابّ نوصل إلى حيّ الزهور، وما عرفتش الطريق، أنت الوحيدة وجه الخير اللي تدلني".

بدل العقوبة.. كان الودّ والمساعدة؛ ابتسمت، رحّبت بي كثيرا؛ وما اتخذت أيّ إجراء عقابي، أو لوم؛ بل تقدمت أمامي، وطلبت مني اتّباعها حتى نهاية الشارع، إذ وجهتني تجاه القصبة حيث رئاسة الحكومة، ثم مقرّ الحزب الدستوري، ثم الاتجاه نحو اليسار أين حي الزهور، كان العنوان عندي في وريقة. زيارتي تلك كانت قصيرة أقلّ من أسبوع، ما زرتُ فيها معالم مدينة تونس العريقة تاريخًا، وثقافة، وحضارة.

طغت عليّ كما أسلفت نزعة اللهفة على اقتناء ما هو غير موجود عندنا، أو ما دخل بلدنا البتّة، اكتفيتُ بزيارة عدّة أشخاص أصيلي بلدي، الذين استوطنوا بهذا البلد من قبل الثورة، بل إثر الحرب العالمية الثانية حين فرّوا من الجوع والفاقة نتيجة ما خلفته تلك الحرب المشؤومة على الجميع؛ أقام أولئك المواطنون في أحياء شعبية ضواحي المدينة في منازل بسيطة بنوها بأنفسهم، فصلّتها أزقة ضيقة متعرّجة غير معبّدة؛ أغلب أولئك المواطنين ما نالوا مرافق وخدمات ضرورية على غرار الأحياء الأخرى من المدينة، أغلبية منهم اشتغلوا في مصالح التنظيف بالبلدية، وجمع القمامة بالمدينة، وبعضهم الآخر عمالًا أجراء يوميين؛ عاشوا جميعا في ذلك البلد مُكرّمين، مرحّبًا بهم؛ إنّما مُنع عنهم تملك العقارات إلى أواخر القرن العشرين، حيث سُمح لهم بالتملّك بداية القرن الحالي.

.. بلاد ياسرُك؛ تكرّرت زيارتي فيما بعد بسنوات قليلة إلى مدينة تونس رفقة زوجتي وأبنائي الصغار، إقامة لدى تلك العائلة القريبة في حي الزهور، ثم إلى مناطق أخرى حيث ابتعتُ خيمة سياحية كنا نقيم داخلها على شواطئ مدينة سوسة، المهديّة، نابل، الحمامات، تونس.

نتيجة تلك الزيارات، والتنقلات العديدة، آخرها في صيف 2015م، مع ولدي فاروق المحامي، والأستاذ الجامعي، وابنه (حفيدى) بفندق من فنادق مدينة الحمامات الساحلية السياحية لمدة أسبوعين، من هذه المدينة المحورية كانت وجهتنا كل يوم نحو مدينة تونسية يوماً تجاه الشمال: سوسة، نابل، تونس، بنزرت، ويوما تجاه الجنوب: القيروان، صفاقس، قفصة.

نتيجة تلك الزيارات المتكررة لهذا البلد الشقيق، وبلدنا والحمد لله به كل ما افتقدناه حينذاك؛ قد انزاح من رأسي ذلك الاشتغال الماديّ اللّهفيّ على السلع، وجلب المواد الاستهلاكية، اتجهت صوب الاكتشاف المعرفي والتاريخي، والألق الثقافي لهذا البلد العربي المسلم الإفريقي، المتوسطي، هذا البلد الجسر الذي ربط، ويربط بين جزئي الشمال الإفريقي الشرقي والغربي كبلدنا الجزائر.

**الزعيم في كل مكان**..: أتذكر أنّ زيارتي الأولى كانت في عهد المرحوم الحبيب بورقيبة الملقب بـ "الزعيم" الذي كانت الآلة الإعلامية في خدمته، أينما مررت كانت صورته، واللافتات الكبيرة حملت أقواله، كما كانت الإذاعة الوطنية الرئيسة، والقناة التلفزيونية ما انفكتا قبل وبعد نشرة الأخبار تذيعان مقتطفات من أقواله، أطلقت عليها: " من أقوال الزعيم"، " من أقوال الرئيس".

كانت الدولة قوية، وكان الأمن مستتباً مثلما الحراك الاقتصادي، والثقافي، والسياحي، انعكس ذلك على قدوم ملايين السياح من جميع أنحاء العالم، وللأمانة التاريخية كان الاهتمام والترحاب بأولئك السياح الغربيين، والخليجيين بيّناً أكثر من الترحاب بالجزائريين الذين كان عددهم في تلك

السنوات محدودًا، إذ ما تفتشت بعد ثقافة الرحلات، والترفيه كما كان الجزائريون يتجهون إلى المغرب

**الليبيون الترحابُ المضاعفُ:** كان الأشقاء الليبيون في تونس يرحّب بهم أكثر، حيث كان مستواهم المادّي والمعيشي أفضل منّا، ينفقون أكثر ليس لجلب السلع، والموادّ الاستهلاكية، فليبيا كانت سوقًا مفتوحة تدخلها السلع الكمالية، وغير الكمالية من كل مناطق العالم، وبها ملايين العمال من مصر، تونس، الجزائر، الباكستان، بنقلاديش، الفيتنام.

إقبال الأخوة الليبيين حتى سنة **2011م**، على المتعة، والترفيه في أفخم الفنادق، كانوا ينفقون دون حساب؛ عكسنا نحن الجزائريين التي كانت منحتنا السنوية متدنّية، ومهينة لكرامتنا، ولا تزال حيث وصلت أيّامنا هذه **2019 م** إلى **105** يورو فحسب..

**مدينة تونس.. إيقاعُ الأّانس:** تونس العاصمة جمعت، وتجمع بين الماضي العريق والحاضر المتجدد. فيها الأسواق القديمة خلف بوّابة "باب بحر" في نهاية شارع بورقيبة، أعجبتني، وتعجّبتني تلك الأسواق التي تعجّ حركة تجارية بما تعرضه دكاكينها من منتجات وصناعات شعبية تقليدية، وإقبال المتسوّقين من أغلب الجنسيات، وإتقان الباعة للغات الأجنبية، وفنّ التعامل الرّاقى مع الجميع.

**تحفة إسلامية:** ما أعجبتني وشدّ انتباهي تلك العمارة الإسلامية الجميلة في المساجد القديمة كالجامع الكبير، أيقونة الحضارة الإسلامية جامع الزيتونة، حيث يشعّ الجامع المعمور بنوره على المدينة العتيقة، أقدم المساجد على الإطلاق في

تونس العاصمة، الذي يحظى بالكثير من الاهتمام، إحدى منارات العلم والمعرفة ونشر الدين الحنيف في بلدان المغرب العربي، كذلك أول جامع خطبة في تونس منذ القرن الأول للهجرة.

إلا أنه إلى جانب «جامع الزيتونة» هناك مجموعة كبيرة من المساجد التي توسعت بتوسع سكان المدينة، وباختلاف مذاهبهم مما مثل إضافة حقيقية لبيوت الرحمان في العاصمة التونسية. ونجد إلى جانب «جامع الزيتونة» الذي يحتل وسط المدينة العتيقة مجموعة من المساجد التي أحاطت بمختلف أركان المدينة، وهي ذات ثقل معرفي وديني وتخفي وراءها الكثير من المزايا الفنية والمعمارية.

ما أعجبني في جامع الزيتونة كما أسلفتُ عمارته، ومرافقه المختلفة، وتلك الممارسات العبادية في صيغة الآذان، وقدم الإمام بلباس متميز بين مرافقين يبتعدان عنه لما يصل الخراب.

كما تلك العمارة العبقية بمحمول التاريخ العربي الإسلامي تجلّت في العديد من المرافق، والمؤسسات، ومنها " قصر الحكومة" الذي ما غيّر بقصر معاصر على الطراز الأوروبي ممسوخ، خُلُو من هويّة البلد، كما هو الحال عندنا. تمتعتُ بزيارتي لهذا البلد بالمواقع السياحية الجميلة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، كمدينة سيدي بوسعيد، قرطاج الحديثة وقرطاج الأثرية، وحديقة البلفدير، وعديد الشوارع كشوارع الحبيب بورقيبة حيث كان في العقود السابقة أيقونة الجمال، ومصدر الراحة والترفيه، والأنس.

كما كرّرتُ زيارتي إلى مدينة القيروان أين جامعها العتيق "جامع عقبة بن نافع"، وما يحمله من مجدٍ تاريخي وثقافي وحضاري عربي إسلامي.

**عقب التاريخ.. مدينة القيروان:** القَيْرَوَان المدينة التونسية، التي تبعد حوالي **160** كيلومتر عن تونس العاصمة، القيروان المعروفة بعاصمة الأغالبة هي أول المدن الإسلامية المشيدة في بلاد المغرب.

كان لها دور استراتيجي في الفتح الإسلامي، انطلقت منها حملات الفتح نحو الجزائر والمغرب وإسبانيا وأفريقيا بالإضافة إلى أنها مدفنٌ لعدد من صحابة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، ويطلق عليها الفقهاء "رابعة الثلاث، " بعد مكة والمدينة المنورة والقدس، وفي هذه المدينة توجد أهم المعالم للقيروان، منها جامع القيروان الكبير والذي أسسه عقبة ابن نافع، من أعالي متحفها تراءت لي بقية خزانات الماء التي أقامها الأغالبة خارج المدينة، المسماة " فسقية الأغالبة"، مقام الصحابي أبو زمعة البلوي الذي غزا إفريقيّة مع معاوية ابن حديج سنة أربع وثلاثين للهجرة، المتحف الوطني للفن الإسلامي الذي كان قصرًا للرئاسة أهده الرئيس بورقيبة كي يكون كذلك.

**المنستير.. التحفة الفنية:** من المدن التونسية الجميلة جدا التي زرناها، مدينة المنستير الساحلية، مسقط الرئيس الحبيب بورقيبة الذي أسس لنفسه وهو في أوج قوته وعطائه تحفته الفنية المعمارية وسط المدينة حيث ضريحه، ومتحف أشيائه الخاصة كمكتبه، ملابسه المختلفة، وثائقه الهوياتية، كما صوره الشخصية في مناسبات مختلفة، وغيرها من أشيائه الثمينة التاريخية؛ المقرّ يضمّ جثمان الرئيس الراحل، وزوجته الأولى ماتيلد، كما يضمّ جثامين عائلته كوالديه، وإخوته، وأفراد الأسرة الآخرين؛ إذ هذه التحفة اليوم هي مزار الآلاف من السياح.

إضافة إلى قلعتها التاريخية المطلّة على البحر؛ كما أني سعدتُ بزيارتي إلى مدينة صفاقس عروسة الساحل الجنوب الشرقي التونسي، ومنها إلى جزيرة "قرقنة"، جزيرة السباحة البحرية، كما هي جزيرة الأسماك بكل صنوفها. حظيتُ أيضا بزيارة أغلب مدن تونس شمالًا وجنوبًا.

**تونس.. جوهرة المتوسط:** عُرفت تونس بتعاقب العديد من الحضارات التي جلبتها خيرات هذه الأرض، وأهمّية موقعها الاستراتيجي الذي ساعد على انفتاحها الحضاري والتجاري على الشرق والغرب، لتصبح مركز استقطاب سياحي وتجاري عالمي. تونس البهيّة حيث يمتزج جمال الطبيعة بعبق التاريخ، ويرتمي الجبل في حضن البحر، وتكتسي الصحراء رداء الخضرة بواحاتها البديعة، المزركشة بأشجار النخيل. موقعها ذو الطبيعة المتنوعة بين شواطئ، وجبال وصحراء جعلها نقطة جذبٍ رئيسة يقصدها ملايين السيّاح سنويا. كل ذلك الجمال الذي يستهوي أفئدة زوار تونس الخضراء يوازيه ثراء متعدد آخر في تاريخ وثقافة وتراث تونس الثريّ.

## 2 - فرنسا.. 1986

ما أحببتُ في فترة من حياتي فرنسا، ولن أحبّها، ولا شغفتني حضارتها التي أراها حضارة انبنت على جثامين الملايين من شعوب استعمرتها فرنسا، وعندما طُردت نتيجة ثورات التحرير قامت بها تلك الشعوب تركت فيها فرنسا الاستعمارية الخراب، والفاقة، والأمراض، بعد ما استنزفت كل خيراتها، وما كفاها

ذلك؛ بل تركت فيها أتباعا من جلدة أبناء تلك البلدان بعد ما كوّنتهم، وأرضعتهم حليبها مواصلين النهب، وحُكْم تلك الشعوب بالدكترة، واستعمال عصا الأمن، فلا عجب أنّ أحد أصدقائي الكُتّاب المبدعين الروائيين الكبار زار فرنسا، وأعجب أيّما إعجاب بمعالم باريس، وبإقامات كُتّاب فرنسيين رحلوا، منهم من بارك في حياته استعمار فرنسا للجزائر، والتنكيل بشعبها، ومنهم من عارض، وندّد، آثارهم الكتابية شاهدة على مواقفهم.

**صديق لي انبهر حدّ تضييع البوصلة:** هذا الصديق البهي نشر فيسبوكياته خلال عدّة أيام متتاليات؛ ما تحمّلتُ ذلك بالرغم أنه حرٌّ في ذلك، لو أتى الإعجاب، والانبهار من إنسان عادٍ، ما رأيتُ بأسا، أمّا أن يأتي من أستاذ جامعيّ، مثقف كاتبٍ روائيٍّ، أيقونة السرد الجزائري، والسرد العربي؛ هذا لم أتحمّله. رددتُ عليه في حينه، تحديدا يوم **24** جويلية **2016**م:

«رسالة إلى صديق سحرته باريس.. صديقي ابن الجزائر العميقة، وسليل منطقة عزيزة حافظت على هويّة الجزائر ولا تزال، أنجبت علماء، وقامات تفتخر بهم الجزائر.. سجلّ ثريّ مشرفّ..

صديقي من حقك أن تنبهر بباريس، وأن تهيم بها عشقا، مثلما أنا العاشق للجزائر والهائم بها حبّا، إنّما من حقّي أن أنظر إلى باريس ليس من سحرها السياحي، ومكياجها الكاذب.. باريس يا صديقي بالنسبة لي عاصمة الدولة الاستعمارية التي نكّلت ببلدي الجزائر، ولا تزال من خلال مواصلة الحرب ضدّ بلدي: هوياتيا، وثقافيا، واقتصاديا.. وكيف أنسى يا صديقي، والجرح الغائر

لم يندمل، ولا أحسبُه سيندمل.. باريس التي سحرتك هي الوجه البشع لفرنسا الاستعمارية، فرنسا الرسمية التي لا تزال تُكُنُّ الحقد، والترصد الخبيث لهذا الوطن وشعبه. وحتى لا ننسى يا صديقي أحيلك إلى سجلّ التاريخ الذي لا يُجامل مهما حاولنا خداع أنفسنا تحت تأثير مكونات العولمة، وضرورة التعاون مع الآخر، وطيّ الصفحة، وثقافة الاختلاف.

**سجّل التاريخ أسودُ بدماء ضحايا فرنسا:** أحيلك صديقي إلى سجلّ التاريخ، وإلى ما صرّح به ضباط فرنسا الذين شاركوا في غزو الجزائر، وما اقترفوه تجاه السكان في القرن التاسع عشر، أمّا ما انجرّ عن الاستعمار والاستيطان لمدة قرن وثلاث، فذاك حديث آخر يا صديقي. أنا لم أنس يا صديقي، ولن أنسى... ما ارتكبه جيش الاحتلال العديد من الجرائم ضد المدنيين، والتي سمّاها المؤرخون بالرازايا (بالفرنسية: Razzias):

.. **شهد شاهدٌ من أهلها:** روى العقيد مونتانيك (Montagnac):

«أخبرني بعض الجنود أن ضباطهم يلحون عليهم ألا يتركوا أحدا حيًّا بين العرب.. كل العسكريين الذين تشرفت بقيادتهم يخافون إذا أحضروا عربيا حيًّا أن يجلدوا» ويقول النائب البرلماني طوكوفيل (Tocqueville):

«إننا نقوم بحرب أكثر بربرية من العرب أنفسهم.. لم يستطع الفرنسيون هزم العرب حربيا فهزموهم بالتدمير والجوع». وقال مونتانيك:

«لقد محا الجنرال لاموريسيير (La Moricière) من الوجود خمسة وعشرين قرية في خرجة واحدة، إنه عملٌ أكثر انهداما للإنسانية». وقال:

«.. فبمجرد أن حدّد موقع القبيلة انطلق سائر الجنود نحوه ووصلنا الخيام التي صحا سكانها على اقتراب الجنود فخرجوا هارين نساء، وأطفالا، ورجالا مع قطعان ماشيتهم في سائر الاتجاهات، هذا جندي يقتل نعجة، بعض الجنود يدخلون الخيام ويخرجون منها حاملين زراي على أكتافهم، بعضهم يحمل دجاجة، تضرم النار في كل شيء، يلاحق الناس والحيوانات وسط صراخ وغناء وخوار، إنها ضجة تصمّ الآذان. (مدينة معسكر يوم 19 ديسمبر 1841)»

الرازيا كما سمّاها الفرنسيون ما هدفّت إلى معاقبة المخطئين وإنما صارت مصدرا لتموين الجيش. كلُّ ما تُهبّ عهدها بيع، ووُزّع ثمنه على الضباط والجنود، ربع الغنائم للضباط والنصف للجنود كما ذكر شارل أندري جوليان. يقول دوكرو (DUCROT):

«ما تُهبّ في "رازيا" واحدة حمولة 2000 بغل». وقال النقيب لافاي (LAFAYE): «كان الضباط يخبرون الفلاحين بين أن يقدموا لهم الأكل أو الإبادة، كنا نخيم قرب القرية، يعطيهم الجنرال مهلة لإعداد الطعام أو الموت، كنا نوجه سلاحنا نحو القرية وننتظر، ثم نراهم يتوجهون لنا ببيضهم الطازج، وخرافهم السمينة، ودجاجاتهم الجميلة، ويعسلهم الحلو جدا للمذاق. (تلمسان 17 يوليو 1848)» علّق شارل أندري جوليان:

«وتنتشر الرازيا فتصير أسلوبا للتدمير المنظم، والمنهجي الذي لم يسلم منه لا الأشخاص ولا الأشياء. إن جنرالات جيش إفريقيا (السود المجتدين) لا يحرقون البلاد خفية. إنهم يستعملون ذلك ويعتبرونه مجدا لهم سواء أكانوا ملكيين أم جمهوريين أو بونابرتيين»، وقال مونتانيك:

«إن الجنرال لاموريسيير يهاجم العرب ويأخذ منهم كل شيء: نساء وأطفالاً ومواشي يخطف النساء، يحتفظ ببعضهن رهائن والبعض الآخر يستبدلن بالخيول، والباقي يُبغن في المزداد كالحوانات، أما الجميلات منهن فنصيب للضباط. (معسكر 31 مارس 1843)».. وروى الضابط المراسل تارنو:

«إن بلاد بني مناصر رائعة، لقد أحرقنا كل شيء، ودمرنا كل شيء.. آه من الحرب !! كم من نساء وأطفال هربوا منا إلى ثلوج الأطلس ماتوا بالبرد والجوع (17 أبريل 1842) ... إننا ندمر، نحرق، ننهب، نخرب البيوت، ونحرق الشجر المثمر، يوم 5 يونيو 1841... أنا على رأس جيش أحرق الدواوير، والأكواخ وأفراغ المطامير من الحبوب، وأرسل لمراكزنا في مليانة القمح والشعير يوم 5 أكتوبر 1842».. وروى الجنرال لاموريسيير:

«... في الغد انحدرت إلى حميدة، كنت أحرق كل شيء في طريقي. لقد دمرت هذه القرية الجميلة.. أكداس من الجثث لاصقة الجثة مع الأخرى مات أصحابها مجمدين بالليل.. إنه شعب بني مناصر، إنهم هم الذين أحرقوا قراهم وسقتهم أمامي 28 فبراير 1843».. وقال مونتانيك:

«النساء والأطفال اللاجئون إلى أعشاب كثيفة يسلمون أنفسهم لنا، نقتل، نذبح، صراخ الضحايا واللاقطين لأنفاسهم الأخيرة يختلط بأصوات الحيوانات التي ترغي وتخور كل هذا آت من سائر الاتجاهات، إنه الجحيم بعينه وسط أكداس من الثلج (31 مارس 1842) .. إن كل ذلك في هذه العمليات التي قمنا بها خلال أربعة أشهر تثير الشفقة حتى في الصخور إذا كان عندنا وقت للشفقة،

وكنا نتعامل معها بلا مبالاة جافة تثير الرجفة في الأبدان (معسكر 31 مارس 1842).»، وقال النقيب لافاي (Lafaye):

«لقد أحرقنا قرى لقبيلة بني سنوس. لم يتراجع جنودنا أمام قتل العجائز والنساء والأطفال. إن أكثر الأعمال وحشية هو أن النساء يقتلن بعد أن يغتصبن، وكان هؤلاء العرب لا يملكون شيئاً يدافعون به عن أنفسهم (23 ديسمبر 1948).»

**غضبٌ ومقاطعةٌ:** غضب مَنِّي صديقي، وقاطعني كما أخبرني صديقنا الكاتب المبدع القاص بينينة عبد الكريم، تصالحنا فيما بعد لَمَّا أفهمه الأستاذ عبد الكريم عن حساسيتي تجاه ذاك البلد الاستعماري اللعين.

صديقي المرحوم إدريس التهامي، طَيَّبَ اللهُ ثراه أحببته، ولا أزال حَبًّا كبيراً، مثلما أحببني. صداقة امتدَّتْ لمدَّة أربعة عقود ونيّف كان في الثمانينات يسافر إلى فرنسا كل سنة، يقضي الصيف هناك عند ابن عمّته مصطفى شرفي في بلدة "فيزيل" في الشمال الشرقي الفرنسي قُرْبَ الحدود الإيطالية. بدوره زار مصطفى عدَّة مرّات خارج فصل الصيف رفقة المرحومة زوجته، وأبنائه بلدة قمار، وهو ابنها، عرفني التهامي إليه؛ زيارته المتكرّرة متّنت العلاقة بيننا؛ حتى أنه عرض عليّ العديد من المرّات زيارتهم في "فيزيل".

.. الأولى والأخيرة: في شهر جويلية 1986م، عَنِّي أن أزور فرنسا، ما كانت تأشيرة بين الجزائر وفرنسا، جواز السفر، وتذكرة الطائرة كفيلان بالدخول إليها.

سبقني صديقي المرحوم إدريس التهامي والحاج شنة بوبكر أطال الله في عمّره، ورزقه الصحة، ما كان حينذاك هاتفاً نقّالاً، كان الهاتف الثابت في عُرف

البريد، الواحد ينتظر حتى يأتي دوره كي يتصل بمن يريد داخل الجزائر وخارجها، اتصلت بإدريس التهامي، طلبتُ منه أن ينتظرنِي في مطار مدينة "ليون" في اليوم الموالي للمكاملة على الساعة الواحدة بعد الظهر، ركبْتُ ليلتها الحافلة الليلية ما بين الوادي والجزائر.

هبطتُ في مطار مدينة ليون، وجدتُ في استقبالي: المرحوم إدريس التهامي، شتّة بوبكر، المرحوم حنيش عبد المالك أصيل مدينة قمار، المقيم في مدينة قرونوبل وصديق التهامي، أقلنا بسيارته الشخصية R. 12 ذات اللون الأخضر إلى دار أخيه المرحوم حنيش الطاهر بمدينة قرونوبل، حيث استضافنا لمدة ليلة ويوم عرفنا عبد المالك بأهم معالم المدينة وشوارعها الرئيسة.

بعدها وصل مصطفى ابن عمّة التهامي، حيث أخذنا إلى بلدة "فيزيل" الجميلة المحاذية للأنهار، والبحيرات، وسفوح جبال الألب التي تطلّ على البلدة في حياءٍ. بلدة هادئة، آمنة، بها الكثير من الجزائريين منذ عقود، عاشوا ويعيشون حتى الآن مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات مع السكان الأصليين أغلبهم عملوا، كما يعمل أبناؤهم حاليا في المصانع. أقمنا لدى مصطفى في منزله الرّحب، بين أفراد أسرته، أكرمني، وعرفني بالبلدة وبالبعض من السّوافة المقيمين هناك، كما أخذنا إلى بعض البحيرات، حيث أماكن السباحة.

.. اهتزازات: ممّا علق بذاكرتي من تلك البلدة الجميلة جدًّا:

**1** . العيش المشترك المتسم بالودّ، والأنس بين الساكنة كيفما كانت جنسياتهم، الأمن والأمان هما السائدان، الاختلاط، الحوار الهادئ، البسمة، البشاشة سلوك الكل؛ كما أن الجزائريين القادمين من جهات الجزائر ملتقون حول بعضهم.

**2** . شاهدت بأمّ عيني تحايل بعض الشباب الجزائري في العبث بآلات الهاتف الثابت التي كانت مثبتة في الأحياء والشوارع، حيث كانوا يتكلمون سواء بداخل فرنسا، أو مع أقاربهم في الجزائر، عوض إسقاط القطعة النقدية (الخمسة فرنكات، الفرنك، نصف الفرنك)، بدلا من ذلك يسقطون قطعة فرنك مثقوبة، ومربوطة بخيط، يبقون ماسكين بالخيط؛ إذا ما طلبت الآلة قطعة أخرى لمواصلة المكالمة، يرفعون القطعة، ثم ينزلونها من جديد.

**3** - في اليوم الأول الذي ذهبنا فيه إلى إحدى البحيرات، ما أن اقتربنا من الشاطئ الرّملي؛ حتى تفاجأتُ . دون منْ كانوا معي . بالمصطافين نساء ورجالا وأطفالاً عُزّة كما ولدتهم أمهاتهم إنْ على الشاطئ ممدّدين في وضعيات مختلفة، أعضاءهم التناسلية واضحةً تمامًا، آخرون داخل المياه، أو على سطحها في التصاقٍ، بل في حركات غريزية؛ منْ كانوا معي ما هاهم الأمر، إذ أنهم تعودوا على ما هالني، وأضحوا يروّنه أمرًا عاديًا يدخل في إطار التمتع بالحقوق الفردية التي كفلها، وتقبلها المجتمع قبل قوانين الجمهورية الفرنسية.

**موزاييك . . .** بعد ثلاثة أيام قضيتها في تلك البلدة كانت وجهتي مدينة باريس رفقة صديقي إدريس التهامي، بوبكر شنة انطلاقًا من مدينة "ليون" على متن القطار السريع TGV ذي سرعة 280 كلم/ ساعة حينذاك، حاليا سرعته تزيد عن 320 كلم / ساعة. بقائي في باريس سبعة أيام وفق تاريخ العودة بتذكرة الطائرة،

كنت في سباقٍ مع الزمن كي أستغلّ تلك الأيام في التعرف على المدينة ومعالمها دون أن أبقى مرتبطاً بصديقي. تحصّلت على غرفة مجّاناً لأحد العمّال القماريين دحّة زهر، تعودّ على قضاء عطلته في بلدته قمار، مثلما تحصّل صديقي على غرفتين في عمارة كبيرة أجرُ عُرفها عمّالُ جزائريون في منطقة مفترق الطرق بجي شعبي.

في باريس؛ تجوّلت معهما في اليوم الأول، تعرّفت على وسط المدينة وأسواقها، واتجاهات الخطوط الموصلة لأحياء المدينة.

يوم الغد في الصباح الباكر، نزلتُ إلى أقرب محطة الميتر، حيث ابتعتُ دفتر تنقّلٍ برتقالي اللون في الميتر لمدة أسبوع، كانت الخريطة المثبتة في عربات الميتر دليلي، كما كان الصوت الأثوي الجميل المسجّل الذي يعلن عن محطات الوقوف مساعدي. المدن الكبرى كالمناهة، لا يمكن التجول فيها دون خطة واضحة ومدروسة مسبقاً، خصوصاً للغرباء. باريس، العاصمة الفرنسية، من هذه المدن عصيّة أحياناً كثيرة على زوّارها، أو أن الوقت لا يسعفهم، حقاً، لرؤيتها بالكامل.

هذا لا يعني أن هذا النوع من المدن ليس أليفاً ومحبيها، بل فقط على زائر المدن الكبرى وضّع خطة سيرٍ لرحلته قبل أن يطأ بقدميه أرض أحدها، وخصوصاً إذا ما كانت هذه الزيارة قصيرة ومحددة بعدد قليل من الساعات لا غير. في تلك الأيام القليلة تمكّنتُ من زيارة: **1** . متحف اللوفر مع صديقي إدريس التهامي. وقفتُ طويلاً أمام لوحة الجيوكندا الساحرة. **2** . كاتدرائية

نوتردام. 3. مركز بومبيدو. 4. شارع شانزليزيه. 5. قوس النصر. 6. برج إيفل  
7. نهر السين 8. الحي اللاتيني.

(Quartier Latin)، يُعدُّ من أشهر الأحياء في باريس، يضمّ أماكن تراثية جميلة ورائعة الى جانب منابع، مصادر الثقافة والجمال. حيٌّ مشهور جداً من أشهر الأماكن السياحية، معروف بـ "حيّ الثقافة والعلم والفكر والسياسة والتسلية الى جانب التسوق."، حيٌّ يقصده المتقنون في باريس لأنه يضم مقاهي أدبية عريقة، الى جانب ذلك به مكتبات كبرى، وجامعات ومنها جامعة السوربون المشهورة التي دخلتها رفقة صديقي إدريس التهامي، تجولتُ في أقسام عدّة منها، التقينا أستاذين جزائريين يدرّسان بها، رحبنا بنا، نؤرانا ببعض المعلومات عن الجامعة. سُمّي بالحي اللاتيني لأن اللغة اللاتينية هي التي كانت طاغية في العصور الوسطى.

**فرنسا . . بلدٌ ساحرٌ:** فرنسا عموما وعاصمتها باريس خصوصاً بلد الحضارة المعاصرة، والثقافة الثرية المتنوعة، كما أنّها بلد الفنون والآداب والمتاحف، والحدائق، عاصمته باريس مدينة ساحرة جذّابة؛ لما زرتها سنة 1986م، في أيام قليلة استخلصتُ ما يلي:

**1 -** أنّ أغلب الجزائريين الذين زاروا فرنسا، وخاصة عاصمتها، وكذا المقيمين فيها عمّالاً، منذ عقود كانوا يجهلون المعالم التاريخية، والثقافية، والدينية، والسياحية، وما ندموا عن ذلك، إذ كان بعضهم يأتي من أجل اقتناء سلع وملابس، غير موجودة بالسوق الجزائرية، ولما يعود إلى الوطن، تُباع حالاً؛ لأن

عقدة النقص معشّشة، جملة " صُنِعَ في فرنسا ساحرة"، كانت المغازات الشعبية "TATI، وغيرها قبلة الجزائريين، والجزائريات؛ أيضا كانت السوق الجزائرية تخلو من الفواكه كالموز، يراها أبناءنا في كتب القراءة فحسب.

**2 -** العديد من الجزائريين كانوا يزورون فرنسا ومدنها، سيّما عاصمتها تلبية لغرائزهم البهيمية، لأن الجنس في هذا البلد " بالاش"، أينما توجّه الراغب فيه يأتيه طَوْعًا؛ كما أنّ هؤلاء وجدوا ضالتهم في عصير الكرمة بكلّ أنواعه. **حرية.. مساواة.. أخوة؟؟؟**؛ شخصيا، رأيت فرنسا ذات وجهين، وجه الحضارة، والثقافة، والفنون، والآداب، وحُسن الذوق، وفنّ الاتصال، والاتصال، وتقبّل الآخر ظاهريا، والتعايش معه، واحترام الإنسان، وتمكينه من حقوقه؛ والوجه الآخر، الوجه الشيطاني البشع الذي دمرّ أممًا وشعوبًا لا تزال تعاني من فرنسا الاستعمارية حتى بعد استقلالها، ومنها بلدنا الجزائر. تلك زيارتي الأولى والأخيرة لذلك البلد، وما فكرت يومًا بالعودة إليه.

### 3 - البقاع المقدسة.. 1988.... 2011

السيد عبد العزيز خلف الذي كان وزيرا للتجارة، فالمالية في فترة الثمانينات، وهو من أقربائي، كان خلال زيارته الرسمية القليلة إلى منطقتنا عادة ما يقتطع يوما من زيارته الرسمية تلك إلى زيارات عائلية، يقيم في المنزل العائلي بقمار، فيزور أصدقاءه، وأصدقاء والده المرحوم بشير خلف الذي كان مديرا لمطار المنطقة بقمار، وهو عمُّ زوجتي. الوزير كلّما اقترب موسم الحجّ يسلم

والده بعض جوازات الحجّ، أو يرسلها إليه كي يسلمها لمن يراه جديرا بها، خاصة ممن لم تمسّهم عملية القرعة لعدّة مرّات.

في زيارته للمنطقة، ولقمار سنة 1987 ترجّيته عن طريق والده أن يلبي رغبتني في جواز سفرٍ في موسم الحج لسنة 1988، وعدني بالإيجاب، لكن بعدها مباشرة توفّي والده رحمه الله؛ إلّا أن الوزير عبد العزيز خلف أوفى بوعدده، حيث أرسل إلي في تلك السنة جواز سفر الحجّ مع السيد نصبة عيسى الذي حجّجتُ وإياه سنة 1988 رفقة 21 حاجًا وحاجة من مدينة قمار.

**حجّتي الأولى الميمونة:** الطريف أنّ أغلب من حجّجتُ معهم كانوا كبار السنّ، وفي حاجة ماسّة إلى المساعدة من بداية المغادرة، إلى العودة، مدّة شهر كاملٍ. من الذين ترافقنا وكانوا ذوي بأسٍ، وأمكن الاعتماد عليهم:

نصبة عيسى الذي تفرّغ لنفسه، ولوالدته الكبيرة السنّ العاجزة. القاضي عياض الذي تفرّغ لنفسه، ولوالدته القعيدة، وأخته المعاقة. حينها تطوّعتُ شخصيا مع السيد لشلح عبد السلام لخدمة ومساعدة البقية، وأغلبيتهم رجالا كبار السنّ، لمرافقتهم، والأخذ بأيديهم في المشي، والركوب، والنزول، وحمل أمتعتهم، والصعود بهم إلى غرفهم في الفنادق، خاصة في مكّة المكرّمة، والمدينة المنورة، والطواف بهم، ومساعدتهم على أداء ما هو مطلوب من الحاجّ من طوافٍ، وسعيٍ في الصفا والمروة، وتحمل مشاق النفير نحو منى، فعرفة، ثم العودة نحو المزدلفة، فمئى، فمكة بعد أداء كل المناسك، هذا كله عادٍ جدا.

إنما ما هو غير عادٍ ثوراتكم العصبية، وتوتراتكم، ونفاد صبرهم تجاه ما يعايشونه يوميا، حيث رأوه غير عادٍ، وهم من كانوا يتصوِّرون أن الحجَّ عبارة عن رحلة يسيرة في الطائرة، ثم نومٍ مريحٍ في الفندق، فذهابٌ إلى الكعبة المشرفة، وطوافٌ، وسعيٌّ بين الصفا والمروة، ثمَّ عودةٌ إلى البلد.

**ثقافة البايك لدى أعضاء البعثة:** حينذاك ما كانت توجد الوكالات السياحية الخاصة. كل رحلات الحجَّ كانت تتولَّها بعثة وزارة الشؤون الدينية، هيمنت ثقافة القطاع العام حينذاك على كل القطاعات، بما في ذلك الشؤون الدينية، أعوان البعثة ما شدَّوا عن تلكم الثقافة، ممَّا أدَّى بأغلب الحجَّاج الاعتماد على أنفسهم، أو على من رافقوهم. في تلك السنة كان النزاع مستمرا بيننا وبين المطوِّفين السعوديين" عن وسائل النقل.. عن ظروف الإقامة في الفنادق.. عن الانتقال نحو المدينة المنورة، والعودة منها إلى جدَّة.

انطلاقتنا الأولى من مدينة قمار في أوائل شهر جويلية سنة **1988** في أوج حرارة الصيف على متن حافلات في اتجاه مدينة غرداية جنوبا، حافلات ما كان للمكيفات بها وجودٌ أصلاً، وما بها مراوح، المراوح الوحيدة هي فتح النوافذ لدخول هواء الجنوب الساخن لتجفيف العرق. التعب الأول، رحلة مسافة **460** كم في جوٍّ حارٍّ جدا، وفي وسط أيام الصيف الصحراوي؛ بالرغم من فرحهم وسعادتهم كان التعب والإرهاق نالا منهم الكثير. الاختبار الأول لحجَّاجنا الميامين الذين ما امتطوا بعد الطائرة المتجهة إلى جدَّة.

**البداية.. ! !؟:** ما أن وصلنا، ونزلنا في مطار جدَّة الذي كان البشر فيه كالنمل، ضجيج الطائرات، البشر، بَطء الإجراءات، لا نوم، لا طعام، الأمتعة

تُرفع على الأكتاف، والأيدي؛ ما ظهرت حينها آلات الرفع الحديثة. بمجرد ما انتهت الإجراءات استقللنا الحافلات القديمة ذات الطابقين التي تخلو أيامها من التكييف، ولو بالمراوح، وجهتنا المدينة المنورة قطعاً لمسافة 500 كم.

استمرت الرحلة من مدينة قمار نحو المدينة المنورة ثلاثة أيام بلياليها دون نوم، ودون طعام كافٍ لحجاج كبار السنّ أغلبهم ما فوق السبعين سنة، وما قبلها بقليل. كان عليّ وعلى السيد لشلح عبد السلام أن نملك صبر سيّدنا أيوب عليه السلام من إنزال الأمتعة من سطح الحافلات، ومن وضعها أمام باب الفندق لكل حاجٍ لهؤلاء المسنّين المرهقين، ثم الصعود بها إلى الغرف الجماعية، والصعود بهم واحداً، واحداً ووضعهم في مكانه.

كان وصولنا أمام الفندق أثناء إداء صلاة الصبح، لا زلتُ أذكر الشيخ عبد الرحمن الحذيفي بصوته الساحر يصدح، ذلك الصوت الأخاذ الذي لا أزال مسحوراً به، حيث كنت حريصاً في زيارتي التي تتالت على عدم التفريط في الصلاة التي يؤمّها؛ كما لا أزال إلى يوم الناس هذا أتمتع بتلاوته أينما تناهت إليّ. النوم قبل زيارة الحرم النبويّ..؛ أذكر بعد استقرارنا في الفندق بالطابق الثاني أننا عرضنا على الحجاج زيارة المسجد النبوي تعرّفاً عليه، وأداء ركعات تبرّكاً وشكراً لله على القدوم، والسلام على الحبيب رسول الله، وعلى صاحبيه أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، بعضهم هلّل، ورحّب، والباقي استسلم للنوم مؤجلاً الزيارة إلى منتصف النهار، وقت صلاة الظهر.

كانت الأيام الأولى صعبة، مرهقة على أولئك الحجاج وعلينا أنا ورفيقي عبد السلام، لكوننا كنا نجهل بدورنا الأماكن، والمناسك، والتأقلم مع الظروف

الحياتية، والمعيشية، والحرّ الشديد، وقلة النوم، وقضاء أغلب الوقت في الحرم المدني، كما في الحرم المكي فيما بعد لأداء الصلوات المفروضة، وغيرها من العبادات التي درجاتها أضعافا مضاعفة في الحرمين المدني، والمكي.

في اليوم الأول والثاني تعبنا، وتعب معنا الحجاج الشيوخ، إنما سرعان ما تكيفنا مع المكان، والزمان أنا ورفيقي؛ تمثلت الصعوبة في مرافقة أولئك الشيوخ، وأخذهم مع بعض، وشرح المناسك لهم، وتنفيذ ما تأمرهم به، وهم في حالات العياء والإرهاق منذ الساعة الثالثة بعد منتصف الليل حتى انقضاء صلاة الصبح، والعودة إلى الفندق، ثم الرجوع إلى الحرم الساعة الحادية عشر صباحا حتى بعد أداء صلاة العصر، فالعودة قبل صلاة المغرب إلى ما بعد صلاة العشاء في حدود الساعة العاشرة والنصف ليلا، إضافة إلى ضغط الزحام في كل الأوقات، سيما في الحرم المكي حيث يكاد النَّفْسُ ينقطع.

ما قدر البعض من حجاجنا الشيوخ حينذاك مواصلة الذهاب إلى الحرم، فاحتفوا بملازمة الفندق، والصلاة على أسرّتهم، والأفضل منهم قضى بعض الصلوات المفروضة في مساجد صغيرة قُرب الفندق. ونفس الشيء في مكة المكرمة التي كانت الظروف فيها أصعب بكثير لتباعد الفنادق عن الحرم، والصعود والنزول من الفندق مشياً، حيث كانت المصاعد حينذاك ما عُمّت..

**التغذية الكاملة .. المتوازنة:** ذاك الجهد الجسدي، والعصي، والنفسي، يتوجب أن يتسلح صاحبه، أو صاحبتة بتغذية كافية، متوازنة، وهذا ما كان مفقودا بقرارٍ من الأغلبية إن لم أقل من الجميع؛ فما سلّم إليهم من مالٍ مقتطعٍ مما دفعوه في

الجزائر إلى البعثة بعد اقتطاع ثمن تذكرة الطائرة، وغيرها مما دُفع إلى هيئات الحج السعودية، خصّصوه بنسبة ثمانين بالمائة إلى شراء هدايا للأصدقاء والأهل، والأقارب. حملوا معهم من الجزائر التمر المعجون، ديشيشة الشربة، علب الطماطم، الفلفل اليابس، المقرونة، الشحم، الزيت، وغيرها مما ساعد على إعداد " قِدْرَة " كبيرة من مرقّة ساخنة من الشربة، أو الدشيشة ساعدت على تسكين عسافير البطن ليس إلا.

**ثقافة الشُّحّ:** نلك الوجبات الفقيرة للغداء الكافي تكررت سواء في المدينة، أو مكّة. وألزم كل حاجٍ بمساهمة مائة ريال لا يتبايع ما لا يُجلب من الجزائر كالعيش (الخبز المحلّي)، أكياس الحليب، الخضر كالبصل، الطماطم الطازجة..

شخصيا رفقة حاجٍ آخر من قمار دفعنا مساهمتنا المالية دون الانتفاع من تلك الوجبات الفقيرة، آثرنا الغداء في مطاعم بها الوجبات الكافية، أو وجبات سريعة لكنها متكاملة، غنية بالمواد الغذائية. عملتُ بنصائح صهري المرحوم خلف عبد القادر الذي سبقني لأداء فريضة الحج عدّة مرّات، إذ نبّهني إلى التعب والإرهاق، وقلة النوم لمُدّة شهر من أجل أداء فريضة الحج التي يكرّم الله سبحانه وتعالى البعض من عباده حيث يصطفيهم من بين الملايين الذين تَهفُو قلوبهم لتلك البقاع المباركة، هذا الاصطفاء، وتلك النعمة الربّانية لا بدّ أن يكون الحاج في وضعية جيّدة لأداء ذاك الفرض، صحة جيدة، استعدادًا جسديًا، نفسيًا، إيمانًا، في كل يوم.

ومّا نبهني إليه أيضا صهري بأن أطرح على نفسي في كل مرّة: " لماذا جئتُ إلى البقاع المقدّسة؟ هل جئتُ لأداء فريضة الحجّ التي كرّمني الله بها؟ أم جئتُ لأشتري الهدايا؟ إن كنت مقتنعا بأنها لفريضة الحجّ؛ فليكن ذلك الهدف، والتسلّح له بالصحة، وسلامة البدن، والعقل، وهذا يتأتى بالتغذية الكافية والمنوّعة، والغنية بالمكوّنات الضرورية؛ فكان ذلك ما سلكته في المدينة المنوّرة، ومكّة المكرّمة.

**خدمات ورفاهية اليوم . . ٩٠:** ممّا يجدر ذكره وأنا أتحدّث عن التعب والإرهاق الذي لحق بنا، ما عايناه نحن، كما الحجاج الشيوخ في تلك السنة في منى وعرفة، ثم رمي الجمار في منى، حيث كان أغلب الحجاج يقطعون المسافة راجلين، لأن الحافلات التي تحكّم فيها المطوفون السعوديون قليلة من ناحية، وقد يمكث الحجاج في العراء تحت شمس صيفية حارقة الساعات في انتظار وصولها، ففضّلوا السير راجلين من منى نحو عرفة، فالعودة إلى منى لرمي الجمار، والبقاء بها مدّة ثلاثة أيام، ونفس السير مشيا إلى الحرم المكيّ لأداء طواف الإفاضة.

رمي الجمار في الأيام الثلاثة بمنى في تلك السنة 1988م حتى وما بعدها بسنوات عديدة كان صعبا، ومات الكثير من الحجاج نتيجة التوجّه لرمي الجمار في وقت واحد بداية من منتصف النهار في اتجاه واحد بالملايين فوق جسر، وعلى نفس الجسر يعود من أتمموا الرمي، فيلتقي مئات الآلاف في مكان واحد، حيث الزحام المميت الذي ألقى بالكثير، الكثير تحت الأرجل.

من الطرائف التي لا تزال صورها ماثلة في ذهني أننا ذات عودة من عرفة إلى المزدلفة، وقد بقينا في الحافلة ما ناف عن الخمس ساعات ليس لطول

المسافة، إنما نتيجة الزحام ووقوف الحافلة أحيانا مدّة الساعة كانت يجاني حاجة كبيرة السنّ بدا أنّها من التعب فقدت الإحساس بالزمان والمكان، التفتت إليّ، قائلة: «افتح باب الغرفة حتى أرى الحوش، كي تدخل الشمس والهواء.»، ومّا أتذكّره ولا يزال أن تعب السفر إلى البقاع المقدّسة سيّما لأداء فريضة الحجّ انطلافا من مطار ورقلة قدومًا من ربوع وادي سُوف، ثم نحو مكة المكرمة، أو المدينة المنورة، مع إجراءات السفر، ومعركة الأمتعة، ثم نفس الإجراءات، بل أعقدها وأصعبها، والحاج مع آلاف الواصلين، بل عشرات آلاف الواصلين في وقت واحد في مدينة الحجّاج، أو المطار وخارجه، وانتظار الحافلات، والتوجه نحو الفندق، ومعركة الأمتعة من جديد، والاستقرار بالفندق.

**فقدان الإحساس الزمكاني:** تلك الرحلة قد تستغرق اليومين وأكثر دون راحة، ودون نوم، ممّا يؤثر على المرء ويجعله يُصاب بفقدان الإحساس المكاني والزمني، عيناه مفتوحتان دون وعيٍ للسماح لغيره، وعجزٍ عن التواصل اللغوي. إنّما المرء الذي توجه إلى تلك البقاع المقدّسة بشوق كبيرٍ وبمحبّة صادقة، وإحساس إيمانيّ قويّ بأن الله اصطفاه لأداء الفرض الخامس، أو حتى العمرة ليشعُر بالغبطة والرضا، ولا ريب أنه سيزداد إيمانًا وتُقى، وخشية من الله، بل ومحبة له، واعترافًا بفضله، وسيكون من الشاكرين له أكثر؛ وأنه من الذين تضمّنوا دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام لما طلب من الله جلّ جلاله في سورة إبراهيم جعل أفئدة من الناس " تهفو " اشتياقًا لتلك البقاع المقدّسة " .. فَاجْعَلْ أَفئِدَةً مِّنَ النَّاسِ هَمُومِي إِلَيْهِمْ وَارزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ. " (إبراهيم 37)

.. بأفغاتٍ شتّى تتضرّع: تجاه تلك المتعة الإيمانية لا يسع المرء الذي أنعم الله عليه بالذهاب نحو تلك البقاع المقدّسة، الطاهرة إلا أن يُسائل نفسه بعد العودة إلى الديار:

- هالّا تذكرُ إذ صكّت سمعك تلك الأصوات الباكيات بشتّى اللغات واللهجات، جموعٌ تبكي، تتضرّع، تطلب المغفرة لذنوبها، لغاتٍ شتّى كلها تردّد بلسان يلهج، ونفس يلهث: "لييك اللهم لبيك"، تخرج من كل فم، من كل قلب، يا ربّ، قد جنناك فاغفر، لبيك اللهم لبيك، أعجمي وعربي، لبيك لا شريك لك لبيك، ودموع تجري من أعين تبكي؛ خشية ورغبة ورهبة ومحبة. كانوا يتصافحون ويتحدثون بالإشارات، ووجوههم مُفعمة بالابتسامات، وقد تحطّطت بسماهم حاجز اللغات واللهجات؛ (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) الحجرات: 13.

لييك اللهم لبيك، يا ربي سبحانك، يا مَنْ وسع سمعه الأصوات كلها، سبحانك! بعينيك رأيت يوميا تلك الجموع. لا ريب أنّ عينيك دمعتا لما رأتا مَنْ قد بلغوا أرذل العمر أتوا على كل ضامر، من كل فجٍّ عميق؛ ليذكروا اسم الله: لبيك اللهم لبيك؟ !

فجأةً توّحد المسلمون على تفرّقهم في البلاد، تجمّعوا على تنفيذ شعائر مُرتّبة، يدور الجميع في أفلاك منتظمة بالأمر الشرعي كما تدور الكواكب في أفلاكها بالأمر الكوني، الكل قد حُشر إلى عرفات متضرّعًا إلى ربه، ثم يفيضون إلى المشعر الحرام أفواجًا، ثم إلى منى بين راجم وطائف في مكة. حُشر يقرع

عقلك ناقوس يذكرك بيوم الحساب، وعندما يدفعك هذا وينضغط صدرك في ظهر ذاك حتى لا تجد مكاناً في صدرك لهواء الشهيق، ويكثر العرق، ويسيل من كل جسدك، يهتزُّ بصرك، رحماك يا ربي رحماك، كيف أنجو يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار؟!

إني من الذين أنعم الله عليهم بعطاياه التي لا تُحصى والحمد لله؛ فقد أكرمني الله بتلك الحجّة سنة 1988م، ثم بحجّة أخرى سنة 2007م رفقة زوجتي وبناتي حنان، وأسماء؛ ثم بحجّة أخرى سنة 2008م رفقة زوجتي، فعمرة لشهر كامل في شهر رمضان سنة 2011م رفقة زوجتي، وابنتي أسماء، وزوجة ابني عبد الصمد.. اللهم لك الحمد، ولك الشكر.

#### 4 - اليونان.. 1993

في صائفة سنة 1993م، نظّمت هيئة الخدمات الاجتماعية التابعة لقطاع التربية رحلات خارجية كعادتها كل سنة إلى أبوظبي، تونس، اليونان، لعمّال التربية، وعاملاتها، تكفّلت الهيئة بنصف مبلغ الرحلة، النصف الآخر تكفّل به المنتمي إلى القطاع، شاركتُ حينها في رحلة اليونان، وجدتُ نفسي في جناح مطار الجزائر الدولي رفقة خمسين من أساتذة وأستاذات من أغلب مناطق الجزائر؛ من منطقة ربوع وادي سُوفُ كان معي أستاذ اللغة الفرنسية شمسة الذي سبق له أن زار اليونان في مثل هكذا رحلات.

بلد صغير المساحة.. عريق الحضارة: اليونان دولة صغيرة المساحة، تنتمي إلى القسم الجنوبي الشرقي من أوروبا، ضمن بلدان شبه جزيرة البلقان، برغم كونها بلداً أوروبياً إلا أنها من الدول النامية في ذلك التاريخ، ولقلة مواردها تعتبر من البلدان الطاردة للسكان حتى الآن؛ حيث هاجر، ويهاجر العديد من سكانها إلى خارجها، ويعمل قطاع كبير منهم في المهن البحرية والسياحية. إلا أن السياحة من أبرز النشاطات الاقتصادية في هذا البلد.

**عادت حليلة إلي:** نصفُ الأستاذات كنّ محجّبات خلال مغادرتنا العاصمة الجزائرية، أغلبية المشاركين والمشاركات حتى ولو كانوا، وكنّ يدرّسن، ويدرسون باللغة العربية، الكلّ في بداية الرحلة "يتشدّقن، ويتشدّقون باللغة الفرنسية"، نظّمت الرحلة وكالةً سياحية جزائرية حتى وصولنا إلى اليونان من خلال مرشدٍ ومرشدة تولّيا كلّ إجراءات انطلاق الرحلة، بمجرد وصولنا تلقّفتنا وكالة سياحية يونانية، مرشدنا شابٌ يونانيٌّ يجيد التحدّث باللغة الفرنسية، كما أجاد تاريخ بلاده. تولّى حاجتنا اليومية ومستلزماتنا الضرورية اليومية المرشدان الجزائريان. ما كان هناك خطٌّ جويٌّ بين الجزائر وأثينا عاصمة اليونان حينذاك، ولا أحسبُ أنّ خطأً كهذا وُجد حتى اليوم. رحلتنا كانت من الجزائر نحو "صوفيا" عاصمة رومانيا جارة اليونان، انطلقت بنا طائرة شركة الخطوط الجزائرية حوالي منتصف الليل، وصلنا وخيوط فجر يوم جديد إلى صوفيا.

**أيّما حللت فأنت إرهابي:** كانت الجزائر في أوج سنوات الإرهاب، أخبار الموت بأصنافه وصلت كلّ مكانٍ في العالم، إن كنتَ جزائريّاً، أيّما حللت أنت إرهابي،

حتى وإن كنتَ لا من هؤلاء، ولا من هؤلاء؛ كانت نظرات موظفي وموظفات مطار " صوفيا" نارية، حارقة، شعرنا بالرغم أننا عابرو سبيل نحو جارهم اليونان بأننا ضيوفٌ ثقلاً. تمت إجراءات الدخول بسرعة. رحب بنا موظفو الوكالة السياحية اليونانية رفقة مرشدي الوكالة السياحية الجزائرية، حافلات حديثة جميلة مكيفة كانت في انتظارنا، ذات ديكور أحاذٍ، ومقاعد مريحة انطلقت بنا صوب اليونان. كانت رومانيا ما زالت "تنعم" في "بجوحة" النظام الاشتراكي، جالت بنا الحافلة أغلب أحياء صوفيا العاصمة الرومانية، مدينة غلبت عليها كل علامات التخلف، البؤس.

**حينذاك البؤس الشامل يلفُّ رومانيا:** الإنسان الروماني بما إمّا قابِعٌ في مقاهٍ انتشرت هنا وهناك في لغوٍ، أو في غُدوٍ ورواحٍ دون غاية، متاجرٌ بئيسةٌ، سياراتٌ قديمةٌ، أكوام القمامة باستثناء الشوارع الرئيسية هي العلامات الفارقة، وكأن سائق الحافلة اليوناني ارتأى يومها أن يُرينا الفارق بين بلده اليونان المتقدم الذي حللنا به بعد ساعتين، وبين الجارة رومانيا المتخلفة. ما هالي وهال رفاقي ورفيقاتي في الرحلة أن أراضي رومانيا التي مررنا بها كانت أراضي خصبة، كلها خضراء، المرتفعات مكسوة بحلّة جميلة من الحُضرة الساحرة، الأنهار والأودية تندقق مياهها منسابة؛ والبحيرات الملأى بالمياه الزرقاء النقيّة المتألّنة؛ إنما كلها مهملة لا نشاطٌ فلاحيّ فيها، ولا وجودٌ لإنسان يغازلها، ولا أنعام تجوبها. قد يرى المسافر رقعة صغيرة بجانب منزل نمت بعض الحُضروات؛ ذكّرني تلك الرُقعة بما كان ببلادنا أيام "الاشتراكية" لَمّا تخلّى الناس في بلدنا عن كل نشاطٍ فلاحيّ، وكنا

نصطف في بدايات الساعات الأولى من كل يوم في طوابير طويلة أمام سوق الفلاح، والأروقة لاقتناء بصل إسبانيا، وثوم الصين ولحوم البرازيل، والأرجنتين، وقمّح فرنسا.

عندما وصلنا الحدود لمغادرة رومانيا، التعب هدّنا، هرولنا تجاه الحمامات، أملاً في وجود مياهٍ باردة، ومراحيض نظيفة كافية للقادمين، وأدواشاً تُزيل عَنّا وعشاء السفر، كانت خيبتنا كبيرة: حنفية واحدة للشُّرب، ثلاثة مراحيض، واحدٌ للنساء، لا أدواش، لا متاجر ذات خدمات؛ سوء الاستقبال، عيون البوليس الكُثُر تحصي كل حركة. بعدها بمسافة ثلاثمائة متر.

.. اليونان واقعٌ آخر: ألفينا أنفسنا عند الحدود اليونانية، الأمر مختلف تماماً، بناية فخمة جميلة ذات أقسام خدماتية مختلفة في خدمة المسافر دخولاً وخروجاً، بناية كبيرة نظيفة للخدمات الصحية ما يناهز العشرين مرحاضاً. أدواشٌ كثيرة العدد، حنفيات للماء البارد انتصبتُ هنا وهناك، حُسُن استقبال، إجراءات إدارية سريعة أداها أعوانٌ قليلون من رجال الأمن والجمارك، قُرب قسم إجراءات الدخول دخلنا مرفقاً تجارياً، وخدماتياً كبيراً به مقاهٍ، ومطاعم، ومبيعات مختلفة؛ كانت أول نقطة لنا من الاتحاد الأوروبي، وعملة اليورو الأوروبية، حيث انضمّ اليونان إلى هذا الاتحاد سنة 1981م، سرعان ما اندمج فيه اقتصاداً، وعملة، وحركة تجارية. الصورة مغايرة تماماً عن رومانيا، على الطريق السريع، وغير السريع التي مررنا بها كان الاختلاف بيّناً من حيث البنى التحتية، ونظافة الطرقات، والممرّات، ومستوى التهيئة الحضريّة، المعامل، شركات السيارات الأوروبية، والآسيوية، سيّاراتٌ حديثةٌ من كل الأصناف عُرضت للبيع، حركة

الشاحنات، السيارات، الحافلات كلها أوحت لي بمدى فاعلية دولة أوروبية تماهت، واندججت في الاقتصاد الأوروبي.

خارج المدن، والبلدات المتوسطة، وعلى جوانب الطرق الرئيسة عُرضت خُضار، وفواكه منطقة البحر الأبيض المتوسط الصيفية من المُنتج إلى المستهلك؛ كما أن خيرات الأنهار، والبحر، والبحيرات عُرضت؛ بل عُدت شواء، أو طبقًا لطالبيها، وهذا ما شاهدته فيما بعد أثناء سياحتنا اليومية، وزياراتنا لمواقع كثيرة مع الوكالة اليونانية. استقرّ المقام بنا في بلدة سياحية على شاطئ البحر غير بعيدة عن مدينة "سالونيك" ثاني أكبر المدن اليونانية بعد العاصمة "أثينا".

**السياحة ثقافة عريقة.. صناعة راقية:** اليونان بلدٌ سياحي بامتياز، السياحة به حُرّة، تتكفّل بها الدولة بنسبة أقلّ، إنّما الفنادق المختلفة "نجومها وخدماتها"، الوكالات السياحية، النوادي، وأكثر الأهالي الذين يتعاقدون مع الوكالات مقابل تسعيرة تتباين وفق المنزل الأسري، وسعة أسرة المقيمين. في تلك البلدة استقبلتنا عديد العائلات، وجدثٌ نفسي رفقة ثمانية معلمين، أربعة في غرفة واحدة من الجلفة، وخامس من سعيدة، ورابع من البرج، كنا ثلاثة في غرفة واحدة، هيأت لنا تلك العائلة إقامة مُريحة في الطابق الأعلى حيث كان الاخضرار يحيط بالمنزل من جميع الجهات، ربّة المنزل سيدة في حدود العقد الخامس، تنهض صباحًا باكرا، تنزل للعناية بحيواناتها من دجاجات، وأرانب؛ كما كان زوجها الستيني يعُتني بالمساحة البهية المحاذية للمنزل من الجهة الخلفية، تراءى لي يوميا ثمار عرقه من

خضروات تنوّعت، وأينعت. شجرة العنب التي تصلّقت أغصانها متصاعدة الطابق الأرضي غطّت جدران ونوافذ الغرف السفلية، من الجهة الشمالية، وغرفتيْنَا العُلَيَيْنِ، العناقيد الرَيّانة الخجلى المُثقلّة بالحَبّات الذهبية في تناول أيدينا؛ كان بإمكاننا القطف، والأكل؛ قرّرنا جميعًا أن نتعالى باعتبارنا سفراء لبلدنا، وتقديرا لتلك العائلة الطيبة التي ما أشارت إلينا بأيّ إشارة، كما تقديرا للبسمات، والتحيات الحميمية بالإشارة من أفرادها كلّما تلاقينا. عائلة وفّرت لنا كل مستلزمات الراحة من مياه عذبة، ما انقطعت، أسرّة، أفرشة نظيفة، أرضية تنظف كل يوم، مطبخ به كل وسائل الطبخ الحديثة، والإطعام، استغلّنا فقط في إعداد قهوة الصباح، وشاي المساء.

تجمّعنا كان بمقرّ الوكالة السياحية، من أجل الانطلاق في الرحلات السياحية، أو التوجّه نحو المطعم لتناول وجبتيّ العشاء؛ لأن وجبة الغداء عادة ما كانت في هذا الموقع، أو ذاك في منطقة سياحية أخرى. كان تجمعنا بمقرّ الوكالة السياحية الغير البعيد من مقرّات إقامتنا، والمطعم؛ في الأماسي بعد العودة من التجوال السياحي خارج تلك البلدة، أو من الشواطئ الرملية القريبة نتجمّع في مقرّ الوكالة، حيث تصدح الموسيقى الجزائرية بكلّ طبعها، غالبا ما ترافق برقصات حماسية بحركات تتموسق مع تموجات الجسم الأثنوي الجزائري من الأستادات، والمعلمات، ممّا ألفت نظر السياح المارين الكثر الذين سرعان ما يتقدمون، ويندمجون، فيتحوّل المشهد إلى عُرسٍ جزائري، يتماهى معه الآخر، تعمّ البهجة، ويعبق المكان بالضحكة، والبسمة، والإشارات الجسمية.

**اللغة اليونانية . . السيدة:** كانت تلك هي وسيلة الاتصال الإنسانية الوحيدة؛ لا العربية أنجدتنا، ولا الأنقليزية التي حرمتنا منها ساستنا ساعدتنا، ولا الفرنسية التي عشقها حكامنا نفعتنا؛ فالشعب اليوناني شعبٌ متمسك، بلغته اليونانية، ولم يختر لها منافسًا، ولا بديلاً. في الفنادق، في أكشاك بيع التذكارات، والتبغ، والصور البريدية صادفتُ البعض من الباعة قد يفهم منك بعض الكلمات الوظيفية البسيطة باللغة الأنقليزية كالأعداد الأولى البسيطة، أو قيمة التسعيرة، أو ألفاظ التحية، غير هذه الوسيلة الاتصالية الوحيدة هي لغة الإشارة وحسب. خمسة عشرة يومًا كانت غنية بالنسبة لي حيث برنامج الرحلات كان منوعًا، وثريًا، اكتشافيا لعديد المواقع الأثرية التاريخية لشعب اليونان، إذ يوجد في هذا البلد كثيرُ الأماكن الأثرية تعود إلى زمن الإغريق والرومان، والبيزنطيين كما توجد أماكن طبيعية..

**رحلات بحرية . . ومياهٌ لازوردية:** زرت العديد منها خلال الرحلات المبرمجة لنا، كما تمتعت بالجولات البحرية في الطوافات لعديد الجزر البحرية، المحاطة بالمياه المتلألئة ذات اللون اللازوردي، وانعكاس الشمس على صفحتها، وقفز الأسماك، والدلافين، وتهادي الطوافة وخيلاءها على إيقاع الموسيقى اليونانية التي تماهت مع إيقاع الموسيقى العربية. رسو الطوافة كان عند منتصف النهار، إذ انتظرتنا وجبة شهية في مطعم تقليدي، وجبة من خيرات البحر المختلفة مُشواة على الحطب مع السلاطة على الطريقة المتوسطية، والمشروبات؛ هي رحلة ليوم كامل، كما تمتعت برحلات إلى مواقع سياحية جبلية، وأخرى إلى بلدات صغيرة تخترقها أنهار حاذتها مطاعم ومقاه، وأماكن للترفيه، بمحاذاة النهر، صُفّت

الكراسي في وضعية تسمح للزبون بمشاهدة الأسماك، وتحديد ما يريد منها الزبون، وإشعار عامل المطعم، فيصطادها لك حيناً، ويقدمها لك إمّا مشوية على الحطب، أو مقلية حسب ذوقك.

**العاصمة أثينا**؛ قطعنا المسافة ما بين مدينة "تسالونيك" التي أقمنا قريباها والعاصمة "أثينا" في حدود 500 كلم، طريق سيار دولي يربط بين أوروبا وتركيا مروراً باليونان، قطعنا شطره اليوناني، المضاء كله إنارة عمومية. وصلنا مع مطلع الشمس، حيث قضينا بالعاصمة يوماً كاملاً نصفه مبرمج لعدة مواقع، ومنها: البارثينون على قمة الأكروبول أعالي المدينة واحداً من المعالم السياحية الأكثر شهرة في اليونان، زيارة أثينا لن تكتمل دونه. ساحة "سينتاجما" الساحة الأكثر أهمية في أثينا وسط المدينة، مزدحمة باستمرار من السكان المحليين، والسياح على حد سواء. تضم الساحة مبنى البرلمان اليوناني، وقرباً منها مقر رئاسة الجمهورية. مقر البرلمان بعمارة اليونانية القديمة المتميزة يقف حراسه بلباسهم العسكري القديم اليوناني اللافت للنظر؛ آلاف السياح ينتظرون الساعات الطويلة بشوق فترة تغيير مداومة الحراس أمام مدخل البرلمان، وأخذ صور تذكارية لهم، كنت من هؤلاء، أخذت لي صور من مٌصورٍ مُحترِفٍ إلى جانب الحارسين الواقفين كتمثالين جامدين، دون أن تحسّ أنهما من الأحياء، كتّا طاבורاً بالعشرات لأخذ تلك الصور دون اعتراض الحارسين ولا قادتهما.

مما أتذكره أني طففتُ بمقرّ رئاسة الجمهورية اليونانية من جميع الجهات، كل الشوارع المحيطة به كانت كغيرها مفتوحة للسيارات، والمارين؛ لا حراس، لا آليات أمنية، على جانب الباب الرئيسي وقف شرطياً واحداً.

**مدينة تسالونيك:** بعد عودتنا من أثينا بُرِجحت لنا الزيارة الثانية إلى مدينة "تسالونيك" المدينة الرئيسة الثانية بعد العاصمة أثينا. تسالونيك إحدى أقدم المدن في القارة الأوروبية. مدينة سياحية، وتجارية غاية في الازدهار، تقع في شمال اليونان، بؤابة رئيسة للعديد من دول البلقان، كما أنّها إحدى مراكز المواصلات الهامة في جنوب شرق أوروبا. تشتهر هذه المدينة بالمهرجانات الثقافية اليونانية، والعالمية، والحركة الثقافية.

**مرافئ بالذاكرة:** ممّا علق بذاكرتي من تلك الرحلة التي مرّ عليها أكثر من عقدين ونصف:

## يوناناً

**1 -** أنّ الشعب اليوناني شعبٌ طيّبٌ هادئٌ مُسلمٌ، متفتحٌ على الآخر، لا كرهه عنده نحو الجنس العربي. ليست لديه تلك الروح الاستعلائية الأوروبية، والنزعة العدوانية الاستعمارية.

**2 .** شعبٌ الكثير من عاداته، وتقاليده المعيشية بحكم تواجده ضمن شعوب البحر الأبيض المتوسط لا تختلف عن عادات وتقاليده شعوب هذا البحر بما في ذلك الجزائر.

**3 .** شعبٌ متمسكٌ إلى حدّ التعصّب بهويّته الدينية المسيحية حتّى أنّ الزائر لذلك البلد، وقد رأيت أنه في كل محطة للوقود، أو في محطات النقل، وفي محطات الاستراحة بالطرق ما بين المدن، والقرى والبلدات وُضع صندوق مُضاء ليلاً نهاراً، يعلوه صليب فوق منصة عالية لوضع الأموال من أجل بناء كنيسة هنا وهناك.

**4.** شعبٌ نظرتَه إلى الإسلام خلال زيارتنا التي تزامنت مع سيّف منظمة القاعدة الذي أذاق العالم شرقاً وغرباً العلقم، كما الأخبار اليومية للإرهاب في الجزائر، كانت نظرة عدوانية لدى البعض من مواطنيه، وهذا لا ينفي أنّ بهذا البلد أقلية مسلمة تنتمي إلى عدة قوميات، منهم الأتراك، والبلغار، والألبان، ومنهم اليونانيون.

كان باليونان عدد كبير من المساجد أيام الحكم العثماني، انخفض عددها إلى **300** مسجد، وهذا الرقم أخذ في التناقص، إذ هُدم العديد منها بسبب التقادم وعدم الصيانة. وباقى المساجد أُغلقت نهائياً عندما توترت العلاقات بين تركيا المسلمة واليونان المسيحية، وتحوّلت إلى حروب شرسة بين دولتين جارتين بسبب جزيرة قبرص المتنازع عليها. في زيارتي تلك للعاصمة "أثينا"، أُعلمت أنّ مسجدها الوحيد مغلقٌ. علمتُ أخيراً أنّ مشروع مسجد ومركز إسلامي في أثينا في طور الدراسة ثم الإنشاء.

ومما أتذكّره أنّ كان معنا زميلٌ من مدينة تندوف، كان رئيس بلديتها قبل أن يكون مدير مدرسة، ما تخلّى عن لباسه التندوفي الصحراوي، كان تواجهه معنا في الشوارع، أو المقاهي، أو المتاجر، أينما تواجد كان نذير رُعبٍ لكل من رآه من الساكنة، أو السيّاح؛ أرغمناه عن التخلّي عن ذلك اللباس.

**5.** شعبُ اليونان شعب متمسكٌ بلغته حدّ التعصّب؛ بل الهوس، حيثما حللت، أينما فتحت عينيك فاجأتك اللغة اليونانية: الاتصال والتواصل بها، التعامل بها، الإعلام المكتوب، المسموع، المرئي بها، المحيط بها، الإدارة بها، لا أنقليزية، الفرنسية لا علم لهم بها؛ المفارقة الوحيدة أن لافتات الإرشاد على الطريق السيار الدولي، كانت اللغة الإنكليزية تحت اليونانية بحجم أصغر.

**6.** الشعب اليوناني أقلّ نشاطاً وحركية من شعوب أوروبا، أثناء زيارتي شاهدتُ ذلك من خلال التجمعات في المقاهي، وعلى جوانب الطرقات، وأرصفتِ الشوارع، التحدث، التدخين...

**7.** ممّا سمعناه من اليونانيين أنفسهم الذين تعاملنا معهم في الوكالة أنّ الشعب اليوناني معروفٌ بالتهرّب الضريبي، الكلّ: مواطنون، هيئات، موظفون، مسؤولون كبار. وهي من بين الأسباب الرئيسة التي وضعت اليونان دائماً في وضعٍ اقتصادي بئسٍ متأزمٍ حتى أيامنا هذه.

**8.** في تلك الحقبة ما كانت العلاقات قوية بين اليونان والعالم العربي، وما ظهر الخليجيون بعد كقوة مالية (وليس اقتصادية) بعد، مثلما هو الأمر عليه في السنوات الأخيرة وقد اقتحموا أغلب دول العالم سياحياً كاليونان ليس بحثاً عن "السياحة الحقة"، إنما لهفة نحو "سياحة المتعة الجسدية الغريزية". في تلك السنة **1993م**، طوال رحلتنا رأينا عن بُعدٍ وفداً سياحياً تونسياً صغيراً في أكروبول أثينا.

**9 -** في البلدة الشاطئية ذات الميناء الصيدي التي أقمنا بها التقينا بمجموعة كبيرة من عمّالٍ مصريين دون عائلات يعملون صيادين في سفن صيد يونانية كبيرة لرجال أعمال يونانيين. التقينا بهم قرب الميناء، تفتّنا إلينا لمّا سمعونا نتحدث باللغة العربية؛ كانت فرحتهم كبيرة جداً، احتفوا بنا، وصعدوا بنا إلى السفن التي كانوا يعملون بها ليلاً للصيد، وراحتهم كانت بالنهار، أكرمونا عديد المرّات بموائد لذيذة من أنواع السمك، والشاي الأحمر اللذيذ.

## جزائرياً

**1 -** نصف الأستاذات والمعلمات غادرن الجزائر متحجّبات، بمجرد الوصول إلى اليونان خلعن الحجاب، من هؤلاء من ظهرن بالميني جيب، السراويل الضيقة،

المايوه البحري؛ قليلات بقين بالحجاب كبيرات السنّ. أثناء العودة " عادات حليلة إلى عادتها القديمة".

**2** - بعض الأساتذة والمعلمين، وإن كانوا قلة رأوا من الرحلة تحرراً من القيد العائلي، والتبحر في ملازمة الحانات، أو المقاهي التي بها عصير الكرمة معروضة إلى آخر ساعة من الليل، والغانيات العارضات أجسامهنّ حولهنّ..

**3** . نقلنا إلى هناك سلوك الإنسان الجزائري المتصف في أغلبه بالنرفزة، والقلق، وتوتر الأعصاب، وعدم التمتع باللحظات الجميلة التي لن تتكرر، والخلو نفسياً من الذائقة الجمالية الفنية؛ كما سلوك اللهف وراء الأطمعة كان واضحاً مُزعجاً للإنسان اليوناني؛ من ذلك أننا كنا نتناول غذاءنا وعشاءنا في مطعم على شاطئ البحر اختارته الوكالة السياحية للرحلات الجزائرية طوال صيف تلك السنة، علماً أنّ مادة الخبز في ذلك البلد كباقي الدول الغربية قليلة الاستهلاك، في ذلك المطعم لما كنا نجلس حول مائدة الطعام نجد قفيفة صغيرة بها خبيزات بعدد الجالسين. بسرعة البرق تلتهم، ولما يأتي العمال بالوجبة يفاجؤون بنفاد الخبيزات، فيأتون بغيرها، ثم سرعان ما ترتفع الأيدي مطالبة بالمزيد. بمرور الأيام وبمجرد ما ترتفع الأيدي يتضحك العمال مردّدين: "حوز.. حوز.. ههههه".  
أضحوا منذ البداية يكّدسون الخبز على حساب تقليص مكّونات الوجبة.

**4** - افتقاد ثقافة السياحة بالتعرّف على الآخر جغرافياً، تاريخياً، معالم، سياحة، ثقافة، اقتصاداً، ثقافاً.. الغاية الرئيسة هي التحرر الكامل، الأكل، الشرب، المشروبات، التسوق... البعض الهدف من الرحلة " إطفاء شهوة الجسد".

**5** - عددٌ ممن كنّ معنا في الرحلة ربطنّ علاقات مع عمّال الصيد المصريين، وبتنّ يرافقنهم طوال رحلة الصيد الليلية في أعالي البحار؛ ثم يعدن صباحاً. لأن

الوكالة السياحية هي في حلٍّ من تتّبع، أو مراقبة أحد، أو واحدة من أعضاء الرحلة.

## 5 - تركيا.. اسطنبول.. 2017

عرض عليّ ابني فاروق الأستاذ الجامعي، المحامي، وابنه حفيدي إسلام سنة 2017؛ أن نترافق في رحلة سياحية إلى تركيا، تحديداً إلى مدينة "اسطنبول" ضمن رحلة نظمتها وكالة "شرشال" السياحية التي مقرّها باب الودي، الجزائر العاصمة، مدتها عشرة أيام بثمانٍ مُغرٍ، تكفّلت وكالة "شنة" للسياحة والرحلات بقمار، بالتنسيق مع وكالة "شرشال" للتكفل بكل الإجراءات كالتأشيرة، وتذاكر السفر، وتحديد تاريخ السفر، والعودة.

السفر إلى تركيا كان حلمًا لديّ، من السفريات التي كنت أستبعدّها لبُعد المسافة، وحاجز اللغة، بالرغم من أنّها دولة مسلمة، وفي ثقافتي الشخصية سيّما التاريخية أنّ الدولة العثمانية كانت جزءاً من الأمة الجزائرية، وتاريخها مشرق في منطقة المغرب العربي، وحتى تاريخنا المعاصر، الشعب الجزائري في أغلبه يُكَنّ المحبة للدولة العثمانية، اعترافاً بجميل صنعها تجاه الأمة الجزائرية؛ إضافة إلى العلاقات المتينة في كل المجالات مع تركيا المعاصرة.

**الحلم تحقّق..**؛ لما جاءني فرصة الرحلة السياحية سُررْتُ كثيراً وهَيَّأتُ لها معنوا، نفسياً، مادياً. انطلقنا جوّاً من مطار قمار يوم 01 / 08 / 2017 الواحدة والنصف ظهراً، خرجنا من مطار الجزائر الداخلي الثالثة والنصف. قضينا الأمسية، وتناولنا العشاء مع الأستاذ المحامي فتحي إدريس، وعائلته أصيل مدينة

قمار، ورفيق ابني. توجهنا نحو المطار الدولي الساعة التاسعة ليلاً، استعداداً للرحلة نحو إسطنبول التي كانت مبرمجة على الساعة الواحدة ليلاً، بدلاً من ذلك كان الانطلاق الساعة الثانية والنصف لتأخر قدوم طائرة الخطوط التركية التي أقلّتنا. عددنا المتكفل بنا من وكالة شرشال ثلاثين سائحاً ما بين ذكور، وإناث، نصف العدد بالكاد عائلات محترمة مع أبنائهم وبناتهم، والبقية رجال كهول، هدفهم السياحة، والتعرّف على تركيا، وهذا ما لمستّه طوال الأيام التي قضيناها معاً، سرعان ما اندمجنا معاً، وصرنا كأننا عائلة واحدة. استغرقت الرحلة ثلاث ساعات بالضبط بين الجزائر العاصمة ومدينة إسطنبول، حططنا الرحال بالأرض التركية صباح الأربعاء 02 / 08 / 2017، الإجراءات شاقّة، وصعبة في المطار بسبب كثرة القادمين من الشرق والغرب، من أمريكا، وأوروبا؛ من دول الخليج والبلدان العربية الأخرى كما مئات القادمين إلى مطار إسطنبول المتحوّلين عبره إلى دول أخرى.

أتذكّر القلق والتوتر لدى المسافرين، كما لدى أعوان الشرطة، وأعوان الجمارك الأتراك، أخذت منّا تلك الإجراءات مدّة ساعتين، كنّا خارج المطار الساعة الثامنة صباحاً.

**سِحْرُ الحكاية:** كان في انتظارنا السيد قيس قصير ممثّل وكالة "شرشال" الذي حمل لافتة كبيرة، عليها شعار الوكالة، سرعان ما التفّطنا حوله، وأتبعناه إلى خارج المطار حيث كانت في انتظارنا حافلة استوفت شروط الراحة والرفاهية لوكالة سياحية تركية متعاقدة مع وكالة "شرشال"، تولّت أمرنا طوال الأيام التي قضيناها هناك من: فندقة، وإطعام كافٍ في فطور الصباح، وجولات سياحية إلى

معالم إسطنبول وضواحيها بمكوّنها الآسيوي، والأوروبي. من المطار مباشرة توجّهت بنا الحافلة نحو قلب مدينة إسطنبول، إلى ساحة " تقسيم " التاريخية. ما شدّ انتباهنا الحركة الكبيرة في المطار، وشساعته، والنظام، والانضباط، والنظافة؛ مطار يتعامل مع أغلب دول العالم، مطار يربط بين كلّ القارات؛ كما كثرة الطائرات، وهبوطها، وصعودها، إذ في كل عشرة دقائق بالكاد تنزل هذه الطائرة وتصعد تلك، كثرة الطائرات الرابضة استعدادا للطيران، أو قادمة؛ أنها بجانب بعضها وكأنها حافلات نقل اصطفّت بجانب بعضها البعض.

**بحر مرمرة استقبلنا:** مررنا بشارع رئيس من المطار نحو المدينة من الجانب الأيمن يحفّه بحر " مرمرة ": الجميل، الأخاذ، ومن الجانب الأيسر وبعرض عديد الأمتار امتدّت جنّات خضراء موشّحة بالورود والزهور المنوّعة، تصدّرتّها عبارات الترحيب بالقادمين إلى المدينة، وإلى تركيا نُسجت بدقّة وإتقان بتلك الزهور البهيّة؛ كانت باللغة التركية وحدها السيّدة، وحدها في المحيط، كما كانت وحدها في كل التعاملات، والهينات، والتخاطب، والتواصل بين القادمين، والسكّان؛ لا مكان للغة أخرى مهما كانت.

توقّفت بنا الحافلة عند محاذة بحر مرمرة الذي هو بحرٌ داخليّ صغير في تركيا، منه يمتد مضيق البوسفور الذي يفصل الجزء الآسيوي عن الجزء الأوروبي منها، وقد عرف عبر التاريخ بانتشار الجزر الرخامية فيه ومنها اشتق اسمه. يقع بحر مرمرة شمال غرب تركيا وتطل عليه من الشمال سواحل مدينة إسطنبول، ويتصل بالبحر الأسود عبر مضيق البوسفور الذي يمتد إلى الشمال ليفصل الجزء

الآسيوي من تركيا عن الجزء الأوروبي، بينما يصله مضيق الدردنيل الذي يمتد إلى الغرب ببحر إيجه. أُطلق على بحر مرمرة قديماً اسم "بروبانتس"، لكن اسمه الأشهر مشتقٌ من الكلمة الرومانية "مارماروس" وتعني الرخام، وقد عُرف عبر التاريخ بانتشار الجزر الرخامية الصغيرة. وقفنا بمحاذاته ونزلنا، ثمّ مشينا على كورنيشه الجميل، ملتقطين في كل مرّة صوراً جميلة للذكرى. توجهت بنا الحافلة صوب ميدان "تقسيم" المشهور وسط المدينة مروراً بمدينة "أزمير"، فبحر البوسفور، حي "كاراكي"، الحي القديم، حي "بيرا" فميدان، أو ساحة "تقسيم" تُسمى منطقة تقسيم في إسطنبول بميدان تقسيم أو ساحة تقسيم، وتقع في القسم الأوروبي من إسطنبول؛ مع العلم أنّها تُمثل مركز المدينة الحديثة بيولو، وتمّ تأسيسها من قبل السلطان محمود الأول، ويوجد فيها نصب الجمهورية التركية الذي تمّ تشييده في 1928م

**ميدان "تقسيم" ميدان الحراك التركي:** من الصّعب أن يكون المرء في اسطنبول ولا يمر بميدان تقسيم ولو مرّة، بل إن هذا لمن المستحيلات. الميدان ليس محطة مترو إسطنبول الرئيسيّة وحسب، وإنّما مركز حياتها اليوميّة والثّقافية والعرق الذي يصل أطراف المدينة بعضها ببعض، ويوصل أيضاً ما بين الحركة السّياحيّة في المدينة والحياة اليوميّة المحليّة. أخذ الميدان اسمه من محطة توزيع المياه القديمة للمدينة والتي توقّف استعمالها قبل قرن من الزّمن، استمرّ فيه استعمال السّاحة والأحياء التي حولها كالمركز الثّقافي للبلد.

أهمّ الشّوارع التي تصبّ في الميدان لتجعله من أهم مناطق اسطنبول السياحية هو شارع استقلال الحيويّ والغنيّ بما يعرضه للسّائح من مقاه ومطاعم، ناهيك عن تجربة التّسوّق والتّجوال المدينيّ الحيويّ. تجد بالقرب منه منتزه غازي الذي يشكّل الرّئة الخضراء الكبرى لوسط إسطنبول. الفنادق المهمّة والمشهورة حول السّاحة لا تعدّ، ومن أشهرها الرّيتس كارلتون والمارمارا. حول الميدان مطاعم الأكل السّريع، وأمّا في الشّوارع المحيطة توجد المطاعم، والحانات والتّوادي الليليّة. من ساحة " تقسيم " كانت وجهتنا فندق " مارمارا " بالقرب من قصر البلدية الذي أقمنا به غير بعيد من جامع السلّيمانية التاريخي، المعروف بالمدينة. مساء ذلك الأربعاء بعد استراحتنا اصطحبنا دليل الوكالة الشابّ السمح، البهي، المتخلّق قيس في جولة إلى جامع " الفتح " التاريخي المشهور، فالساحة الخضراء التي كانت عاجّة بالسكّان، والسيّاح، والأهالي، والعائلات، وأطفالهم.

الوكالة السياحية التركية المتعاقدّة مع وكالة " شرشال " وضعت برنامجاً دقيقاً لنا، إذ خصّصت لكل يوم وجهة، كما أنّها خصّصت لنا دليلاً تركيا، أقام في الجزائر بمدينة قسنطينة مدّة ثلاث سنوات عاملاً مع شركة تركية، تكلم معنا باللغة الفرنسية التي تعلّمها في الجزائر مثلما تعلّم العربية، فضّل التحدّث معنا باللغة الفرنسية لأنّه كغيره من الأجانب ترسّخ عندهم بأن الجزائريين أقرب إلى الفرنسية منهم إلى العربية. يوم الخميس 03 / 08 / 2017 قضيناه في الفندق راحة، أو تعرّفنا على المحيط القريب.

1 - يوم الجمعة 04 / 08 / 2017 ركبنا الحافلة التي كانت متوقفةً بمحاذاة

رصيف جامع السليمانية مقابل القصر البلدي حيث أعلمنا الدليل التركي بأن وجهتنا اليوم "جزر الأميرات"، وأن جولتنا طوال اليوم بحريةً بامتياز. ربما البعض يتساءل لماذا سُميت بـ "جزر الاميرات". جزر الأميرات بالتركي: Prens Adalar، نسبة إلى الأميرات البيزنطيات اللواتي تم إبعادهن إلى ذاك المكان في العصر البيزنطي، وبعد ذلك حُوّلت تلکم الجزر لتصبح مصيفاً خاصاً لملكات الدولة العثمانية في ذلك الوقت، لأنها تتميز بخصوصيتها التي تنفرد بها عن غيرها من الجزر، وتتألف من 9 جزر هي: الجزيرة الكبرى "جزيرة الاميرات بيوك اضه"، جزيرة حقيبة السرج، جزيرة القلعة، جزيرة الحناء، جزيرة أم اللؤلؤ، الجزيرة المسطحة، الجزيرة الحادة، جزيرة الملعة، جزيرة الأرنب؛ بالإضافة إلى أنها من الجزر البعيدة عن المركز الرئيس لمدينة اسطنبول. تُعدّ جزر الأميرات من أهمّ الوجهات السياحية والشعبية في إسطنبول، أربعة منها فقط مُتاحة للزوار، وهي جزيرة بويوكادا وهي أكبرها وأكثرها شعبية، وجزيرة بورغازادا، وجزيرة كينالادا، وجزيرة هيبيليدا.

**طوافة تنهادي .. موسيقى تصدح؛** انطلقنا إلى الجزيرة الكبرى على ظهر سفينة بسقف قماشي خفيف، الساعة العاشرة صباحاً، كانت الكراسي المصطفة ملأى عن آخرها بالسياح الذين أغلبهم جزائريات، وجزائريون، وخليجيون خاصة من الإمارات، وقطر، وقلّة من التوانسة. دليل الرحلة كان سورياً تكلم معنا باللغة العربية الفصحى، تدغدغ مسامعنا رفقة حديثه إيقاعات ساحرة لموسيقى تركية.

حدّثنا عن بحر مرمرة، البوسفور، معالم مدينة إسطنبول التي كانت تظهر لنا ونحن نبتعد عنها من قصور تاريخية، وجوامع عريقة؛ ثم حدّثنا مطوّلاً عن جزر الأميرات، وتاريخها التي وصلناها بعد ساعة. الجزيرة تصلها بواخر السياح مملأى في كل وقت، وجدناها تعجّ بالآلاف، والإقبال على كل ما له علاقة بالترفيه قوياً. الكاليش التحفة.. جولة في أعالي غابة الجزيرة: السائح له الكثير من الخيارات، من ذلك مثلاً (وهذا ما اخترته شخصياً) جولة في أعالي الجزيرة بين غاباتها، الخضراء، ووهادها، وإطلالة على البحر والجزر الأخرى على متن عربة كاليش جميلة مرّت بي تتهادى بجانب قصور، وفيلات أغنياء تركيا، والعالم، رحلة بسعْر مائة ليرة تركية (50 د.ج) دفعْتُها إلى صاحب الكاليش. مطاعم انتشرت على كورنيش الجزيرة، أو في شوارعها يملكها أتراك، ويعمل بها عمالٌ سوريون يتعاملون مع الزبون بحرفية كبيرة، ووسامة، وبلغة عربية وظيفية. لا يسع السائح إلا أن يندمج ويتناول وجبة شهية من فواكه البحر، وهذا ما تمّ لنا أنا وابني فاروق، وحفيدي. أثناء عودتنا كان الهواء رائقاً، السماء زرقاء جميلة، بخار البحر يعطرنا برائحته الزكية، الموسيقى تصدح تارة بإيقاع جزائري، وتارة بإيقاع تونسي، وتارة بإيقاع سوري.

بخار البحر البارد أكرمني بطريقته الخاصة: كنتُ على حافة الباخرة، تسرّبت الريح البحرية في كلّ كياني؛ بعد عودتنا إلى الفندق ما أن دقت الساعة العاشرة ليلاً حتى بدأني السعال، وما أن حلّ صباح اليوم الموالي حتى أصبت بنزلة برّدٍ وزكامٍ عدتُ به إلى الجزائر، وفقدتُ صوتي، وأصابني البحة نتيجة توقّف

الجمال الصوتية اليمنى عن أداء مهامها؛ مما تطلّب مني زهاء السنة علاجاً مع طبيب الأمراض التنفسية، وطبيبة مختصة في إعادة تأهيل استرجاع الصوت بالوادي.

**2 - السبت 05 / 08 / 2017** كانت وجهتنا في الحافلة مع الدليل التركي نحو الجامع الأزرق، وكنيسة "آيا صوفيا" التحفتان المعمارتان، والتاريخيتان. قبل دخولنا الجامع طاف بنا الدليل في الحدائق الجميلة المقابلة للجامع التي كانت تعجّ بآلاف السياح من كل القارّات. الجامع الأزرق، أو جامع السلطان أحمد في اسطنبول من أهم، وأشهر الجوامع على الإطلاق في العالم، ويُعرف أيضاً باسم "الجامع الأزرق" لأن جدرانه الداخلية مُزينة ببلاط "إزنيك" الأزرق المزخرف. يتميز الجامع بآثار بصمات الفنّ المعماري البيزنطي والعثماني، وموقعه المطل على بحر مرمرة ومقابلته لمتحف آيا صوفيا. ويتمتع الجامع بفناء واسع وبارتفاع قدره **43** متراً ويحوي أكثر من **200** نافذة.

يُضفي انعكاسُ أشعة الشمس التي تتسلل إلى المسجد من خلال النوافذ، على البلاط الأزرق منظراً رائع الجمال.. كما أن المسجد على غرار الجوامع الأخرى في المدينة مفروشٌ بأفرشة غاية في الفخامة والبهاء، منذ فتحه صباحاً حتى تأدية صلاة العشاء عامراً بالآلاف، إمّا معتكفين، إمّا مصليين، إمّا زوّاراً، الكل خاشعٌ بجمال المكان، وعظمة الخالق، منبهراً بجمال العمارة الإسلامية وبهاء فنّها. وبغضّ النظر عن كونه من أهم مراكز الجذب السياحي في إسطنبول، يضحّ المسجد أيضاً بحركة المصلين في أوقات الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة. شدّنا المكان، أبينّا أن نغادر بالرغم من أدائنا صلاة تحية المسجد، والتقطنا صوراً

تذكارية... ما لاحظناه أنّ العرب من زوّار الجامع الأزرق قِلَّةٌ ما عدا الجزائريين،  
والخليجيين بكثرة، والتونسيين بقلة.

**3 - الأحد 06 أوت 2018** توجهنا إلى قصر "توبكاي" حيث عشنا عِبْق التاريخ:  
- في رحاب المتحف الإسلامي من خلال أشياء أنبياء الله: داوود. موسى.  
يوسف. يحيى. رسول الله صلى الله عليه وسلم. ابنته فاطمة رضي الله عنها. أشياء  
الخلفاء الراشدين.. متحف السلاطين العثمانيين.. متحف الأسلحة عهد الدولة  
العثمانية.. متحف أدوات الطبخ ونظامه أيام الدولة العثمانية.

**4 - الإثنين 07 أوت 2017** توجهنا صباحا في هذا اليوم نحو سوق البازار  
الكبير في مدينة اسطنبول.. سوق تجاري بمثابة القلب التجاري والمالي النابض في  
المدينة.. إضافة إلى مراكز أخرى، كُلُّ حَيٍّ له بazarاته.. إنما سوق البازار الكبير  
هو وجهة المتسوقين، والسياح ليس من تركيا فحسب، بل من كل زوار وسيّاح  
العالم شرقا وغربا.. تجارة حرة، وبيع بالليرة التركية بالدرجة الأولى ثم بالدولار  
الأمريكي.. بضائع وصناعات كلها صناعة تركية.. بازار منظم، نظيف، محروس:  
- قسم الملابس لكل الأعمار، نساء ورجال، قسم الأحذية.. قسم المجوهرات  
بكل أنواعها.. قسم الحلويات الشرقية.. قسم التحف.. قسم الإلكترونيات.  
- أينما كنت في أي حَيٍّ، أو شارع صرّافو العملات المعتمدون من الدولة التركية  
موجودون.. الصرف يخضع للبورصات العالمية..  
- البضاعة حتى وإن كانت مُسعّرة، فإن الزبون عليه أن يكون يقظا.. البضاعة  
نفسها قد تجدها عند هذا بخمسين ليرة تركية، بختكتك، وحوارك المقنع قد  
تأخذها بخمس وعشرين ليرة من التاجر الثاني.

- بيّع بالجملة والتجزئة.. الأسعار مضبوطة على البضاعة.. تجار احترافيون أترك بالدرجة الأولى ثم سوريون.. تعايش، تعاون بجانب بعضهم.. تقبل للآخر.. متسوقون بالآلاف رجالا ونساء متحجبات وسافرات.. بجانب البازار شوارع وأزقة، ومطاعم راقية ومتوسطة وشعبية الكل يجد مستواه، ومبتغاه.. الجزائريون كثرة أينما ذهبت تلتقي بهم عائلات وأفرادا، وتجارا في حركة لا يختلفون عن أهل البلد..

**5 - صباح الثلاثاء 08 / 08 / 2017** كانت وجهتنا رحلة بحرية في مضيق البوسفور على ظهر سفينة بحرية سياحية فاخرة، امتلأت بالسياح ذكورا وإناثا، كلنا عرب، أغلبنا جزائريات وجزائريون، قلّة من الشباب. كان دليلنا في الرحلة شابّ سوري تحدّث بطلاقة، وبلغه عربية فصيحة. مرّت بنا السفينة في البداية بمحاذاة القسم الأوروبي غير بعيد عن الرصيف، في العودة مررنا بمحاذاة القسم الآسيوي، غير بعيد أيضا عن الرصيف. كلّمنا مررنا أمام قصر تاريخي، أو قلعة، أو حصن، أو بناية كبيرة عتيقة، أو حديثة عرفها لنا الدليل تاريخًا، ووظيفة. يلتقي مضيق البوسفور، ومضيق الدردنيل مع بحر مرمرة قاسمين بذلك مدينة اسطنبول إلى قسمين أوروبي وآسيوي. يبلغ طول مضيق البوسفور حوالي 30 كم وعرضه من 7.0 حتى 6 كم. يربط مضيق البوسفور البحر الأسود مع بحر مرمرة، ومن ثمة عن طريق مضيق الدردنيل إلى بحر إيجه والبحر المتوسط ولذلك تمرّ بانتظام السفن التجارية والسياحية وناقلات النفط.

**6 - مساء الثلاثاء 08 أوت 2017** يومّ جميل مُشبع بالروحانيات في ظل الحضارة الإسلامية ومعالمها.. كانت زيارتنا للمسجد الذي به ضريح الصحابي الجليل صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو أيوب الأنصاري الذي نزلت

ناقة رسول الله أمام بيته بالمدينة المنورة.. أبو أيوب الذي شارك في كل الغزوات، وآخر غزوة شارك فيها وهو ذو ثمانين سنة عندما بعث معاوية جيشاً لفتح القسطنطينية، ولما شعر أبو أيوب بقرب وفاته أوصى قائد الجيش أن يدفنه في أقرب نقطة من تواجد العدو، فدفن قرب أسوار القسطنطينية..

ضريحه يزار وتقرأ عليه فاتحة الكتاب من آلاف الزوار من تركيا، ومن كل بلاد العالم الإسلامي.. أدينا صلاة الظهر في هذا المسجد الذي هو من أكبر مساجد مدينة اسطنبول.. ثم تحوّلنا إلى مسجد آخر روعة في العمارة الإسلامية، من أقدم المساجد: جامع السليمانية.. ثم أدينا صلاة المغرب في مسجد السلطان محمد الفاتح الواقع في منطقة عمرانية حديثة تعجّ حركة تجارية وتسوقا، ونقلنا وسواحا وساكنة.. ساحة المسجد واسعة نظيفة، مكان لفسحة العائلات وأبنائها.. هواء طلق، مياه، مقاعد مريحة.. ما أن ارتفع الأذان حتى هرع الجميع إلى الصلاة رجالا ونساء.. ما أن تقام الصلاة حتى يمتلئ المسجد عن آخره.

**اسطنبول لؤلؤة السياحة التركية:** مدينة اسطنبول فضاء تجاري بامتياز؛ كما أنه فضاء روحي.. المساجد متواجدة في كل الشوارع، الأذان يصدح في كل الأوقات، المصلون يعمرّون المساجد، بعد أن يسلم الأمام لا يخرج المصلون هاربين من بيوت الله كما عندنا.. بعد الصلاة تلاوة شجيرة لآي ذكر الله الحكيم، أدعية كثيرة متنوعة، وأقوال للرسول عليه أفضل الصلاة والسلام.. أدعية مأثورة كلها باللغة العربية الفصحى.. منذ الصباح حتى بعد منتصف الليل، وهذه المدينة تعجّ حركة، والعائلات تتفسّح في الشوارع الرئيسية، في الساحات المضاءة الفسيحة والمزينة والمساحات الخضراء..

الأمان .. الهدوء النفسي .. التعايش: الإنسان أينما حلّ يشعر بالأمان، بالهدوء النفسي، الكل يتعايش، يتقبل الآخر.. هنا تحلو الحياة.. فما بالك بالحضارة الإسلامية التي أينما توجهت تجد معالمها شامخة سيما في القسم الآسيوي من المدينة بها المساجد التاريخية التي بنيت منذ قرون: السليمانية، الفاتح، المسجد الأزرق بجانب كنيسة أيا صوفيا.. مسجد السلطان أحمد أين ضريح الصحابي الجليل رفيق رسول الله عليه أفضل الصلوات " أبو أيوب الأنصاري ". في القسم الأوروبي المساجد كثيرة، وفي كل سنة تُبنى الكثير وفق هندسة المساجد القديمة.. حضارة إسلامية متجذرة، حضارة معاصرة.. تجارة حرة الكل يتحرك، الكل يجد نفسه، لا متسولين . ما عدا السوريين . أطفالا ونساء فقط. قاعدة آدم سميث الاقتصادية مطبقة " دعه يعمل .. دعه يمرّ " بلد إسلامي، ولكن لا فرق بينه وبين بلد أوروبي في حضارته المادية، والبيئية، والاقتصادية، والصناعية، والتجارية.

.. دعه يعمل .. دعه يمرّ: ما لفت نظري أن الكلّ يعمل، العجلة الاقتصادية قوّلت الكلّ في الحركة الاقتصادية النشطة، نادرا ما تشاهد مقاهي، وإن شاهدتها تكون في زوايا، أو شوارع ضيقة جانبية، وروّادها قليلون، الكل يتحرك، وينتج، لا تسوّل، حتى الشيوخ الكبار المعاقون اتخذوا طاولات على الرصيف يبيعون وجبات خفيفة في متناول الجميع: أربع، خمس ليرات. ما تلتقطه عينك من بضاعة من الإبرة حتى أفخر السيارات صناعة تركية، كما الألبسة بكل أنواعها، ومقاساتها، وتركيبها إنتاج تركي، مثلما الصناعات الميكانيكية، والإلكترونية، والكهربائية، السيارات، وغيرها.

**السياحة . . معرفة، فنون، صناعة متكاملة:** ما لفت نظري المستوى الراقي للسياحة بدءاً من المطار، مروراً بالشوارع، والممرات، والأحياء، والمطاعم، والفنادق، والمنتزهات، والبواخر، والمنتوجات السياحية. المطبخ الشامي، سيّما السوري فرض نفسه، عشرات المطاعم لمقيمين سوريين، يشتغل فيها أفراد سوريون يقدمون أشهى الوجبات، وأجودها بأسعار معقولة في تناول الجميع، خاصة السياح الجزائريين، لحسن الاستقبال، والتعامل باللغة العربية.

السياحة في تركيا علمٌ وفنٌّ، صناعة متكاملة، إنتاجٌ، كما السياحة الدينية ذات فعالية، وجذبٍ لملايين السياح من العالم الإسلامي، وحتى من غيره. السياحة في هذا البلد تُدرُّ أموالاً ضخمة، يعيش منها ملايين السكان، كما أنها تدرّ ملايين الليرات على خزينة الدولة التركية..

**اعتزاز باللغة الوطنية:** لفت نظري، ونظر من زار تركيا، ومنها مدينة إسطنبول، اعتزاز الأتراك بذاتيتهم: هويّة، تاريخ، لغة، مكانة معاصرة، موقع جغرافي.. أينما ذهبت، إلّا واللغة التركية هي السيّدة في المحيط الاقتصادي: التجاري، المالي، الصناعي، المحيط البيئي، التعامل البيئي، التعامل والتواصل مع الآخر؛ وأنت تتعامل مع الإنسان التركي في أيّ مجال، لا مكان للغة الفرنسية معه، إذ لا يسمع بها، كما أنه لا يتعامل معك باللغة الإنكليزية، في تواصله معك إذا انسدت طُرُق التواصل بينك وبينه فإنه أخيراً يخاطبك بعربية سليمة تضاهي مستواك، أو أقل ولكنها مفهومة.

## 6. قاهرة المُعَرِّبِ .. 2018

لَمَّا كُنْتُ فِي لِقَاءٍ مَعَ وَزِيرِ الثَّقَافَةِ السَّابِقِ الْأَسْتَاذِ مِيهُوبِيِّ عَزَّ الدِّينَ بِمَقَرِّ  
الْوِزَارَةِ بِالْعَاصِمَةِ فِي شَهْرِ جَانَفِي 2018 لِتَقْدِيمِ مَلَفِّ طَلَبِ مَسَاعَدَةِ مَالِيَّةِ  
لِجَمْعِيَّتِنَا الثَّقَافِيَّةِ: " الرَابِطَةُ الْوَلَائِيَّةُ لِلْفِكْرِ وَالْإِبْدَاعِ"، كِي تَوَاصَلَ الْمَسَابِقَةُ الْوَطْنِيَّةُ  
لِلرَّوَايَةِ الْقَصِيرَةِ فِي طَبْعَتِهَا الرَّابِعَةِ، اسْتَعْلَمَ مِنِّي إِنْ كُنْتُ قَبْلَ تَوَلِّيهِ الْوِزَارَةَ  
اسْتَفَدْتُ مِنْ رِحْلَةٍ إِلَى أَيِّ بِلَدٍ نَظَّمَتَهَا وَزَارَةَ الثَّقَافَةَ، كَانَ رَدِّي بِالنَّفْيِ، وَرِحْلَاتِي  
الَّتِي تَمَّتْ خَارِجِيَا كَانَتْ عَلَيَّ حَسَابِي، وَقْتَهَا أَعْلَمَنِي أَنِّي سَأَكُونُ ضَمْنُ أَعْضَاءِ  
الْوَفْدِ الْجَزَائِرِيِّ مِنْ إِعْلَامِيِّينَ، وَمُتَقَفِّينَ الَّذِينَ سَيَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَعْرُضِ الْكِتَابِ  
الدَّوْلِيِّ بِالْقَاهِرَةِ، وَالَّذِي تَقَرَّرَ أَنْ تَكُونَ الْجَزَائِرُ ضَيْفَ شَرْفِهِ؛ وَكَلَّفَ لِحَظَّتِهَا  
الْأَسْتَاذَ جَمَالَ فَوْغَالِي الْمُدِيرَ الْمَرْكَزِيَّ لِلْكِتَابِ، وَالْمَطَالَعَةَ الْعُمُومِيَّةَ الْإِتِّصَالَ  
بِالِدِيَوَانِ الْوَطْنِيِّ لِحُقُوقِ الْمُؤَلَّفِ لِلتَّكْفُلِ بِإِجْرَاءَاتِ سَفْرِي.

رِحْلَةٌ اسْتَعْرَقَتْ خَمْسَةَ أَيَّامٍ بِمَا فِيهَا يَوْمِي الذَّهَابِ، وَالْإِيَابِ، حَيْثُ ارْتَأَى  
الْوَزِيرُ أَنْ يَسْتَفِيدَ عَدِيدَ الْكِتَابِ، وَالْمُبْدَعِينَ، وَالْإِعْلَامِيِّينَ طَوَالَ أَيَّامِ الْمَعْرُضِ، كُلِّ  
بِأَيَّامٍ مَحْدَّدَةٍ.

**عَضْوُ الْوَفْدِ الْجَزَائِرِيِّ:** فِيمَا خَصَّنِي تَكَفَّلَتِ الْوِزَارَةُ بِتَذَكُّرَةِ الطَّائِرَةِ، وَالْإِقَامَةِ  
الْفَنْدِيقِيَّةِ، وَالنَّقْلَ مِنَ الْفَنْدِيقِ إِلَى الْمَعْرُضِ بِمِصْرَ الْجَدِيدَةِ، وَتَكْفُلَ الدِّيَوَانِ الْوَطْنِيِّ  
لِحُقُوقِ الْمُؤَلَّفِ بِالْبَعْضِ الْآخَرِ، إِضَافَةً لِتَكْفُلِهِ بِمَنْحِي مَبْلَغٍ مَالِيٍّ بِالْأُورُو سَاهَمْتُ  
بِثَلَاثَةِ فِي إِقَامَتِي بِالْفَنْدِيقِ، وَمَا تَبَقَّى لِمِصْرُوفِي الْخَاصِّ، وَاقْتِنَاءِ كُتُبٍ.

يَوْمَ الْأَحَدِ 04 / 02 / 2018: فِي مَطَارِ الْجَزَائِرِ الدَّوْلِيِّ وَجَدْتُ الشَّاعِرَةَ، الرَّوَايَةَ  
رَبِيعَةَ جَلْطِي حَرَمَ الرَّوَايَةِ أَمِينَ الزَّوَايِ، وَشَابُّ آخَرَ مِنْ بَاتِنَةِ، كُنَّا الثَّلَاثَةَ فِي ذَلِكَ

اليوم وجهتنا القاهرة، ضمن الوفد الجزائري الذي توجه منه في كل يوم عددٌ، بينما يعود من استكمل أيامه.

بعد إجراءات السفر بمطار الجزائر الدولي؛ غادرنا المطار الساعة الواحدة ظهراً، بعد ساعتين من الطيران حطت بنا الطائرة في مطار القاهرة الدولي. كان في انتظارنا خارجه موظفٌ من وزارة الثقافة المصرية، حمل لافتة كُتب عليها بخطٍ ذي حجمٍ كبيرٍ: " الوفد الثقافي الجزائري"، تقدّمنا منه، كانت بين يديه قائمةً اسميةً، اسمي غير موجود بها.

البداية.. حجارةٌ في " الصبّاط": تساءلنا الثلاثة بحيرة، وقلقٍ. توجه بنا الموظف إلى فندق راقٍ ذي خمسة نجوم أقام به الوفد الجزائري.

أعلمني موظف الفندق أن اسمي غير موجود لديه، لا يمكن منحني غرفة، كما أعلم السيدة ربعة جلطي عدم منحها غرفة حتى ولو كان اسمها موجوداً لديه، حتى تعود رئيسة الوفد الجزائري العاشرة ليلاً من معرض الكتاب، لأنها وحدها المخوّلة بذلك. تعبُ السفر، وإرهاق إجراءات المطارين، صدمةٌ عدم وجود اسمي في القائمة، تأخر قدوم رئيسة الوفد عواملٌ عدّة أربكتني، وذهب بي الأمر إلى مغادرة الفندق، والتوجه إلى وسط القاهرة، وفي أحيائها الشعبية بحثاً عن فندق شعبي، حيث ما لدي ما ينيف عن ثلاثمائة أورو تكفيني لإقامة خمسة أيام.

السيدة ربعة جلطي التي كانت غاضبة جداً، وقرّرت العودة إلى الجزائر صباح الغد سواء في الجوية الجزائرية، أو الجوية المصرية. في حديثي معها بين الحين والآخر لاحظت قلقني، وتعبي؛ هاتفت زوجها أمين الزاوي، وأعلمته بوضعيتنا،

حينها كلّم وزير الثقافة مباشرة الذي اتصل بسرعة بمسؤولة الوفد الجزائري لمعرض الكتاب. سرعان ما عادت المسؤولة لتتفاهم مع موظفي الفندق الذين خفّوا لمناذاتنا، وإتمام الإجراءات، وتسليمنا مفاتيح العُرف.

**احباطات؛** في تلك الرحلة تعرّضتُ لعديد الصدمات التي ما خطرت لي على بال، منيّتُ نفسي في البداية أي ضيفُ مصر " أمّ الدنيا.. مصر أمّ العرب، مصر هبة النيل". من خُلوّ قائمة موظف الاستقبال في المطار من اسمي، وكذا لدى موظف الفندق، طلب مني هذا الموظف دفع مائة وخمسة أورو مساهمة مني في تكلفة الإقامة، دفعت له مائة وعشرة أورو، قبض المائة، وأعاد إلي العشرة، طالبا مني تحويلها إلى جنيهاً في مكتب لصرف العملات مجاور، لَمّا سلّمته العشرين جنيهاً سلّمني جواز السفر، وانصرف لزبون آخر، انتظرت أن يعيد إلي العشر جنيهاً تجاهلني، طالبتُه بها، واصل تجاهلي، ألححتُ، وما غادرتُ المكان، أخيراً أعاد إلي مُكرّها خمسة جنيهاً، وابتعد عن المكان.. واحتفظ بالخمسة الباقية.

**عمّالُ الفندق يرونك غنيمة:** ما أن نزلنا من السيارة التي أقلّتنا من المطار حتى قفز عمّالُ الفندق إلى الحقائب، كلّ عاملٍ اختطف منها ما يخص زبونا، ووضعها في عربة دخل بها إلى بهو الفندق، لَمّا اقتربتُ كي آخذ حقيبتي طمأنني العامل بأنه حارس أمينٌ لها، وسيتولّى إيصالها إلى الغرفة عندما تتمّ الإجراءات، بالنسبة إليه غنيمة.

ذاك الشابُّ الباتنيُّ سبقنا إلى غرفته حوالي الساعة، أعلمنا بأن العامل الذي يوصل الحقيبة معك إلى غرفتك لا يقنع إن لم تسلّمه بقشيشا لا يقلّ عن

الأربعين جنيها (الجنيه: 20 د. ج)، استكثرت ذلك؛ بل واستنكرته، كان رأي السيدة ربعة جلطي بأن هذا السلوك عاديّ، ومعمول به في أوروبا؛ إنما دون قيمة محدّدة يضبطها العامل، الأمر عائد إلى أريحية الزبون إن شاء أعطى، وإن شاء امتنع، إن شاء أكثر، وإن شاء قلّ. نفّذت هذا الأمر وفق أريحيّتي حيث سلّمتُ العامل الذي صعّدتُ معه في المصعد، وجرّ الحقيبة مسافة ستين مترا إحدى عشر جنيها، تبيّن لي من ملامحه عدم رضاه.

كانت هذه ظروف استقبالي في قاهرة المُعز. التقيتُ ليلتها بالفندق الإعلاميّ رئيسَ تحرير قناة الشروق الجزائرية رشدي رضوان، المكلف بالإعلام، وتنفيذ برنامج الوفد الجزائري من محاضرات، وندوات؛ كما التقيتُ بالشاعر إبراهيم صديقي... عضو الوفد الجزائري.

الإثنين 05 / 02 / 2018 الساعة التاسعة صباحا كانت وجهتي رفقة مسؤولة الوفد الجزائري، ورشدي رضوان إلى المعرض القاهرة الدولي بمصر الجديدة، حططنا الرحال بالجنّاح الجزائري المميّز باعتبار الجزائر الضيف الشرفي، في البناية المركزية التي أطلق عليها "هيئة الاستثمار المصرية" وُجدت أجنحة رمزية لأغلب الدول العربية، عُرضت بها مطبوعات من مجلات، وكتب للعرض؛ لأن ما هو مخصّص للبيع موجود في أجنحة المعرض خارج البناية، كما وُجدت أجنحة لوزارات السيادة المصرية.

**كُتِبَ فَاخِرَةٌ عُرِضَتْ... لَيْسَتْ لِلْبَيْعِ:** الجنّاح الجزائري المميّز كضيف شرف عُرضت فيه نُسخٌ لأغلب الكتب التي أصدرتها وزارة الثقافة، المجلس الأعلى للغة

العربية، المجلس الإسلامي الأعلى، وزارة الشؤون الدينية، وغيرها من مؤسسات الدولة الرسمية.

كُتِبَ ومطبوعات أغلبها مجلّدت في حُلل فاخرة، إضافة إلى شاشتين كبيرتين عُرضت عليهما طوال أيام المعرض من الساعة التاسعة صباحًا حتى الساعة التاسعة ليلا مناظر للجزائر:

طبيعية، سياحية، تاريخية، تراثية، فلكلورية من أغانٍ تراثية من أغلب مناطق الجزائر.

مسؤولة الوفد أحسنت استقبال الزوار من مصريين ومصريات، وغيرهم من الجنسيات الأخرى، وأجادت في إكرام الجميع بتقديم الحلويات المصنوعة في الجزائر؛ كما تَمَر " دقلة نور"، والحليب.

لا سماء زرقاء في قاهرة المعزّ: في ذلك الإثنين منذ انطلاقنا من الفندق حتى المعرض لاحظت أنّ التلوّث غطّى كلّ ما تراه عينُ المرء، وتبيّن لي فيما بعد أنه مزمنٌ في هذه المدينة طوال السنة حسبما أعلمني به ساكنوا المدينة، وسائقو سيّارات الأجرة.

من الحلم أن تتمنّى رؤية السماء زرقاء صافية، والشمس مشرقة أشعتها الذهبية، أو الفضية تتسلّل إليك عمودية. في حواراتي مع عديد المصريين من إعلاميين، ومثقفين، وأصحاب سيارات الأجرة أبناء مدينة القاهرة مولدًا، ونشأة، وعيشة بها أعلموني أن المدينة يقطن بها حوالي سبعة عشرة مليون ساكن، ويدخلها يوميا حوالي سبعة ملايين ساكن، كما أنّها مدينة تفتقد الميادين،

والساحات الخضراء التي قد تُخَفَّف من غلواء التلوّث، مدينة وأنت تسير في شوارعها، وأزقتها، أو تنظر إلى سماءها ترى إلا الغيش يغطّي السماء، وضجيج السيارات، وصراخ الساكنة، والزحام البشري، والنقلي.

**معرض الكتاب في موقع غير مُشرفٍ للكتاب:** معرض الكتاب السنوي بالقاهرة من أكبر المعارض، ليس فحسب بسبب كثرة العارضين من دور نشرٍ عربية معروفة، ومصرية، وأجنبية بما فيها لهيئات رسمية، ممّا يُجَيِّل للزائر أنه في مدينة للكتاب، ومن الصعب على الزائر الطواف بكلّ الأجنحة في يوم واحدٍ.

ما لاحظته أنّ أجنحة عرض الكتب، فيها الكبير المساحة، ومتوسطها، وصغيرها كذلك أسعار الكتب المعروضة منها المرتفعة الثمن، ومنها المتوسطة، ومنها الرخيصة التي لها أجنحة كثيرة للكتاب القديم، خاصة كتاب الجيب الذي ثمنه من الثلاث جنيهاً (30 د.ج)، إلى (50 د.ج)، بمائة جنيه تبتاع عشرات الكتب. ما يُحمد للمعرض وجوده في فضاء مكانيّ شاسعٍ، تواجد الكتاب فيه كيفما كان موضوعه، الكلّ واحدٌ ما يتبغي، المحلات الخدمائية بأنواعها تُسهّل على الزائر وجوده بما في ذلك المسجد الذي إيداع الحذاء به جنيةً واحدٌ.

ما لا يُحمد، ويُلاحظه زائرُ المعرض أيضاً أن بالفضاء المكاني ثلاثُ بنايات فحسب:

بناية إدارة التسيير والإشراف، "هيئة الاستثمارات"، جناح المملكة العربية السعودية، جناح جامع الأزهر. كلّ الأجنحة الأخرى في خيمٍ صغيرة، أو متوسطة، أو كبيرة في شكّل مربّعات، مستطيلات، قاعات كبيرة؛ فضاء مكاني

شاسعٌ شبه تراي، غير معبّدٍ بما فيه الكفاية؛ وأنت فيه كأنك في فضاء سوقٍ أسبوعي عندنا. قضيتُ يومي ذاك كله في زيارة الأجنحة المصرية، ثم مكثتُ كثيراً في القاعة التاسعة عشرة (خيمة) التي حُشرت بها أجنحة الدول العربية الغير الخليجية: لبنان، السودان، العراق، المغرب، تونس، الجزائر التي ضمّ جناحها كُتبَ أغلبِ دُور النشر الجزائرية، تحت إشراف هيئة الناشرين الجزائريين.

أَصْرَبُ أَنَّ الْجَزَائِرَ بِلدِّ فَرَنْسِيٍّ: أذكرُ أيّ خلالِ دخولي جناح لبنان، وتواصلتُ مع المشرف عليه، اتّضح لي أنّ له موقفاً تجاه الجزائر، بادر بالقول بأنه ما زار الجزائر، وليس في نيّته زيارتها لأنه وفق ما تنهى إليه من هنا وهناك أن الجزائريين مفرنسون لغة، وسلوكاً، ومعاملات؛ كيف سيتواصل، ويتعامل معهم وهو العربي الذي يجهل اللغة الفرنسية، كان تعجّبهُ أكثر وقد تواصلتُ معه بلغة عربية فصيحة. أفهمته بأن ما وصل إليه غيرُ صحيح، وأشرتُ عليه بزيارة الجناح الجزائري الذي به آلاف العناوين باللغة العربية وفي كل المجالات.

تَسَلَّتْ لِي وَاذًا: غروب ذلك اليوم تسلّتْ خفية من المعرض، استقللت الميتر الذي كانت نقطة منه غير بعيدة من بوابة المعرض الرئيسة.

نزلت في ميدان "العتبة" الشعبي بقلب القاهرة، واحدٍ من أكثر ميادين القاهرة سخباً ليلاً ونهاراً، إنه قلب القاهرة النابض بالتجارة، والمواصلات، والفن والثقافة. أسهم في ذلك موقعه المتميز في وسط القاهرة. زهاء الساعتين تجوّلتُ في شوارع، وأزقة الميدان الشعبي، والأسواق التي تواصل نشاطها، وحركيتها ليلاً نهاراً بدون توقّفٍ. سعيّتُ إلى التعرف على نوعية البضائع المعروضة، وأسعارها،

ومقارنتها بالأسعار عندنا في الجزائر سيّما الملابس الرجالية، متقاربة في البعض، ومرتفعة في القاهرة كثيرا عن مثيلاتها في الجزائر.

الساعة التاسعة أوقفتُ سيّارة أجرة، أعلمتُه بوجهتي. سلّمته بطاقة تحمل اسم الفندق، وموقعه، ورقم الهاتف. طمأنني بأنه ابن مدينة القاهرة، وخريطتها في ذهنه؛ تبين لي فيما بعد أنه يجهلها؛ ذاك الجهل كان لصاحي حيث تجوّل بي لما يزيد عن الساعة في أهمّ شوارع القاهرة مروراً بجامعتي القاهرة، وعين شمس، وزارة الدفاع، وزارة الخارجية، رئاسة الجمهورية، بعض الشوارع مرزنا عليها مرّتين دون أن نعثر على الفندق.

أتذكّر وأنا قادم من مطار القاهرة أننا مرزنا على "كوبرا" جسر كبير منه تتفرّع أغلب الاتجاهات، من فوقه نزلنا، وتحوّلنا إلى شارع رئيسي به الفندق، أثناء مرور السائق بي للمرّة الثالثة بالمكان طلبت منه التوقّف أمام فندق "الشيراتون"، نزلتُ واستعلمتُ من أحد الموظفين عن الفندق الذي نبحت عنه، دلّني عنه في الشارع الموالي على اليمين.

يوم الثلاثاء 06 / 02 / 2018 دون أن أعلم رئيسة الوفد، ولا أحداً من الأصدقاء.

**ضحية عصابة منظمة لا يهمها جنسيتك**: من أمام الفندق أوقفتُ سيّارة أجرة، كي يوصلني صاحبها إلى الأهرامات بالجيزة، كنتُ أجهل وسائل النقل الأخرى بسعرٍ مناسبٍ جدًّا كالميترو، وحافلات النقل الشعبية، كذا جهلي بتحاييل أصحاب سيارات الأجرة عن كلّ من هو غير مصري؛ تفاوضتُ معه على سعرٍ استقرّ عند أربع مائة جنيهه.

حقًا طوال الرحلة شرح لي الكثير من تاريخ مصر كقلعتها الشهيرة، التي مررنا قربها، مقبرة المماليك، المقابر التي يأوي فيها عشرات آلاف المصريين المهتمّين، المحرومين من شروط الحياة الإنسانية.

تبين لي أثناء وصولي إلى مدخل الأهرامات المحروس من رجال الأمن حراسة مشددة أن سائق السيارة يعمل ضمن شبكة متكاملة من أمثاله، وأصحاب كاليشات يصعدون بالسائح إلى منطقة الأهرامات في الأعلى، وعند الوصول، يسلمونك إلى صاحب جمليّ يُوهمك بأنه في خدمتك، بمجرد ركوبك الجمل يلتقط لك صوراً في أوضاع مختلفة، مستعملاً مهارات كأن تظهر يدك فوق قمة الهرم، أو تظهر أنت بين هرمين يدك هذه على هذا الهرم، والأخرى على الهرم الثاني، وبعد جولة الأهرامات يعرض عليك صاحب الكاليش زيارة متحف "عطور زهرة اللّوتس" الشهيرة، حيث استقبلتني العاملة به وأعلمتني أنها دكتورة في معالجة العديد من أمراض المفاصل، والعظام، وأن عديد العطور الموجودة بالمتحف فعالة لأنها مستخلصة من الزهرة المشهورة تاريخياً، وأنّ العمّال الذين بنوا الأهرامات في التاريخ القديم كانوا قبل التوجّه إلى تلك الأعمال الشاقّة يمسّدون أجسادهم بروح هذه الزهرة، استفسرته عن زجاجة صغيرة من عطر الزهرة، فاجأني أنها بـ 500 جنيه، (الجنيه حينذاك يساوي: 20 د.ج)، اعتذرت لها، ووعدتها بالعودة غدًا رفقة الزوجة والأبناء.

لستَ مصرياً . . أنت ومالك حلالٌ: وقعتُ ذاك اليوم في عملية خداع وتحايل منذ البداية، سائق سيارة الأجرة، اتفقنا على 400 جنيه، لمّا وصلنا طلب 500 جنيه

زاعما أنه استغرق وقتا أكثر، وتفاديا للزحام، اختار اتجاهات أخرى أبعد. كنت أجهل أنه بإمكانني الاستغناء عن الكاليش، والتنقل بعد دفع العشرين جنيها رسم الدخول التنقل راجلا كالمصريين، والسيّاح الأجانب الذين ألفوا زيارات الأهرامات.

سلمني سائق سيارة الأجرة إلى صاحب كاليش، بعد تفاوض معه طلب **350** جنيه مقابل زيارة ستة من الأهرامات، فزيارة التسعة بـ **600** جنيه. اتّضح بأن من تفاوضتُ معه " امعلم " يملك ثلاث كاليشات يؤجّر لها عمّالا بأثمان زهيدة، بدورهم يتحايلون على السياح، بالنكت البائخة، والضحك، في ختام الزيارة يتباكي لك بأنه فقير، وأنه عامل بسيط، ويُعيل أسرة فقيرة، يللم نفسه كي يتزوّج، طلب مني **100** جنيه، سلّمته مكرهًا **80** جنيها.

تعامل معي صاحبُ الجمل بعد أخذ صُورٍ لي، بعد ما عرف أني جزائري حشرنني في دول البترو دولار، لا أختلف عن أبناء منطقة الخليج، طلب مني **100** جنيه، رفضتُ، نَبهته بأني ما طلبتُ منه ما قام به؛ بل هو الذي عرض خدماته، لَمّا تأكّد أني قرّرتُ ألا أسلّمه جنيها واحدا، قبل مني مكرهًا **15** جنيها.

.. تبرير أقبح من ذنب: عامل الكاليش كي يبرهن لي أنه خيرّ هاتف صاحب حافلة نقلٍ صغيرة لإعاديّتي إلى القاهرة من محافظة الجيزة؛ كان كهلا، رزينا، هادئا، في حديثي معه عن التحايل الذي تعرّضتُ له، أبدى استنكاره؛ إلا أنه برّر ذلك

بمستوى الفقر، والاحتياج، والحرمان الذي يعاينه أغلب المصريين في بلدهم، وزوّدي بتوجيهات قد تساعدني وتخلصني مستقبلاً من تحايل المتحايلين.

أنزلي بطلبٍ منيٍّ أمام مشيخة الجامع الأزهر الواقعة شرقي القاهرة عند تقاطع شارع الأزهر، وطريق صلاح سالم، غير بعيد من حيّ الحسين الشعبي بعد ما دفعتُ له 100 جنيه، بدلاً من 110 جنيهات التي طلبها.

الأزهر.. منارة التاريخ الإسلامي: وقفتُ مُطوّلاً أمام مشيخة الأزهر الجميلة العمارة الإسلامية التي تضمّ مجموعة من المباني، واصلتُ طريقي في شارع الأزهر، مروراً بجامعته، وصولاً إلى الجامع حيث أديتُ صلاة الظهر به، ثم واصلتُ إلى الحيّ الشعبي، القريب، حيّ " الحسين".

حيّ من المناطق الشعبية الجميلة، يقوم بجذب آلاف السياح، لأنه من المناطق التاريخية، والأثرية، والسياحية، والدينية. شوارع الحيّ تمتاز بجوها الرائع والاصيل، وعَبَقِ التاريخ، وما جادت به الحضارة المعاصرة. تُباع فيه تحف التراث الاثري، والتراث الاسلامي لمصر.

التاريخ في أصلته، وألقه؛ بهذا الحيّ مسجد الإمام الحسين بن علي الذي سُمي الحيّ باسمه تبرُّكاً به (حي الحسين)، وبجوار المسجد أيضاً يوجد خان الخليلي الشهير والجامع الأزهر، قبل صلاة العصر التي أديتها بجامع الإمام الحسين قمتُ بجولة في خان الخليلي، ووقفتُ أمام المقهى المغلق الذي كان يجلس فيه المرحوم الروائي يومياً نجيب محفوظ..

مسجد الإمام الحسين تحفة في العمارة، والفنّ الإسلامي، مسجد عامرٌ طوال وقت فتحه، يؤمّه آلاف المصلين ذكورا وإناثاً، خارج أداء وقت الصلاة

يعكف فيه الكثير لقراءة القرآن، أو قراءة الأوراد. ما لاحظته السلوكات الشريكية المنافية للدين من القيام بطقوس غريبة، والتصاق بسياج ضريح الإمام الحسين، وتوسل، وبكاء، وشهيق، وترجّ في قضاء الحاجات؛ ومما لاحظته أيضا بين فترة وأخرى بالمسجد يأتي خيرون، يوزعون أطمعة:

حلويات، خبيزات، عيش، حليب، زبادي (ياغورت)؛ يجري الماكثون للفوز بها، ولو بالخطف، وكان الكلّ ضحية الجوع.

يوم الأربعاء **07 / 02 / 2018** لازمتُ معرض الكتاب، مذُ وصولي الساعة العاشرة صباحًا، تجوّلتُ في أغلب الأجنحة، البعض مررتُ بها مرور الكرام، البعض الآخر مكثتُ به أكثر، وخاصة الأجنحة ذات العناوين الكثيرة الرخيصة، المقروءة، والغير المقروءة، والتي عليها إقبال كبيرٌ جدًا.

اقتنيتُ منها عدّة عناوين مختلفة بأسعار ما بين **03** جنيهات، و**05** جنيهات للكتاب الواحد؛ ثم لازمتُ المقرّ الشرفي للجزائر رفقة مسؤولة الوفد، وبعض الأعضاء. الزوّار المصريون من نساء ورجال كُثُر، وإعجابهم بالعناوين المعروضة، والسعي إلى شرائها؛ ردّ المسؤولة إنّها للعرض فقط.

**جهلٌ بالجزائر**؛ ما أسفتُ إليه أنّ أغلب من زاروا جناح الجزائر الشرفي يجهلون الجزائر، سيما الشباب منهم، لن أنسى البتّة عندما رأوا صور مواقع الجزائر الطبيعية من جبال، وشواطئ، وبحرٍ، وأودية، وجسور، ومواقع تراثية؛ ومدن عريقة كوهران، قسنطينة، باتنة، تلمسان، مرتفعات الشريعة، والاضضرار في كل الشمال الجزائري، والهضاب، وغيرها، تقرّبوا منّا وسألوا غير مصدّقين بمكثا جمال بالجزائر، وامتلاكها لهذه المواقع، والمدن الجميلة، تساءلوا:

- يا بيه عندكم في القزائر جبال وبحر؟

- عندكم مدن بها عمارات وطرق سيّارة؟

**جهلٌ وتجاهلٌ.. من المسؤول؟:** في مساء ذلك اليوم وقبل أن أشارك في الندوة الأدبية مع الإعلامي رشدي رضوان، والسيد مقران منسق الناشرين الجزائريين في قاعة المحاضرات الصغرى، استضافتني في الطابق الأعلى قناة النيل الفضائية مع شاعر مصري على المباشر.

أسئلة المديعة تركّزت على الحركة الأدبية الإبداعية في الجزائر في لقاء دام عشرين دقيقة. قبل سفري إلى القاهرة كان رشدي رضوان المكلف بالبرنامج الثقافي طلب منّي إعداد مداخلة بعنوان: "الكتابة الصحفية، والكتابة الأدبية علاقة تكامل.. أم علاقة تباعد؟ "

بذلتُ جهداً كبيراً في إعداد المداخلة لأفاجأ أنّ لا مداخلة ولاهم يجزنون، ما تمّ ندوة جرى فيها الحديث عن المشهد الثقافي في الجزائر في علاقته مع الإعلام الثقافي، وما تقوم به دور النشر الجزائرية من طبع الكتب ونشرها داخل الجزائر، وفي العالم العربي.

تكلّمتُ عن الإنتاج الأدبي الإبداعي من شعر، ورواية، وقصة قصيرة، وطفرة سيّد الرواية في المشهد كما الحال في الدول العربية، ودول العالم الأخرى. القاعة كانت شبه فارغة، عدد الحضور ما تعدّى الإثنتي عشر فرداً منهم شرطيّ حارسُ القاعة، ومنظفتها، وستة طلبة وطالبات، وكهلان عقّب على ما جاء في الندوات الكهلان.

اتّضح أنّ أحدهما إعلاميٌّ بقناة النيل الفضائية، اتّفق مع المعقّب الثاني أن الجزائر حكومة وشعباً متمسّكان باللغة الفرنسية، والثقافة السائدة هي الثقافة الفرنسية، وانتساب الجزائر إلى العالم العربي ما هيّ إلا خُدعة، وأنا بالغنا في حديثنا عن المشهد الثقافي، وحركة النشر؛ ممّا اضطررتُ وأنا رجل التربية أن تحدّثتُ كثيراً عن التعليم، وسيادة العربية به في كل المراحل، واعتماد العربية في أغلب المواد بالجامعات، كما هو الحال أيضاً في أغلب الكتب المطبوعة؛ وأقحمنهما إن كانت الفرنسية سائدة كما قالوا؛ فكيف بنا أمامهم تكلمنا بلغة عربية فسيحة تلقائياً؟

**غيابُ الحضور. مرضٌ عربيّ:** الغياب عن المحاضرات، واللقاءات الفكرية الأدبية لاحظته يوم الإثنين 06 فيفري مع الأديبة ربيعة جلطي التي كانت متحمّسة جداً، وجلبتُ معها من الجزائر عديد النسخ من رواياتها، كان الحضور مُخيّباً لآمالها، وآمالنا.

كما لاحظتُ ذلك في نفس يوم الأربعاء في قاعة المحاضرات الكبرى التي كان فيها رئيس وفد اتحاد الكُتاب السوريين ضيفاً محاضراً؛ عكس ما رأيته في قاعة المحاضرات بمبنى الأزهر الشريف، ما كفتُ المقاعد للحضور الذي كانت حتى الممرّات مكتظة، والمحاضر شيخٌ أزهريّ.

**انطباعاتي في زيارتي الأولى نسبية.. !:** ربّما القارئ الذي تتبّع ما دوّنته عن رحلتي إلى القاهرة سيخرج بانطباع مؤداه أنّ نظرتي سوداوية عن مدينة القاهرة " عاصمة الدنيا"؛ ردّي: تكلمتُ عن القاهرة فحسب، وما تكلمتُ عن مدن

أخرى مصرية، ثم إنَّ رحلتي كانت خمسة أيّام فحسب يومان للسفر ذهاباً، وإياباً.. ثلاثة أيام غير كافية للسياحة، والتعرّف على مدينة بحجم القاهرة.

## 7 - المغرب.. 2017 و 2018

الزيارة الأولى: 31 / 03 إلى 09 / 04 / 2017

قبل سنة 2017 ما خطر ببالي البتّة أني قد أزور المغرب الشقيق، لسبب غلق الحدود البريّة بين البلدين، وجهلي بأن السفر جواً بين البلدين ممكن، اكتشفتُ فيما بعد لما سافرتُ إلى هناك أنّه يوجدُ تنقّلٌ نشطٌ يومياً بين البلدين جواً، تتكفّل به شركتنا الخطوط الجوية الجزائرية، كما المغربية؛ بما يقارب الألف مسافر يومياً من عائلات، سياح، عمّال مغاربة يعملون في الجزائر، وشباب جزائريون يجلبون الملابس المختلفة من مدينة "سبتة" بالشمال المغربي.

**دعوة للمشاركة في مهرجان الشعر:** وُجّهت إليّ دعوة ثقافية للمشاركة في مهرجان للشعر بمدينة مولاي إدريس / زرهون بتاريخ يومي 02 و 03 أبريل 2017 من لدن الشاعر الكبير أصيل مدينة مكناس إدريس زايدي الذي سبق وأن زار الجزائر كضيف شرف في ملتقى الشعر الفصيح الذي نظّمته مديرية الثقافة بالوادي، وسبق له أن دعا الصديقين الشاعرين صوالح محمد مصطفى، بشير ونيسي في دورة 2016 بنفس المدينة، دعاني في سنة 2017 رفقة الشاعر بشير ونيسي بصفة إدريس عضواً فاعلاً، نشطاً في الجمعية الثقافية "الأوراش" التي نظّمت المهرجان الرابع عشرة لربيع الشعر، دورة الشاعرين:

أحمد مفدي، عبد الرحيم باطما، تحت شعار الشعر المغربي المعاصر، في دار الثقافة بمدينة مولاي إدريس، زرهون.

استقبلنا الصديق الشاعر إدريس زايدي يوم 31 / 03 / 2017 بمكناس، أحسن وفادتنا، وأكرمنا كرمًا حاتميا، تجوّل بنا في أهمّ شوارع المدينة وساحاتها، ومعالمها: المركب الثقافي لوزارة الأوقاف، سور حبس قارة التاريخي، ثم تناولنا الغداء في فضاء "ممتاز" السياحي خارج المدينة في موقع غايي جميل.

أمسية للإمتاع والمؤانسة: حططنا الرحال في مدينة سيدي قاسم الجميلة بعد منتصف النهار، حيث حضرنا أمسية "للإمتاع والمؤانسة" في خزانة (مكتبة) البلدية، نظمتها جمعية "الأوراش للشباب" شاركت فيها عدة جمعيات ثقافية، موسيقية، وكان فيها الشعر الفصيح، كما شعر الزجل، تكريمات لشعراء، وكُتّاب، طُلب مني إلقاء كلمة، فكانت عن المشهد الثقافي، الإبداعي في الجزائر؛ كما ألقى الشاعر بشير ونيسي قصيدة، تفاعل معنا الحاضرون، والحاضرات، كان ترحيبهم وفرحهم بنا قويا، رأوا فينا الجزائر وشعبها أمامهم. بعد انتهاء الأمسية كانت وجهتنا مدينة مولاي إدريس زرهون على بُعد 70 كم.

مدينة زرهون قبلة الإبداع الأدبي: في صباح اليوم الموالي 01 / 04 / 2017؛ كنّا ضمن الجمهور الثقافي الذي أتى من عديد المدن المغربية الذي نظمته، وتنظمه سنويا في فصل الربيع الجمعية الثقافية "جمعية الأوراش للشباب" بالمركز الثقافي، افتتح كان مميّزا جدا تصدرته الجمعية الموسيقية للفن الأندلسي بقيادة الأستاذ القدير حسان.

بعد الكلمات الترحيبية والاحتفائية؛ جلسة المساء كانت للشعر، حيث الدكتور القامة الثقافية، الشعرية أحمد مفدي، المُحتفى به بعديد القصائد الجميلة، كما الشاعر الفيلسوف، المحتفى به عبد الرحيم باطما، فالشاعر الجزائري الصديق بشير ونيسي بقصائده الصوفية التي صَفَّق لها الحضور وقوفًا. عقب ذلك أَلْقَيْتُ كلمةً مؤثِّرة عن محبَّة الشعب الجزائري للشعب المغربي الشقيق، وكرِّمْتُ الدكتور القامة أحمد مفدي باسم مثقفي الجزائر، سيِّما مثقفي ومبدعي ولاية الوادي.

صبيحة اليوم الموالي 02 / 04 / 2017 حضرتُ الجلسة العلمية التي خُصِّصت لشهادات في حقِّ المكرِّمين المُحتفى بهما: الشاعر الزَّجَّال، الفيلسوف، المنتمي لأسرة "ناس الغيوان" عبد الرحيم باطما، كما القامة الأكاديمية الثقافية الشاعر الدكتور أحمد مفدي.

**الشعر الزَّجَّلي توأمُ الشعر الفصيح؛** محاضرة أخرى عن الشعر الزجلي، ومكانته في خريطة العالم العربي الذي في مضمونه واحدٌ، إنما في تسمياته في ليبيا، وتونس، والجزائر " الشعر الشعبي"، وفي المغرب " الزجل"، وفي الخليج " الشعر النبطي"، ركَّز المحاضر على الشعر الزجلي في المغرب.

بعد المحاضرة تتالى العديد من شعراء الزجل على المنصة شعراء وشاعرات. ما استخلصتُه أنّ الشعر في المغرب، خاصة الشعر الزجلي شعراؤه، وشاعراته كُثُرٌ في أغلب مناطق المغرب، وجمهوره أيضًا كثير، متحمّسٌ لسماعه، وتذوّقه، له جمعياته، وملتقياتُه.

**في ضيافة الآثار:** في اليوم الموالي قبل مغادرتنا مدينة مولاي إدريس، إلى مدينة فاس نظم لنا أعضاء الجمعية زيارة سياحية لمدينة "وُليلي الأثرية" الرومانية الغير بعيدة، ومتحفها العامر بالتاريخ المادي للمنطقة، من أدوات، ووسائل كانت موجودة، ومتماهية مع الموقع الجغرافي، على سبيل المثال معصرة الزيتون التي لا تزال على حالها موقعا ومكوّنات، وغيرها الكثير من الأدوات، والأشياء، لأن المنطقة ازدهرت بها غراسة أشجار الزيتون، منذ تاريخ الرومان حتى تاريخ اليوم؛ ومما لفت نظري أن المتحف بالموقع كلّ ما فيه من أدوات، ووثائق ورقية، أو حجرية وُضعت في واجهات زجاجية، مرفقة بخرائط، ومجسمات للمؤسسات، والمرافق الرومانية، تُعرض بطرق جذابة علمية اعتمادا على الميديا المعاصرة. مئات السياح في الموقع الأثري من أغلب الجنسيات: أمريكا، أوروبا، اليابان، كوريا الجنوبية، حتى السياح الصينيين، واليابانيين؛ المغاربة بأعداد كبيرة، سيّما الطلبة، تلاميذ المدارس؛ ما عدا العرب.

الأربعاء **05 / 04 / 2017** الساعة الحادية عشر ليلا غادرتُ مدينة فاس على متن القطار رفقة الصديق بشير ونيسي الذي نزل في محطة الدار البيضاء عائدا إلى الجزائر؛ واصلت الرحلة إلى مدينة مراكش الجميلة..

**سحرّ الجمال .. عبقّ التاريخ:** مراكش، الوجهة السياحية الاولى بالمغرب وأجمل مدنه، تمتاز مراكش بسحرّ جمال حدائقها، ونقاوة هوائها، ومعمارها القديم الذي اختزل، ويحتزل تاريخ المدينة العريق. تقدر مساحة المدينة بنحو **230** كيلومترا مربعا، ووصّفت بأنها "المدينة الحمراء"، الفسيحة الأرجاء، الجامعة بين حرّ حرور

وظل ظليل، وثلج ونخيل. توفر مراكش إحساسًا بالمغامرة وجوًا حيويًا يجذب الزوار، ما بين نمط الحياة النابض بالحيوية، والهدايا التذكارية الجميلة، والمعالم التاريخية والمغاربة الودودين..

بالمدينة العديد من الأماكن السياحية نذكر منها: ساحة جامع الفنا، التي تقع وسط مدينة مراكش، الساحة الأسطورية، والموقع الرئيسي في مراكش، عند سفح "مسجد الكتبية"، أحد المواقع الرئيسية والمركزية لمراكش.

"ساحة الفنا" .. جمال مغربي أخاذ: ساحة "الفنا" ميدانٌ شعبيٌّ خاص بالترفيه، والفرجة، والتسوق لسكان مراكش، والسياح القادمين إليها، القلب النابض للمدينة، نقطة التقاء يأتيها الزوار والسياح من أغلب مناطق العالم من أجل الاستمتاع برؤية العروض الجميلة خاصة عروض مروّضي الأفاعي، ورواة القصص والأحاديث الرائعة، وفناني الحناء والوشم في النهار، تعجّ الساحة النابضة بالحياة والحركة على مدار اليوم، تتحول في الليل إلى واحة مثالية لتناول الطعام في الهواء الطلق، مع عدد لا يحصى من الأكشاك التي تضم أطباق حُم الضأن التقليدية، وعصير البرتقال الطازج، مع مجموعة من المأكولات الشهية الأخرى.

صنّفت ساحة جامع الفنا ضمن قائمة التراث غير المادي الإنساني من قبل منظمة اليونسكو خلال العام 2001م. أيضًا أسواق مراكش الأكبر، والأشهر في المغرب، اشتهرت في جميع أنحاء العالم باعتبارها واحدة من أكثر الأماكن المغربية للتسوق، تمثل أقدم جزء من المدينة، توجد الأسواق غالبًا شمال ساحة جامع الفنا في الأزقة والشوارع الصغيرة، الضيقة، أنشأ مجموعة من الباعة

ورش عملهم في الشوارع الخلفية من مراكش؛ ممّا يجعل الأسواق واحدة من الأماكن الأكثر حيوية في المدينة. مكثت بمدينة مراكش الجميلة يوما ونصف يوم. مساء الخميس **06 / 04 / 2017** عدتُ إلى شمال المغرب، نزلتُ في مدينة الرباط، أقمتُ في فندق بالمدينة القديمة، والأسواق التجارية الشعبية غير بعيد من البحر. قمتُ بجولة سياحية في المنطقة، وفي الشارع المقابل الواسع الذي به المؤسسات المغربية الكبرى: مبنى البرلمان، محطة القطار العصرية، مصارف، فنادق عالمية، إدارات.. كما أديتُ صلاتي المغرب والعشاء جماعة في مسجد العتيق، بمحاذاة الأسواق، والمطاعم الشعبية.

**الجمعة 07 / 04 / 2017** توجهتُ إلى مدينة الدار البيضاء الواقعة على المحيط الأطلسي، أين أقمتُ في فندق " كاليا " بوسط المدينة، تسيّحت في أهم شوارعها وأزقتها، وأسواقها الشعبية؛ ثم أديتُ صلاة الجمعة في الشارع مع مئات المصلين.

**صباح السبت 08 / 04 / 2017** توجهتُ ماشيا إلى مسجد الحسن الثاني، التحفة المعمارية الجمالية الواقع في موقع استراتيجي مميّز، بمحاذاة ساحل المحيط الأطلس، وفي نهاية شارع رئيسي، يقطع حيّا سكنيا عصريا، راقبًا.

مئات السياح؛ بل الآلاف من أغلب جنسيات العالم، ترى الوجوه بألوانها المختلفة، وسحنات أصحابها من الشرق والغرب يزورون المسجد، ويقضون أوقاتا طويلة في الساحات الواسعة الممتدة أمامه، أو التأمل في مياه المحيط.

"كازا" .. المدينة العصرية الجميلة: الاشقاء المغاربة من شدة حبهم لمدينة الدار البيضاء، يطلقون عليها رومانسيا " كازا ". مساء ذلك اليوم واصلتُ سياحتي في المدينة، وخاصة المكتبات التي عمُرت بكل الكتب الصادرة حديثا في العالم العربي، والمغرب أين الطباعة مزدهرة، إضافة إلى المكتبات، توقفتُ كثيرا عند بائعي الكتب، والمجلات الثقافية على الأرصفة، وأروقة الشوارع، كل المجلات العربية تصل بعد إصدارها بزمن قليل، وتباع بأسعارها المدونة عليها؛ إضافة إلى المجلات الإسبانية، الإنكليزية، الفرنسية.

من الكتب التي اشتريتها، زيادة على بعض المجلات كتابٌ قيّمٌ جدًّا "التخلّف الاجتماعي.. مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور".

#### الزيارة الثانية: 04 / 04 .. 22 / 04 2018

وُجّهت إليّ دعوة كالعادة من جمعية الأوراش للشباب عن طريق الصديق الشاعر إدريس زايدي لحضور مهرجان الشعر العربي الذي كان شعاره " الشعرية في الكتابة الأدبية الجديدة". على متن طائرة كبيرة كلُّ مقاعدها مشغولة للخطوط الجوية الجزائرية. غادرتُ مطار الجزائر الدولي يوم الأربعاء 04 / 04 / 2018 تجاه مطار الدار البيضاء التي وصلتها بعد طيران مدة ساعتين. الساعة 00.16 استقللتُ القطار القادم من مدينة مراكش، المتجه إلى مدينة فاس التي وصلتها الساعة 20 00 حيث قضيت ليلتها في فندق " التجاني " بمدينة فاس العتيقة.

**1 - صباح يوم الخميس 05 / 04 / 2018** عدتُ إلى محطة القطار في انتظار الصديق الباحث، الشاعر الدكتور الأكاديمي بيوقسيمي لحسن تلبية لطلب

الشاعرة الكبيرة أمينة مربي؛ الأستاذ حسن الذي بمدينة فاس الجديدة، وبمعالمها،  
وساحاتها، واستضافني في منزله العامر بأحد أحيائها الحديثة.

**فاس .. مدينة الفنون والجمال .. خزانة كنوز التاريخ:** مدينة فاس العتيقة  
أصالة، وعمارة إسلامية، وهويّة متأصّلة، فاس المعاصرة جمال في الهندسة  
المعمارية، مساحات خضراء شاسعة، فيلات فردية جميلة، عمارات رائعة غير  
شاهقة، طرقٌ حديثة واسعة، المساحات الخضراء تتخلّل المدينة، الغابات الكثيفة  
المعتنى بها تحيط بالمدينة.

التنسيق، والاهتمام بالبيئة أعطيا المدينة البعد الجمالي الأخاذ؛ كما  
عرّفني الدكتور بيوقسي على أبحاثه، وأشعاره، وعديد الكتب التي أصدرها.  
حوالي الساعة الرابعة مساءً أوصلني إلى دار الشاعرة الكبيرة أمينة مربي التي  
زارت الجزائر قبلُ لحضور أحدٍ ملتقيات الشعر الفصيح بالوادي، استقبلتني  
بجفاوة كبيرة رفقة زوجها الأكاديمي، الموسوعة المتنوّعة، خاصة في تخصّصه  
التاريخي الدكتور فقيه محمد.

**جولة جميلة في مدينة فاس العتيقة:** مساءً ذلك اليوم حتى غروب الشمس  
أتمعني الدكتور أحمد فقيه رفقة الدكتور الباحث، الأديب المبدع سلام أحمد  
دريسون في جولة سياحية في أسواق مدينة فاس القديمة، خاصة أزقة الحرفيين  
التاريخية، وساحات المدينة العتيقة، وأزقتها العتيقة ومبانيها من مساجد، وقصور  
تاريخية، وأسوارٍ.

كما جامعة القرويين، والتعرّف على مسجدها العامر الذي أكرمني الله بأن أديتُ الصلاة فيه. مدينة ساحرة بعُبق التاريخ، وبعراقة جامعة القرويين التي بالقرب منها الزاوية التجانية. كانت سهرة تلك الليلة في منزل الشاعرة أمينة مريني، وزوجها الدكتور فقيه محمد، رفقة الدكتور سلام أحمد دريسون، الدكتور بيوقسيمي حُسن، سهرة مائدتها الشعر، وفاكهتها التاريخ المغاربي.

**6 - الجمعة 06 / 04 / 2018** أخذني الدكتور فقيه محمد في يوم سياحي بامتياز إلى مدينة " إفران " السياحية.

.. **سويسرا المغرب**: مدينة إفران إحدى المدن المغربية الواقعة في إقليم إفران بالقرب من مدينتي فاس ومكناس، تُعدّ المدينة من أقدم المدن المغربية الواقعة على مُرتفعاتٍ جبلية، أين تنتصب على ارتفاع **1655م** فوق مستوى سطح البحر، يجعلها تتمتع بمناخٍ قاسٍ في الشتاء، وغالباً ما يكسو الثلج جبالها خلال مواسم البرد.

كلمة إفران كلمةً أمازيغيةً تعني الكهوف، وُسّمت بذلك لأن الكهوف تنتشر بشكلٍ كبيرٍ في نواحي مدينة إفران، وفي الماضي كانت تُسمى المدينة "بأورتي"، كلمة تعود أصولها أيضاً للأمازيغية، ومعناها البستان أو الحديقة، في حين يُطلق على المدينة في الوقت الحالي لقب "سويسرا الصغيرة"، هي إلى جانب جمال طبيعتها، تتميز بتصميمها العمراني المُشابه للمدن الأوروبية. الطريق المزدوجة المؤدية إليها من مدينة فاس تحفّها الغابات، وبساتين الأشجار المثمرة، وأشجار الزيتون، جمالٌ خلّاب.

قبل دخولنا إلى المدينة أطلت علينا من الأعالي جامعة الملكين: فهد، الحسن الثاني العالمية التي يدرس بها طلبة أبناء رجال الجاه، والسلطة، والمال من المغرب، والدول الإفريقية، بمقابل مالي مرتفع.

جولتنا في "إفران" المدينة الجميلة القليلة السكّان، الكثيرة الغابات والساحات الخضراء، والمنتزهات الجميلة كانت منوعة طفنا وكان الاكتشاف، وكانت الفرجة.

**المسجد . . لا مكان له !؟**؛ تجولنا في القريتين السياحيتين السعودية، والكويتية المشتملتين على فيلات فردية للبيع، أو الكراء، وفنادق فخمة. لفت نظري الدكتور محمد فقيه أن القريتين السياحيتين تشتملان على كل المرافق التي تخدم السائح؛ ما عدا المسجد. بعد أن تناولنا الغذاء الذي جلب بعضه مضيفي، وأعدّ بقيته في منزله الشخصي الذي أنشأه على مراحل، والواقع بالطابق الثاني من بناية ذات ثلاثة طوابق، حيث يجاوره في الطابق الأول الشاعر المغربي الشهير الذي أقام بالجزائر سنوات عديدة أصيل مدينة وجدة المغربية محمد علي الرباوي.

توجّهنا إلى مسجد محمد الخامس الكبير الفخم، والجميل بهندسته المعمارية المغربية أين أدينا صلاة الجمعة؛ أمنا إماماً قديرٌ، فصيح اللسان العربي. واصلنا عقبها سياحتنا في غابات، وساحات المدينة الجميلة إلى جانب عشرات العائلات والأفراد القادمين من كل أنحاء المغرب، كما على بُعد عشرة كيلومتر من المدينة تمتعنا كغيرنا بمناظر الأنهار، البحيرات، الشلالات، غابات ترتع فيها القروء؛ مرافق كلها مجّاناً للزوار السيّاح، إضافة إلى الأمن والسكينة، والنظافة.

كما تمتعنا بزيارة مركز تربية "سمك لاترويت".

السبت **07 / 04 / 2018** رفقة الصديق الشاعر إدريس زايدي بداية من الساعة العاشرة صباحاً، حضرت ندوة موضوعها "الشعر الحساني المغربي" من تنظيم معهد "صروح" للثقافة والإبداع بمقرّ مقاطعة أكادال بقاعة المحاضرات بمدينة فاس، إثر المحاضرتين تعاقب على المنصة العديد من الشعراء من بينهم الشاعر الكبير الصديق الدكتور أحمد مفدي، والصديق الشاعر الأستاذ إدريس زايدي.

بدوري أقيمت كلمة عن انطباعاتي عن زيارتي للقاهرة ومعرض الكتاب الدولي بها، وعن حركية المشهد الثقافي بالبلدان المغربية.

الأحد **08 / 04 / 2018** كان الجوّ مطراً جدّاً، والرؤية صعبة توجّهنا في سيارّة إدريس صباحاً تجاه مدينة "مولاي إدريس.. زرهون" لحضور مهرجان الشعر في دورته 15 تحت شعار "الشعرية في الكتابة الأدبية الجديدة"، دورة تكريم الشاعر عبد الله فرّاجي، والباحث الدكتور خالد موساوي.

جلسة الافتتاح الصباحية مميّزة توشّحت بوصلات موسيقية تراثية تحت قيادة الأستاذ القدير حسّان، وكلمات الافتتاح الترحيبية. حُصّصت الجلسة المسائية للقصيدة الشعرية الفصيحة.

الإثنين **09 / 04 / 2018** الجلسة الصباحية كانت لكلمات، وشهادات في حقّ المكرّمين عبد الله فرّاجي، خالد موساوي، ثم محاضرات عن مفهوم الشعرية "1". كيف يقول النصّ ما يقوله، "2". الشعرية، المقومّات الجمالية في الشعر، "3". في الشعرية الغربية، شعريات".

على مائدة الرواية في مدينة مكناس: في المساء حضرت ندوة فكرية في مدينة مكناس رفقة الصديق إدريس زايدي، ومجموعة من الأصدقاء: محمد عويدات الروائي، حسن إمام الروائي، وغيرهم.

كانت الندوة في المركز الثقافي الذي كان قاعة للسينما لأحد الخواص، سلمها لمتقفي المدينة كي يتخذوها فضاء للحركة الثقافية بالمدينة، الجلسة برئاسة الدكتور الطبيب عبد الحق بن سالم رئيس الجمعية. حضور كبير نوعي من مدن فاس، مكناس، سيدي قاسم. موضوع الجلسة: قراءات في رواية الأستاذ حسن إمام الصادرة حديثاً.

الرواية المغربية...؟؛ هاتفني في الليلة السابقة الأستاذ إدريس زايدي مُلِحاً عليّ أن أساهم بمدخلة قصيرة يكون موضوعها "ماذا نعي بالرواية المغربية؟"، دَوَّنتُ في ورقة بعض الأفكار، وقدمتها في الندوة، كانت مادة ثرية للإثراء والتعقيبات:

«لكل بلد خصوصياته، فالجزائر مثلا ظهرت بها الرواية بالمفهوم الحديث سنة 1973 بداية بظهور رواية "ريح الجنوب" للمرحوم عبد الحميد بن هدوقة، في رأيي لا زلنا بعيدين أن نعلن أن هناك رواية مغربية بالمعنى الشامل، وإذا ما تحدثنا عن الرواية المغربية، فالذهن مباشرة يتجه إلى الرواية المكتوبة بالعربية، إنما الواقع أن الرواية المكتوبة بالفرنسية فرضت نفسها مبكرا، ولا تزال في البلدان الثلاثة، وقد ظهرت أخيرا الرواية الأمازيغية بالجزائر، حيث رُصدت لها جوائز مالية تشجيعية أفضل من نظيرتها العربية والفرنسية.

الإشكالية أن القراء بالعربية غير مطلعين، أو لا يريدون الاطلاع على هذه الرواية الأمازيغية التي اكتسحت ساحة السرد؛ بينما الرواية بالفرنسية أخذت مكانها بقوة منذ القديم، لها قراءها الكثر، والمدافعون عنها، والمتحمسون المدافعون عنها داخل الجزائر، وخارجها.

الرواية المغربية عموماً، وقد اطلعتُ على العديد منها من المغرب، وتونس، والكثير من الروايات الجزائرية، في تقديري الشخصي: تطوّرت فنياً، وحتى موضوعاتياً مقارنة مع الرواية المشرقية. الرواية المغربية محاصرة مشرقياً: جوائز البوكر، كتارا، ..

بحثاً عن التواصل بين الروائيين المغاربة؛ بالرغم من ذلك فالرواية المغربية فرضت نفسها عربياً، والأسماء كثيرة. جيل جديد من الشباب ذكورا وإناثاً برز في الساحة السردية الروائية.

إنما بكل أسف الرواية المغربية غير متواصلة، وغير مفتّحة على بعضها، ينعدم التبادل الثقافي البيني؛ لا بدّ من تلاحم مبدعي الرواية في هذه البلدان عن طريق التواصل الفردي، والجمعيّ، وغيرهما.

يوم الأربعاء 09 / 04 / 2018 واصلتُ رحلتي الشخصية السياحية تجاه الشمال المغربي في حافلة فاخرة بدل القطار، تعرّفت في هذه الرحلة الجميلة على المناطق الطبيعية، والمواقع السياحية الجميلة:

جبال الأطلس، الغابات، الأنهار، الينابيع، السدود، المدن، اعتناء الإنسان المغربي فرداً، وهبات بتلك الثروة الهائلة التي شكّلت، وتشكّل دُخلاً كبيراً جداً

من السياحة؛ كما أُصِفَتْ على الإنسان المغربي الطمأنينة النفسية، والهدوء، والسماحة.

**تطوان . . الحمامة البيضاء:** مُستقرّي كان مدينة " تطوان " الرائعة الواقعة في الساحل الشمالي للمغرب بالقرب من طنجة وسبتة، تضم الكثير من المعالم السياحية التي يمكن استكشافها؛ بما في ذلك المدينة القديمة، والمتاحف المتنوعة، فضلا عن الشواطئ الرائعة، مع الكثير من فرص الترفيه الممتعة.

مدينة عامرة بالتراث المغربي، بها الكثير من الجمال التاريخي للرؤية والاستكشاف، ولعل المساجد المصممة بشكل جميل، والمدارس الإسلامية والحصون القديمة تعزز جمال هذه المدينة مما يتيح الفرص الرائعة للفرجة، والاستكشاف، بالإضافة إلى الأسواق المحلية ذات اللمسة المغربية التقليدية، والتراث الثقافي العريق، والمعاصر.

قضيتُ بمدينة " تطوان " سبعة أيام، يومين في البداية للاطلاع عليها، قد سكنت في فندق في وسط المدينة القديمة، نِعِمْتُ بتواجدي في المسجد العتيق، تصادقتُ مع إمامه الشاب، وبعض الشيوخ الملازمين فيه، كنتُ أصلي به صلاة الصبح جماعة، كما صلاة المغرب والعشاء، انضمتُ إلى الجماعة لتلاوة " الحزب " اليومي، المسائي بعد صلاة المغرب بالتلاوة " المغربية "، برواية " ورش "، وبالمصحف المغربي المطبوع من قبل وزارة الأوقاف المغربية، علماً أنه الوحيد في كل المساجد التي دخلتها، وأديتُ بها الصلاة: فاس، تطوان، سبتة، الرباط، الدار البيضاء، مراكش. لا أثر للمصاحف المطبوعة في المشرق العربي.

مدنٌ أخرى.. كانت فضائي السياحي: الأيام الخمسة الأخرى خصصتها للسياحة في مدن أخرى غير بعيدة عن مدينة تطوان: بين الـ 50 كم، و70 كم، مدينة طنجة زرتها مرتين، بمرتفعات "الحافة" البحرية بهذه المدينة، وقفتُ وجهاً لوجهٍ أمام مضيق جبل طارق.

غير أن السحب المطيرة، والضباب أحياناً أن أرى في الجهة المقابلة "جبل طارق". يومٌ قضيته في مدينة سبتة في جزئها المغربي العامر، والنشط تجارياً بسبب الحركة التجارية، والبضائع المجلوبة من إسبانيا عن طريق الميناء البحري في القسم الإسباني من المدينة. بضائع غير خاضعة للجمرك، يجلبها الساكنة المغاربة من كل الأعمار، ذكوراً وإناثاً بتسهيلات من السلطات الإسبانية.

سبتة المغربية يتبضع منها المغاربة من كل العمالات، كما يتسوق منها بالجملة عشرات الشبان الجزائريين الذين يقصدون المغرب باستمرارٍ لهذا الغرض. أصيلة.. مدينة الفنون؛ زرتُ أيضاً مدينة أصيلة إحدى أقدم المدن التاريخية العريقة في المغرب، تبدو للناظر إليها من أول وهلة كأنها لوحة تشكيلية كبيرة متعددة الزوايا، مدينة جمعت بين التاريخ والفن والطبيعة الغراء وأخلاق أهلها العالية، مدينة ملتقى الحضارات التي يجد فيها الزائر ضالته. إذا حللت بمدينة أصيلة عليك أن تزور حدائقها الغناء التي حملت أسماء عدد من رموز الثقافة والإبداع الأدبي في المغرب والعالم العربي وإفريقيا، الذين اعتادوا زيارتها منذ 1978، تاريخ انطلاق فعاليات موسمها الثقافي الدولي.

**شفشاون المدينة الزرقاء الساحرة**؛ وسط مرتفعات سلسلة جبال الريف بالمغرب، حيث الجبال الشامخة من كل جانب، تقع مدينة شفشاون، التي احتلت المرتبة السادسة عالمياً من بين أجمل المدن في العالم، مدينة آوت المسلمين بعد طردهم من الأندلس معروفة بحدوثها، الذي يبعث السكينة والطمأنينة في نفوس مرتاديها.

مدينة شفشاون المدينة الأكثر زرقة في العالم يرجع سبب تلونها بهذا اللون إلى القرن الخامس عشر الميلادي عندما بدأ اليهود نزوحهم من إسبانيا نتيجة لأعمال التطهير العرقي، والديني ضد غير المسيحيين التي شهدتها إسبانيا في ذلك الوقت.

حينما سكن اليهود شفشاون بدأوا في طلاء منازلهم باللون الأزرق، ثم استمروا في طلاء كل ممتلكاتهم بهذا اللون لاحقاً الذي اعتقدوا أنه اللون الأقرب للون السماء، وأن ذلك سيذكرهم بالله. منذ ذلك التاريخ تحولت المدينة تدريجياً إلى مدينة زرقاء، حافظ السكان الأصليون على هذه السلوك ما جعل من شفشاون المدينة الأكثر زرقة في العالم.

رغم هجرة اليهود أصحاب هذا التقليد من شفشاون عقب الحرب العالمية الثانية؛ إلا أن المدينة احتفظت بلونها المميز وذلك برعاية حكومية حيث تعمل الإدارة المحلية على تجديد ألوان المنازل بين كل فترة وأخرى. أصبحت مدينة شفشاون من أهم مناطق الجذب السياحي في المغرب بسبب لونها المميز الذي يغطي كل شيء تقريباً في المدينة من المنازل، والبيوت إلى الشوارع، والطرق، إلى المساجد، والمصالح الحكومية.

**العودة إلى جنة الوطن؛ عدتُ إلى الجزائر يوم الأحد 22 / 04 / 2018** بعد أن مكثتُ بالرباط ثلاثة أيام في دار الدكتور أحمد مفدي بجي "أكدال" العصري، الأستاذ مفدي الذي جاءني خصيصًا من مدينة فاس، أين استقبلني، وأكرمني بتناول الغذاء معًا في مطعم فاخر، ثم ترك لي المنزل الشخصي موصيًا حارس العمارة (محبوب) بي خيرا. ثم توجهتُ إلى مدينة الدار البيضاء التي قضيتُ بها يومين لأغادرها عائدا إلى الجزائر.

## **8- ماليزيا: 27 جويلية / 06 أوت 2019**

كثيرا ما سمعتُ، بل قرأتُ عن ماليزيا الحديثة، ومناقب مؤسس نهضتها الحديثة الأستاذ مهاتير محمد، كما سمعتُ من عديد أبناء بلادي بأن ماليزيا المعاصرة استندت في نهضتها، ووثبتها المعرفية والتكنولوجية على فكر ابن الجزائر المرحوم مالك بن نبي؛ إنما ما خطر في ذهني يوما، وما فكّرتُ أن تتاح لي الفرصة كي أزور هذا البلد الآسيوي.. كعادتي وقد تعودتُ في السنوات الأخيرة أن أزور بلداً خارجياً كل سنة.

وأنا الذي زرت كل ولايات الجزائر، وأعرفها أحسن المعرفة، ماعدا ولايات ثلاث: تندوف، تمنراست، إليزي .

في شهر ماي الفارط 2019 كنتُ في حوار عن السياحة، وفوائد التعرف على بلدان العالم مع جارنا طبيب الأطفال الدكتور دمدم محمد، نبهني إلى ضرورة التوجّه إلى ماليزيا التي زارها مع عائلته في سنة 2018، إذ ذكر لي محاسن

ذلك البلد الآسيوي، وأشار عليّ بالاتصال بوكالة يوميد YOU MID للسياحة بالعاصمة، بمجرد موافقتي اتصلنا بالوكالة، وأتمنا معها الإجراءات سريعاً. كان تاريخ الرحلة يوم الإثنين 27 جويلية 2019 انطلاقا من الجزائر العاصمة على الخطوط الجوية الإماراتية لمدة ستّ ساعات في الجوّ، توفّقاً بـ"ديي" عاصمة الإمارات لمدة ساعتين، ثم انطلاقا على نفس الخطوط وفي طائرة أخرى ذات طابقين بها ما يقارب الـ 400 راكب من كل جنسيات العالم لمدة سبع ساعات في الجوّ، علماً أنّ الفارق الزمنيّ بين الجزائر وماليزيا سبع ساعات. الرحلة من الجزائر كان بها العديد من الجزائريين والجزائريات المتوجهين إلى دبي، وكذا المتوجهين صوب ماليزيا مع عدة وكالات سياحية أخرى؛ بعد أن زوّدنا في مطار الجزائر الدوّلي ممثّل وكالة "يوميد" بتذاكر السفر ذهاباً وإياباً، و"بادج" التعريف الشخصي الذي سيعرفنا به ممثّل الوكالة في كوالالمبور عاصمة ماليزيا، البرنامج السياحي المحدّد للمواقع التي سنزورها، والتاريخ.

كان عددنا 37 شخصا، الأغلبية عائلات محترمة مع أبنائهن وبناتهن، منهم عدد قليل عرسان حديثو العهد بالزواج، كما يوجد ثلاثة أفراد دون عائلات، أنا أحدهم، جميعنا لا نعرف بعضنا البعض، حتى أننا في مطار دبي الدولي، وهو من المطارات الكبرى في العالم لم ننظّم إلى بعضنا، ولا تنسيق بيننا، كل ما عليك كمسافر إلا أن تقرّأ جيّداً بطاقة الركوب المسلمة إليك في مطار الجزائر، تجدّ فيها كل التعليمات:

رقم الرحلة، تاريخها، وقتها، والرواق الذي تسير فيه وصولاً إلى قاعة ركوب طائرتك: كما الرواق في الطائرة ورقم مقعدك، أدنى سهو، أو قراءة خطأ تجد نفسك في رواقٍ آخر يؤدي بك إلى اتجاه طائرة متوجهة إلى بلدٍ آخر..

في مطار دبي الدولي لا دليل للوكالة، ولا توجد تعليمات بمكبرات الصوت لتوجيه الركاب كما هو الحال عندنا في الجزائر، كما أنّ اللغة الإنكليزية هي السيدة في المطار تعاملاً، وتواصلًا، مثلما هو الحال في الخطوط الإماراتية من الجزائر، الاستثناء أن اللوحات الإلكترونية الموضّحة للرحلات كلها، توقيتنا، اسم الشركة، رواقها مدوّنة بالإنكليزية بعناية، وبالعربية في خانة واحدة شبه يتيمة.

وصولنا إلى العاصمة الماليزية كوالالمبور كان صباح يوم الثلاثاء 28 جويلية 2019.. مطار دولي كبير لا يقلّ تنظيمًا وتقانة، وعتادا، وتسييرا عن مطار دبي العالمي، والموكد أنّ مطار الجزائر الدولي الجديد أقلّ تنظيمًا وتسييرا بكثير، كما أنّ مساحته لا تصل إلى النصف من مساحة مطار كوالالمبور الدولي.. إنها الحقيقة ولا مبالغة.

تبين لي فيما بعد لما نزلنا في فندق واحد بعاصمة ماليزيا، كما هو الحال في فندق آخر بجزيرة "لانقاوي" وتواجدنا معا في المطاعم، والرحلات في نفس الحافلة، بعد التعارف، والاندماج، والتقارب أننا شبه عائلة واحدة، كما اتضح أن أعضاء الرحلة أغلبهم لهم مكائنتهم في المجتمع الجزائري:

طبيب قلب، طبيبة قلب، طبيب عيون، طبيب أمراض السكر، طبيب أسنان، صيدلي، رجال أعمال، مهندسون.

كان البرنامج مكثفًا جدًا، وشرع ممثلو الوكالة في تنفيذه معنا بداية من اليوم الموالي لوصولنا. كان دليلنا الشاب الجزائري البهي، الصبور أنيس الطالب في جامعة كوالالمبور، المقيم بماليزيا منذ سبع سنوات؛ كما كان معنا السيد عمران أصيل البلد الدليل السياحي بوزارة السياحة الماليزية الذي درس في المملكة الأردنية، وتحصل فيها على شهادة الماجستير.

نزلنا بوسط مدينة كوالالمبور في فندق راقٍ جدًا يقطن به سياح آسيويون وأوروبيون بأعداد كبيرة، شبه مكتمل يومياً VERDANT HILL HOTEL، حيث قضينا به ثلاث ليالٍ بنهاراتها، كما قضينا بجزيرة لانقاوي التي تحوّلت لنا فيما بعد أربع ليالٍ بنهاراتها في فندق آسيان ASIANA، ثم بعد العودة إلى كوالالمبور ليلتين بنهاراتها بنفس الفندق الذي أقمنا به في البداية. كانت رحلاتنا كلها وجولاتنا في حافلات نظيفة ذات مستوى عالٍ من النظافة، والتكييف، حتى أنّ إدخال الطعام، أو الأكل فيها، كما التدخين ممنوع، يقودها سواقٌ ذوو احترافية عالية دون كلام، في رحلاتنا كلها كان معنا ذاك الدليل الجزائري أنيس، أو ذلك الدليل السياحي الماليزي عمران.

قبل أن تتحرك الحافلة كان يُقدّم لنا أنيس برنامج اليوم الذي يتدبّر من الساعة صباحاً حتى الساعة الرابعة، أو حتى الساعة الخامسة مساءً في كل أيام الرحلة، ما عدا اليوم الأخير قبل العودة إلى الجزائر، حيث سُحّ لنا فيه بالتسوّق. برنامج مكثّف فيه زرنا أهمّ معالم مدينة كوالالمبور السياحية، الثقافية، الدينية، خاصة البرجين، المنارة، قصر الملك، المسجد الوطني، الحديقة المائية وما بها من حيوانات بحرية، المعابد:

التبتى، الهندي، الصيني؛ وكذا جزيرة "لانقاوي" langkawi island الشهيرة التي تبعد جواً عن العاصمة بحوالي الساعة، هي جزيرة تتبع لدولة ماليزيا الاتحادية ولهذه الجزيرة تسمياتٌ عدّة منها جزيرة الأساطير، وجزيرة الأحلام، وهي من الجزر التي تقع في الشمال الغربي من ماليزيا، قبالة الأراضي التايلندية، وعاصمة هذه الجزيرة مدينة كواه. تمتاز هذه الجزيرة بالهدوء الطبيعي، حيث أصبحت مقصداً عالمياً للمسافرين والسياح الباحثين عن الراحة، والمكان الهادئ للاسترخاء، وشفاء الذهن، وإزالة هموم الحياة عن النفس..

ما يميز هذه الجزيرة أنها تقع وسط العديد من المنتجعات التي تطل على سواحل البحر، العجيب في طبيعة الجزيرة الخلابة أنها تجمع بين الغابات الواسعة الخضراء، والجبال العالية تليها انحدارات الشواطئ الجميلة فيستطيع المصطاف في هذه الجزيرة أن يقوم برحلات بحرية، لجزرٍ أخرى صغيرة عذراء، منعت فيها السلطات العمران، والإقامة.

تمتّعنا في هذه الجزيرة بكل ما يسرّ القلب، ويُريح النفس: الصعود بواسطة التلفريك إلى قمة أعلى جبل، والتوقف، ومشاهدة الغابات والبحر من الأعلى، والصعود إلى الشلالات صعوداً على الأرجل لمسافة معتبرة، زيارة مزرعة ثرية بالغابات، والنباتات الاستوائية، وتناول فطور الغذاء بها من الفواكه الاستوائية كثمار المانجا، الأفوكادو، الرامبوتان، وفاكهة الصيف من دلاع أصفر وأحمر، وبطيخ وغيرها من فواكه استوائية لا نعرفها في الجزائر، كما تواصلت رحلاتنا في هذه الجزيرة الجميلة إلى متحف اللوحات التشكيلية العالمية، ومواقع ترفيهية، منها ساحة التّسر.

اليوم الأخير من وجودنا في هذه الجزيرة حُصِّص من الصباح حتى المساء إلى البحر في جولات، وسباقات في القوارب بين الجزر العذراء المحاذية لدولة "تايلاند"، جزرٌ منعت فيها السلطات الماليزية العمران، وخصّصتها للسياحة، كان يوماً جميلاً حُصِّص لمشاكسة البحر، ومياهه اللازردية الممتدة على طول البصر، والمدغدغة لسفوح الجزر، كما كان التوقف بين ساعات وأخرى في هذه الجزيرة للسياحة، أو في تلك لمشاهدة القروء، أو التماسيح لتتوقف عند جزيرة بما مطعم جميل لتقديم وجبات من ثمار البحر، حيث تُعرض على الزبون صور تلك الثمار، بمجرد أن يختار مرغوبه يتوجّه العامل إلى الحوض الذي توجد به رغبات الزبون، بالشبكة يصطاد له ما رغب، وبعد الوزن تُعدّ الوجبة البحرية الشهية للزبون.

**العاصمة الذكية الجديدة Putrajaya:** العودة إلى كوالالمبور، وزيارة العاصمة السياسية الجديد برتجايا Putrajaya، في اليوم الموالي.. المدينة الحديثة الذكية حيث الوزارات، ومقر الوزارة الأولى، كما المعالم الحديثة لهذه المدينة: المركز الثقافي الإسلامي، مسجد "باترا" وساحاته الفسيحة، البحيرة الصناعية، الجسور الحديثة المقامة عليها، جولة بحرية في البحيرة، الكورنيش الجميل للبحيرة والممتد أسفل المسجد الذي تتجاوز على امتداده المطاعم المتنوعة التي يقبل عليها آلاف السياح من كل أنحاء المعمورة، كما تجاورها محلات التسوّق.

من رعاية الله جلّ جلاله ورعايته لنا أن يسوق لنا في ظروف ما دون إعدادٍ أو تفكيرٍ أن يسوق لنا أناساً طيّبين يحتضنوننا بحميمية، ويرافقوننا ويقدمون مساعدات لنا.

من ذلكم أنّ الله ساق لي في رحلتي ومنذ انطلاقتها، وإعلاني عنها وأنا في مطار الجزائر الدولي أحد هؤلاء إذ كتب لي حينًا: "إني في انتظارك في مطار كوالالمبور"، إنه الأستاذ رياض حاوي أصيل مدينة قمار المقيم في ماليزيا منذ أكثر من عقدين، يعمل في مجال التسويق، والإشهار بشركة عالمية، ناشط سياسي جزائري بامتياز من الشباب الجزائري المعاصر المثقف، بمجرد وصولي كثّف التواصل معي إلى أن حدّدنا يوم 30 جويلية 2019 حيث تخلّيتُ عن الفوج، وأخذني من الفندق صباحًا في جولة لبعض معالم مدينة كوالالمبور من مساجد، ومعالم حضارية؛ ثم كانت الجولة أروع، وأرحب إلى العاصمة السياسية الحديثة Putrajaya من زيارات لمعلمها:

البحيرة الاصطناعية، الأبراج ذات العمارة الحديثة، المساجد، خاصة مسجد بترة، مقرات الوزارات الحديثة، الجسور، وجولات بالسيارة عبر طرقها السيارة الحديثة، كما الحدائق والساحات الخضراء؛ رحلة يوم كامل رفقة شخص مثقّف يقيم في هذا البلد، وله اطلاعٌ واسعٌ على النهضة الحديثة في كل مراحلها، ومجالاتها لهذا البلد..

شكرا لك أستاذ رياض، وتقديرا لك، وأنت الجزائري القح الأصيل، الذي أعطيت أنت وغيرك من الجزائريين المقيمين كطلبة، وكأساتذة، ورجال أعمال، أو مشغولين في مجالات أخرى؛ أو الزائرين سؤاِحًا، رجال أعمال طوال العام صورًا مشرّفة عن الجزائر وشعبها.

أسئلة بدءًا ثقافت؛ أسئلة عديدة دارت في مخيلتي. قبل هبوط الطائرة في مطار كوالالمبور. عن ماليزيا المشروع الوطني المدني، وتقدمها الصناعي والتعليمي الذي

تصدّرت به تجربة حاصر العالم الإسلامي منذ السبعينيات، كما أنها الدولة المسلمة التي برهنت للعالم أن الإسلام حافزٌ تقدّم ورفعةٌ للإنسان، وليس أداة تأخّرٍ كما رُوّج، ويروّج أعداؤه، ومن سار في فلكهم من أبناء المسلمين..

الشعب الماليزي شعبٌ طيبٌ، ودودٌ؛ لا تنتشر فيه الكراهية الموجودة في مجتمعات أخرى ومرحّبٌ جداً بالأجانب، ولا يشعر العرب بكثير من الغربة مثلما يحدث في دول كثيرة. اللغة الانجليزية منتشرة ويتكلم بها أغلب الشعب وهذه ميزة قوية تسهل التواصل كثيرا للسائح، أو الزائر لهذا البلد. ماليزيا ستون بالمائة من سكانها مسلمون الأغلبية من الملاوي السكان الأصليين، والعنصر الثاني الصينيون، والبقية من الهنود، وأقلياتٍ أخرى، تتكون من 15 مملكة أكبرها مملكة صباح، كلّ خمس سنوات يحكمها ملكٌ، يُتوّج في يوم يكون بمثابة عيد تتعطل فيه المؤسسات، وصادف لما كنتُ هناك تُوّج الملك في القصر حيث يُفتح القصر لكل أفراد الشعب، فيحيون الملك ويجالسونه، ويتناولون معه طعام الغداء.

يغلب على تديّن الشعب الماليزي الطابع الصوّفي بما له من إيجابياتٍ، وسلبياتٍ من أريحيّة، وتواضع، وحبٍ للخير والإنفاق الذي لا يعرف حداً. ويحظى العرب لدى قطاعات غير قليلة من الشعب الماليزي خاصة الجزائريين المتواجدين أساتذة وطلاباً في الجامعات الماليزية، كما رجال الأعمال، والسياح الجزائريون الكُثُر طوال السنة بتقدير بالغ يصل إلى حدّ التقديس، ينبع من تقديسهم وحبهم للدين الإسلامي وشعائره، فهم قد فتحوا ذراعهم حكومةً وشعباً في استقبال عدد كبير منهم خلال السنوات القليلة الماضية، سواء في مجال الاستثمار أو التعليم؛ حيث تُعدّ بعض الجامعات الماليزية من أقوى الجامعات

بالعالم. ماليزيا دولة مستقرة على المستوى السياسي والاقتصادي، والاجتماعي، والأمني.

.. الرجل الأسطورة باني النهضة؛ عندما يأتي الحديث عن ماليزيا يتبادر إلى ذهن السامع اسم باني نهضتها الحديثة الأستاذ الأسطورة مهاتير محمد رائد النهضة الماليزية، الذي خفف كثيراً من جراح الماليزيين الاجتماعية والاقتصادية، في وقت كان الماليزيون يعيشون في الغابات، وكان متوسط دخل الفرد أقل من ألف دولار سنوياً، مهاتير طبيب جراح ماليزي قبل أن يكون سياسياً بارعاً حاذقاً في المراوغة السياسية ضد خصومه المناوئين له، حفر اسمه في تاريخ ماليزيا بعد أن حوّلها خلال عقدين من الزمن من دولة زراعية إلى دولة صناعية صاعدة، "مهاتير محمد" النمر الآسيوي والجراح الذي داوى جراح ماليزيا بعقبرته.

.. اقتصاد قوامه المعرفة المعاصرة : يُعدّ الاقتصاد الماليزي اقتصاداً صناعياً وتسويقياً قوياً؛ يعتبر ضمن أكبر مجموعات الاقتصاد العالمي، والمرتبة الرابعة من بين مجموعات الاقتصاد في بلاد جنوب شرق آسيا، كما تعد ماليزيا ثالث أغنى الدول في جنوب شرق آسيا من ناحية إجمالي الناتج المحلي الفردي، بالإضافة إلى ذلك فإن اقتصادها يتّصف بمستوى عالٍ من التنوع والقوة؛ هذا إلى جانب كونها ثاني أكبر مصدرٍ لمنتجات زيت النخيل على مستوى العالم بعد إندونيسيا، ويضاف إلى زيت النخيل مجموعة رئيسية من الصادرات الماليزية بما فيها السيارات، المنتجات الالكترونية والكهربائية، والبترول، ومائع الغاز الطبيعي، والآلات، والمنتجات الكيماوية، والأجهزة العلمية والبصرية، والمنتجات الخشبية والمعدنية.

كما بهذا البلد بنيةً تحتية قوية متطورة في جميع المجالات، ومؤسسات خدمية منوعة ذات نوعية ممتازة كالسياحة في أجود خدماتها، وما يرتبط بها. يتوافر في ماليزيا الطعام الحلال، والمطاعم العربية (بالإضافة لمطاعم وأكلات من ثقافات مختلفة).. ماليزيا تجمع بين العمارة الحديثة، والطبيعة الخضراء الجميلة، كما تقع في منطقة خالية من الكوارث الطبيعية كالزلازل.

ماليزيا دولة سياحية ذات طبيعة خلابة تحتوى على العديد من المناطق السياحية والجزر والشواطئ الخلابة مما يساعد المقيمين في قضاء إجازات ممتعة، كما السياح القادمون من عديد البلدان.

**الجواب فيما تراه العين :** السؤال الذي قفز إلى ذهني والطائرة التي تقلني إلى هذا البلد تحط رحالها، وجدته بدءاً في مطارها الدولي، التحفة الجمالية، وتزاج المعرفة العلمية، والصناعة التكنولوجية مع العقل النشط المتعلم، المبدع، المشبع بالقيم الوطنية، والإنسانية، واحترام الفرد، وتمكينه من توظيف قدراته كيفما كانت، كما فتح الأبواب أمام الآخر مهما كانت جنسيته (ما عدا الإسرائيلي) كي يستثمر ماله بحرية، وينتج، ويصدر في إطار احترام تشريعات البلد.

لمست ثمار النهضة أينما حللت، والمشاريع الاقتصادية الكثيرة في إطار الإنجاز. ان سرّ نهضة ماليزيا تنمويا يكمن في عقول أبنائها وسواعدهم يقودها في ذلك قيادة وطنية حكيمة تتمثل بفكر رئيس وزرائها (مهاتير محمد) الذي رسّخ الفكر التنمويّ في البلد، وثمار ذلك ان حققت اقتصاداً قويا ومعدلات متسارعة من النمو فاقت بها أكثر البلدان تقدما، وأصبحت مثلاً يُحتذى به لكل من أراد ان يلحق بركب التقدم، ومحرك هذه النهضة التعليم المتطور، وخاصة في المعاهد

والجامعات، كما القيادة الحكيمة، والحكم الراشد. العقل النشط، الواعي بمدى قدراته، يبدع، يطوع الإمكانيات المادية، يجيد توظيف القدرات والمواهب البشرية، بها يصنع الثروة التي يستفيد منها الكل: العقل المبدع، المادة، الإنسان، المعرفة، التعايش، روح المواطنة التي تجمع الكل..

هي بعض أسباب نهضة ماليزيا الحديثة.. اللهم لا غيرة، ولكن حرقة في

الفؤاد:

- لماذا بلادي الجزائر بقيت عمياء عن مثل هكذا نهضة لدولة مسلمة أجدات الجمع بين الأصالة والمعاصرة. قد أثبتت التجربة الماليزية أن الإسلام لم يكن سبباً في تخلف المسلمين، مثلما عبّر عن ذلك الدكتور مهاتير محمد رئيس الوزراء الماليزي السابق و «أبو ماليزيا» بقوله: «الإسلام لا يشكل عقبة تحول دون التقدم والتطور والنمو، ولا يعوق اكتساب المهارات الإدارية العالية وتطبيقها في حيز الواقع، ولا يحرم مراكمة الثروة عن طريق القدرات التجارية والصناعية، ولا يمنع إعداد القوة الكفيلة بردع المعتدي، الذي يحاول التقوي على الضعفاء.

إن نجاح المسلمين والأمة الإسلامية في مختلف مناحي الحياة كفيل بإقناع غير المسلمين بالوجه الحقيقي للدين الإسلامي، أكثر من المواعظ والخطب، خاصة عندما يكون هناك تناقض بين الأقوال والأفعال».

استطاع هذا الرجل أن يترجم كلامه على أرض الواقع، ويشهد بلده تمداً في قفزة اقتصادية فريدة من نوعها. ويطمح أن تصبح دولته بحلول 2020م ضمن الدول المتقدمة.

**النظام، الانضباط، العقل الواعي .. المحرك ..** مسّ التمدن الممزوج بالقيم والأخلاق الإسلامية في ماليزيا كل مناحي الحياة، تعود الإنسان الماليزي على السلوك الحضاري. فإلى جانب العمران الراقى، ووسائل النقل الحديثة، والاستخدام العالي للتكنولوجيا، وأسلمة المطاعم الكبيرة المنتشرة الفروع في كل أنحاء ماليزيا، نلمس أيضاً مظاهر سلوكية متنوعة، رائعة: النظام والانضباط في العمل منتشران في كل مؤسسات الدولة ..

الأدب في التعامل فيما بينهم ومع العملاء بكل أنواعهم، لا يميزون بين عميل غني وآخر متوسط الحال .. يتبادلون الحديث بصوت منخفض وبهدوء، ومن بين السلوكيات المتميزة أيضاً الأمانة، من النادر جداً أن تفقد أمتعتك أو أشياء تكون نسيتها في مكان ما، سواء في أماكن الوضوء أو غيرها، فإذا عدت إليها وجدتها تنتظرك، وأحياناً تجدها عند العاملات والعُمَّال.

**المسجد مُركَّبٌ عباديٌّ، ثقافيٌّ تعليميٌّ، اجتماعيٌّ:** في زيارتي رأيتُ بأُمِّ عينيّ الوظيفة التي يؤدّيها المسجد، باعتباره ليس مكاناً مقدّساً للعبادات، والتسامي الروحي فحسب؛ إنما هو مجمَعٌ عباديٌّ، ثقافيٌّ تعليميٌّ، اجتماعيٌّ، كلما تدخلت مسجداً من مساجد ماليزيا الرئيسية حتى ترى نوعاً جديداً من المعمار الفني والبناء يختلف عما رأيته في المسجد الذي قبله؛ بالإضافة إلى المبنى الضخم فإن المعمار الماليزي المعاصر لا ينسى المساحات الخضراء الشاسعة التي تحيط بالمسجد، وكذلك النافورة الضخمة التي تتوسط إحدى الساحات ممّا يُعطي المكان بهاءً وجمالاً وروعة. مثلنا لهذه المساجد مسجد "بوترا" قريباً من قصر الحكومة ..

تحفة معمارية لها بصمتها وميزتها تقع مباشرة قريبا من المدخل الرئيسي لقصر الحكومة الماليزية في العاصمة الجديدة بوتراجايا، تقع أعمدته الرئيسية فوق بحيرة صناعية ضخمة تم بناؤها كمرفق سياحي، وكمساعد لتلطيف الجو الرطب والحر؛ يتسع لـ 15 ألف مصلي، ولديه مرافق مجاورة عبارة عن مطاعم، ومحلات سياحية تساعد السواح على أخذ قسطٍ من الراحة، والاكل وهو يطل على البحيرة الكبيرة في منظر جميل جدا. مساجد ليست فحسب لأداء العبادات، بقدر ما هي تحفة معمارية وفنية إسلامية رائعة، توشحت بجمالية الفن الإسلامي، وعظمة الإسلام وحضارته.. مركب ثقافي اجتماعي، تعقد به الندوات الفكرية، والملتقيات الدولية، وتقدم فيها الدروس في الشريعة، واللغات، والمعرفة العلمية، كما لها فضاءات شاسعة خضراء موشحة بالزهور، والورود، ومساحات لراحة العائلات، والأطفال للترفيه، واللعب؛ كما لها خدمات راقية بتوفير فضاءات تجارية، ومطعمية لكل المقبلين كيفما كانت أعراقهم ودياناتهم، مردود كراء هذه الفضاءات عائد إلى المسجد..

التسامح الديني، والتعايش وتقبل الآخر يظهر من خلال زوار المسجد من سياح بقاع العالم حيث يُرحّب بهم، ويُلبسون ملابس إسلامية، ويُسمح لهم بالدخول، والتصوير، وتُقدم لهم شروحات عن الإسلام وسماحته، كما يُزودون بكتيبات ومطبوعات عن الإسلام بكل اللغات، كل زائر سائح يعطى مطبوعات عن الإسلام بلغته.. بمثل هكذا يُخدم الإسلام، وليس بالفضاضة، وعبوس الوجه.. والتبديع، ما أعظم الإسلام، وما أجمل من فهموا جوهره، فخدموه بوغي، وصدق، فنصرهم الله، وثبت خطاهم..

## 21. تكريمات

### هيات

الرقم	الهيئة أو الجمعية التي كرمتني	بصفتي
01	. من طرف رئيس الجمهورية (1987) في إطار تكريم الأدباء والفنانين بمناسبة الاحتفال بعيد الاستقلال بقصر الثقافة بالجزائر	كاتبا مبدعا
02	. من طرف رئيس الجمهورية (2002) بمناسبة الاحتفال بعيد الاستقلال.	ثوريا
03	. من طرف وزير التربية الوطنية (1996) في إطار منح " وسام المرئي " بمناسبة الاحتفاء بعيد العلم.	مرييا، مفتشا
04	- من طرف اتحاد الكتاب الجزائريين (مارس 2001) بدار الثقافة بالوادي، رفقة الشاعر الدكتور أحمد حمدي، وبحضور نخبة من المثقفين منهم: المرحوم الطاهر وطار، عز الدين ميهوبي. (رئيس الاتحاد يومذاك)، الدكتور العربي زيري، الدكتور سليمان الشيخ (وزير سابق للثقافة، وابن الشاعر مفدي زكريا).	كاتبا، مبدعا
05	. من طرف دار الثقافة بمدينة أدرار، شهر جانفي سنة 2011 بمناسبة الملتقى الوطني الأول للسرد.	كاتبا، مبدعا
06	- من طرف دار الثقافة بالوادي، وفرع اتحاد الكتاب خلال الأيام الأدبية في 16 ماي 2011 في إطار "عرس الهامش"	كاتبا، مبدعا

07	- من مديرية الثقافة لولاية الوادي، بمناسبة تنظيم الملتقى الوطني للشعر الفصيح في شهر اجوان 2013	كاتبا، مبدعا
08	- دُرُع الكتاب والمطالعة، شهر ديسمبر 2014 من طرف المكتبة الرئيسية للمطالعة العمومية لولاية الوادي	كاتبا، مبدعا
09	. من طرف القطاع الثقافي لولاية الوادي سنة 2016، مديرية الثقافة، دار الثقافة بمناسبة	كاتبا، مبدعا
10	. من طرف اللجنة الوطنية للخدمات الاجتماعية لعمّال التربية شهر نوفمبر 2016	مريبا، ثوريا
11	- من طرف قصر الثقافة، مديرية الثقافة لولاية تلمسان في شهر ماي 2017 بمناسبة الملتقى الوطني للقصة القصيرة	كاتبا، مبدعا
12	. من طرف مديرية الثقافة لولاية الوادي شهر ديسمبر 2017 بمناسبة تنظيم الملتقى الوطني للشعر الفصيح.	كاتبا، مبدعا
13	- جائزة السنّام الذهبي للكتاب والمطالعة شهر ديسمبر 2017 من طرف المكتبة الرئيسية للمطالعة العمومية لولاية الوادي.	كاتبا، مبدعا
14	- من طرف جامعة الجزائر . 2 . ابن عكنون، بمناسبة اليوم الوطني للقصة القصيرة على شرف رواد هذا الفن السردى. شهر ديسمبر 2018	كاتبا، مبدعا

## جمعيات ثقافية

15	- بـ " البرنوس الثقافي " من طرف الجمعية الثقافية محمد العيد آل خليفة بكوينين خلال اختتام فعاليات ندوتها الفكرية الـ 11 في شهر أفريل 2013	كاتبا، مبدعا
16	. من طرف الجمعية الثقافية " الباسقة" ببلدية النخلة، بمناسبة تنظيم ملتقاها السنوي في الموروث الشعبي في شهر أفريل 2016	كاتبا، مبدعا
17	- من طرف الجمعية الثقافية " العدواني" في شهر جانفي 2017 بمناسبة تنظيم ملتقاها السنوي في التاريخ.	كاتبا، مبدعا
18	- من طرف جمعية " الكلمة" بالجزائر العاصمة في شهر مارس 2018 في إطار تكريماتها للشخصيات الوطنية.	خادما، للغة العربية

## - المصادر والمراجع

\* . القرآن الكريم

\* . الأحاديث النبوية

### أ . الكُتُبُ

- 1 . أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر . ص: 30 طبعة دار البصائر 2008 الجزائر
- 2 . أبو القاسم سعد الله. كتاب خارج السرب .. مقالات وتأملات. دار الصائر. الجزائر. ص 158
- 3 . أبو القاسم سعد الله./ خارج السرب.. مقالات وتأملات. ص158 دار البصائر/الجزائرط2. 2009
- 4 . أ. محمد الطاهر تليلي/ مدرسيات من ديوان الدموع السوداء. ص 36. ط. 2011، عالم المعرفة للنشر والتوزيع. المحمدية / الجزائر.
- 5 . أ. محمد الطاهر التليلي. هذه حياتي. دار سامي للطباعة والنشر. ط 1 سنة 2017. ص 78
- 6 . أبو حامد الغزالي، الإحياء طبعة عيسى الباي الحلبي، ج 3، القاهرة، 1957 ص21.
- 7 . ابن خلدون، المقدمة، ج 1، دار الجيل، بيروت، ص 428.
- 8 . ابن خلدون. المقدمة، ج 1، دار الجيل، بيروت، ص 589 . المقدمة، ص 597.
- 9 . جان جاك روسو: إميل، ترجمة الدكتور نظمي لوقا، دار النشر، الشركة العامة للطباعة والنشر، الطبعة 1، 1958، ص26.
- 10 . جبران خليل جبران. العواصف. ص 12 دار العرب للبستاني. القاهرة.
- 11 . جبران خليل جبران. دمة وابتسامة. دار العرب للبستاني. القاهرة.
- 12 . حربي محمد. جبهة التحرير الوطني: السراب والواقع، الاستيلاء على الحكم. 1945 . 1962. ص 344.
- 344 . المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. الجزائر. 1963.
- 13 . زرهوني الطاهر: التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1994م

- 14 . عوّادي. الحركة الوطنية والنشاط الثوري بوادي سُوف. ط1. 2011 ص 74
- 15 . علي هارون. خيبة الانطلاق، أو فنتة صيف 1962 م ص: 208. دار القصبة 2003 الجزائر.
- 16 . عبد الحميد بن باديس. إعداد وتحقيق د. عمار طالي. كتاب آثار الإمام. الشركة الجزائرية. ص 104
- 17 . عبد الحميد بن باديس. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير وهو المعروف بتفسير ابن باديس. تفسير سورة الإسراء آية 84. 85.
- 18 . عبد الأمير شمس الدين، الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرق، دار اقرأ، بيروت 1984، ص 79.
- 19 . محمد الأخضر عمارة / الشهيد حمّة لخضر/ منشورات المتحف الوطني للمجاهد 2009. ص 11
- 20 . محي الدين عميمور. ايام مع الرئيس هواري بومدين وذكريات أخرى. دار اقرأ للنشر والتوزيع والطبع. بيروت لبنان الطبعة الاولى 1995
- 21 . محمد سليمان حسن (عرض وتقديم) لديوان ابن الوردي. اللامية. كتاب الشهر مجلة المعرفة السورية. العدد: 559 / اجوان 2010 ص: 340
- 22 . محمد الصالح بن عتيق. أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية، والحركة الوطنية في الجزائر. ص 74. منشورات دحلب بالجزائر.
- 23 . شال روبر اجيرون، محمد بلعباس. تطوّر الجزائر من 1962 إلى 1992 / المعهد التربوي الجزائري.
- 24 . الشهاب. مجلة ج 1م 13. ص 1352.85 هـ 1937م

## ب المجالات والصحف

- 25 . أدب السيرة الذاتية.. ما له وما عليه. مجلة الوعي الإسلامي. سبتمبر 2011. العدد: 554
- 26 . أحمد التريكي/ توجهات التعليم في الجزائر بعد استعادة السيادة الوطنية. مجلة دراسات (157.155) جامعة طاهري محمد / بشار.
- 27 . حسونة عبد العزيز. عمارة الحواضر في منطقة وادي سوف " مدينة قمار نموذجاً " مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية. جامعة ورقلة. عدد خاص 22 سنة 2015
- 28 . حنيفي هلايلي. أزمة صيف 1962 بالجزائر من خلال كتابات بعض مسؤولي الثورة الجزائرية. ص: 163. المجلة التاريخية المغاربية. السنة الرابعة والثلاثون. العدد 128، اجوان 2007.
- 29 . ربيع بشاني. حركة 19 جوان 1965 بالجزائر تصحيح ثوري أم انقلاب دموي؟ صحيفة " دنيا الوطن " بتاريخ: 2007/06/19

- 30 . مسعود عمشوش. فن السيرة الذاتية. مجلة المعارف. 11 جانفي 2018..
- 31 . أزراج عُمر. فيكتور هيجو هاجم الأمير عبد القادر. صحيفة العرب اللندنية. 15 / 09 / 2013
- 32 . علي حرب. مقال عن جمال وعبقريّة الجزائر. جريدة النهار اللبنانية 31 تشرين الأول 2015
- 33 . شريف محمد عباس التي ألقاها في اليوم التكريمي للدكتور عبد الله شريط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، مجلة الكتاب، عدد: 02، 2005 م، ص: 38.

## ج. المواقع

- 34 . ابن سالم بلهاف. دور الزاوية التجانية بقمار في نفضة سُوف والأمصار المجاورة. موقع: [www.nafahat7.net](http://www.nafahat7.net) نفحات
- 35 . المنتدى العربي للدفاع والتسليح. [www.defense.arab.com](http://www.defense.arab.com)
- 36 \_ الطريق إلى الإعلام الرقمي الجديد " شبكة للوكة". [www.alukah.net/publications\\_competitions](http://www.alukah.net/publications_competitions)
- 37 محمد سيف الإسلام بوفلاحة. عبد الله شريط المفكر الرائد والفيلسوف المناضل. موقع عبد الحميد بن باديس. [www.binbadis.net/archives/2266](http://www.binbadis.net/archives/2266)
- 38 . مسعود عمشوش. فن السيرة الذاتية. مجلة المعارف. 11 جانفي 2018.. [www.mahaarat.com](http://www.mahaarat.com)
- 39 . نسرین حسونة. الإعلام الجديد.. المفهوم والوسائل والخصائص والوظائف. [www.alukah.net](http://www.alukah.net)
- 40 . فارس مطشر حسن الخشخشي. الإشراف التربوي. كلية التربية. جامعة بابل. العراق. [www.uobabylon.edu.iq](http://www.uobabylon.edu.iq)

## فهرس

الصفحة	عناوين المواضع	الرقم	توطئة
09	. " قمار " واحه النشاء .. إيقاع الذاكرة	01	
17	. من ذاكرة الوجد الذاتي	02	
49	. عتابه .. البوابة المجهولة	03	
67	. الثورة شرفتي	04	
79	. اعتقال بشع .. فتعذيب أشع	05	
89	. " لامبيس " .. قفزة في الهواء	06	
103	. جندي في الجيش الوطني الشعبي	07	
121	... إلى رسالة الرسل والأنبياء	08	
155	. وطن جريح	09	
185	. في رحاب علم النفس وعلوم التربية	10	
199	. تجليات المعرفة	11	
213	. في رحاب الإشراف التربوي	12	
227	. مفتش للتربية والتعليم	13	
245	. غواية السلطة الرابعة	14	

271	. كُتِبَ أُرْسَتْ مساري المعرفي والإبداعي	15
293	. الإبحارُ مع الحُرْفِ .. بداية الحكاية	16
311	. في إشراقات المشهد الثقافي	17
331	. أسماء ثقافية في الذاكرة	18
351	. كتاباتي في أعين الآخرين	19
379	. الرّحلات مُتعة الفرحة وغواية الاكتشافِ	20
479	. تكريمات	21



## بشير خلف

### صدرت له المؤلفات التالية:

#### 1 - في القصة القصيرة

- 1 . أخاديد على شريط الزمن (في عدد خاصٍ عن وزارة الثقافة سنة 1977)، ثم في سنة 1982 عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- 2 . القرص الأحمر . مجموعة قصصية . (عن ش . و . ن . ت 1986).
- 3 . الشموخ . مجموعة قصصية . (عن الجاحظية 1999).
- 4 . الدّفء المفقود . مجموعة قصصية . (عن الجاحظية سنة 1999).
- 5 . ظلّال بلا أجساد . مجموعة قصصية . (وزارة الثقافة 2007)
- 6 . لا قليل من الفرح .. قصصٌ قصيرة جدًا . (2017)
- 7 . ترانيم في حضرة القبح . ومضات قصصية (2017)
- 8 . الأعمال غير الكاملة .. مجموعات قصصية خمسٌ (دار الثقافة بالوادي 2015)

#### 2 - في الجمال والفنون

- 9 . الجمال فينا وحولنا . دراسة . (وزارة الثقافة 2007)
  - 10 . الجمال رؤيةٌ أخرى للحياة . دراسة . (وزارة الثقافة 2007)
  - 11 . الفنون لغة الوجدان . دراسة . (وزارة الثقافة 2009)
  - 12 . الفنون في حياتنا . دراسة . (وزارة الثقافة 2009)
- #### 3 - في الفكر والإبداع الأدبي والنقد - مقالات
- 13 . وقفات فكرية .. حوارٌ مع الذات، ووخزٌ للآخر . مقالات (وزارة الثقافة 2009)
  - 14 . مرايا .. حديث في الثقافة والجمال والفنون . (مديرية الثقافة بالوادي 2012)
  - 15 . مؤانسات ثقافية . مقالات . (وزارة الثقافة 2013)

- 16 . على أجنحة الخيال . مقالات . (وزارة الثقافة 2015)
- 17 . تغاريد قلم . حديث في الفكر والأدب . والفن . (2017)
- . دراسات**
- 18 . الكتابة للطفل بين العلم والفن . دراسة . (وزارة الثقافة . 2007)
- 19 . المجتمع المدني وحقوق الإنسان . 2018
- 20 . بحثا عن ثقافة الحوار مع الذات ومع الآخر 2018
- . حوارات**
- 21 . حوارات في الفكر والثقافة والأدب والتربية (مديرية الثقافة بالوادي: 2015).
- . السيرة**
- 22 . حياتي في دائرة الضوء.. سيرة ذاتية لبشير خلف (2020).
- كُتُبٌ أُخْرَى، إعدَاد وإشرَاف لبشير خلف**
- 23 . " إضاءات.. نقد " للمرحوم شرادة الجيلاني (دار الثقافة بالوادي 2016)
- 24 . " تواشيح.. " حوارات ثقافية للإعلامية جميلة طلباوي (رابطة الفكر والإبداع 2016)
- 25 . " هذه حياتي " للمرحوم العلامة محمد الطاهر تليلي (دار الثقافة بالوادي 2017)
- 26 . المُقتطَعات المنظومة مِن مؤلَّفاتي المعلومة للمرحوم العلامة الشيخ م. الطاهر تليلي 2019

من مقدمة الكتاب

لأنّ أشهى ما في السيرة الذاتية أنّها ترسم  
حياة صاحبها، وتكتبنا ليُعرف بها، لنصت لنفسه،  
ويزداد منها فُرْهًا، ويعرفها على القراء بطبيعتها  
الحال من زوايا نظره هو، ويحاول في عرضها  
أن يكون أمينًا صادقًا، ويتجرد ما يمكن من  
العاطفة التي تشده لأن ما سمّيه بـ «الأننا»  
ليس شيئًا واحدًا بل متجددًا، ليس كلاً منحنًا  
متجانسًا.

«الأننا» متغيرة تبعًا للمنعيرات المختلفة التي  
تطرأ على الفرد حينئذٍ، أو نقصًا، أو تكرارًا، أو ثقافتة،  
أو اجتماعًا، أو معيشةً.

- ليُعرف فلان -

عيسى  
الطراش

ISBN : 978-9931-798-22-4



9 789931 798224

للطباعة  
والنشر  
والتوزيع

سيامي